تفسير الحداد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحداد اليمني

تحقيق
الدكتور محمد إبراهيم يحيى
أستاذ مساعد تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية - زليتن - ليبيا

المجلد الثالث

دار المدار الإسلامي

تفسير الحداد

تفسير الحداد

كشف التنزيل في تحقيق المباحث والتأويل

لأبي بكر الحداد اليمني

تحقيق

الدكتور محمد إبراهيم يحيى

أستاذ تفسير القرآن وعلومه
بالجامعة الأسمرية للعلوم الإسلامية
زليتن - ليبيا

الجزء الثالث

دار المدار الإسلامي

الطبعة الأولى

كانون الثاني/يناير/اي النار 2003 إفرنجي

رقم الإيداع المحلي 4165/ 2001

ردمك (رقم الإيداع الدولي) ISBN 9959-29-062-X

دار الكتب الوطنية/ بنغازي ـ ليبيا

تصميم الغلاف: نقوش

دار المدار الإسلامي

أوتوستراد شاتيلا ـ الطيونة، شارع هادي نصر الله ـ بناية فرحات وحجيج، طابق 5،

خليوي: 933989 ـ 03 ـ هاتف وفاكس: 542778 ـ 1 ـ 00961 ـ بريد إلكتروني: szrekany@inco.com.lb

بيروت ـ لبنان

توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية: زاوية الدهماني، السوق الأخضر، ص.ب: 13498، هاتف: 4448750 ـ 4449903 ـ 3338571. 21 . 00218 ـ فاكس: 4442758 . 21 . 00218، طرابلس ـ الجماهيرية العظمى

سُورَةُ الأَنْعَامِ

سورة الأنعام اثنا عشر ألف حرف، وأربعمائة واثنان وعشرون حرفاً، وثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة، ومائة وخمس وستون آية، وكلها احتجاج على المشركين، وكلها مكية غير ست آيات منها فإنها مدنيات ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وكان رسول الله ﷺ بمكة ليلة نزلت هذه السورة شيعها سبعون ألف ملك قائدهم جبريل عليه السلام، قد سدوا بين الخافقين لهم زجل[1] بالتسبيح والتحميد. فدعا رسول الله ﷺ الكتاب فكتبوها في ليلتهم، فقال جبريل: يا محمد من قرأها من أمتك إيماناً واحتساباً صلى عليه السبعون ألف ملك الذين شيعوها إليك بعدد كل آية منها يوماً وليلة. فخر النبي ﷺ ساجداً لله تعالى شاكراً[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ⦗1⦘ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًاۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥۖ ثُمَّ
أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ⦗2⦘ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ
⦗3⦘ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ⦗4⦘ فَقَدْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ
لَمَّا جَآءَهُمْۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُاْ مَا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ⦗5⦘﴾.

---

(1) زجل: صوت رفيع عال

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 42 ـ تفسير القرطبي: 6/ 382.

بسم الله الرحمٰن الرحيم ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ قال كعب الأحبار: أول مفتاح التوراة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وخاتمتها خاتمة سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾. قال مقاتل: قال المشركون للنبي ﷺ: من ربك؟ قال: الذي خلق السماوات بما فيها من الشمس والقمر والنجوم، والأرض وما فيها من البر والبحر والسهل والجبل والنبات والشجر. خلق السماوات وما فيها في يومين: يوم الأحد ويوم الإثنين، وخلق الأرض وما فيها في يومين: يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ قال السدي: ظلمة الليل ونور النهار. قال الواقدي: كل ما في القرآن من الظلمات والنور فهو الكفر والايمان إلا في هذه الآية فإنه يريد به الليل والنهار. وقال قتادة: يعني الجنة والنار. وقال الحسن: يعني الكفر والإيمان. وقيل: خلق الليل والنهار لمصالح العباد يستريحون بالليل ويتصرفون في معايشهم بالنهار[1]. وإنما جمع الظلمات ووحد النور، لأن النور يتعدى والظلمة لا تتعدى. قال أهل المعاني: «جعل» ههنا صلة، والعرب تزيد «جعل» في الكلام كقول الشاعر:

وقد جعلت أرى الاثنين أربعة ∴ والواحد اثنين لما هدني الكبر

وتقدير الآية: الحمد لله الذي خلق السموات والأرض والظلمات والنور. وقيل: معناه خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور لأنه خلق الظلمة والنور قبل السموات والأرض. وقال قتادة: خلق الله السماوات قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار[2]. وقال وهب: أول ما خلق الله مكاناً مظلماً ثم خلق جوهرة فأضاءت ذلك المكان، ثم نظر إلى الجوهرة نظرة هيبة فصارت ناراً وارتفع بخارها ونبذ زبدها، فخلق من البخار السماوات ومن الزبد الأرضين[3].

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 42.
(2) المصدر نفسه.
(3) المصدر نفسه.

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي ثم الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون الأوثان، أي يشركون. وقيل: معنى يعدلون: أي يجعلون لله عديلاً ويعبدون الحجارة والموات وهم يقرون بأن الله خالق هذه الأشياء، فإن الأصنام لا تفعل شيئاً من ذلك.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ معناه: خلقكم من آدم عليه السلام، فأخرج الخطاب لهم لأنهم ولده. قال السدي: لما أراد الله خلق آدم بعث جبريل إلى الأرض ليأتيه بطائفة منها، فاستعاذت الأرض بالله أن ينقص مني. فرجع ولم يأخذ. فبعث الله ميكائيل فاستعاذت، فبعث الله ملك الموت فاستعاذت بالله منه فقال: وأنا أعوذ بالله أن أخالف أمره. فأخذ من وجه الأرض فخلط السوداء والبيضاء والحمراء، فلذلك اختلفت ألوان بني آدم، ثم عجنها بالماء العذب والملح والمر فلذلك اختلفت أخلاقهم[1]، فقال الله تعالى لملك الموت: رحم جبريل وميكائيل الأرض ولم ترحمها، لا جرم أن أجعل أرواح من أخلق من هذا الطين بيدك. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى خلق آدم من تراب فجعله طيناً ثم تركه حتى كان حمأ مسنوناً، ثم خلقه وصوره، ثم تركه حتى إذا كان صلصالاً كالفخار فمر به إبليس لعنه الله فقال: خلقت لأمر عظيم. ثم نفخ الله فيه الروح**»[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ أي خلقكم من آدم عليه السلام ثم قضى أجلاً، أي جعل لحياتكم وقتاً تحيون فيه، وهو مدة كل واحد منا من يوم يولد إلى يوم يموت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ أي مدة انقضاء الدنيا إلى أن تقوم الساعة، ولا يعلم وقت قيامها إلا الله. وقال مجاهد وابن جبير: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا﴾ يعني أجل الدنيا، ﴿وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ وهو الآخرة.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 42 ـ رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 290 رقم 4031 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 12/ 455، رقم: 4668، باب في القدر.

(2) ذكره الثعلبي في المصدر السابق، ورقة: 43.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ أي ثم أنتم بعد هذا البيان تشكون في موضع ليس هو موضع الشك. والمرية هي الشك المختلط بالشبهة، أصلها من مريت الناقة إذا مسحت ضرعها لتدر لبنها وتجلبه للحلب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ معناه: هو الله المعبود المنفرد بالتدبير في السماوات والأرض، العالم بما يصلحهما وبما يعمل فيهما، يعلم ضميركم وسر أعمالكم وعلانية أمركم ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ أي ما تعلمون من خير أو شر. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قرأ من أول سورة الأنعام ثلاث آيات إلى قوله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ وكل الله به أربعين ملكاً يكتبون له مثل عبادتهم إلى يوم القيامة، وينزل ملك من السماء السابعة معه مرزبة من حديد، فإذا أراد الشيطان أن يوسوس له ضربه بها ضربة كان بينه وبينه سبعون حجاباً. فإذا كان يوم القيامة يقول الله تعالى: امش في ظلي وكل من ثمار جنتي واشرب من ماء الكوثر واغتسل من ماء السلسبيل، وأنت عبدي وأنا ربك**»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿4﴾﴾ أي ما يأتي كفار مكة من دلائل التوحيد والنبوة مثل كسوف الشمس وانشقاق القمر والدخان، إلا كانوا عن هذه الآيات والعلامات معرضين مكذبين تاركين لها.

قوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي فقد كذب أهل مكة بمحمد ﷺ والقرآن، وبما رأوه من انشقاق القمر بمكة. كما روي عن ابن مسعود أن القمر انفلق فلقتين حتى رأوا حراء بين فلقتي القمر، ثم ذهبت فلقة وبقيت فلقة[2].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ هذا وعيد لهم، أي سيعلمون ما يؤول إليه عاقبة استهزائهم بالرسل والكتب والآيات التي كانت تأتيهم، فقتلهم الله يوم بدر بالسيف ويأتيهم خبر استهزائهم حين يرون العذاب معاينة. والنبأ: عبارة عن الخبر الذي له عظم وشأن.

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره بسنده، ورقة: 42.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 7/ 341، رقم: 3636، كتاب المناقب.

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿6﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿7﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿8﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿9﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿10﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿11﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿12﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ أي ألم يعلم أهل مكة كم أهلكنا من قبلهم من قرن بكفرهم، مثل قوم نوح وعاد وثمود ملكناهم في الأرض ما لم نملككم، وأمهلناهم في العمر والولد ورفع الموانع ما لم نمهل لكم ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ أي وأنزلنا عليهم المطر دارا دائماً يتبع بعضه بعضاً، وجعلنا الانهار تجري من تحت أشجارهم وبساتينهم فلو يشكروا وعصوا ربهم وكذبوا رسلهم ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ وتكذيبهم، وأنشأنا من بعد هلاكهم قوماً آخرين فسكنوا ديارهم، ثم بعث إليهم الرسل، فمن لم يأخذ بما جاء به الرسل ومنهاجهم أهلكه الله. والقرن في قول أكثر المفسرين: أهل عصر واحد، سموا قرنا لاقترانهم في وقت واحد. ويقال: هم أهل عصر فيهم نبي أو عالم لاقترانهم بالنبوة أو العلم، كما قال ﷺ: **خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم**»، وأراد بالقرن الأول: الصحابة، وبالثاني: التابعين، وبالثالث: تابعي التابعين واختلف في مدة القرن، قال بعضهم: ثمانون سنة، وقيل: مائة سنة. وبين القرنين ثماني عشرة سنة[1].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 43.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي أمية المخزومي قال: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة من الملائكة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله. وقال مقاتل والكلبي: نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد قالوا: لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله ومعه أربعة يشهدون أنه من عند الله وأنك رسوله. فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، ومعناها: ولو نزلنا عليك كتابا في صحيفة وعلقناه بين السماء والأرض ينظرون إليه ويعاينونه ويلمسونه بأيديهم لقال كفار مكة بعد معاينة ذلك: ما هذا إلا سحر مبين، كما قالوا في انشقاق القمر: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾. وفي الآية بيان أنهم كانوا معاندين مصرين على التكذيب.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿8﴾﴾ أي قالوا: لولا أنزل على محمد ملك نشاهده ونعاينه يخبرنا بأنه نبي. يقول الله تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿9﴾﴾، أي لا يؤجلون ولا يمهلون بعد نزول الآيات المقترحة، نحو ما ذكره الله تعالى في قصة قوم صالح وغيرهم. وقال الضحاك: معناه لو أتاهم ملك في صورته لماتوا.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا﴾ أي لو أرسلنا إليهم رسولا لأرسلناه في صورة الإنسان، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة، لأن ذلك يؤدي إلى هلاكهم، وليكون الشكل إلى الشكل أميل، وبه آنس، وإلى الفهم عنه أقرب، وإلى القبول منه أسرع. ولو نظر ناظر إلى الملك على هيئته لصعق، وقد كانت الملائكة تأتي الأنبياء في صورة الإنسان، من ذلك أن جبريل عليه السلام كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية الكلبي[2]، وجاءت الملائكة إلى

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 174 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 43.

(2) دحية بن خليفة بن فضالة الكلبي: صحابي جليل يضرب به المثل في حسن الصورة، بعثه الرسول ﷺ برسالة إلى قيصر يدعوه فيها إلى الاسلام، شهد موقعة اليرموك، وتوفي سنة خمس وأربعين هجرية.

الاستيعاب: 2/ 461 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 249.

إبراهيم عليه السلام على صورة الضيفان، وجاء الملكان إلى داود عليه السلام في صورة رجلين يختصمان إليه، فذلك قوله تعالى: ولو جعلناه ملكاً لجعلنا ذلك الملك في صورة الرجل أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ أي لخلطنا عليهم وشبهنا عليهم ما يخلطون على أنفسهم حتى يشكوا فلا يدرون أملك هو أم رجل، وهذا لأنهم أنكروا نبوة محمد ﷺ بعدما عرفوه بالصدق والأمانة، ثم لبسوا على أنفسهم وعلى ضعفتهم فقالوا: إنما هو بشر. فلو نزل الملك على صورة رجل لبسوا على أنفسهم أيضاً فلم يقبلوا منه وقالوا: إنه في مثل صورتنا.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي استهزأت الأمم الماضية بأنبيائهم كما استهزأ بك يا محمد قومك فحاق بهم، أي نزل بهم، وحل بالمستهزئين من الكفار عقوبة استهزائهم بالكتاب والرسول عليه السلام. وقال الضحاك: كان النبي ﷺ جالساً في المسجد الحرام مع جماعة من المستضعفين: بلال، وصهيب، وعمار، وغيرهم.. فمر بهم أبو جهل في ملإ من قريش فقال: يزعم محمد أن هؤلاء ملوك الجنة. فأنزل الله تعالى هذه الآية ليثبت فؤاده ويصبره على أذى المشركين(1)، أي إن سخر أهل مكة من أصحابك فقد فعل ذلك الجهلة برسلهم قبلك. والحيق في اللغة: ما اشتمل على الانسان من مكروه فعله، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾(2). وأما الاستهزاء فهو إيهام التفخيم بمعنى التحقير.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ أي قل لهم يا محمد: سافروا في الأرض ثم انظروا بأبصاركم وتأملوا بقلوبهم كيف صار آخر أمر المكذبين بالرسل والكتب مثل عاد وثمود وغيرهم، الذين عذبهم الله بعذاب الاستئصال، وكانت آثار ديارهم باقية قريبة من مكة. وقال الحسن: معنى سيروا في الأرض، أي اقرأوا القرآن فإن من قرأه

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 43.
(2) سورة فاطر (35)، الآية: 43.

وتفكر فيه فكأنه سار في الأرض[1].

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُل لِّلَّهِ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة: لمن ملك ما في السموات والأرض ؟ فإن أجابوك وقالوا لله وإلا فقل لله إذ هم يعلمون، ويقرون أن الأصنام لا تملك خلق شيء، وإنما الله يملك ذلك. وقوله تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ أي أوجب على نفسه الرحمة فضلاً وكرماً، وقيل: معناه أوجب على نفسه الثواب لمن أطاعه. وقيل: أوجب على نفسه الرحمة بإمهال من عصاه ليستدرك ذلك بالتوبة ولم يعاجله بالعقوبة. وهذا استعطاف من الله عز وجل للمتولين عنه إلى الإقبال، وإخبار منه بأنه رحيم بعباده لا يعجل عليهم بالعقوبة، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله الخلق كتب فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي**»[2]. وقال عمر رضي الله عنه لكعب الأحبار: ما أول شيء ابتدأ الله به؟ فقال كعب: كتب كتابا لم يكتبه بقلم ولا مداد كتابة الزبرجد واللؤلؤ والياقوت: إني أنا الله لا إله إلا أنا سبقت رحمتي غضبي[3]. وفي الخبر: «**إنّ لله تعالى مائة رحمة كلها بين السماء والأرض، فأهبط الله تعالى منها رحمة واحدة إلى أهل الدنيا فبها يتراحمون وبها يتعاطفون وبها يتراحم الجن والانس وطير السماء وحيتان الماء وما بين الهواء ودواب الأرض وهوامها، وأخر تسعا وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة**»[4].

قوله تعالى: ﴿لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ بدل من الرحمة وتفسير لها، فكأنه قال: ليجمعن بين المؤمن والكافر في الرزق والنعمة والدولة والشدة إلى يوم القيامة لا شك فيه عند المؤمنين أنه حق كائن، ثم تكون العاقبة بعد البعث للمؤمنين.

---

(1) الثعلبي في المرجع نفسه.

(2) أخرجه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 15/ 361، رقم: 7422، كتاب التوحيد ـ ومسلم بشرح النووي: 4/ 108.

(3) تفسير الطبري: 11/ 277. تفسير الثعلبي، ورقة: 44.

(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: مختصراً: 4/ 108 ـ والبيهقي في شعب الايمان: 2/ 15، رقم: 1038. وذكره الثعلبي بسنده في تفسيره، ورقة: 44 مثل ما ذكره الحداد.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ ابتداء كلام جوابه: فهم لا يؤمنون، لأن «الذين» في موضع شرط. فتقدير الآية: الذين غبنوا أنفسهم وأهليهم ومنازلهم وخدمهم في الجنة في سابق علم الله. لا يؤمنون: أي لا يصدقون بمحمد ﷺ والقرآن. وذهب بعضهم إلى أن قوله: ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ كلام مبتدأ على وجه القسم، و«الذين» بدل من الكاف، والميم في ﴿لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ﴾ كأنه قال: ليجمعنّ هؤلاء المشركين الذين خسروا أنفسهم إلى هذا اليوم الذين يجحدونه ويكفرونه. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ راجعا إلى المكذبين، كأنه قال: عاقبة المكذبين الذين خسروا أنفسهم.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿13﴾ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿14﴾ قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿15﴾ مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ ﴿16﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يَمۡسَسۡكَ بِخَيۡرٖ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿17﴾ وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿18﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿۞ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿13﴾﴾ قال ابن عباس: وذلك أن كفار مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا يا رسول الله قد علمنا ما يحملك على ما تدعونا إليه إلا الحاجة، فنحن نجعل لك من أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه. فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، ومعناها: ولله ملك ما استقر في الليل والنهار من الخلائق كلهم، وهذا اللفظ يشتمل على جميع المخلوقات، لأن من الحيوانات ما يتصرف بالنهار ويسكن بالليل، ومنها ما يسكن بالنهار ويتصرف بالليل. وقال محمد بن جرير: كل ما

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 174 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 44.

طلعت عليه الشمس وغربت فهو من ساكن الليل والنهار. والمراد: جميع ما في الأرض، لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكن في الليل والنهار[1]. وقال أهل المعاني: في الآية إضمار تقديره: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ﴾. فإن قيل: فلم قال: ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ﴾ ولم يقل: وله ما تحرك؟ قيل: لأن الساكن في الأشياء أعم، لأنه ما من متحرك إلا ويسكن، وفي الأشياء الساكنة ما لا يتحرك ألبتة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ معناه: السميع لمقالة الكفار، العليم بهم وبعقوبتهم. ويقال: هو السميع للأصوات والأقوال، والعليم بالأشياء والأرزاق.

قوله عز وجل: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي قل لهم يا محمد: أسوى الله أعبد ربا وأتخذ ناصرا؟ وقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ أي خالقهما ومبتديهما ومبتدعهما. قال ابن عباس: ما كنت أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه: أنا فطرتها، أي ابتدأتها، يعني ابتدأت حفرها[2].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ﴾ أي يرزق ولا يرزق ولا يعاون على الرزق. وقرأ الأعمش: ولا يطعم ـ بفتح الياء، أي يرزق ولا يأكل، أي لا يجوز عليه الحاجة[3]. وقوله تعالى: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ خفض لأنه نعت لاسم الله تعالى، ويجوز نصبه على معنى: أعني فاطر السماوات، ويجوز رفعه على إضمار هو.

قوله عز وجل: ﴿قُلۡ إِنِّىٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ﴾ أي قل لهم يا محمد: إني أمرت أن أكون أول من أخلص لله بالتوحيد والعبادة من أهل هذا الزمان.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ لا يجوز أن يكون عطفاً على

---

(1) تفسير الطبري: 11/ 281 بمعناه.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 44 ـ الطبري في المصدر السابق.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 16

قوله: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ لأنه غير مأمور بأن يقول: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وإنما هو معطوف على أمر من حيث المعنى دون اللفظ، لأن معنى الآية: قيل لي كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين.

وقوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15)﴾ أي قل يا محمد: إني أعلم إن عصيت ربي وعبدت غيره أن ينزل بي عذاب يوم عظيم شأنه وهو يوم القيامة.

قوله عز وجل: ﴿مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ﴾ أي من يصرف الله عنه العذاب العظيم يوم القيامة فقد رحمه ﴿وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي النجاة الوافرة الظاهرة. قرأ أهل الكوفة إلا حفصا: يصرف ـ بفتح الياء وكسر الراء. وتفسيره ما ذكرناه. وقرأ الباقون: يصرف ـ على ما لم يسم فاعله[1] أي من يصرف عنه العذاب بأمر الله فقد سبقت رحمة الله له بإيجاب الثواب.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ معناه: إن يصبك الله بفقر أو مرض أو بلاء فلا يقدر أحد من الأصنام وغيرها على كشف ذلك الضر إلا الله. وإنما أطلق هنا اللفظ وإن كان يتصور أن يكشف الإنسان عن صاحبه كربة من الكرب لأن كاشف الضر في الحقيقة هو الله، إما أن يكشفه بفضله أو بسبب له.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ أي بغناء أو سعة في الرزق وصحة في الجسم فلا مزيل له إلا هو. إلا أنه لم يقل: فلا مزيل لها إلا هو، لأنه لما ذكر هذا في الضر دل على ذلك في الخير فاستغنى عن إعادته. وإنما قال: يمسسك، مع أن كون المس من صفة الأجسام لأن المعنى: يمسسك الله تعالى بالضر.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي لا يقدر أحد أن يمانعه عن فعل ما أراد فعله من كشف ضر أو غيره. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أردفني رسول الله ﷺ وراءه وهو راكب على بغلة، فلما سار ملياً التفت إلي

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 425.

وقال لي: «**يا غلام**». قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، وإذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، فقد مضى القلم بما هو كائن، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بما لم يقض الله لك ما قدروا على ذلك، ولو جهدوا أن يضروك بما لم يكتب الله عليك ما قدروا، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن مع الكرب الفرج، وأن مع العسر يسراً**»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ أي هو الغالب على أمر عباده. والقهر: هو الاستعلاء بالاقتدار على الغلبة. وأراد بقوله: فوق: إنهم تحت التسخير والتذليل بما علاهم من الاقتدار عليهم لا ينفك أحد منهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ أي المحكم لصنعه، الخبير بأعمال الخلق.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿19﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿20﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿21﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿22﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿23﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿24﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن رؤساء مكة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد ما وجد الله

(1) رواه أحمد في المسند: 1/307 عن عبد الله بن زيد - والبيهقي في الشعب: 2/27 - 28، رقم: 1074.

تعالى رسولاً يرسله غيرك، أما ترى أحداً يصدقك بما تقول؟ ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة ولا مبعث فأرنا من يشهد أنك رسول الله كما تزعم؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[1]، ومعناها: قل لهم يا محمد: أي أحد أعظم وأعدل برهانا وحجة؟ فإن أجابوك وقالوا الله، وإلا فقل: الله أكبر شهادة من خلقه وهو شهيد بيني وبينكم بأني رسوله، وأن هذا القرآن كلامه، والشاهد هو المبين للدعوى. وقد بين الله دعوى رسوله بالبراهين والمعجزات والآيات الدالة على توحيد الله ونبوة محمد ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ معناه: أنزل علي هذا القرآن لأخوفكم به بما فيه من الدلائل وأخبار الأمم السالفة والأنباء بما سيكون، والتأليف الذي عجز عنه العرب. وقوله تعالى: ﴿وَمَنۢ بَلَغَ﴾ أي وأنذر من بلغه القرآن سواكم من العجم وغيرهم من الجن والإنس إلى أن تقوم الساعة، لأنه ليس من بعد القرآن كتاب، ولا من بعد محمد رسول.

قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي إن كنتم تشهدون بإثبات شريك لله فأنا لا أشهد بما تشهدون به. وإنما قال: أخرى ولم يقل: آخر لأن الجمع يذكر بلفظ وحدان والتأنيث كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ولا ولد ﴿وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ به من الأصنام والأوثان.

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والانجيل يعرفون محمداً ﷺ بما يجدونه مكتوباً عندهم من صفته ونعته كما يعرفون أبناءهم إذا رأوهم بين الغلمان. كما روي في الخبر أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: يا أبا حمزة أتعرف محمداً ﷺ كما تعرف ابنك؟ قال: يا عمر إن معرفتي به أشد من معرفتي بابني، لأن أمين

(1) الواحدي في أسباب النزول: 174 والثعلبي في تفسيره: 44.
(2) سورة الحجرات (49)، الآية: 14.

السماء - يعني جبريل - قد جاء بنعته إلى أمين الأرض - وهو موسى عليه السلام - فعرفته، فأما ابني فلا أدري ما أحدث النساء بعدي. فقال عمر رضي الله عنه: وفقك الله يا ابن سلام[1].

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ ابتداء كلام معناه: الذين غبنوا بذهاب الدنيا والآخرة وهم المعاندون الذين يعرفون ويجحدون من رؤساء اليهود والنصارى فهم لا يقرون بمحمد ﷺ والقرآن.

قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ معناه: أي أحد أظلم في فاحشة أتاها ممن اختلق على الله كذبا بإضافته إلى الله تعالى ما لم يضفه إلى نفسه من صفة أو أمر أو قول، وهم الذين إذا فعلوا فاحشة قالوا إنا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء. وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بدلائله ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا يأمن من عذابي من لا يصل إلى مراده ومنيته من القوم الكافرين.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي واذكروا يوم نبعث الكفار وآلهتهم جميعاً للحساب والجزاء. وقال بعضهم: الواو عاطفة على قوله: ﴿لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ كأنه قال: لا يفلحون في الدنيا ويوم نحشرهم. والحشر: جمع الناس في موضع معلوم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ﴾ بالله غيره أين آلهتكم التي كنتم تعبدون من دون الله وتزعمون أنهم شركاء لله وشفعاؤكم.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ أي لم تكن معذرتهم يوم القيامة إلا مقالتهم والله ربنا ما كنا مشركين في دار الدنيا. وإنما سميت المعذرة فتنة لأنها عين الفتنة. ومن قرأ: فتنتهم - بالنصب فعلى خبر لم يكن واسمها أن قالوا. ومن قرأ: ربنا - بالنصب فمعناه النداء،

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 22 - تفسير الثعلبي، ورقة: 45.

وقراءة الخفض على البدل[1]، ويجوز الرفع على إضمار هو[2]. وقيل: المراد بالفتنة محبتهم للأوثان التي كانوا مفتتنين بها في الدنيا، فأعلم الله تعالى أنه لم يكن افتتانهم بشركهم وإقامتهم عليه إلا أن تبرءوا منه وانتفوا عنه فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين.

قوله عز وجل: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي انظر يا محمد كيف صار وبال الكذب عليهم، أي عزب عنهم افتراؤهم بما لحقهم من الذهول والدهش. قال الضحاك: وذلك حين نطقت الجوارح وشهدت عليهم أيديهم وأرجلهم بعد حلفهم[3]: والله ربنا ما كنا مشركين. يقول الله: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

قال الله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قال ابن عباس: وذلك أن أبا سفيان والوليد بن المغيرة وعتبة وشيبة والنضر بن الحارث وأبي بن خلف وجماعة من أهل مكة كانوا يستمعون إلى

(1) مكي، الكشف: 1/ 427.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 26.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 45.

حديث النبي ﷺ فقالوا للنضر: ما يقول محمد؟ قال: لا أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك شفتيه ويتكلم بشيء، ولا يقول إلا أساطير الأولين مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية. وكان النضر كثير الحديث عن قرون الأولين وأخبارهم، فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: ومن أهل مكة من يستمع إلى حديثك وقراءتك وجعلنا على قلوبهم أغطية كراهة أن يفقهوه وفي آذانهم ثقلا وصمما فلا يسمعون الهدى. وموضع «أن تفقهوه» نصب على أنه مفعول له، أي وجعلنا على قلوبهم أكنة كراهة أن يفقهوه. والوقر بفتح الواو: الثقل في الأذن. والوقر بكسر الواو: ما يحمل على الظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ أي وإن يروا كل حجة ودلالة لا يقروا ولا يصدقوا بها.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي يخاصمونك بالباطل ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي يقول النضر بن الحارث وأصحابه: ما هذا الذي يقول محمد إلا أحاديث الأولين وأباطيلهم.

قوله عز وجل: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ قال مقاتل: نزلت في أبي طالب كان رسول الله ﷺ يدعوه إلى الإسلام، فاجتمعت قريش إلى أبي طالب يريدون سوءاً بالنبي ﷺ، فقال أبو طالب:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ∴ حتى أوسَّد في التراب دفينا

فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ∴ وابشر بذاك وقرَّ منك عيونا

ودعوتني وزعمت أنك ناصحي ∴ فلقد صدقت وكنت ثمَّ أمينا

وعرضت دينا لا محالة أنه ∴ من خير أديان البرية دينا

لولا الملامة أو حذاري سبَّة ∴ لوجدتني سمحاً بذاك مبينا[2]

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 175 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 45.

(2) ديوان أبي طالب: 176 ـ شرح نهج البلاغة: 14/ 55 ـ تفسير أبي السعود: 2/ 90.

فأنزل الله تعالى[1]: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ﴾ أي ينهون الناس عن اتباع رسول الله ﷺ، وينأون عنه أي يبتعدون عما جاء به من الهدى فلا يصدقونه. وقال السدي والضحاك: نزلت الآية في جميع كفار مكة وهم ينهون الناس عن اتباع محمد ﷺ ويبعدون أنفسهم عنه، وما يهلكون بذلك إلا أنفسهم وما يعلمون أنهم يهلكون أنفسهم[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾ أي لو ترى يا محمد كفار قريش إذ حبسوا على النار وإذا عاينوها، وقيل: إذا دخلوها وعرفوا عذابها فقالوا: ﴿يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا﴾ يتمنون الرجعة إلى الدنيا. وقرأ ابن السميقع: وقفوا - بفتح الواو والقاف من الوقوف[3]، والقراءة الأولى أولى. وجواب «لو» محذوف تقديره: لو تراهم في تلك الحالة لرأيت عجباً، وقيل: لعلمت ماذا ينزل بهم من الخزي والندامة، ورأيت حسرة يا لها من حسرة قوله: ﴿وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ قرأ حمزة ويعقوب وحفص: ولا نكذب ونكون - بالنصب على جواب التمني، والعرب تنصب جواب التمني بالواو كما تنصبه بالفاء كما قالوا: ليتك تصير إلينا ونكرمك أو فنكرمك: كلاهما بالنصب. وقرأ ابن عامر: ولا نكذب - بالرفع، ونكون - بالنصب[4]، قال: لأنهم تمنوا الرد وأن يكونوا مؤمنين، وأخبروا أنهم لا يكذبون بآيات ربهم وإن ردوا إلى الدنيا، ومعناه: يا ليتنا نرد ويا ليتنا لا نكذب، كأنهم تمنوا الرد والتوفيق للتصديق، ويجوز أن يكون ذلك رفعا على معنى: ونحن لا نكذب بآيات ربنا رددنا أو لم نرد.

وقوله عز وجل: ﴿بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ﴾ أي بل ظهر للذين يتبعون الغواة ما كان الغواة يخفون عنهم من أمر البعث والنشور، وما كان رؤساؤهم يخفون عن سفلتهم.

---

(1) الواحدي في المرجع السابق

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 45 - ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 29.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 45.

(4) مكي، الكشف: 1/ 427.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي لو ردوا إلى الدنيا كما سألوا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر والشرك.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ يعني وإنهم لكاذبون في قولهم، ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين، لأنهم لا يؤمنون لسابق علم الله فيهم أنهم لا يؤمنوا.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ أي قال كفار مكة: ما حياتنا إلا الحياة الدنيا ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ أي لو ترى يا محمد إذ حبسوا عند ربهم للسؤال والحساب. ويقال: عرفوا ما وعدهم ربهم من البعث والقيامة والجنة والنار، يقول الله لهم: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟ أي بالصدق. قالوا: بلى وربنا إنه لحق، أي لصدق. يقول الله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا. وإنما ذكر الذوق بمعنى الخلود ليبين أن حالهم في كل وقت كحال من يعذب بالعذاب المبتدأ. ومعنى: ﴿وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾: أي على حكم ربهم وقضائه، فتقول لهم الملائكة بأمر الله تعالى: هذا العذاب بالحق. قالوا: بلى وربنا إنه حق.

قال الله تعالى:

﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ (31) وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌۖ وَلَلدَّارُ ٱلْأٓخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (32) قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ (33) وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَىٰ مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِيْ ٱلْمُرْسَلِينَ (34) وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ (35)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي قد غبن الذين كذبوا بالبعث بعد الموت ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي فجأة ندموا في وقت لا تنفعهم الندامة. وسميت القيامة ساعة لتوهم قيامها في كل ساعة.

وقوله تعالى: ﴿يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا﴾ أي على ما قصرنا وضيعنا في الدنيا من عمل الآخرة ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ معناه: والكفار يحملون أثقالهم [أي] آثامهم أوقرت ظهورهم بذنوبهم، والذنب من أثقل ما يحمل. وقيل: يعني على ما فرطنا فيها، أي في الصفقة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾ قال السدي: ليس من رجل ظالم يدخل قبره إلا أتاه شخص قبيح الوجه أسود اللون منتن الرائحة عليه ثياب دنسة، فإذا رآه الظالم قال له: ما أقبحك فيقول له: أنا عملك في الدنيا. فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: طال ما كنت أحملك على اللذات والشهوات، فأنت اليوم تحملني. فيركبه وفي يده مقمعة فيضرب بها رأسه فيفضحه على رؤوس الخلائق حتى يدخله النار[1]، فذلك قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾ أي بئس الشيء الذي يحملون من الآثام. ويقال بئس الشيء يزرونه، أي يحملونه.

قوله عز وجل: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ معناه: ما زينة الحياة الدنيا وزهرتها إلا استمتاع يفنى من قريب، ثم تعقبه حسرة وندامة. وسمي ذلك لعبا تشبيهاً بلعب الصبيان يبنون بيتاً ثم يهدمونه يأنسون بشيء فيلهون به، كذلك أهل الدنيا يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون، ويأملون ما لا يدركون. هذا مثل ضربه الله لكفار مكة يفعلون ما لا يرجون به الثواب ويخشون منه العقاب، لا يتفكرون في العاقبة كالصبيان والبهائم. واللعب: شغل النفس بما لا حقيقة له ولا مقصد. واللهو: غالب الفرح بمثل ذلك.

(1) تفسير الطبري: 11/ 328 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 37 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 46.

قوله تعالى: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ﴾ يعني الجنة أفضل للذين يتقون الشرك والكبائر والفواحش ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الآخرة الباقية خير من الدنيا الفانية. قرأ ابن عامر: ولدار الآخرة ـ بلام واحدة على الإضافة[1].

قوله تعالى: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَۖ﴾ معناه: قد نعلم إنه ليحزنك ما يقول كفار مكة من تكذيبهم إياك في العلانية وجحودهم بالله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ في السر ولا بقلوبهم أي هم يعلمون أنك صادق وكنت تسمى فيهم الأمين قبل الرسالة، فما يحزنك تكذيبهم إياك فيما يعلمون صدقك فيه، ولكن المشركين بآيات الله يجحدون بألسنتهم ما تشهد به قلوبهم بكذبهم فيه. وقال السدي: التقى الأخنس بن شريق وأبو جهل، فقال الأخنس لأبي جهل: يا أبا الحكم أخبرني عن محمد أصادق هو أم كاذب، فإنه ليس ههنا أحد يسمع كلامنا؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق وما كذب محمد قط، ولكن إذا ذهب بنو قصي باللواء والسقاية والحجابة والنبوة فماذا يكون لسائر قريش؟ فأنزل الله هذه الآية[2]. ويقال: معنى ﴿لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾: لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبأت به مما في كتب الأنبياء قبلك: كذبت. وقرأ نافع والكسائي: يكذبونك ـ بالتخفيف[3]، ومعناه: لا يجدونك كاذباً. يقال: كذبت فلاناً ـ بالتشديد: إذا قلت له كذبت، وأكذبت فلاناً إذا رأيت أن ما أتى به كذباً. وقرأ نافع: ليحزنك ـ بضم الياء. والمعنى واحد.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَاۚ﴾ تسلية للنبي ﷺ ليصبر على إيذاء الكفار، ومعناه: إن الرسل قبلك كذبهم قومهم كما كذب هؤلاء وآذوهم كما آذوك، فصبر الرسل على تكذيبهم إلى الآخر حتى أتاهم نصرنا بإهلاك قومهم، فاصبر أنت أيضاً على تكذيب قومك إياك وإيذاهم لك حتى يأتيك نصرنا.

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 429.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 26.
(3) مكي، الكشف: 1/ 430.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا مغير لما وعدك الله من النصر والظفر بقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا﴾[1]، ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي من خبر المرسلين من قبلك ما يكون لك فيه سلوة فاعتبر بأخبارهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ أي إن كان عظم وثقل عليك يا محمد إعراضهم عن القبول منك وقولهم: لولا أنزل عليك ملك، وسؤالهم كل معجزة شاءوا، فإن استطعت أن تطلب مسلكاً نافذاً في الأرض كنفق اليربوع فتدخله هارباً متوارياً، أو تطلب شيئاً يسلمك إلى السماء فتأتيهم بالآية التي سألوها فافعل. وليس في القرآن «فافعل» لأنه قد يحذف ما يكون في الكلام دليلاً عليه مثل قول الرجل: إن رأيت أن تمضي معي إلى فلان. ولا يذكر «فافعل». وقد بيّن الله تعالى في هذه الآية أنه إنما يأتي من الآيات بما يحب، وأن رسول الله ﷺ بشر لا يقدر على الإتيان فيه إلا بما شاء الله، وكان الله قد علم أنه لو أنزل عليكم الملك وكل آية سألوها لم يؤمنوا، فلم ينزل إلا بما يثبت به الحجة عليهم، فيؤمن ذو البصيرة والثبات على الإيمان بالآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾ أي لو شاء الله لاضطرهم إلى الايمان، كما قال تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿4﴾﴾[2]. وقيل: معناه ولو شاء الله لأطبقهم على الهدى. وقيل: لوفقهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي لا تكونن من الجاهلين بترك الصبر، وإظهار الجزع، واستشعار الغم لإعراضهم عنك فإن هذا من أفعال الجاهلين. ويقال: معناه لا تكونن من الجاهلين بمقدوري عليهم الكفر.

قال الله تعالى:

﴿۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿36﴾ وَقَالُوا۟

---

(1) سورة غافر (40)، الآية: 51.

(2) سورة الشعراء (26)، الآية: 4.

لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (37) وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (38) وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (39) قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (40) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (41)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ معناه: إنما يجيب الذين يقبلون الحق، فأما الذي لا يقبل الحق فكأنه أصم أو ميت.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ أراد به كفار مكة. سماهم موتى لأنهم لم يتدبروا ولم يتأملوا ولم ينتفعوا بحياتهم فكانوا بمنزلة الموتى وإن كانوا في الصورة أحياء ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ في الآخرة فيجازيهم بأعمالهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي قال كفار قريش: لولا نزل على محمد علامة من ربه لنبوته، يعنون الآيات التي كانوا يقترحونها. قل يا محمد: إن الله قادر على أن ينزل الآيات التي اقترحتموها أنتم ولكن أكثر أهل مكة لا يعلمون ما عليهم من المضرة في إنزال هذه الآية، إذ الحكمة تقتضي التعذيب بعذاب الاستئصال لمن كفر بعد إنزال الآية المقترحة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ أي ما من دابة تدب وتتحرك على وجه الأرض، ولا طائر في الهواء يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم في الفقر والحاجة إلى مدبر يدبرهم في أغذيتهم وأكنتهم وهدايتهم إلى مراشدهم ومصالحهم. وقيل: معناه إلا أمم أمثالكم في الخلق والرزق والموت والبعث، لأنه قال: ﴿وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ﴾ فيكون معناه: وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم في أن الله تعالى يميتها

(1) تفسير الطبري: 11/ 341 ـ 342.

ويبعثها للجزاء. وقيل: معناه إلا أمم أمثالكم يتفقه بعضهم عن بعض كما تفقه بعضكم عن بعض. وذكر الجناحين في الآية على جهة التأكيد، لأنك تقول: طار فلان في الأمر، أي أسرع، وفلان طير من الطيور لسرعته في الأمور. وذكر الجناحين في الآية لبيان أن المراد به الطير[1].

قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ معناه: ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئاً إلا كتبناه فيه. ويقال: ما تركنا بيان شيء في القرآن مما تحتاجون إليه من أحكام الدين والدنيا، بل قد بينا في الكتاب كل شيء إما مفصلاً أو مجملاً. أما المفصل كقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾[2]، وأما المجمل كقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ معناه: أن الطيور والدواب يجمعون مع سائر الخلق يوم القيامة للحساب والجزاء كما روي في الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن الله تعالى يحشر الخلق كلهم يوم القيامة: البهائم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدله أن يأخذ للجماء من القرناء فإذا ميز بين أهل الجنة والنار قال للبهائم والوحوش والطيور: كوني ترابا تسوى بكم الأرض. فتكون تراباً، فعند ذلك يتمنى الكافر**[4] **ويقول:** ﴿يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾[5]». والمراد بهذا الإفناء للبهائم بعد أن أحياها أنه إفناء لا يكون فيه ألم.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ معناه: والذين جحدوا بمحمد ﷺ والقرآن صم عن الخير لا يسمعون الهدى، خرس لا يتكلمون بخير، أي يكون حالهم كحال الأصم الأبكم. وحذف حرف التشبيه من قوله: صم بكم على جهة المبالغة في الوصف، كما يقال في وصف القوم بالبلادة: هؤلاء حمر. وقوله: ﴿فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ أي في ضلالات الكفر ﴿مَن يَشَإِ

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 419.
(2) سورة المائدة (5)، الآية: 45.
(3) سورة الحشر (59)، الآية: 7.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 27.
(5) سورة النبأ (78)، الآية: 40.

﴿ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ﴾ أي يتركه في ضلالة الكفر فلا يخرجه منه، ومن يشأ يرشده ويوفقه للإسلام فيثبته على ذلك حتى يموت عليه. ويقال: معناه من يشإ الله يضلله في الآخرة عن طريق الجنة إلى طريق النار، ﴿وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ﴾ على طريق الجنة.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَنكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة: أرأيتم. والكاف زائدة في بيان الخطاب للتأكيد كما في «ذلك» و«أولئك». والمعنى: قل أرأيتم إن أتاكم عذاب الله كما أتى الأمم الماضية قبلكم المكذبين برسلهم، أو أتتكم القيامة بأهوالها وشدائدها. ويقال: أراد بالساعة الوقت الذي يصعق فيه العباد فيموتون كلهم.

وقوله تعالى: ﴿أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ﴾ أي أغير الله تدعون في كشف ذلك العذاب، ودفع تلك الأهوال عنكم لم تدعون غير الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي في مقالتكم أن الأصنام شركاء لله، فهلا تدعون الأصنام عند الشدائد. وهو احتجاج من الله عليهم بما لا يدفعونه، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ﴾ بل تدعون الله في كشف العذاب والأهوال. وبل للاستدراك بعد النهي. فيكشف ما تدعون إليه، أي يكشف عنكم الضر الذي من أجله دعوتموه لكشفه. وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ إنما قرن بالمشيئة، لأن كشف العذاب فضل من الله تعالى، وفضل الله يعطيه من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾ أي وتتركون دعوة آلهتكم عند الشدة إذا أشرفتم على الهلاك أو اضطربت بكم الأمواج في لجج البحر وفي غير ذلك من الإحن والأوجاع التي لا صبر لكم عليها. وقد يذكر النسيان بمعنى الترك كما في قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[1] أي تركوا ذكر الله فتركهم الله في العذاب.

---

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 67.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿42﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿43﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿44﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿45﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿46﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿47﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي ولقد أرسلنا رسلاً إلى أمم من قبلك كما أرسلناك إلى قومك فلم يؤمنوا فأخذناهم بالبأساء، وهي الشدة النازلة، مأخوذة من البأس، وقيل: من البؤس وهو الفقر. والضراء: وهي الأمراض والأوجاع، وهي مأخوذة من الضرر.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ أي لكي تخشع القلوب وتتضرع النفوس عند الشدة فيرجعوا إلى الله فيؤمنوا به فيكشف عنهم فلم يفعلوا.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟﴾ أي فهلا حين جاءهم بأسنا، أي عذابنا دعوا الله وآمنوا به، ولكن قست قلوبهم، أي ثبتت وجفت قلوبهم فأقاموا على كفرهم، إذ لم يكن في قلوبهم رقة ولا خوف من الله ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي وحسن لهم ما كانوا يعملون في كفرهم بأن أغواهم ودعاهم إلى اللذة والراحة دون التفكر والتدبر لتبيان الحق من الباطل[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي فلما تركوا ما وعظوا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء مما كان مغلق عليهم من الخير والرزق والخصب والمطر، وأخصبت بلادهم وكثر خيرهم، حتى إذا

---

(1) تفسير القرطبي: 6/ 425.

أعجبهم ما أعطوا من النعيم والسعة والصحة ﴿أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي فجأة بالعذاب بعد أن ابتليناهم بالنعمة والشدة فلم يزدادوا إلا كفرا ﴿فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ أي فإذا هم عند نزول العذاب بهم آيسون من كل خير، متحسرون غاية الحسرة. والمبلس: البائس الحزين الشديد الحسرة، ويقال هو المنقطع عن الحجة[1]. فإن قيل: لم أنعم الله عليهم حين نسوا ما ذكروا به، وهذا موضع العقوبة دون الإنعام؟ فيه قولان: أحدهما: أنه أنعم الله عليهم بالدعاء لهم إلى الطاعة، فإن الدعاء إلى الطاعة يكون بالعنف والتشديد وتارة باللين والإنعام، والثاني: أنه إنما فعل ذلك بهم لأن من ينتقل من النعمة والراحة إلى العذاب يجتمع عليه العذاب والحسرة على ما فاته، فيكون ذلك أشد عليه ممن ينتقل من الشدة إلى العذاب.

قوله عز وجل: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ أي استؤصل بالهلاك آخر من بقي من الكافرين. ودابر القوم: آخرهم من نسلهم أو غيرهم، بحيث لا يبقى لهم بعد ذلك باقية.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ يجوز أن يكون حمدا من الله لنفسه على إهلاكه القوم الكافرين المعاندين بعد أن أعذرهم وأنذرهم، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تعليماً من الله ليحمدوه على إهلاك الظالمين. وقد قطع الله دابر المعاندين من أهل مكة يوم بدر كما قطع دابر المكذبين قبلهم. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا رأيت الله يعطي عبداً في الدنيا على معصيته ما يحب فإن ذلك منه استدراج**»[2]. ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ الآية..

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ﴾ أي قل يا محمد لكفار مكة: إن سلب الله عنكم سمعكم وأبصاركم التي هي أشرف ما فيكم[3] من الأعضاء وختم على قلوبكم بأن سلب

---

(1) تفسير الطبري: 11/362.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 27 عن عقبة بن عامر.
(3) في النسخة (ف): ما قبلكم.

عقولكم حتى لا تفقهوا بها فعاقبكم بذلك على تكذيبكم الرسل هل من إله غير الله يرد عليكم ما سلبه الله تعالى؟ وهل يقدر على ذلك غيره؟ انظر يا محمد كيف نبين لهؤلاء الآيات في القرآن ونخوفهم بها ﴿ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾ أي يعرضون عما وضح لهم مكذبين به لا تتحرك أفئدتهم. والتصديف: توجيه المعنى في الجهات التي تظهره أتم الإظهار.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً﴾ أي أرأيتم إن أتاكم، وهذه حالكم في الإصرار على الكفر، عذاب الله فجأة أو علانية نهارا جهارا هل يهلك إلا أنتم ومن أشبهكم، لأنكم كفرتم معاندين، فقد علمتم أنكم ظالمون. وإنما قابل البغتة بالجهرة وإن كان ضد الجهرة الخفية، لأن ما يأتي فجأة فإنما يأتي خفية.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿48﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿49﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿50﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿51﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿52﴾﴾

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ أي ليس على الرسل أن يأتوا للناس بما يقترحون عليهم من الآيات إنما نرسلهم للتبشير بالجنة للمطيعين والتحذير بالنار للكافرين ﴿فَمَنْ ءَامَنَ﴾ بالرسل والكتب ﴿وَأَصْلَحَ﴾ العمل فيما بينه وبين ربه فأقام على إيمانه وتوبته ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ حين يخاف أهل النار ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ إذا حزنوا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ أي

يصيبهم العذاب بفسقهم وجحودهم بمحمد ﷺ والقرآن.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ نزلت هذه الآية جواباً على قول الكفار للنبي ﷺ: يا محمد لولا أنزل عليك كنز فتستغني به فإنك فقير محتاج[1]، وعن قولهم: لولا أنزل عليك ملك، وقولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ ومعناها: قل لهم يا محمد: لا أقول لكم عندي خزائن الله، أي لا أدعي أن مفاتيح الرزق بيدي فأقبض وأبسط. وليس خزائن الله مثل خزائن العباد، إنما خزائن الله مقدوراته التي لا توجد إلا بتكوينه إياها ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي لا أدعى علم الغيب فيما مضى وما سيكون ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ من الملائكة[2] شاهدت ما لا شاهده البشر ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ أي لا أعمل ولا أقول إلا ما ينزله الله علي ببيان بعض الملائكة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي الكافر والمؤمن. ويقال: الجاهل والعالم ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله ومواعظه.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي أنذر بالقرآن وخوِّف به الذين يعلمون أن حشرهم إلى ربهم، أي إلى موضع لا يملك أحد فيه نفعهم ولا ضرهم إلا الله تعالى. قالوا: والذين يخافون البعث أحد رجلين: إما مسلم فينذر ليؤدي حق الله في إسلامه، وإما رجل من أهل الكتاب فهم مقرون بأن الله خلقهم وأنهم مبعوثون محاسبون.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ قال عبد الله بن مسعود: مر جماعة من المشركين برسول الله ﷺ وعنده صهيب وخباب بن الأرت، وبلال، وعمار بن ياسر، وغيرهم من ضعفاء المسلمين، فأرادوا الحيلة على رسول الله ﷺ ليطرد أصحابه فقالوا: يا محمد لو طردت هؤلاء السفلة والعبيد عنك أتاك أشراف قومك ورؤساؤهم يستمعون مقالتك ويصدقونك. وذكروا ذلك أيضاً لعمر رضي الله عنه، فذكره لرسول الله ﷺ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 27 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 54.
(2) في النسخة (ف): السماء.

حرصاً على إسلام أشراف قومه، فهمَّ رسول الله ﷺ أن يفعل بعض الذي طلبوه، فأنزل الله هذه الآية[1] يعلمه أنه لا يجب أن يفضل غنياً ولا شريفاً على فقير وضعيف، لأن طريقه فيما أرسل به الدين دون أحوال الدنيا. فذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾ أي يعبدون ربهم بالصلاة المفروضة غدوا وعشياً، وهم ضعفة الصحابة، وصفهم الله بالمواظبة على عبادته في طرفي النهار، ثم شهد لهم أنهم مخلصون في الإيمان بقوله: ﴿يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ أي يريدون وجه الله تعالى بذلك ويطلبون رضاه. وذكر الوجه على سبيل التفخيم كقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾[2] معناه: إلا هو.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ أي ما عليك من حساب عملهم وباطن أمرهم من شيء، ﴿وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ﴾، أي ما عليهم من باطن أمرك شيء، لا يسألون عن عملك ولا تسأل أنت عن عملهم. وقيل: معناه ما عليك من رزقهم من شيء، وما من رزقك عليهم من شيء.

قوله تعالى: ﴿فَتَطْرُدَهُمْ﴾ جواب ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم﴾.

قوله تعالى: ﴿فَتَكُونَ﴾ جواب ﴿وَلَا تَطْرُدِ﴾ ومعناه: فتكون من الضارين لنفسك أن لو طردتهم. وتقدير الآية: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي فتكون من الظالمين، ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردهم. قال سلمان، وخباب: فينا نزلت هذه الآية. فجاء الأقرع بن حابس التميمي، وعيينة بن حصن الفزاري، وأصحابهما من المؤلفة فوجدوا النبي ﷺ قاعداً مع بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، في ناس من ضعفاء المسلمين، فلما رأوهم حوله حقروهم وقالوا: يا محمد لو جلست في صدر المسجد ونفيت عنا هؤلاء ورائحة جبابهم لجالسناك وحادثناك وأخذنا عنك. وكان عليهم جباب من صوف لم يكن عليهم غيرها. فقال ﷺ: «**ما أنا بطارد المؤمنين**». فقالوا: إنا نحب أن تجعل لنا مجلساً تعرف العرب به فضلنا فإن

(1) الواحدي، أسباب النزول: 177 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/56 ـ الثعلبي، ورقة: 27.
(2) سورة القصص (28)، الآية: 88.

وفود العرب تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هؤلاء الأعبد فإن نحن جئنا فأقمهم عنا وإذا نحن قمنا فأقعدهم معك إن شئت. فأجابهم إلى ذلك فقالوا: اكتب لنا عليك بذلك كتابا. فدعا بصحيفة، ودعا عليا رضي الله عنه ليكتب. قال: فبينا نحن قعود في ناحية المسجد إذ نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الآية.. فألقى رسول الله ﷺ الصحيفة من يده ثم دعانا فأتيناه وهو يقول: سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة. فكنا نقعد معه فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾[1] قال: فكان رسول الله ﷺ عليه وسلم يقعد وندنوا منه حتى تكاد ركبنا تمس ركبته، فإذا بلغ الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم وقال: «**الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع قوم من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات**»[2]. وقال مجاهد: قالت قريش: لولا بلال، وابن أم مكتوم لتابعنا محمداً. فأنزل الله هذه الآية. وقال عكرمة: جاء عتبة بن ربيعة، وشيبة، وربيعة، ومطعم بن عدي، ونوفل بن الحارث، وعمرو بن نوفل إلى أبي طالب فقالوا له: لو أن ابن أخيك محمداً يطرد عنه موالينا فإنما هم عبيدنا وعتقاؤنا كان أعظم في صدورنا وأطوع لله عندنا وأدنا لاتباعنا إياه وتصديقنا له. فأتى أبو طالب إلى النبي ﷺ فحدثه بالذي كلموه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لو فعلت ذلك يا رسول الله حتى ننظر ما يريدون وإلى ما يضمرون من قولهم، فأنزل الله هذه الآية[3]: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ قال ابن عباس: معناه يعبدون ربهم بالصلاة المكتوبة بالغداة والعشي، يعني صلاة الصبح وصلاة العصر.

---

(1) سورة الكهف (18)، الآية: 28.

(2) رواه البيهقي في شعب الايمان: 7/ 334، رقم 10491، باب في الزهد ـ الثعلبي في تفسيره، ورقة: 28، ابن عطية في تفسيره: 6/ 56.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 178 ـ والثعلبي وابن عطية في المرجعين المذكورين.

قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿53﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءَۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿54﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿55﴾ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿56﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿57﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿58﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ﴾ قال ابن عباس: معناه وكذلك ابتلينا بعضهم ببعض: العربي بالموالي، والغني بالفقير، والشريف بالوضيع ليقول الأغنياء والأشراف: مثل عيينة بن حصن الذي دخل على النبي ﷺ فقال: لو طردت هؤلاء السفلة. ومثل أصحابه كانوا يقولون: أهؤلاء الفقراء ـ يعنون سلمان وأصحابه ـ من الله عليهم بالمعرفة والإسلام من بيننا[1]. وقال الكلبي: هو أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد أسلم قبله استنكف وأفف أن يسلم وقال: قد سبقني هذا بالإسلام. فلا يسلم. ومعنى اللام في قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ لام العاقبة، ومعناه: ليكون عاقبة أمرهم أن قال الأغنياء والأشراف: أهؤلاء المستضعفين فضلهم الله علينا. ونظير هذه اللام التي في هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًاۗ﴾[2] ومعلوم أنهم لم يلتقطوه ليكون لهم عدواً، ولكن عاقبة التقاطهم إياه أن صار لهم عدواً وحزناً. وقال بعضهم: اللام في قوله: ﴿لِّيَقُولُوٓاْ﴾ معناها الاستفهام، أي ليقول بعضهم لبعض استفهاماً لا إنكاراً: أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا بالإيمان؟

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 58.
(2) سورة القصص (28)، الآية: 8.

والفائدة في ذلك أن الأغنياء كانوا شاكين في أن سبق الفقراء إلى الإيمان وصبرهم على طريقة الدين هل يوجب أن يكون نعمة عظيمة من الله تعالى عليهم؟ فأمرهم الله تعالى أن يستفهموا من الرسول ﷺ ما لأجله يقدم الفقراء بحضرة الرسول ﷺ واستحقوا الإعظام، فيظهر عند الاستفهام جواب النبي ﷺ، ويكون في سماعهم لذلك مصلحة عظيمة يوجب رضاهم بتقديم النبي ﷺ أهل الدين[1].

قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ استفهام بمعنى التحقيق على معنى أن الله أعلم بمن هو أهل التوحيد والثواب.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿54﴾﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية، فقال عكرمة: نزلت في الذين نهى الله نبيه ﷺ عن طردهم، وكان ﷺ إذا جاءهم بدأهم بالسلام وقال: «**الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام**»[2]. وقال ابن عباس والكلبي: لما نزلت هذه الآية[3] جاء عمر رضي الله عنه معتذراً عن مقالته، فأنزل الله تعالى[4]: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي الذين يصدقون بمحمد ﷺ والقرآن ﴿فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ أي قبل الله معذرتكم وتوبتكم. ومعنى السلام: السلامة من جميع الآفات. وقيل: إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ أن يسلم على المستضعفين إذا جاءوا إليه، وإنما أمره أن يبدأهم بالسلام مع أن العادة أن الجائي يسلم على القاعد حتى ننبسط إليهم بالسلام عليهم لئلا يحتشموا من الانبساط إليه. وقال عطاء: نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأبي عبيدة، وبلال، وسالم، ومصعب بن عمير، وحمزة، وجعفر، وعثمان بن مظعون، وعمار بن ياسر[5]. وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ

(1) ابن عطية في المرجع نفسه.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 178 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 48 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 59.
(3) وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ (الآية: 52 الأنعام).
(4) الثعلبي في المرجع نفسه.
(5) الثعلبي في المرجع نفسه.

رجال فقالوا: إنا أصبنا ذنوباً عظيمة كثيرة. فسكت عنهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى[1]: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ أي قضى على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة، أي إثماً، ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم. واختلفوا في معنى قوله: ﴿سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ فقال مجاهد: معناه لا يعرف حلالا من حرام فمن جهالته يركب الأمر[2]. وقيل: جاهل عما يورثه ذلك الإثم. وقيل: جهل حين آثر المعصية على الطاعة واللذة اليسيرة الفانية على الكثيرة الباقية الدائمة. فعلى هذا سمي كل مرتكب للمعصية جاهلاً. واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾، وقوله: ﴿فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ فكسرهما جميعاً ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف، والأعمش، على الاستئناف، ونصبهما الحسن، وابن عامر، وعاصم، ويعقوب بدلاً من الرحمة، وفتح نافع الأول على معنى: وكتب أنه من عمل، وكسر الثاني على الاستئناف[3].

وقوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ أي كما بينا الأمر والنهي في القرآن من قبل، فكذا نبين وننزل الآيات متفرقة شيئاً بعد شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ معطوف على مضمر تقديره: ليظهر الحق من الباطل ولتستبين طريق الكافرين. وإنما لم يقل سبيل المؤمنين، لأن في الكلام ما يدل عليه، لأن معناه ولتستبين سبيل المجرمين من سبيل المؤمنين، ويقرأ: وليستبين ـ بالياء، لأن السبيل يذكر ويؤنث، فتميم تذكره وأهل الحجاز يؤنثه. ودليل التذكير قوله تعالى: ﴿وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ﴾[4] ولم يقل بها، ودليل التأنيث قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾[5] ولم يقل

---

(1) المحرر الوجيز: 6/ 59.
(2) تفسير الطبري: 11/ 393.
(3) مكي، الكشف: 1/ 433 ـ المحرر الوجيز: 6/ 60.
(4) سورة الأعراف (7)، الآية: 86.
(5) سورة يوسف (12)، الآية: 108.

هذا. وقرأ أهل المدينة سبيل - بالنصب على خطاب النبي ﷺ[1]، معناه: ولتعرف يا محمد سبيل المجرمين. فالخطاب للنبي ﷺ، والمراد به عامة المسلمين كأنه قال: وليستبينوا ويزدادوا معرفة بطريق المجرمين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل يا محمد لعيينة وأصحابه: إني نهيت عن عبادة الذين تعبدون من الأصنام من دون الله ولا أتبع أهواءكم فإنكم قد عبدتموها وسألتموني طرد سلمان وبلال وأصحابهما على طريق الهوى لا على طريق البينة والبرهان.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا﴾ أي قد ضللت إن عبدتها، معناه: إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير الهدى. وقرأ يحيى بن وثاب وأبو رجاء: قد ضللت - بكسر اللام[2]، وهما لغتان إلا أن الفتح أفصح، لأنها لغة أهل الحجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ عطف على ضللت، أي إن أتبع أهواءكم فما أنا من الذين سلكوا طريق الهدى.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ أي قل يا محمد: إني على بصيرة وبيان من أمر ربي لا أتبع الهوى ﴿وَكَذَّبْتُم بِهِۦ﴾ أي بالبيان. وإنما ذكر الكتابة لأن البينة والبيان بمعنى واحد، ويجوز أن يكون معناه: وكذبتم بما أتيتكم وهو القرآن. ومعنى البينة: الدلالة بين الحق والباطل. وقوله تعالى: ﴿مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ﴾ روي أن رؤساء قريش كانوا يستعجلون العذاب حتى قام النضر بن الحارث في الحطيم وقال: اللّهم إن كان ما يقول محمد حقاً فاتنا بالعذاب. فنزلت هذه الآية[3]. وقيل: معناه ما عندي ما تستعجلون به من الآيات التي تقترحونها.

قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي ما القضاء بنزول العذاب ونزول

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 433 - 434.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 49 - تفسير ابن عطية: 6/ 62.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 178 - تفسير الثعلبي، ورقة: 49.

الآيات إلا الله ﴿يَقُصُّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يحكم بالعدل ويقضي القضاء الحق ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾ أي أعدل القاضين. من قرأ: يقص الحق بالصاد المشددة فمعناه: يبين الحق ويأمر به، ومن قرأ يقضي، أي يحكم. وقرأ ابن عباس: يقضي الحق. وأما سقوط الياء في قراءة من قرأ يقض فإنما سقطت في الخط للتقاء الساكنين كما في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿18﴾﴾[1] و﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[2]. وفي جميع المصاحف: يقض بغير ياء[3].

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ﴾ أي قل يا محمد: لو أن عندي ما تستعجلون به من العذاب لأهلكتكم وانقطع ما بيني وبينكم من مطالبتي إياكم بالإخلاص في طاعة الله وعبادته وامتناعكم عن ذلك ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي بعقوبتهم ووقت عذابهم.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿59﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿60﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿61﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿62﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾ قرأ ابن السميقع: مفاتيح ـ بالياء[4]. واختلفوا في معنى مفاتح الغيب، فروى عبد الله بن عمر أن

---

(1) سورة العلق (96)، الآية: 18.

(2) سورة القمر (51)، الآية: 6.

(3) تراجع هذه القراءات في: الكشف عن وجوه القراءات وعللها: 1/ 434 ـ وتفسير ابن عطية: 6/ 63.

(4) تفسير القرطبي: 7/ 1.

رسول الله ﷺ قال: «**مفاتح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: علم الساعة، ونزول الغيث، وعلم ما في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت**»[1]. وقال السدي: مفاتح الغيب: خزائن الغيب[2]. وهي المقدورات التي يستفتح بها ما في الغيب. وتسمى الخزانة مفتحاً لأنه يفتتح منها الأمر. وقيل: مفاتح الغيب: ما ينفتح به علم ما في الغيب من وقت نزول العذاب الذي كانوا يستعجلون به وغير ذلك .. وقيل: معناه وعنده مفاتح الغيب: أي نزول العذاب لا يعلم متى ينزل ما غاب عنكم من الثواب والعقاب وما يصير إليه أمري وأمركم إلا هو. وقيل: معنى مفاتح الغيب: الآجال وأحوال العباد من السعادة والشقاوة، وعواقب الأمور، وخواتم الأعمال. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أوتي نبيكم عليه السلام كل شيء إلا مفاتح الغيب[3]. والمفاتح جمع مفتح، والمفاتيح جمع مفتاح وهو طرق الغيب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي يعلم ما في البر من النبات والخلق، وما في البحر من الدواب والعجائب وقيل: يعلم رزق كل من في البر والبحر يسوق إلى كل ذي روح رزقه.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾ قال ابن عباس: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا وبها ملك موكل يعلم ما يؤكل منها وما يسقط من ورقها، ويعلم عدد ما بقي على الشجرة من الورق وما يسقط منه[4]. وقيل: معنى الآية: وما تسقط من ورقة من أوراق الشجر إلا يعلمها الله كلها باقية وساقطة، ويعلم متى سقوطها وموضع سقوطها.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾ أي كل حبة تكون في الأرض حتى الحبة التي تحت الأرض التي هي أسفل الأرضين يعلمها الله.

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 3/ 220، رقم: 1039، كتاب الاستسقاء.

(2) تفسير القرطبي: 7/ 1.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 49.

(4) نفسه.

وقيل: أراد كل حبة تكون في شقوق الأرض مما يخرج منها النبات. ومن قرأ: ولا حبة ـ بالرفع فعلى الابتداء، وخبره: ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ أراد بالرطب الماء والخضر واليابس: الحجر والمدر، كل ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ عند الله، فيه كل ما يخلق قبل أن يخلقه كما قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾[2] فاعلم أنه قد أثبت ما خلق قبل خلقه. والرطب واليابس عبارة عن جميع الأشياء التي تكون في السماوات والأرض، لأنها لا تخلو من إحدى هاتين الصفتين. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**ما من زرع على الأرض ولا ثمار على الأشجار ولا حبة في ظلمات الأرض إلا عليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم رزق فلان بن فلان**»[3]. فإن قيل: ما الفائدة من إثبات ذلك مكتوباً في اللوح مع أن الله لا يخفى عليه شيء، وأنه كان عالماً بذلك قبل أن يخلقه وقبل أن يكتبه، لم يكتبها ليحفظها ويدرسها؟ قيل: فائدته أن الحوادث إذا حدثت موافقة للمكتوب ازدادت الملائكة بذلك علماً ويقيناً بعظم صفات الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ معناه: هو الذي يقبضكم عن التصرف بالنوم وما تصيرون في منامكم بالليل في قبضته لا تملكون لأنفسكم تصرفاً في أموركم. والتوفي في اللغة: هو القبض. إلا أن روح النائم لا تصير مقبوضة في حال نومه على جهة الحقيقة، لأن النائم يستمد من الهواء على حسب ما يفعله المنتبه، ولكن الله يحدث في حال النوم في بدن النائم ضرباً من الاسترخاء في أعضائه إما بسلب عقله أو بإحداث فعل في البدن يكون ذلك الفعل سبباً لراحة البدن كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾[4]. فلما صار النائم كالميت في أنه لا يعقل وفي أن تصرفه لا يقع على تمييز، شبه

(1) تفسير القرطبي: 7/ 5 ـ الزمخشري، الكشاف: 2/ 24 ـ 25.
(2) سورة الحديد (57)، الآية: 22.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 49 عن ابن عمر.
(4) سورة النبأ (78)، الآية: 9.

بالميت من حيث التوفي على هذا الوجه كما ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**النوم أخو الموت**»، وأهل الجنة لا يموتون كذلك لا ينامون. وعلى هذا الوجه يتأول قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾[1] إلى آخر الآية. وذهب بعضهم إلى أن الروح تخرج من البدن في المنام ولكن لا تنقطع حركة النائم، لأن نظر الروح لم ينقطع عن البدن، إذ هو على العود في كل وقت وساعة. وقال بعضهم: لا تخرج منه الروح وإنما يخرج منه الذهن.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ أي ما كسبتم من الخير والشر بالنهار. ويقال: جرح واجترح بمعنى كسب واكتسب وأصل الاجتراح عمل الجوارح.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ﴾ أي ينبهكم من نومكم في النهار على علم منه بما اجترحتم من قبل وما تجترحون من بعد ﴿لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ أي لتبلغوا الوقت المقدر الذي قدره الله لحياتكم فتنقطع أرزاقكم وأعمالكم التي تعملون في الدنيا من خير أو شر.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي ثم إلى الله مصيركم ومنقلبكم بعد الموت ﴿يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يخبركم في الآخرة بما كنتم تعملون في الدنيا فيجازي كل عامل بما عمل.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ أي وهو الغالب لعباده المتعالي عليهم بالقدرة. وليس معنى «فوق» معنى المكان لاستحالة إضافة الأماكن إلى الله، وإنما معناه: الغلبة والقدرة، ونظيره: فلان فوق فلان في العلم، أي أعلم منه. قوله تعالى: ﴿وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً﴾ معناه: والمرسل عليكم حفظة فاكتفى بالفعل عن الاسم. والحفظة: هم الملائكة يحفظون على العباد أعمالهم على ما تقدم. وقد ورد في الخبر أن على كل واحد منا ملكين بالليل وملكين بالنهار يكتب أحدهما الحسنات والآخر السيئات، وصاحب اليمين أمين

(1) سورة الزمر (39)، الآية: 42.

على صاحب الشمال، فإذا عمل العبد حسنة كتبت له بعشر أمثالها، وإذا عمل سيئة فأراد صاحب الشمال أن يكتب قال له صاحب اليمين: أمسك. فيمسك عنه ست ساعات أو سبع ساعات، فإن هو استغفر الله تعالى لم تكتب عليه وإن لم يستغفر كتبت عليه سيئة واحدة[1].

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ معناه: حتى إذا حضر أحدهم الموت قبض روحه ملك الموت وأعوانه وهم لا يقصرون ولا يؤخرونه طرفة عين. فإن قيل: كيف قال هنا: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ وقال في آية أخرى: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾[2]؟ قيل: إن ملك الموت هو الذي يقبض الأرواح كلها وهو القائم بذلك، إلا أن له أعواناً فتارة أضاف قبض الروح إلى ملك الموت لأنه هو المختص بالقيام بذلك، وتارة أضافه إليه وإلى غيره لأنهم يصدرون في ذلك عن أمره. وقال مجاهد: جعلت الأرض لملك الموت كالطست يتناول من حيث يشاء، وله أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها منهم[3]. ويقال: إن أعوان ملك الموت يستخرجون الروح من الأعضاء عضوا عضواً حتى إذا جمعوه في صدره وجعل يغرغر به، قبضه حينئذ ملك الموت. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه دخل على مريض يعوده فرأى ملك الموت عند رأسه فقال: «**يا ملك ارفق به فإنه مؤمن**». فقال ملك الموت: يا محمد أبشر وطب نفساً وقر عيناً فإني بكل مؤمن رفيق إني لأقبض روح المؤمن فيصرخ أهله فأعتزل في جانب الدار فأقول ما لي من ذنب وأني لمأمور وإن لي لعودة فالحذر الحذر. وما من أهل بيت مدر ولا وبر في بر أو بحر إلا وأنا أتصفحهم في كل يوم خمس مرات حتى إني لأعلم بصغيرهم وكبيرهم منهم بأنفسهم. والله لو أردت أن أقبض روح بعوضة ما قدرت عليها حتى يأمرني الله تعالى بقبضها.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي ثم ردتهم الملائكة إلى

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 49.
(2) سورة السجدة (32)، الآية: 11.
(3) تفسير الزمخشري: 2/ 25.

الموضع الذي لا يمكن أحد الحكم فيه إلا الله تعالى: وقوله: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي مولاهم من كل جهة، فإنه يملك خلقهم وإنشاءهم وتربيتهم وإماتتهم وإحياءهم وضرهم ونفعهم، وهو الذي دبر في الابتداء أمرهم حين أنشأهم. ومعنى قوله تعالى: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي الذي عبادته حق، ويعطي الثواب بالحق، ويتولى العقاب بالحق. وقيل: إن هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، لأنه لا مرد للعبد أحسن من مرده إلى مولاه.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ كلمة تنبيه، أي اعلموا أن بيده القضاء بين العباد يوم القيامة يحكم فيهم ما يشاء وكيف يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ﴾ معناه: إذا حاسب فحسابه سريع، لأنه تعالى لا يحاسب بعقد ولا يتكلم بآلة ولا يحجزه الكلام مع بعضهم عن الكلام مع غيرهم بل يحاسب الجميع في دفعة واحدة. ومعنى المحاسبة: تعريف كل واحد ما يستحقه من ثواب أو عقاب، حتى روي في الخبر أنه يكون حسابه معهم في مقدار حلب شاة[1].

قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿63﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿64﴾ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴿65﴾ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿66﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿67﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿68﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿69﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي قل لهم يا محمد: من ينجيكم من شدائد البر والبحر وأهوالهما. تقول

(1) تفسير القرطبي: 2/ 435.

العرب لليوم الذي فيه شدة: يوم مظلم، حتى إنهم يقولون: يوم ذو كواكب إذا اشتدت ظلمته حتى صار كالليل ويقال: أراد بالظلمات: ظلمة الليل، وظلمة الغيم وظلمة الأمواج. وقوله تعالى: ﴿تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي تدعونه علانية وسراً. والتضرع: إظهار الضراعة، وهي شدة الفقر والحاجة إلى الشيء. وقرأ أبو بكر: وخفية ـ بكسر الخاء. وقرأ الأعمش: وخيفة من الخوف[1]، كما في آخر الأعراف[2].

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ في موضع الحال معناه: قائلين: لئن أنجيتنا من هذه الشدائد لنكونن من المؤمنين الموحدين المطيعين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ﴾ أي قل الله ينجيكم من شدائد البر والبحر ومن كل غم، ثم أنتم تشركون به الأصنام في الرخاء بعد النجاة وبعد قيام الحجة عليكم.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ راجع إلى مشركي مكة، أي قل لهم يا محمد هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم كما بعث على قوم نوح ولوط من الطوفان والحجارة ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ أي هو القادر على أن يخسف بكم كما فعل بقارون وقومه. ويقال: أراد بقوله عذاباً من فوقكم: الظلمة، أو من تحت أرجلكم أن يغلب عليكم سفهاؤكم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ معناه: أو يخلطكم فرقاً مختلفي الأهواء بأن يضرب بعضكم ببعض بما يلقيه بينكم من العداوة وقيل: معنى ﴿يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يكلكم إلى أنفسكم ويخليكم من الطاعة بذنوبكم فتختلفوا حتى يذوق بعضكم شدة بعض بالحرب والقتال. ويقال: ويذيق بعضكم بأس بعض، يعني بالسيوف يقتل بعضكم بعضاً.

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 435 ـ ابن الجزري، النشر: 2/ 251.

(2) وهي قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ الآية.. (الأعراف: 205).

وقوله تعالى: ﴿ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي انظر يا محمد كيف نبين لهم آية على أثر آية لعلهم يفقهون، أي لكي يفقهوا أوامر الله ثم هم لا يفقهون. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على رسول الله ﷺ فقال: «**يا جبريل ما بقاء أمتي على هذه الخصال الأربع؟**» فقال: إنما أنا عبد مثلك فادع ربك وسله لامتك. فقام رسول الله ﷺ فتوضأ وأحسن الوضوء، ثم قام فصلى وأحسن الصلاة ثم سأل الله أن لا يبعث على أمته عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم، ولا يلبسهم شيعاً، ولا يذيق بعضهم بأس بعض. فنزل جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله قد سمع مقالتك، وإنه قد أجارهم من خصلتين: أن لا يبعث عليهم عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم، ولم يجرهم من الخصلتين الأخيرتين[1]. وقال ﷺ: «**سألت ربي أن لا يبعث على أمتي عذاباً من فوقهم ولا من تحت أرجلهم فأعطاني ذلك، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم. فمنعني ذلك وأخبرني جبريل أن فناء أمتي بالسيف**»[2].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ﴾ أي كذب بالقرآن قومك وهو الصدق ﴿قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي بحفيظ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها. وقيل: معناه لست أقدر أن أحول بينكم وبين الكفر الذي يضركم كما يدفع الوكيل الضرر عن موكله. وعن ابن عباس أن معناه: لست بموكل عليكم أخبركم عن الإيمان. قال: ثم نسخ هذا بآية السيف[3].

وقوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ معناه: لكل وعد ووعيد وقت وأجل، وغاية منه. ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة ﴿وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ يا أهل مكة ذلك إذا نزل بكم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ﴾ معناه: وإذا رأيت المشركين يكذبون ويستهزءون بك وبالقرآن

---

(1) ذكره ابن حجر في: فتح الباري: 9/ 179 ـ والقرطبي في تفسيره: 7/ 10.
(2) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 50.
(3) ابن العربي، الناسخ والمنسوخ: 2/ 210.

فأعرض عنهم، أي اتركهم ولا تجالسهم على وجه الإنكار عليهم إلى أن يتركوا استهزاءهم ويخوضوا في حديث غير القرآن، وذلك أن المشركين كانوا إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في رسول الله ﷺ فسبوه واستهزءوا به، فنهى الله المؤمنين عن مجالستهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ معناه: وإما يوقعنك الشيطان في النسيان بعد النهي فتجلس معهم فلا شيء عليك في تلك الحال التي تكون فيها ناسياً، ولا تقعد بعد الذكرى، أي ثم إذا ذكرت دع مجالسة المشركين فتأثم. قرأ ابن عباس، وابن عامر: ينسينك ـ بالتشديد[1]. فلما نزلت هذه الآية قال المسلمون: يا رسول الله لئن كنا كلما استهزأ المشركون بالقرآن قمنا وتركناهم لا نستطيع أن نجلس في المسجد الحرام ولا أن نطوف بالبيت. فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ما على الذين يتقون الشرك والمعاصي والخوض في آثامهم ومخالفتهم أمر الله من شيء من العقاب[2] ﴿وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ﴾ أي ولكن ذكروهم بالقرآن ذكرى إذا فعلوا وعظوهم لعلهم يتقون الشرك والاستهزاء والخوض. فموضع ذكرى نصب على المصدر، ويجوز أن يكون في موضع رفع، أي هو ذكرى.

الله تعالى:

﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿70﴾ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿71﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿72﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 436 ـ تفسير القرطبي: 7/ 13.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 50 ـ تفسير القرطبي: 7/ 15.

وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿73﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي وذر الكفار الذين اختاروا في دينهم اللعب والباطل والاستهزاء. ويقال: معناه الذين اتخذوا دينهم بهوى أنفسهم. ومن اتخذ دينه بهوى نفسه فهو اللاهي. وقال الفراء في معنى الآية: ليس من قوم إلا ولهم عيد يلهون فيه إلا أمة محمد ﷺ فإن أعيادهم صلاة وتكبير وبر وخير[1]. وقوله: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ معناه: وشغلتهم الحياة الدنيا بما فيها من زخرفها وزينتها.

قوله عز وجل: ﴿وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي ذكر بالقرآن وعظ به كراهة أن تبسل نفس بما كسبت. ويقال: قبل أن تبسل. ويقال: لئلا تبسل نفس، أي لئلا تهلك. وقال الحسن ومجاهد وعكرمة والسدي: تبسل: أي تسلم للهلكة[2]. وقال ابن زيد: معناه وذكر به أن تبسل، أي لئلا تبسل: ومعناه: لئلا يؤخذ. وعن ابن عباس: أن تفضح[3]. وقال الأخفش: أن تبسل: أن تجازى[4]. وقال الفراء: ترتهن[5]. وقال عطية العوفي: من قبل أن تبسل نفس، أي من قبل أن تسلم إلى خزنة جهنم. والمستبسل: المستسلم[6].

قوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ أي ليس لتلك النفس من دون الله ولي ولا شفيع، أي قريب يمنع العذاب عنها، ولا شفيع يشفع لها في الآخرة.

---

(1) الفراء، معاني القرآن: 1/ 339.
(2) تفسير القرطبي: 7/ 16.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 50.
(4) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 492.
(5) الفراء، معاني القرآن: 1/ 339.
(6) الثعلبي في المرجع نفسه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ﴾ أي لو جاءت مكانها بكل ما كان في الأرض جميعاً افتداء عن نفسها لا يقبل منها ويسمى الفداء عدلاً لأنه مثل الشيء. ويقال لأحد جانبي الحمل: عدل ـ بالكسر، لأن كل واحد من العدلين مثل لصاحبه. فمعنى الآية: وإن يفتدى بكل فداء لا يؤخذ منها.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُواْ بِمَا كَسَبُواْۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ﴾ أي وجيع ﴿بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ﴾ أي بما كانوا يجحدون في الدنيا بمحمد ﷺ والقرآن.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ أي قل يا محمد للكفار الذين يدعونكم إلى دين آبائهم: أنعبد سوى الله من الأصنام ما لا ينفعنا إن عبدناه في رزق ولا معاش ولا يضرنا إن تركناه في رزق ولا معاش؟ ﴿وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ عطف على الاستفهام، أي كيف نرجع إلى الكفر بعد إذ هدانا الله لدينه، وأكرمنا بمعرفته، فيكون مثلنا كمثل الذي هوت به الشياطين فأذهبته في الأرض ضالاً. ويقال: كالذي زينت له الشياطين هواه فهو يعمل في الأرض بالمعاصي. وقيل: معناه كالذي استفزته الغيلان في إلهامه فأضلوه فهو حائر. وحيران: نصب على الحال. قرأ الأعمش وحمزة: كالذي استهواه ـ بالألف والامالة. وقرأ طلحة بالألف. وقرأ الحسن: استهوته الشياطون. وفي مصحف عبد الله: استهواه الشيطان[1].

قوله عز وجل: ﴿لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى﴾ أي له أصحاب يدعونه إلى الطريق المستقيم ائتنا واتبعنا وأطعنا فإنا على الطريق. فيأبى أن يأتيهم ويطيعهم. وقيل: إن الآية نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر حين دعا أباه إلى الكفر، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ الآية..

وقوله: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ﴾ هو عبد الرحمن بن أبي بكر.

---

(1) تراجع هذه القراءات في: تفسير القرطبي: 7/ 18 ـ وتفسير الثعلبي، ورقة: 50 ـ وإعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 160.

وقوله تعالى: ﴿لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٌ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى﴾ قيل: كان أبوه وأمه يدعوانه إلى الاسلام، وكان الشياطين والكفار يزينون له الكفر إلى أن منّ الله عليه بعد ذلك بقبول الاسلام[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ﴾ أي قل لهم: إن دين الله هو الإسلام وأمرنا لنخلص العبادة لرب العالمين.

قوله تعالى: ﴿وَأَنۡ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُۚ﴾ عطف على قوله: ﴿لِنُسۡلِمَ﴾ أي أمرنا لنسلم فقيل لنا أسلموا وأقيموا الصلاة بركوعها وسجودها ﴿وَٱتَّقُوهُۚ﴾ أي اتقوا سخطه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾ أي تجمعون يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ أي لإقامة أمر حق وهو الثواب والعقاب في الآخرة، ولم يخلقهما باطلاً لغير شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُۚ﴾ أي وخلق الخلائق يوم يقول كن فيكون. وقيل: معناه واتقوه يوم يقول كن فيكون. وقيل: واذكروا يوم يقول ليوم القيامة كن فيكون مكوناً بإذن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿قَوۡلُهُ ٱلۡحَقُّۚ وَلَهُ ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ﴾ أي خبره في أمر يوم القيامة حق كائن لا محالة وله الملك يومئذ. وتخصيص ذلك اليوم بالملك لأنه اليوم الذي لا يظهر فيه من أحد سوى الله نفع ولا ضر كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾[2]. والصور: قرن ينفخ فيه إسرافيل نفختين فتفنى الخلائق كلهم بالنفخة الأولى ويحيون بالنفخة الثانية، فتكون النفخة الأولى لانتهاء الدنيا والثانية لابتداء الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ أي وعالم ما غاب عن العباد وما علموه، وهو الحكيم في أمره الخبير بأعمال عباده.

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 18 ـ 19.

(2) سورة الإنفطار (82)، الآية: 19.

قال الله تعالى:

﴿۞ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى
ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿74﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ
﴿75﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿76﴾
فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلضَّآلِّينَ ﴿77﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ
إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿78﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا
وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿79﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً﴾ أي واذكر يا محمد إذ قال إبراهيم لأبيه آزر. من قرأ آزر بالنصب فموضعه خفض بدل من أبيه، إلا أنه لا ينصرف لأنه اسم أعجمي، ومن رفعه فعلى النداء[1]: يا آزر. وكان آزر مسكنه كوثى قرية من سوداء الكوفة. قال السدي والحسن: آزر اسم لأبي إبراهيم. وقال الفراء: هو صفة عيب وسب، ومعناه في كلامهم: المعوج[2]. وقيل: معناه الشيخ الهم[3]. وقيل: كان إبراهيم قال لأبيه المخطىء أو قال لأبيه يا مخطىء. وكان على هذا القول اسم آزر تارخ بن ناخور. وقال سعيد بن المسيب ومجاهد: آزر اسم صنم[4]. وهو على هذا التأويل في موضع نصب. وفي الكلام تقديم وتأخير تقديره: أتتخذ آزر أصناماً آلهة من دون الله. وقيل: كان إبراهيم قال لأبيه: لا تتخذ آزر إلهاً ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي في ذهاب عن الحق بين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي كما رأينا

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 85 ـ 86.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/ 340.
(3) الشيخ الهم ـ بالفارسية: الشيخ الفاني.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 51.

النصرة في دينه والحق في مخالفته قومه نريه ملكوت السموات والأرض، أي ملكهما ونريه القدرة التي تقوى بها دلالته على توحيد الله تعالى: وهو ما رأى من السماء والأرض والكوكب والقمر والشمس. وقال مجاهد وسعيد بن جبير: معنى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي آيات السموات والأرض، وذلك أنه أقيم على صخرة وكشف له عن السموات والأرض حتى العرش وأسفل الأرضين، ونظر إلى مكانه في الجنة[1]. وذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا﴾[2] يعني أريناه مكانه في الجنة. وقيل: معنى الآية: كما أرينا إبراهيم قبح ما كان عليه أبوه وقومه من المذهب، كذلك نريه ملكوت السموات والأرض. والملكوت: عبارة عن أعظم الملك، زيدت الواو والتاء للمبالغة، كما يقال: رهبوت خير من رحموت. هذا مثل تقوله العرب، معناه: أن ترهب خير من أن ترحم. فملكوت السموات الشمس والنجوم، وملكوت الأرض الجبال والشجر.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾ أي نريه الملكوت ليستدل بذلك على توحيد الله تعالى وليثبت على اليقين.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ قال المفسرون: إن إبراهيم ولد في زمن النمروذ بن كنعان، وكان النمروذ أول من دعا الناس إلى عبادته، وكان له كهان ومنجمون فقالوا له: إنه يولد في هذه السنة غلام يغير دين أهل الأرض ويكون هلاكك وزوال ملكك على يديه. وقال السدي: رأى النمروذ في منامه كأن كوكباً طلع فذهب بضوء الشمس والقمر حتى لم يبق لهما ضوء ففزع من ذلك فدعا السحرة والكهان وسألهم عن ذلك فقالوا: هو مولود يولد في ناحيتك في هذه السنة يكون هلاك ملكك على يده. فأمر بذبح كل غلام يولد في ناحيته تلك السنة، وأمر الرجال باعتزال النساء وجعل عليهم الحراس. فمكث كذلك ما شاء الله. قال السدي: خرج النمروذ بالرجال إلى المعسكر ونهاهم عن النساء مخافة من ذلك المولود، فبدت له حاجة إلى المدينة فلم يأتمن عليها أحداً

(1) تفسير القرطبي: 7/ 24.
(2) سورة العنكبوت (29)، الآية: 27.

من قومه إلا آزر، فدعاه وأمره لحاجته إلى المدينة وقال له: إنك ثقتي فأقسمت عليك أن لا تدنو من امرأتك ولا تواقعها ثم أوصاه بحاجته. فلما دخل المدينة وقضى حاجة النمروذ قال: لو دخلت على أهلي فرأيت كيف حالهم. فلما نظر إلى امرأته لم يتمالك حتى وقع عليها، وكان قد طهرت من الحيض فحملت بإبراهيم عليه السلام، فلما حملت به قالت الكهنة للنمروذ: إن الغلام الذي أخبرناك به قد حملت به أمه الليلة. فأمر النمروذ بذبح كل ولد من الغلمان. فلما دنت ولادة إبراهيم وأخذها المخاض خرجت هاربة مخافة أن يطلع عليها فيقتل ولدها، فوضعته في موضع ثم لفته في خرقة وجعلته في الحلفاء ثم رجعت إلى زوجها فأعلمته، فانطلق أبوه إليه وحفر له سربا[1] في ذلك المكان وجعله فيه وسد عليه بصخرة مخافة من السباع أن تأكله، وكانت أمه تختلف إليه سراً فترضعه، وكان إذا بكى على أمه أتاه جبريل عليه السلام ووضع أصبعه في فمه فيخرج منه اللبن، وكان يمص سبابة نفسه[2]. وقال أبو روق: كانت أم إبراهيم كلما جاءته لتنظر إليه وجدته يمص أصابعه، فقالت ذات يوم لأنظرن إلى أصابعه، فوجدته يمص من إصبع ماء ومن إصبع لبنا ومن إصبع عسلاً ومن إصبع سمناً. وقال بعضهم: لما وضعت أم إبراهيم حملها ذهبت به فحفرت له حفرة وألقته فيها وسدت عليه بصخرة ورجعت، فسألها أبوه آزر ما فعل حملك؟ قالت: وضعت غلاماً فمات. فصدقها وسكت عنها. وكان إبراهيم يشب في اليوم الواحد مثل ما يشب غيره في الشهر، ويشب في الشهر مثل ما يشب غيره في السنة. ولم يمكث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر يوماً، ثم أخبرت أمه آزر بخبره وما صنعت به. فلما شب إبراهيم في المغارة وعقل وتكلم، أتته أمه ذات يوم فقال لها: من ربي؟ قالت: أنا. قال: ومن ربك؟ قالت: أبوك. قال: من رب أبي؟ قالت: النمروذ. قال: ومن رب النمروذ؟ قالت: اسكت. فسكت، ثم رجعت إلى أبيه وأخبرته بذلك، فأتاه آزر فقال له: يا أبتاه من ربي؟ قال: أمك. قال: ومن رب أمي؟ قال: أنا. قال: ومن ربك؟ قال: النمروذ. قال: ومن رب

---

(1) السرب ـ بالتحريك: حفير أو بيت تحت الأرض.
(2) تفسير القرطبي: 7/ 24.

النمروذ؟ فلطمه وقال: اسكت. فسكت[1]. ثم إنه خرج بعد ذلك من السرب حين غربت الشمس، فنظر إبراهيم إلى الإبل والخيل والغنم فقال: لا بد أن يكون لهذه رب وخالق. ثم تفكر في خلق السماء والأرض وقال: إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني هو ربي ما لي إله غيره. ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي غشيه الليل رأى الزهرة قال هذا ربي، فلما أفل ذلك النجم قال: لا أحب ربا ليس بدائم. ثم نظر فرأى القمر طالعاً في آخر الليل قال هذا ربي، فلما رآه يسير وينتقل من مكان إلى مكان علم أنه محدث لا يصلح أن يكون ربا فقال: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾ فلما رأى الشمس طالعة قد ملأت كل شيء قال هذا ربي هذا أكبر مما قبله، فلما أفلت جاء إلى قومه فرآهم يعبدون الأصنام فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾.

قوله: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ﴾ أي غطى وأظلم. يقال: جنه الليل وأجنه وجن عليه: إذا أظلم. وجننت الميت وأجننته إذا دفنته.

وقوله تعالى: ﴿رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾ في هذا القول ثلاثة أوجه: أحدهما: قال هذا ربي في ظني، لأنه كان في حال فكر واستدلال وكان في ذلك الوقت وقت مهلة له للتروي والنظر، فلما رأى الكوكب في علوه وضيائه قرر نفسه على ما ينقسم حكمه من كونه ربا خالقاً أو مخلوقاً مربوباً. فلما رآه طالعاً آفلاً ومتحركاً زائلاً قضى بأنه محدث لمقارنته أمارات المحدث وأنه ليس برب، وأن المحدث غير قادر على إحداث الأجسام، وأن ذلك يستحيل منه كما استحال ذلك من نفسه إذ كان محدثاً، فحكم بمساواته في جهة الحدوث وامتناع كونه ربا خالقاً، ثم لما طلع القمر فوجد صفته في العظم والإشراق وانبساط النور، قرر نفسه أيضاً على ما ينقسم حكمه فقال هذا ربي، فلما راعاه وتأمله وجده في معنى الكوكب في الطلوع والأفول فحكم له بحكمه وإن كان أكثر منه ضوءاً[2]. ثم لما رأى الشمس في عظمها وإشراقها وتكامل ضيائها قال هذا ربي، لأنها كانت

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 51.
(2) الثعلبي نفسه.

تخالف الكوكب والقمر في هذه الأوصاف، فلما رآها آفلة منتقلة حكم لها بالحدوث وأنها في حكم الكوكب والقمر لوجود دلالة الحدث في الجميع. قالوا: والذي يؤيد هذا التأويل الذي ذكرناه أن قول إبراهيم كان على وجه النظر والتفكر فيما ذكره الله عنه أنه عليه السلام قال: ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾؛ والثاني: وهو الأقرب إلى الصحة أن إبراهيم إنما قال هذا القول وقت الطفولة قبل كمال عقله حين حركته الخواطر للفكرة والنظر في دلائل توحيد الله. فإن قيل: كيف يحمل أن هذا القول من إبراهيم كان على ابتداء النظر؟ وقد تقدم إنكاره على أبيه وقومه عبادة الأصنام بقوله: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً﴾؟ قيل: تقدم الآية في التلاوة لا يوجب أنها متقدمة في الحال، ولا يمتنع أن إبراهيم عليه السلام أنكر على أبيه وقومه بعد هذا النظر الذي ذكرناه؛ والثالث: أن قوله: هذا ربي، على وجه الإنكار الذي يكون مع ألف الاستفهام، وكان قصده من هذا القول استدراج قومه لإقامة الحجة عليهم وتقريبهم إلى الهدى، فإنهم كانوا يعبدون الاصنام، والشمس، والقمر، والكواكب، كأنه قال لهم: هذا ربي في زعمكم كما قال تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾[1]. فلما أفل الكوكب وتبين أنه مسخر مذلل قال: لا أحب الآفلين، أي لا أعظمه تعظيم الرب جل وعز.

قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ معناه على هذا القول: لئن لم يثبتني ربي على الهدى، لأن الله تعالى أثنى على إبراهيم عليه السلام في آية أخرى بقوله: ﴿إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[2]، والسليم: الذي لا شك فيه وفي سلامته من كل عيب.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا رَءَا الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ معناه: فلما رأى القمر طالعاً قال: هذا ربي. يقال: بزغ القمر إذا ابتدأ الطلوع.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ﴾ أي فلما غاب ﴿قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي﴾ أي لئن

---

(1) سورة القصص (28)، الآية: 62، 74.

(2) سورة الصافات (37)، الآية: 84.

لم يرشدني ربي إلى دينه ويثبتني على الطريق المستقيم لأكونن من القوم الضالين عن الهدى.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾ أي فلما رأى الشمس طالعة قال هذا الطالع ربي أو هذا: النور ربي، فلما أفلت، أي فلما غابت الشمس ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ بالله من الأصنام، والأوثان والشمس، والقمر، والكواكب، قالوا: فمن تعبد أنت يا إبراهيم؟ قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ أي إني أخلصت ديني وعبادتي وجعلت قصدي للذي ابتدأ خلق السموات والأرض حنيفاً، أي مائلاً عن الأديان الباطلة إلى دين الحق ميلاً لا رجوع فيه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي لست على دينكم أيها المشركون.

قال الله تعالى:

﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ ۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (80) وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (81) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (82)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ ۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ﴾ وذلك أن قوم إبراهيم خاصموه في مخالفته إياهم وخوفوه بآلهتهم وقالوا: أما تخاف آلهتنا وأنت تشتمها أن تخبلك وتفسدك. وقالوا له: إن موضع كذا قد تركوا عبادة الأصنام فامتحنوا وقحطوا، وأهل موضع كذا احتسبوا عبادة الأصنام فرزقوا السعة والخصب. فأجابهم إبراهيم عليه السلام: ﴿أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ﴾ أي أتخاصموني في توحيد الله ودينه وقد بصرني الله وعرفني دينه وتوحيده بما نصب لي من الدلالات؟

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ﴾ أي لا أخاف من هذه الأشياء

التي تعبدونها وهي مما لا يسمع، ولا يبصر، ولا ينفع، ولا يضر ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي﴾ استثناء منقطع، أي ولكن أخاف مشيئة ربي أن يعذبني ببعض ذنوبي، أو يبتليني من محن الدنيا. وموضع أن يشاء: نصب على تقدير: لا أخاف إلا مشيئة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ﴾ أي أحاط علم ربي بكل شيء وملأ كل شيء علماً وهو يعلم أنكم على غير الحق.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ ببينة على التفكر فيما كان يقوله لهم.

قوله عز وجل: ﴿وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ﴾ أي كيف أخاف الأصنام التي أشركتموها مع الله وهي لا تملك النفع والضر، بل لا تعرف من عبدها ومن ترك عبادتها ﴿وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ﴾ الذي يملك النفع والضر، ويعلم من يعبده ومن لا يعبده ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ﴾ أي عذراً وحجة لكم ﴿فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ﴾ أنا أم أنتم؟ الموحد أو المشرك إن كنتم تعلمون ذلك؟ فلم يجيبوا، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ أي الذين أقروا بتوحيد الله ولم يخلطوا إيمانهم بشرك ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ﴾ من العذاب ﴿وَهُم مُّهۡتَدُونَ﴾ إلى الحجة، وقيل: إلى الجنة. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ قول إبراهيم عليه السلام. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ: وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم[1]؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**إنه ليس بذلك، أفلا تستمعون إلى قول لقمان:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ﴾»[2].

قال الله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿83﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه فتح الباري: 9: 180 رقم 4629 كتاب التفسير - القرطبي في تفسيره - 7: 30.

(2) سورة لقمان: 31 الآية: 13.

(84) وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (85) وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا
وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (86) وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ
صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (87) ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ
عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (88) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا
هَٰؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (89) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ
اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ (90)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي تلك المقالة التي حاج بها إبراهيم حجتنا أعطيناها ولقناها إبراهيم ليحتج بها على قومه، يرفع درجات من نشاء في الدنيا بالحجة والبصيرة، وفي الآخرة بالثواب والفضيلة. ومن قرأ: درجات - بالتنوين[1] لا على الإضافة فمعناه: نرفع من نشاء درجات إلى ربك يا محمد ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ في تفضيل بعض الناس على بعض وتخصيص بعضهم بالنبوة.

قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي وهبنا لابراهيم إسحاق ابناً لصلبه ويعقوب نافلة كلا، يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب هديناهم للنبوة والإسلام ﴿وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ أي هديناه للنبوة والإسلام من قبل إبراهيم ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ أي ومن ذرية نوح. وهذا قول بعضهم جعلوا الهاء راجعة إلى نوح لأنها أقرب إلى اسمه، ولأنه ذكر في جملة المعطوفين على داود وسليمان ممن ليس من ذرية إبراهيم وهو من ذرية نوح، وكلوط عليه السلام الذي كان ابن أخي إبراهيم ولم يكن من ولده. وقال بعضهم: بل هي راجعة إلى إبراهيم لأنه هو المقصود بالذكر فيما تقدم من الآي[2]. ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ أي كما تفضلنا على هؤلاء الأنبياء بالنبوة وما يتصل بها من العز والكرامة، كذلك نتفضل على المحسنين.

(1) مكي، الكشف: 1: 437.
(2) تفسير القرطبي: 7/ 31.

قوله عز وجل: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ (85)﴾ معناه: ومن ذرية إبراهيم وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كل من المرسلين. قال الضحاك: كان إلياس من ولد إسماعيل بن إبراهيم[1]. وقال بعضهم: معنى الآية: وهدينا زكريا، ويحيى، وعيسى، وإلياس. وفي الآية حجة على من أنكر في الحسن والحسين أنهما: أبناء رسول الله ﷺ، لأنه تعالى جعل عيسى ولا أب له من ذرية إبراهيم.

قوله تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا﴾ معناه: وهدينا إسماعيل واليسع وهو تلميذ إلياس وخليفته من بعده وقال محمد بن إسحاق: وهو ابن أخي إلياس عليه السلام. واليسع فيه قراءتان: يقرأ اليسع بالتشديد والتخفيف[2]. ﴿وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ أي وكل هؤلاء الأنبياء فضلناهم بالنبوة والإسلام على عالمي زمانهم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ﴾ أي هدينا بعض آبائهم من قبلهم مثل آدم وشيث وإدريس وبعض ذرياتهم من بعدهم وهو أولاد يعقوب، ومن جملة ذرياتهم نبينا محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانِهِمْ﴾ وهم إخوة يوسف في عصرهم ويحتمل أن يكون المراد بهم من كل من آمن معهم، فإنهم كلهم أدخلوا في هداية الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَاجْتَبَيْنَاهُمْ﴾ أي اصطفينا هؤلاء الأنبياء بالنبوة والإخلاص وأجمعنا فيهم خصال الجيبة، مأخوذ من قولهم: جبيت الماء في الحوض واجتبيته إذا جمعته.

وقوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي ثبتناهم على الطريق الحق وهو دين الإسلام.

قوله: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ أي ذلك الطريق

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 32.
(2) مكي، الكشف: 1/ 438.

المستقيم دين الله يوفق له من يشاء ممن كان أهلاً لذلك. ولو أشرك هؤلاء الأنبياء طرفة عين مع اصطفاء الله تعالى إياهم لبطلت أعمالهم التي كانوا يعملون من الطاعة، فكيف أنتم يا أهل مكة.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ﴾ أي أولئك الأنبياء صلوات الله عليهم أعطيناهم الكتاب المنزل والحكم بين الناس، وأكرمناهم بالنبوة والرسالة، فإن يكفر بملة الأنبياء هؤلاء، يعني قريشاً، فقد قام بها قوماً ليسوا بكافرين وهم أهل المدينة وأتباع النبي ﷺ. وقيل: هم الملائكة. وإنما قال: فقد وكلنا بها. ولم يقل: فقد قام بها تشريفاً للملائكة بالإضافة إلى نفسه على معنى أكرمنا ووفقنا إلى الإيمان بها. ويقال: معناه فقد ألزمناها قوماً ليسوا بها بكافرين فقاموا بها.

قوله عز وجل: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ أي أولئك الأنبياء الذين ذكرناهم من قبل هم الذين أكرمهم الله بالطريقة الحسنة فاقتد بسيرتهم واصبر كما صبروا حتى تستحق من الثواب ما استحقوا. وأما الهاء في «اقتده» فإنما تثبت في الوقف ليتبين بها كسرة الدال، فإن وصلت قلت: ﴿ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ﴾.

وقوله: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ معناه: قل يا محمد: لا أسألكم على الإيمان والقرآن جعلا. إن هو، يعني القرآن، إلا عظة بليغة للجن والإنس. وفي الآية دليل على أن شرائع الأنبياء تلزمنا ما لم نعلم نسخه، لأن اسم الهدى يقع على التوحيد والشرائع.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ (91) وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ (92)﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ﴾ قال ابن عباس، وسعيد بن جبير في معنى هذه الآية: جاء رجل من اليهود إلى رسول الله ﷺ يقال له مالك بن الصيف، وكان رأس اليهود، فقال له النبي ﷺ: «**أنشدك الله يا مالك بالذي أنزل التوراة على موسى عليه السلام أتجد فيها أن الله يبغض الحبر السمين؟**» قال: نعم. قال: «**فأنت الحبر السمين، وقد سمنت من أكلتك التي يطعمك اليهود ولست تصوم**» أي لست تمسك. فضحك بعض القوم، فغضب مالك، وكان حبراً سميناً، ثم التفت إلى عمر رضي الله عنه وقال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فأنزل الله هذه الآية[1]. وقال السدي: نزلت في فنحاص بن عازوراء وهو قائل هذه المقالة. وقال محمد بن كعب: جاء أناس من اليهود إلى النبي ﷺ وهو محتب فقالوا: يا أبا القاسم ألا تأتينا بكتاب من عند الله كما جاء به موسى من عند الله؟ فأنزل الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾[2]، فقال رجل من اليهود: ما أنزل الله عليك ولا على موسى ولا على عيسى ولا على أحد شيئاً. فأنزل الله هذه الآية[3]، ومعناها: ما أعظموا الله حق عظمته، ولا عرفوه حق معرفته إذ جحدوا فقالوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍۗ﴾ أي من كتاب، ولا وحي. قل لهم يا محمد: من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى، يعني التوراة، نوراً وهدى للناس؟ أي ضياء للناس وبياناً لهم من الضلالة يكتبونه صحائف فيظهرون ما فيها ما ليس فيه صفة رسول الله ﷺ وزمانه ومبعثه ونبوته، ويخفون كثيراً، أي يسرون ما فيه صفة النبي ﷺ وآية الرجم.

وقوله تعالى: ﴿وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْۖ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً للمسلمين، أي علمتم أنتم أيها المؤمنون من الأحكام والحدود ما لم تعلموا أنتم

---

(1) الواحدي أسباب النزول: 179 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 53 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 104.

(2) سورة النساء (4)، الآية: 153.

(3) الثعلبي وابن عطية في المصدرين السابقين.

ولا آباؤكم. والأظهر أنه خطاب لليهود، لأنه منسوق على ما سبق معناه: علمتم بالقرآن ما كنتم أخفيتموه قبل نزول القرآن، لأنهم كانوا قد ضيعوا كثيراً من الأحكام وكانوا يعاندون ولا يعملون حتى صاروا كأنهم لم يعلموه.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ معناه: إن هم أجابوك وقالوا علمنا الله وإلا فقل الله علمكم. ويقال معناه: قل الله أنزل الكتاب على موسى ﴿ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي دعهم واتركهم في باطلهم يلهون. ويقال لكل من عمل ما لا ينفعه: إنما أنت لاعب. قال ابن عباس: لما رجع مالك بن الصيف من عند رسول الله ﷺ إلى قومه قالوا له: ويلك ما هذا الذي بلغنا عنك، زعمت أنه ما أنزل الله على بشر من شيء، أرأيت كتابنا من جاء به إلى موسى وهو بشراً؟ قال: إنه قد أغضبني فلذلك قلت ما قلت. قالوا: إذا غضبت قلت غير الحق، والله لا تلي لنا شيئاً. فنزعوه مما كان يلي لهم وولوا مكانه كعب بن الأشرف[1].

قوله عز وجل: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ يعني القرآن الذي كذب به أهل الكتاب ومشركو قريش هو كتاب أنزلناه مبارك أي فيه بركة ومغفرة للذنوب لمن آمن به. والبركة: ثبوت الخير على النماء والازدياد.

وقوله: ﴿مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي هو موافق للتوراة والانجيل وسائر كتب الله في أصل الدين. ويقال: أراد بالذي بين يديه: النشأة الثانية.

قوله تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي أنزلناه للبركة ولتخوف به أهل أم القرى. وسميت مكة أم القرى لأنها أصل القرى دحيت الأرض من تحتها. ويقال: لأنها أعظم القرى شأناً. وقيل: لأنها قبلة تؤمها الناس بالصلاة إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أي الذين يقرون ويصدقون بالبعث يؤمنون بالقرآن. وفي هذا بيان أن الإيمان بالحساب والجزاء يقتضي الإيمان بالقرآن، ولا ينفع بدون الإيمان به وبمحمد ﷺ.

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 53.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ أي يداومون على الصلوات الخمس بركوعها وسجودها ومواقيتها.

قال الله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿93﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿94﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في مالك بن الصيف ومسيلمة الكذاب، الذي كان يدعي النبوة، وفي عبد الله بن سعد بن أبي سرح[1] القرشي، كان عبد الله بن سعد يتكلم بالإسلام وكان يكتب للنبي ﷺ القرآن الذي ينزل عليه في بعض الأخبار، وكان إذا أملى عليه النبي ﷺ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ كتب من قبله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وقال: هذا وذاك سواء. فلما نزلت الآية التي في سورة قد أفلح: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾[2] إلى قوله: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ أملاها عليه رسول الله ﷺ، فلما أملى عليه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ عجب عبد الله من تفصيل خلق الإنسان فجرى على لسانه: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ فقال ﷺ: «**اكتب فهكذا أنزل علي**». فشك عبد الله حينئذ وقال: لئن كان محمد صادقاً فلقد أوحي إلي كما أوحي إليه، ولئن كان كاذباً فلقد قلت كما قال. فأنزل الله هذه الآية[3]،

---

(1) عبد الله بن سعد بن أبي سرح القرشي العامري: كان ممن أهدر النبي ﷺ دمه يوم فتح مكة ثم عفا عنه فحسن إسلامه، ولاه عثمان مصر، وفتح إفريقية، توفي بعسقلان سنة سبع وثلاثين هـ.
ـ الاستيعاب: 3/ 918 ـ الاعلام: 4/ 88.

(2) سورة المؤمنون (33)، الآية: 12 ـ 14.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 179 ـ 180. وتفسير القرطبي: 7 :39.

ومعناها: أي أحد أكفر وأشد وأعتى في كفره ممن اختلق على الله كذباً بأن جعل له شريكاً وولداً كما قال المشركون ومالك بن الصيف، ومن قال: سأنزل مثل ما أنزل الله، يعني عبد الله بن سعد قال: سأقول مثل ما أنزل الله، والمراد بالذي قال أوحي إلي ولم يوح إليه شيء: مسيلمة الكذاب، كان يسجع ويتكهن ويدعي النبوة ويزعم أن الله تعالى أوحى إليه. وأما عبد الله بن سعد بن أبي سرح فارتد ولحق بالمشركين وقال: أنا أعلمكم بمحمد فلقد كان يملي علي فأغيره وأكتب كما شئت.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي لو رأيت الظالمين في غمرات الموت لرأيت لهم عذاباً عظيماً. والظالمون هم الكافرون. وقيل: المنافقون رآهم رسول الله ﷺ يوم بدر في صفوف المشركين، وقد كانوا مسلمين بمكة فأخرجهم أهل مكة معهم كرهاً، فلما رأوا قلة المؤمنين رجعوا إلى الشرك وقالوا: غر هؤلاء دينهم. عنوا به المؤمنين. وقاتلوا مع المشركين فقتلوا جميعاً أو عامتهم. قوله تعالى: ﴿فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ﴾ أي في سكراته ونزعاته وشدائده. قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ﴾ معناه: أن ملك الموت وأعوانه من ملائكة العذاب يبسطون أيديهم عليهم بالعذاب ويقولون لهم: ﴿أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ﴾ أي خلصوا أنفسكم ولستم تقدرون على الخلاص. وقيل: معناه فارقوا أرواحكم الخبيثة كما تقول للذي تعذبه: لأخرجن نفسك ولأرهقن نفسك.

قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ أي يقال يوم قبض الروح، وقيل: يوم القيامة حين معاينة العذاب: اليوم تجزون العذاب الشديد الذي تهانون فيه بكذبكم على الله، وبما كنتم تتعظمون عن الإيمان بمحمد ﷺ والقرآن.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي جئتمونا بلا مال ولا ولد كما خلقناكم في الابتداء. والمعنى: أنه يقال لهم: ولقد جئتمونا فرادى. وفي الخبر أنهم يحشرون يوم القيامة حفاة عراة غرلا[1]. قالت عائشة

---

(1) الغرل ـ جمع الأغرل: وهو الأقلف الذي لم يختن، أي يحشر العبد يوم القيامة وله من

رضي الله عنها: واسوأتاه. الرجل والمرأة كذلك[1]. فقال ﷺ: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾[2] لا ينظر الرجال إلى النساء ولا النساء إلى الرجال شغل بعضهم عن بعض.

قوله تعالى: ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي تركتم وخلفتم ما أعطيناكم من الأموال لغيركم، أي خلف عليها غيركم في دار الدنيا ولم تقدموها لأنفسكم ﴿وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ يشفعون لكم ويقربونكم إلي. ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ أي وصلكم. ومن قرأ: بينكم ـ بالنصب[3] فمعناه: تقطع ما بينكم، أي ما كنتم فيه من الشركة. ﴿وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أنها شفعاؤكم عند الله حين لم تقدروا على شيء يدفع شيئاً من العذاب عنكم. قال الحسن: معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ أي كل واحد على حدة[4]. وقال ابن كيسان: مفردين من المعبودين[5]. وقيل: فرادى، أي وحداناً لا مال لكم ولا زوج ولا ولد ولا خدم. فرادى جمع فردان مثل: سكران وسكارى، وكسلان وكسالى. ويقال أيضاً: فرد ـ بجزم الراء وكسرها وفتحها وجمعه أفراد وقرأ الأعرج: فردى[6] ـ بغير ألف مثل سكرى.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي حفاة عراة غرلا ﴿وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ﴾ أي ما أعطيناكم وملكناكم من الأموال والأولاد والخدم وراء ظهوركم في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾ قرأ أهل المدينة والحسن ومجاهد

= الأعضاء ما كان له يوم ولد، فمن قطع منه عضو يرد في القيامة عليه. وهذا معنى قوله: «غرلا» أي غير مختونين، بأن يرد لهم ما قطع منهم عند الختان.

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 193، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 7/ 107، رقم: 2539.

(2) سورة عبس (80)، الآية: 37.

(3) مكي، الكشف: 1/ 440.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 54.

(5) نفسه.

(6) تفسير القرطبي: 7/ 42.

والكسائي وحفص ـ بالنصب، وهي قراءة أبي موسى الأشعري وقرأ الباقون بالرفع[1].

قوله تعالى:

﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (95) فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ (96) وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (97) وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ (98)﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ أي خالق الحب والنوى، كقوله: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[2] أي خالقهما. وقال الحسن وقتادة: فالق الحب: أي شاق الحبة عن السنبلة، والنواة عن النخلة[3]، والحب جمع حبة. والنوى جمع نواة.

وقوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ أي يخرج الإنسان من النطفة، والنطفة من الإنسان. وسميت النطفة ميتاً لأنها من جملة الموات. وقيل: معناه يخرج النبات الغض الطري من الحب اليابس ويخرج الحب اليابس من النبات. وكل ما يكون نامياً عند أهل اللغة بمنزلة الحي، وما لا يكون نامياً فهو بمنزلة الميت. ويقال: معناه يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن[4].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي ذلكم الذي يفعل هو الله ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي فمن أين تصرفون عن الحق. والإفك في اللغة: هو قلب الشيء وصرفه.

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 440 ـ الثعلبي في تفسيره، ورقة: 54.

(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 14، يوسف 12 الآية 101، ابراهيم (14) الآية: 10، فاطر (35)، الآية: الأولى، الزمر (39)، الآية: 46، الشورى (42)، الآية: 11.

(3) تفسير ابن عطية: 6/ 114.

(4) ابن عطية، المرجع نفسه.

قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ أي شاق عمود الصبح عن سواد الليل. وقال ابن عباس: معناه خالق الإصباح. قال الزجاج: الإصباح والصبح واحد[1]. والأصباح جمع الصبح. ويقال: الإصباح - بكسر الالف: المصدر، ومعناه: الدخول في ضوء النهار. قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ أي لتسكنوا فيه من ظلمته في أوطانهم. وقرأ الحسن: فالق الاصباح - بالفتح جمع صبح[2]. ﴿وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنًا﴾ يسكن فيه خلقه. وقرأ النخعي: فلق الأصباح - على الفعل[3]، ومعناه: نور النهار بالنور لتبتغوا من فضله، وجعل الليل سكنا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ﴾ نصب «الشمس» على معنى وجعل، لأن في جاعل معنى جعل، أي جعل منازل الشمس والقمر بحساب معلوم لا يختلف، إذا انتهى أحدهما إلى أقصى منازله رجع، فإن الشمس تدور على الفلك كله في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، والقمر يدور على الفلك كله في ثمانية وعشرين ليلة ويكون مستوراً في ليلتين ثم يعود إلى ما كان، فيعرف الناس بذلك آجال عقودهم وأوقات عباداتهم وسنين أعمارهم. والحسبان: مصدر، يقال: فلان حسبانة على الله. ويقال: إن الحسبان جمع حساب، كما يقال: شهاب وشهبان.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ أي ذلك الذي وصف تدبير العزيز، أي المنيع في سلطانه، الغالب الذي لا يغلب، العالم بمصالح مملكته.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ أي هو الذي جعل لكم النجوم التي تختلف مواضعها من جهة الشمال والجنوب والصبا والدبور لتعرفوا بها الطرق من بلد إلى بلد في ظلمات البر والبحر، أي في المفاوز ولجج البحار، وفي الليالي المظلمة في السفن، فإن من النجوم ما يجعله السائر تلقاء وجهه، ومنها ما يجعله خلفه، ومنها ما يجعله عن

(1) الزجاج، معاني القرآن: 2/ 274.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 115 ـ البحر المحيط: 4/ 185.
(3) ابن عطية في المصدر نفسه ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 84.

يمينه، ومنها ما يجعله على يساره ليظهر له الطريق التي تؤديه إلى بغيته.

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي بينا العلامات مفصّلة ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي أنشأ خلقكم من نفس آدم عليه السلام وحدها فإنه خلقنا جميعاً منه، وخلق أمنا حواء من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام، وإنما منّ علينا بهذا لأن الناس إذا رجعوا إلى أصل واحد كانوا أقرب إلى أن يألف بعضهم بعضاً.

قوله تعالى: ﴿فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: فمستقر - بكسر القاف[1] على معنى: فمنكم مستقر في أرحام الأمهات ومستودع في أصلاب الآباء. وقال بعضهم: على الضد من هذا. إلا أن لفظ المستقر فيمن خلق، ولفظ المستودع فيمن لم يخلق أقرب. وقال ابن مسعود: معناه فمستقر في الرحم إلى أن يولد، ومستودع في القبر إلى أن يبعث[2]. وقال الحسن: مستقر في الدنيا ومستودع في القبر[3]. وقال مجاهد: فمستقر على ظهر الأرض في الدنيا، ومستودع عند الله في الآخرة[4]. وقال أبو العالية: مستقرها أيام حياتها، ومستودعها حين تموت وحين تبعث[5]. وقال بعضهم: مستقر في الرحم، ومستقر فوق الأرض، ومستقر تحت الأرض، ثم قرأ: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾[6] ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾[7]. وقيل: المستقر في القبر، والمستودع في الدنيا. وقال الحسن: يا ابن آدم أنت وديعة في أهلك، ويوشك أن تلحق بصاحبك[8]. وأنشد قول لبيد:

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 442.
(2) تفسير القرطبي: 7/ 46.
(3) نفسه.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 54.
(5) نفسه.
(6) سورة الحج (22)، الآية: 5.
(7) سورة البقرة (2)، الآية: 36.
(8) تفسير الثعلبي، ورقة: 54.

وما المال والأهلون إلا ودائع ∴ ولا بد يوماً أن ترد الودائع[1]

وقال آخر:

فجع الأحبة بالأحبة قبلنا ∴ والناس مفجوع به ومفجع[2]

مستودع أو مستقر قد خلا ∴ والمستقر يزوره المستودع

قوله عز وجل: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْأَيَٰتِ﴾ أي بينا العلامات الدالة على توحيد الله مفصلة ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ أي لقوم يستدلون بمعاني الآثار. والفقه في اللغة: هو الفهم لمعنى الكلام. إلا أنه قد جعل في العرف عبارة عن علم الفتيا، على معنى أنه استدراك معنى الكلام بالاستنباط عن الأصول. ولهذا لا يجوز أن يوصف الله تعالى بأنه فقيه، لأنه لا يوصف بالعلم على جهة الاستنباط، ولكنه عالم بجميع الأشياء على وجه واحد.

قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿99﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي أنزل من السماء ماء المطر، فإن الله تعالى ينزل المطر من السماء إلى السحاب، وينزله من السحاب إلى الأرض كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾[3].

قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي فأخرجنا من المطر نبات كل

(1) من جملة أبيات رثى بها لبيد أخاه أربد الذي قتلته الصاعقة. وقبله:
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا ∴ فكل امرىء يوماً به الدهر فاجع
(ديوان لبيد: 170 ـ شرح نهج البلاغة: 19/ 290).

(2) في تفسير الثعلبي من غير نسبة، ورقة: 54 ـ وكذا في أدباء العرب، للبستاني: 1/ 63.

(3) سورة ق (50)، الآية: 9.

صنف من أصناف الحبوب معاشاً لهم. فإن قيل: كيف قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فجعل المطر سبباً للنبات، والفاعل بالسبب يكون مستعيناً بفعل السبب، والله تعالى مستغن عن الأسباب؟ قيل: إنما قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ لأن المطر سبب يؤدي إلى النبات وليس بمولود له، والله تعالى قادر على إنبات النبات بدون المطر. وإنما يكون الفاعل بالسبب مستعيناً بذلك السبب إذا لم يمكنه فعل ذلك الشيء إلا بذلك السبب، كما أن الانسان إذا لم يمكنه أن يصعد السطح إلا بالسلم كان السلم آلة للصعود. والطائر إذا صعد السطح بالسلم لم يكن السلم آلة له لأنه يمكنه أن يصعد السطح بدون السلم.

قوله عز وجل: ﴿فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا﴾ أي أخرجنا من المطر نباتاً أخضر وهو ساق السنبلة.

قوله تعالى: ﴿نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا﴾ أي نخرج من ساق السنبلة حباً قد ركب بعضه بعضاً، يعني سنابل البر والشعير والأرز والذرة وسائر الحبوب يركب بعضه بعضاً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ﴾ أي عذوق قريبة التناول ينالها القاعد. والقنوان جمع قنو مثل: صنوان وصنو. والقنو: عذق النخلة. والعذق ـ بفتح العين: النخلة. قال الزجاج: في الآية محذوف، أي دانية وغير دانية، وهي التي تكون بعيدة المتناول[1]. وقرأ الأعرج: قنوان ـ بضم القاف[2]، وهي لغة قيس. وقال مجاهد: معنى قوله: دانية أي متدلية. قال الضحاك: ملتزقة بالأرض[3].

قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ عطف على قوله: ﴿خَضِرًا﴾ أي وأخرجنا جنات، أي بساتين وأشجاراً ملتفة. وكل نبت متكاثف يستر بعضه بعضاً فهو جنة، من جن إذا استتر. وقرأ الأعمش ويحيى بن يعمر وعاصم: وجنات ـ

(1) الزجاج، معاني القرآن: 2/ 275.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 118.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 55.

بالرفع عطفاً على «قنوان» لفظاً وإن لم يكن في المعنى من جنسها[1]. وكذلك قوله: والزيتون ـ بالرفع أيضاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ أي وأخرجنا من شجر الزيتون وشجر الرمان مشتبهاً وغير متشابه، أي منها ما يشبه غيره في الصورة واللون، ومنها ما لا يشبهه. وقيل: معناه: مشتبهاً في المنظر واللون، وغيرها متشابه في الطعم مثل: الرمان الحامض والحلو. والفائدة في الجمع بين شجر الزيتون وشجر الرمان في هذه الآية لأنهما شجرتان يشتمل ورقهما على الغصن من أوله إلى آخره تشتبه أوراقها وتختلف ثمارها.

قوله تعالى: ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي انظروا إلى خروج الثمر نظر الاعتبار إذا عقد وهو غض ﴿وَيَنْعِهِۦٓ﴾ إذا نضج وأخذ اللون من بين أصفر وأبيض وأحمر، فمعناه ﴿ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ﴾ أي ونضجه وإدراكه. قرأ أبو رجاء: ويانعه ـ بالألف[2]. قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ﴾ قرأ أهل الكوفة غير عاصم: ثمره ـ بضم الثاء والميم[3] على جميع الثمار، فيكون جمع الجمع، لأن الثمر جمع الثمار. ومعنى الآية: انظروا إلى الثمر في ابتداء طلوعه وانظروا إليه في انتهاء حالة ووقت إدراكه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي إن في خلق هذه الأشياء وتصريفها ونقلها من حال إلى حال لعلامات دالة على البعث لقوم يؤمنون بالله. وهذه الآية دالة للمؤمنين وغيرهم، إلا أنه خص المؤمنين بالذكر لأنهم هم الذين ينتفعون بالاستدلال بها.

قوله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿100﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿101﴾﴾.

---

(1) ابن عطية، في المرجع نفسه.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 55.
(3) مكي، الكشف: 1/ 443.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الزنادقة قالوا: إن الله تعالى وإبليس أخوان: فالله تعالى خالق الناس والدواب والأنعام وكل خير، وإبليس خالق السباع والحيات والعقارب وكل شر[1]. فذلك قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًاۚ﴾[2]. وقال مقاتل: نزلت الآية في جهينة وخزاعة قالوا: إن صنفاً من الملائكة يقال لهم الجن بنات الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً[3]. وانتصب «الجن» لكونه بدلا من شركاء، أو لأنه مفعول ثان على تقدير: وجعلوا الجن شركاء لله، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًاۚ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَهُمْۖ﴾ يجوز أن يكون الهاء والميم عائدة إلى أهل الشرك، ويجوز أن يكون عائدة على الجن على معنى أن الله خلق الجن، فكيف يكونون شركاء له.

قوله تعالى: ﴿وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَـٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ أي وكذبوا بنسبة البنين والبنات إلى الله تعالى، فإن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله. والنصارى قالوا: المسيح ابن الله. واليهود قالوا: عزير ابن الله. وكذبوا كلهم لعنة الله عليهم. ويقال: خرق واخترق، واختلق وافترى: إذا كذب. وقرأ أهل المدينة: وخرقوا ـ بالتشديد على التكثير[5]. قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍۚ﴾ أي بجهلهم بلا حجة ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ كلمة تنزيه. نمجد الله تعالى عن كل سوء، أي سبحوه أيها المؤمنون عما يقول عليه الجاهلون. وقوله: ﴿تَعَـٰلَىٰ﴾ من العلو، أي استعلى عما وصفوه به. ويجوز في صفات الله «علا» ولا يجوز «ارتفع»، لأن العلو قد يكون بالاقتدار وبالارتفاع يقتضي الجهة والمكان.

قوله عز وجل: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ أي مبتدع السماوات والأرض، أي منشئهما ابتداء على غير مثال سبق.

---

(1) في تفسير القرطبي: 7/ 53 عن الكلبي ـ وكذا الواحدي في: أسباب النزول: 180.
(2) سورة الصافات (37)، الآية: 158.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 55.
(4) سورة الزخرف (43)، الآية: 19.
(5) مكي، الكشف: 1/ 443.

قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ﴾ أي من أين يكون له ولد، وكيف يكون له ولد ولم تكن له زوجة؟ ولا يكون الولد إلا من زوجة.

قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ نفي للزوجة والولد، أي كيف يكون له ولد وصاحبة وقد خلق الأشياء كلها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ من خلق العباد ومصالحهم، وجهل الكفار وعنادهم.

قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (102) لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ (103) قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ (104) وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (105)﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾ معناه: أن الله الذي خلق الأشياء كلها وعلمها وأشركتم به هو الله تعالى ربكم لا إله غيره خالق كل شيء من الخلق فأطيعوه ووحدوه ولا تشركوا بينه وبين غيره في العبادة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ أي حافظ.

قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ أي لا تدرك الأبصار كنهه وهو يدرك الأبصار، أي يعلم كنهها وماهيتها، فإنه لا أحد يعلم أن الإنسان لم صار يبصر من عينيه ولا يبصر بغيرها، وما الشيء الذي يصير به الانسان مبصراً، وكيف حقيقة المبصر؟ فأعلم الله تعالى أن خلقا من خلقه لا يدرك كنهه ولا يحيطون بعلمه فكيف يحيطون بالله؟ فمن حمل الآية على هذا التأويل لم يكن فيه ما ينفي الرؤية في الآخرة لأن معنى الرؤية غير معنى الاحاطة بحقيقة الشيء. وقال بعض المفسرين: إن الإدراك إذا قرن بالبصر كان المراد منه الرؤية. فإنه يقال: أدركت ببصري، ورأيت ببصري بمعنى واحد، كما يقال: أدركت بأذني، وسمعت بأذني بمعنى واحد. قالوا: وأصل الادراك اللحوق، نحو قولك: أدركت زمان فلان، وأدرك فلان أبا حنيفة، وأدرك الزرع والثمر، وأدرك الغلام إذا لحق حال الرجال، وإدراك البصر الشيء ولحوقه له برؤيته إياه، إلا أنه لا يمتنع أن تكون

هذه الآية عامة من جهة اللفظ والمراد منها الخصوص[1]، توفيقاً بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ أي اللطيف بعباده في التدبير الخبير بمصالحهم.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾ أي قد جاءكم القرآن الذي فيه البيان والبصائر ـ جمع بصيرة ـ وهي الحجة البينة. فمن أبصر فلنفسه نفعه، ومن عمي عن الحق والقرآن فعلى نفسه ضرر ذلك ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أحفظ أعمالكم وأجازيكم عليها، فإن الله يجازيكم على أعمالكم. وقيل: معناه: لست عليكم بحفيظ فأحول بينكم وبين إضراركم بأنفسكم، وإنما أنا رسول أبلغكم رسالة ربي وهو الحفيظ عليكم لا يخفى عليه شيء من أعمالكم.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ﴾ أي مثل ما صرفنا الآيات وبيناها فيما يتلى عليك نصرف الآيات ونبينها في المستقبل لئلا يقولوا مختلقة من تلقاء نفسك، ولئلا يقولوا درست، أي قرأت كتب أهل الكتاب. ومن قرأ: دارست فمعناه: ذاكرت أهل الكتاب. وكان أهل مكة يقولون: إنما يتعلم من جبر ويسار: وكانا غلامين عبرانيين بمكة. ومعنى: درست ـ بفتح الدال والراء، أي التي تتلوها علينا. ومعنى: دارست، أي قارأت أهل الكتاب وتعلمت منهم

(1) وقد فسر ابن جرير الطبري هذا الخصوص فقال: الآية على الخصوص لأنه جائز أن يكون المعنى: لا تدركه أبصار الظالمين في الدنيا والآخرة، وتدركه أبصار المؤمنين وأولياء الله. وجائز أن يكون معناه: لا تدركه الأبصار بالنهاية والإحاطة، وأما بالرؤية فبلى. وجائز أن يكون معناها: لا تدركه الأبصار في الدنيا وتدركه في الآخرة. وجائز أن يكون معناها: لا تدركه أبصار من يراه بالمعنى الذي يدرك به القديم أبصار خلقه، فيكون الذي نفى عن خلقه من إدراك أبصارهم إياه هو الذي أثبته لنفسه، إذا كانت أبصارهم ضعيفة لا تنفذ إلا فيما قواها جل ثناؤه على النفوذ فيه. وكانت كلها متجلية لبصره لا يخفى عليه منها شيء. ثم قال: ولا شك في خصوص قوله: (لا تدركه الأبصار) وأن أولياء الله سيرونه يوم القيامة بأبصارهم. غير أنا لا ندري أي معاني الخصوص الأربعة أريد بالآية. (تفسير الطبري: 12/ 19).

(2) سورة القيامة (75)، الآية: 22 ـ 23.

وقرأت عليهم وقرأوا عليك. وقرأ قتادة: درست، أي قريت وتليت. وقرأ الحسن وابن عامر ويعقوب: درست ـ بفتح الدال والراء والسين وجزم التاء، يعني: تقادمت وامحت ومضت. وذكر الأخفش: درست ـ بضم الراء، ومعناها: درست. إلا أن ضم الراء أشد مبالغة. وقرأ ابن مسعود والأعمش: درس ـ بفتح السين من غير تاء[1]، يعنون النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أي ولنبين القرآن أو التصريف لقوم يعلمون. . .

قوله تعالى:

﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿106﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿107﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿108﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي اعمل يا محمد بما أنزل إليك في القرآن من حلاله وحرامه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أنزله.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي اتركهم في ضلالتهم، وهذا منسوخ بآية السيف[2]. وقيل: معناه أعرض عنهم استجهالاً لهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟﴾ أي لو شاء الله لوفقهم إلى الإيمان. ﴿وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تمنعهم عما يضرهم ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ أي وما أمرناك أن تلزمهم الإيمان شاءوا أو لم يشاءوا فإنك لا يمكنك أن تفعل ذلك بهم، وإنما الله هو الذي يقدر على فعل هذا، ولكنه لم يفعل حتى لا يزول التكليف. وإنما جمع بين «حفيظ» و «وكيل» لاختلاف معناهما، فإن الحافظ

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 443 ـ ابن الجزري، النشر في القراءات العشر: 2/ 261 ـ تفسير القرطبي: 7/ 58.

(2) ابن العربي، الناسخ والمنسوخ: 2/ 212.

للشيء هو الذي يصونه مما يضره، والوكيل بالشيء هو الذي يجلب الخير له.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ وذلك حين قال الله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[1]. قال المشركون: يا محمد لئن لم تنته عن سب آلهتنا وعيبها لنسبن إلهك الذي تعبده. فأنزل الله تعالى هذه الآية، أي لا تسبوا معبودهم الذين يعبدونهم من دون الله فيسبوا الله اعتداء وظلماً[2]. فنصب «عدواً» على المصدر أن تعدون عدواً. ويقال: نصب على إرادة اللام، أي يسبون للعدو.

قوله تعالى: ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي بجهلهم يحملهم الغيظ على أن يسبوا معبودكم. وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا أراد أن يأمر غيره بالمعروف وهو يعلم أن المأمور يقع بذلك في شر مما هو فيه من شتم أو ضرب أو قتل، كان الأولى أن لا يأمره ويتركه على ما هو فيه. وقرأ بعضهم ﴿عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[3] أي أعداء، نصب على الحال. وقال قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فنهاهم الله عن ذلك لئلا يسبوا الله فإنهم قوم جهلة[4].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ أي كما زينا لك دينك وعملك، كذلك زينا لكل أمة عملهم الذين يعملونه بميل الطبائع إليه مجاراة لهم على فعلهم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ﴾[5].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ﴾ أي مصيرهم ومتقلبهم إلى الله فيجزيهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا

---

(1) سورة الأنبياء (21)، الآية: 98 - 99.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 180.
(3) تفسير القرطبي: 7/ 61.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 56، الواحدي، أسباب النزول: 181.
(5) سورة النساء (4)، الآية: 155.

ٱلْأَيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (109) وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (110) ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا﴾ أي حلفوا بالله واجتهدوا في المبالغة في اليمين لئن جاءتهم آية، أي علامة لنبوتك لنصدقن بها، وعنوا بالآية الآيات التي كانوا يقترحونها عليه. قل لهم يا محمد: إن مجيء الآيات من عند الله إن شاء أنزلها وإن شاء لم ينزلها، وإنما ينزل على حسب المصلحة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُشْعِرُكُمْ﴾ خطاب للمؤمنين، أي وما يدريكم أيها المؤمنون أنها إذا جاءت لا يؤمنون لما سبق لهم في علم الله من الشقاوة. قرأ مجاهد وقتادة وأبو عمرو وابن كثير: إنها ـ بالكسر على الابتداء، وخبره: لا يؤمنون. وقرأ الباقون بالفتح[1]، ومعناه عند الخليل وسيبويه: لعلها إذا جاءت. وقرأ ابن عامر وحمزة: لا تؤمنون ـ بالتاء على مخاطبة الكفار، أي وما يشعركم يا أهل مكة أنها إذا جاءت لا تؤمنون. وقرأ الباقون بالياء[2]. وقرأ الأعمش: وما يشعركم أنها إذا جاءتهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ (110)﴾ أي نترك أفئدتهم وأبصارهم متقلبة كما هي في الحيرة التي بهم والغفلة التي فيهم. فلا يوفقهم مجازاة لهم، فلا يؤمنون كما لم يؤمنوا به أول مرة، أي أول ما رأوا من الآيات: وقيل: نقلب أفئدتهم وأبصارهم على جمر جهنم ونارها جزاء على ترك الإيمان وعقوبة عليه ﴿وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي نتركهم في ضلالتهم يتحيرون ويترددون.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ

---

(1) مكي، الكشف: 1: 445، النشر 2: 261، تفسير الثعلبي: 56.

(2) المصادر السابقة.

﴿قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ نزلت هذه الآية في رهط من أهل مكة من المستهزئين وهم: الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن عبد يغوث وغيرهم قالوا: يا محمد ابعث لنا بعض موتانا حتى نسألهم عنك أحق ما تقول أم باطل فنؤمن بك؟ وأرنا الملائكة يشهدون أنك رسول الله، واتنا بالله والملائكة قبيلاً، أي كفيلا على ما تقول أنه الحق. فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة معاينة للشهادة على نبوتك كما سألوك، وكلمهم الموتى بأنك رسول الله، وأن القرآن كلامه، وجمعنا عندهم كل شيء من الطيور والوحوش والسباع وسائر الدواب كفلا يكفلون بصحة ما تقول يا محمد ما كانوا ليؤمنوا بك إلا أن يوفقهم الله للإيمان ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ أن الله قادر على ذلك. ويجوز أن يكون معنى «قبلاً»: يقابلهم ويواجههم من المقابلة، ويقال جماعة جماعة على معنى أن القبل جمع القبيل، والقبيل جمع قبيلة كسفينة وسفن. قرأ أهل المدينة والشام: قبلاً - بكسر القاف وفتح الباء[2]، أي معاينة. والمعنى: لو ناطقتهم الأرض والسماء والطير والوحوش أن محمداً رسول الله، وأن ما أتاكم به حق، قالوا لهم ذلك معاينة ومشافهة ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿112﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿113﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿114﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿115﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ﴾ أي كما جعلنا لك ولأمتك أعداء مثل أبي جهل وأصحابه، كذلك جعلنا لمن يقدمك

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 131.

(2) مكي، الكشف: 1/ 446.

من الأنبياء وأممهم أعداء. و«شياطين» نصب على البدل من «عدواً» ومفسراً له، ويجوز أن يكون مفعولاً ثانياً. قال ابن عباس في معنى هذه الآية أن إبليس قسم جنده فريقين، فبعث فريقاً منهم إلى الإنس وفريقاً إلى الجن، فشياطين الإنس وشياطين الجن يلتقي بعضهم ببعض، فيقول بعضهم لبعض: أضللت صاحبي بكذا وكذا، أتيته من قبل الشهوات واللذات من المراكب واللباس والطعام والشراب، فإن أعياني من وجه أتيته من وجه آخر، فأضل صاحبك بمثله. فذلك قوله: ﴿يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يلقي بعضهم إلى بعض ويملي بعضهم على بعض زخرف القول المموه الذي يكون فيه تزيين الأعمال القبيحة[1].

وقوله: ﴿غُرُورًا﴾ نصب على المصدر كأنه قال: يغرون به غروراً. وذهب بعض المفسرين أن الشياطين اسم لكل عات متمرد من الجن شياطين ومن الإنس شياطين، كما روي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: دخلت على رسول الله ﷺ وهو في المسجد، فأمرني أن أصلي ركعتين فصليت وجلست إليه فقال: «**يا أبا ذر تعوذ بالله من شياطين الانس والجن**». فقلت: يا رسول الله أوَمِن الإنس شياطين؟ فقال ﷺ: «**أوما تقرأ قوله تعالى: ﴿شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ﴾[2]؟**».

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء ربك أن يمنع الشياطين من الوسوسة ما فعلوه، ولكن يمتحن عباده بما يعلم أنه أبلغ في الحكمة وأجزل في الثواب.

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وافتراءهم وكذبهم على استجهالاتهم فإني القادر عليهم.

قوله عز وجل: ﴿وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ عطف على «غروراً»، أي يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول للغرور ولتميل إليه أفئدة الذين لا يقرّون بالبعث، ولكن يرضوا القول المزخرف ويكتسبوا ما هم

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 67.
(2) رواه النسائي في سننه: 8/ 242، الاستعاذة من شر شياطين الإنس.

مكتسبون من الإثم وهو ما قضى عليهم في اللوح المحفوظ. يقال: اقترف فلان ذنباً إذا عمله، وقيل: معنى ليقترفوا: أي ليختلقوا ويكذبوا. وقرأ النخعي: ولتصغى ـ بضم التاء وكسر الغين، أي يميل[1]. والإصغاء: الإمالة، ومنه الحديث أن رسول الله ﷺ كان يصغي الإناء للهرة[2]. والافئدة جمع فؤاد مثل غراب وأغربة. ﴿وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ أي وليكتسبوا ما هم مكتسبون. وقال ابن زيد: وليعملوا ما هم عاملون. يقال: اقترف فلان هذا الأمر، أي اكتسبه. وقارفت الأمر، أي واقعته. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾. ومن قرأ: وليرضوه وليقترفوا ـ بجزم اللام على لفظ الأمر[3] فمعناه: التهديد: أي اعملوا ما شئتم.

قوله عز وجل: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾ وذلك أن نفراً من أهل مكة قالوا: يا محمد اجعل بيننا وبينك حكماً من اليهود والنصارى فإنهم قرأوا الكتب قبلك. فأنزل الله هذه الآية، ومعناها: قل لهم يا محمد: أفغير الله أطلب رباً ومعبوداً يساوي حكمه حكم الله فأجعله حكماً وهو الذي أنزل إليكم القرآن مبيناً أمره ونهيه بلغة تعرفونها؟ ويقال: متفرقاً سورة سورة وآية آية ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي التوراة وهم: عبد الله بن سلام وأصحابه يعلمون أن القرآن منزل من ربك بما تقدم لهم من البشارة في كتبهم بأن الله يبعث في آخر الزمان نبياً من ولد إسماعيل وينزل عليه القرآن.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بما قام لهم من البراهين على ذلك.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي لا تكونن يا محمد من الشاكين في أنهم يعلمون ذلك. ويقال: هذا خطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره وكأنه قال: لا تكونن أيها الجاهل بأمر محمد ﷺ من الشاكين في أمره. قرأ الحسن

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 57.

(2) رواه ابن ماجه في سننه: 1/ 131، رقم: 367، باب الوضوء من سؤر الهرة ـ والبيهقي في السنن الكبرى: 1/ 245.

(3) تفسير القرطبي: 7/ 70.

والأعمش وابن عامر وحفص: منزل ـ بالتشديد من التنزيل، لأنه أنزل نجوماً مرة بعد مرة، وقرأ الباقون بالتخفيف من الإنزال[1].

قوله عز وجل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًاۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾. قرأ أهل الكوفة ويعقوب: كلمة ـ على التوحيد، وقرأ الباقون: كلمات ـ على الجمع[2]. ومعنى الآية: وتم إلزام الحجة على وجه الحكمة لا نقصان في ذلك. قوله: ﴿صِدْقًا﴾ أي مخبره على ما أخبر به فيما وعد وأوعد. ﴿وَعَدْلًاۚ﴾ أي أحكامه كلها عدلاً. و﴿لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦۚ﴾ أي لا مغير لحكمه ودينه، فإن اليهود والنصارى وإن غيروا التوراة والانجيل لم يمكنهم أن يأتوا بحكم حتى يقوم مقام حكمه. وقيل: معناه وتمت كلمة ربك، أي وجب قول ربك بأنه ناصر محمداً ﷺ، وأن عاقبة الأمر له صدقاً وعدلاً لا مغير لقوله: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى:

﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿116﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿117﴾ فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿118﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿119﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ وذلك أن أهل مكة كانوا يستحلون أكل الميتة ويدعون المسلمين إلى أكلها وكانوا يقولون: إن ما ذبح الله فهو أحل مما ذبحتم أنتم بسكاكينكم. فأنزل الله هذه الآية، ومعناها: وإن تطع يا محمد أكثر من في الأرض يصرفوك عن دين الله.

---

(1) النشر: 2/ 262 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 57.
(2) مكي، الكشف: 1/ 447.
(3) سورة غافر (40)، الآية: 51.

وإنما قال: ﴿أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ لأن أكثرهم كفار ضلاَّل.

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ معناه: إن أكثرهم يتبعون أكابرهم بالشك يتبعونهم فيما لا يعلمون أنهم على الحق، وإنما يعذبون على هذا الظن لأنهم اقتصروا على الظن والجهل واتبعوا أهواءهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون في قولهم: ما قتل الله أحق أن تأكلوه مما قتلتم أنتم بسكاكينكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦۖ﴾ أي عن دين الإسلام وشرائعه ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ بمحمد والإسلام. وإنما قال: أعلم، لأن الله تعالى يعلم الشيء من كل جهاته، وغيره يعلم الشيء من بعض جهاته.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ عطف على ما دل عليه الكلام الذي قبله، كأنه قال: كونوا على الهدى فكلوا مما ذكر اسم الله عليه من الذبائح إن كنتم بآياته مؤمنين، هذا للترغيب في اعتقاد صحة إباحته وفي أكله.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تَأۡكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ يعني من الذبائح. وموضع «أن» نصب لأن «في» سقطت. ﴿وَقَدۡ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيۡكُمۡ﴾ أي وقد بين لكم ما حرم عليكم من الميتة والدم ولحم الخنزير على ما تقدم في سورة المائدة[1]. وقرأ الحسن وقتادة ومجاهد وأهل المدينة وحفص: وقد فصل لكم ما حرم عليكم ـ بالفتح فيهما على معنى: فصل الله. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو بضمهما جميعاً، وقرأ أهل الكوفة إلا حفصا فصل بالفتح وحرم بالضم، وقرأ عطية العوفي: فصل ـ بالتخفيف مفتوحاً، يعني قطع الحكم فيما حرم عليكم[2].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ٱضۡطُرِرۡتُمۡ إِلَيۡهِۗ﴾ أي إلا ما دعتكم الضرورة إلى أكله فقد رخص لكم حينئذ.

---

(1) وهو قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ﴾ (سورة المائدة (5)، الآية: (3).

(2) مكي، الكشف: 1/ 448 ـ النشر: 2/ 262، تفسير القرطبي: 7/ 73.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا﴾ يعني الكفار ليأكلون الميتة والذبائح التي لم يذكر اسم الله عليها عمداً والتي يذبحونها لآلهتهم بلا علم عندهم ولا بصيرة يتبعون الهوى والشهوة في ذلك.

قوله تعالى: ﴿لَّيُضِلُّونَ﴾. قرأ الحسن وأهل الكوفة بضم الياء لقوله: ﴿يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، وقرأ الباقون بفتحها[1] لقوله: ﴿هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ﴾ فمعنى قراءة من قرأ بضم الياء: إنهم يصرفون الناس عن الهدى بالدعاء إلى أكل الميتة على وجه الجدال والخداع.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي أعلم بعقوبة المتجاوزين عن الحلال إلى الحرام.

قوله تعالى:

﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟
يَقْتَرِفُونَ (120) وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ
إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (121) أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ
وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ
زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (122) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا
لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (123)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ أي لا تقربوا ما حرم الله عليكم جهراً ولا سراً. ويقال: أراد بظاهر الإثم الزنا الظاهر وبباطنه الزنا السر، فإن العرب كانوا يرون الزنا ظاهراً معصية ولا يرونه في الخفية معصية.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ أي إن الذين يعملون المعصية ظاهراً وباطناً سيعاقبون في الآخرة بما كانوا يكسبون في الدنيا من المعاصي والفواحش.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ يعني من الذبائح.

---

(1) مكي، الكشف: 1/ 449.

روي عن عبد الله بن عمر أنه أتى على جزار يذبح شاة ونسى أن يذكر اسم الله عليها، فأمر ابن عمر غلامه أن يقوم عنده، فإذا جاء إنسان ليشتري منه قال: إن ابن عمر يقول إنه لم يذكها فلا تشتر. وقال ابن سيرين: إذا ترك التسمية ناسياً لم تؤكل. إلا أن أكثر أهل العلم على أن نسيانها لا يوجب التحريم. وهكذا روي عن علي وابن عباس ومجاهد وعطاء وابن المسيب قالوا: إن ترك التسمية ناسياً لا بأس بأكلها، لأن خطاب الآية يتناول العامد، إذ الناسي في حال نسيانه لا يكون مكلفاً[1].

قوله تعالى: ﴿لَفِسْقٌ﴾ أي إن أكله لفسق. وقيل: إن ترك التسمية، وقيل: المذبوح بغير تسمية الله فسق فيه حين ذبح على غير وجه الحق، كقوله: ﴿أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ﴾ أي إن الشياطين ليوسوسون لأوليائهم من الإنس وهم: أبو الأحوص الجشمي، وبديل بن ورقاء الخزاعي وغيرهما من أهل مكة كانوا يخاصمون النبي ﷺ في أكل الميتة واستحلالها[3]. والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس مع الخفية. ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ﴾ أي في أكل الميتة واستحلالها من غير اضطرار ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مثلهم. وفي هذا دليل أن من استحل شيئاً مما حرم الله أو حرم شيئاً مما أحل الله فهو مشرك. وإنما سمي مشركاً لأنه اتبع غير الله فأشرك بالله غيره.

قوله عز وجل: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾ الآية.. قال ابن عباس: نزلت في عمار بن ياسر وأبي جهل. ويقال: إن المراد بالآية النبي ﷺ وأبو جهل. ومعنى الآية على القول الأول: أو من كان كافراً فهديناه إلى المعرفة والإسلام ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا﴾ وهو نور الإيمان والقرآن والحكمة، يضيء بذلك النور فيما بين الناس كمثل من هو في الضلالة وظلمات الكفر ليس بخارج منها أبداً. بين الله

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 75، ابن عطية، المحرر الوجيز: 6/ 140.

(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 145.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 58 ـ الواحدي، أسباب النزول: 182.

بهذه الآية أن أبا جهل ليس بخارج من الضلالة أبداً. وقال بعضهم: المثل زائد تقديره كمن في الظلمات. وعن ابن عباس أيضاً أن معناه ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ﴾: يريد حمزة بن عبد المطلب، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾: أبو جهل. رمي رسول الله ﷺ بفرث وحمزة كافر، فأخبر حمزة بما فعل أبو جهل وهو راجع من قنصه وبيده قوس، فأقبل وهو غضبان حتى علا أبا جهل بالقوس وهو يتضرع ويستكين ويقول: أما ترى ما جاء به محمد، قد سفه عقولنا وسب آلهتنا وخالف آباءنا؟ فقال حمزة: ومن أسفه منكم تعبدون الحجارة من دون الله، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله. فأنزل الله هذه الآية[1].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي كما زين لأبي جهل عمله الذي كان يعمل، كذلك زين للكافرين أعمالهم مجاراة لهم على كفرهم. وقال الحسن: ما زينها لهم إلا الشيطان.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي كما جعلنا في كل قرية ذا نور يمشي به في الناس، كذلك جعلنا في كل قرية رؤساءها وكبراءها وعظماء أهلها مجرميها. وقيل: معناه جعلنا في أهل مكة عظماءهم مجرميها كذلك جعلنا في كل قرية.

قوله تعالى: ﴿لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا﴾ أي ليصير أمرهم إلى أن يمكروا بالتكبر وتكذيب الرسل ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي إن ذلك المكر يحيق بهم وما يشعرون أن كل وبال مكرهم راجع إليهم.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ (124) فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ

(1) الواحدي، أسباب النزول: 182 ـ تفسير القرطبي: 7/ 78 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 58.

ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿125﴾ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿126﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ﴾ أي إذا جاءت الأكابر المذكورين ـ وقيل أهل مكة ـ إذا جاءتهم دلالة واضحة على نبوة رسول الله ﷺ قالوا: لن نصدق حتى نعطى من الآيات مثل ما أعطي رسل الله من المعجزات والدلائل. وذلك أن الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك، لأني أكبر منك سناً وأكثر منك مالاً. وقال مقاتل: قال أبو جهل: زاحمنا بنو عبد المطلب في الشرف حتى إذا كنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه. والله لا نؤمن به ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه. فأنزل الله تعالى هذه الآية(1).

يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ أي هو أعلم إلى من يرسل ومن يختص بالرسالة ومن هو أهل لها. وهذا جواب يمنعهم أن يكونوا رسلاً حين أنفوا أن يكونوا أتباعاً للرسل بعد قيام حجة النبي ﷺ، بين الله تعالى أنه إنما يجعل الرسالة عند من يقوم بأدائها ولا يجعلها عند من يضيع ولا يصبر على المكاره. وقيل: إنما لم يجعل الله الرسل من الرؤساء والأغنياء لأن الناس يتبعونهم وإن لم يأتوا بالحجج، فيقول من بعدهم: إنما اتبعوهم لأنهم كانوا رؤساء أكابر.

قوله عز وجل: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي سيصيب الذين اكتسبوا الجرم مذلة وهوان ثابت لهم عند الله وعذاب شديد بكفرهم وتكذيبهم الرسل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: ثم انتقل إلى ذكر عمار وأبي جهل فقال عز وجل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ أي فمن يرد الله أن يوفقه للإسلام يوسع قلبه ويلينه لقبول الإسلام، ومن يرد أن يخذله ويتركه في ضلالة الكفر ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ قيل: الحرج موضع الشجر الملتف، يعني أن قلب الكافر لا تصل إليه الحكمة كما لا تصل الراعية إلى

(1) تفسير القرطبي: 7/ 80.

الموضع الذي يلتف فيه الشجر. وقال أهل اللغة: الحرج: أضيق الضيق[1]. وقال مجاهد: الحرج الشك. وقال قتادة: ملتبساً. وقال النضر بن شميل: قلقاً. وقال الكلبي: ليس للخير فيه منفذ[2]. قرأ ابن كثير: ضيقاً ـ بالتخفيف، وشدده الباقون[3]، وهما لغتان مثل: هين وهين، ولين ولين، وقوله تعالى: ﴿حَرَجًا﴾ قرأ أهل المدينة وأبو بكر بكسر الراء وفتحها الباقون[4]، وهما لغتان مثل: دنِف ودَنف.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني يشق عليه الإيمان ويمتنع ويعجز عنه كما يشق عليه صعود السماء. واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ فقرأ أهل المدينة والبصرة والكوفة إلا أبا بكر: يصعد ـ بتشديد الصاد والعين من غير ألف. وقرأ طلحة والنخعي وأبو بكر: يصاعد ـ بتشديد الصاد وبألف بعدها بمعنى: يتصاعد. وقرأ الأعرج وأبو رجاء: يصعد ـ مخففاً، أي لا يجد مخرجاً يميناً ولا شمالاً، فكأنه من الضيق يصعد إلى السماء ولا يستطيعه. وقرأ عبد الله: كأنما يتصعد[5].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي مثل ما قصصنا عليك يجعل الله اللعنة في الدنيا والعذاب في الآخرة على الذين لا يؤمنون، أي لا يرغبون ولا يصدقون بالتوحيد. روي أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله كيف يشرح الله صدره للإسلام؟ قال: «**إذا دخل النور في القلب انشرح واستوسع**». قالوا: وما علامة ذلك؟ قال: «**التجافي عن دار الغرور، والانابة إلى دار الخلود، والاستعداد للموت قبل نزول الموت**»[6]. وقال بعض المفسرين: معنى الآية: فمن يرد الله أن يهديه في الآخرة إلى الثواب ونيل الكرامة يشرح

---

(1) الزجاج، معاني القرآن: 2/ 290.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 59.
(3) مكي، الكشف: 1/ 450.
(4) نفسه.
(5) مكي، الكشف: 1/ 451 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 59.
(6) ذكره القرطبي في تفسيره عن ابن مسعود: 7/ 81.

صدره للإسلام في الدنيا بالدلالات، ومن يرد أن يضله عن ثوابه ونيل كرامته في الآخرة يجعل صدره ضيقاً حرجاً في الدنيا عقوبة له على كفره.

قوله عز وجل: ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا﴾ هذا إشارة إلى الإسلام. وقيل: إلى بيان القرآن. سمي ذلك مستقيماً لأنه يستقيم بمن يسلكه فلا يعوج به حتى يورده إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي بينا بآية على إثباته مفصلة مبينة لقوم يتذكرون بآيات الله ويتفكرون في دلالات القرآن فلم يبق لأحد عذر في التخلف عن الإيمان بعد هذا البيان.

قوله تعالى:

﴿۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (127) وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (128) وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ (129)﴾.

قوله عز وجل: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ قال ابن عباس: الله السلام وداره الجنة، كأنه قيل: لهم جنة الله[1]. وقال الفراء: لهم دار السلامة الدائمة من كل آفة وبلية[2]. قوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة. وقيل: معناه مضمون عند ربهم وهو وليهم أي يتولى أمرهم بنصرهم في الدنيا وكرامتهم في الآخرة بما كانوا يعملون من الطاعة.

قوله عز وجل: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾ معناه: يوم نحشر الخلائق كلهم للحساب والجزاء، يقول: يا معشر الجن قد استكثرتم ممن أضللتموه، أي أضللتم كثيراً من الإنس وكثر متبعوكم منهم. وقال قرناء الجن من الإنس: ﴿رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ﴾ أما استمتاع الإنس بالجن

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 114.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/ 354.

فما روى الحسن أن العرب كانوا إذا سافروا فنزلوا وادياً خافوا على أنفسهم فقالوا: نعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه فيبيتون في جوار منهم، وكانوا يرون ذلك استجارة بالجن، وأما استمتاع الجن بالإنس فكان عظماء الجن يقولون: قدسنا الانس مع الجن حتى إن الإنس يعوذون بنا فيزدادون بذلك شرفاً في قومهم وعظماً في أنفسهم[1]. وهو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا﴾ أي أدركنا وقتنا الذي وقَّتَ لنا. قيل إن المراد به وقت البعث، وقيل وقت الموت. وفي هذا دليل أنه لا يكون للمقتول أجلان بخلاف ما يقوله بعض القوم أن المقتول لو لم يقتل لكان يبقى حياً لا محالة، لأنه قد كان وهؤلاء مقتولون وقد أخبروا كلهم أنهم قد بلغوا أجلهم الذي قد أجله الله لهم.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: وكان ما شاء الله أبداً بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[3] وقيل: معناه إلا ما شاء الله ما بين البعث من القبر إلى وقت الفراغ من الحساب، فإنه لا يكون عليهم عذاب في ذلك الوقت. وقيل: معناه إلا ما شاء الله أن يعذبهم من صنوف العذاب.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ أي حكيم في عقابهم عليم بقدر ما يستحقون من العذاب.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ أي مثل ما قصصنا من تسليط الجن على الإنس نسلط بعض المجرمين على بعض ثم ننتقم منهما جميعاً في الآخرة بالنار. وقال بعضهم: معناه نتبع بعضهم بعضاً في النار من الموالاة. وقال بعضهم: نسلط بعضهم على بعض، يدل عليه قوله ﷺ: **«من أعان ظالماً سلطه الله عليه»**.

---

(1) تفسير الطبري: 12/116.

(2) سورة الجن (72)، الآية: 6.

(3) سورة النساء (4)، الآية: 48، 116.

قوله تعالى:

﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ﴿130﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿131﴾ وَلِكُلّٖ دَرَجَٰتٞ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿132﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ أي يقول لهم يوم القيامة: يا معشر الجن والإنس لماذا فعلتم ما فعلتم؟ ألم يأتكم رسل منكم يقرءون عليكم القرآن ويخوفونكم لقاء يومكم هذا: وهو يوم القيامة. قال ابن عباس: كانت الرسل تبعث إلى الإنس، وبعث محمد ﷺ إلى الجن والإنس[1]. قال: وهذا كقوله ﴿يَخۡرُجُ مِنۡهُمَا ٱللُّؤۡلُؤُ وَٱلۡمَرۡجَانُ ﴿22﴾﴾[2] وإنما يخرج من الملح منهما. وكذلك الرسل من الإنس.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ﴾ يعني أنهم لا يجدون جواباً إلا الاعتراف بذنوبهم، ويقولون: أقررنا على أنفسنا أنهم تلقوا الرسالة فكفرنا بهم. يقول الله تعالى: ﴿وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي بزهرتها ونعيمها، وشهدوا على أنفسهم في الآخرة أنهم كانوا كافرين في الدنيا، أي أقروا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿131﴾﴾ أي ذلك الأمر. وقيل: أراد الإشارة إلى إرسال الرسل. قوله: ﴿أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ﴾ أي فقلنا ذلك لأجل أنه لم يكن ربك معذب أهل القرى بشركهم وذنوبهم وأهلها غافلون عن الأمر والنهي. وتبليغ الرسل: أي لم يهلكهم بذنوبهم قبل أن يأتيهم رسول يبين لهم وينهاهم عما هم عليه من المعصية، فإن رجعوا وإلا عذبهم الله. وقيل: معناه لا يهلكهم بظلم منه ولا يعذبهم وهم غافلون عما كلفوا من غير إقامة الحجة بما يقبح ويحسن، ومن غير تنبيه لهم من الرسل.

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 86.
(2) سورة الرحمن (55)، الآية: 22.

قوله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ۚ﴾ أي لكل عامل من الفريقين مراتب في عمله: لأهل الخير درجات في الجنة بعضها فوق بعض، ولأهل الشرك دركات في النار بعضها أشد عذاباً من بعض ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يجري عليه السهو عن طاعة المطيعين ومعصية العاصين، فيجزي كل عامل بما عمل.

قوله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴿133﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿134﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿135﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَنِىُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ أي هو الغني عن إيمان العباد وطاعتهم. والغني: هو الذي لا يحتاج إلى شيء، فيكون وجود كل شيء عنده وعدمه سواء. وقوله تعالى: ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِۚ﴾ بيان أنه تعالى مع كونه غنياً عن شكر العباد وطاعتهم ذو إنعام عليهم والمعنى: وربك الغني ذو الرحمة بهم ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ أي إن يشأ يهلككم يا أهل مكة ويخلق من بعدكم، أي من بعد إهلاككم خلقاً آخر أطوع لله منكم كما أنشأكم، أي مثل ما ابتدأ خلقكم قرناً بعد قرن من أولاد قوم آخرين هالكين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍۖ﴾ أي إن الذي تخافون من البعث والعذاب لكائن لا خلف فيه ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي بفائتين، لستم تقدرون أن تعجزوا الله عن إدراككم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي قل يا محمد: اثبتوا على حالتكم وعلى عملكم القبيح الذي أنتم عليه وعلى منازلكم إني عامل في أمري على منزلتي. وهذا على سبيل الوعيد والتهديد ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أينا يكون له العاقبة المحمودة في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي لا يظفرون بمرادهم. قرأ السلمي وعاصم: على مكاناتكم ـ على لفظ الجماعة. وقرأ مجاهد

وأهل الكوفة إلا عاصماً: من يكون ـ بالياء، لأن تأنيث العاقبة غير حقيقي[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ (136) وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (137) وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (138)﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ﴾ قال ابن عباس: وذلك أهل الجاهلية كانوا إذا حرثوا جعلوا لله تعالى حظاً فقالوا: ما دون هذا الحظ لآلهتنا ننفق عليها وعلى خدام الأصنام، وما وراء هذا الحظ لله نتصدق به على أهل الحاجة بالمسكنة والسائلين. وكانوا إذا أرسلوا الماء فيما سموا لله فانفجر منه إلى الذي جعلوه لآلهتهم تركوه وقالوا: هذا أحوج والله غني عنه، وإن انفجر من الذي جعلوه لآلهتهم ردوه وقالوا ليس لآلهتنا بدا من النفقة. وكانوا إذا هلك الذي لآلهتهم وكثر الذي لله أخذوا الذي لله وأنفقوه على الأصنام، وإذا هلك الذي لله وكثر الذي للأصنام قالوا لو شاء الله لأزكى الذي له[2]. ومعنى الآية: وجعل المشركون من أهل مكة لله مما خلق من الزرع والأنعام نصيباً والأصنام نصيباً فقالوا هذا النصيب لله بقولهم لم يأمرهم الله بذلك، وهذا النصيب الآخر لآلهتنا. وفي الآية إضمار واختصار تقديره: وجعلوا لله نصيباً ولشركائهم نصيباً. قوله تعالى: ﴿بِزَعْمِهِمْ﴾ قرأ السلمي والأعمش والكسائي بضم الزاي، والباقون بفتحها[3]، وهما لغتان.

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 169 ـ 170 ـ تفسير القرطبي: 7/ 89.
(2) تفسير الطبري: 12/ 132.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 170 ـ تفسير القرطبي: 7/ 90 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 97.

قوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي ما كان من نصيب آلهتهم فلا يرجع إلى الذي جعلوه لله، وما كان لله فهو يرجع إلى الذي جعلوه لشركائهم. ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئس ما يقضون يوفرون نصيب الأصنام وينقصون نصيب الرحمن، فبئس الحكم حكمهم في الإشراك والقسمة، وكانوا يفعلون في الأنعام الثمانية الأزواج ونحوها كذلك.

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ﴾ قال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يدفنون بناتهم أحياء كراهة للبنات، وكان الرجل منهم يحلف لأن ولد له كذا وكذا غلاماً لينحرن أحدهم كما حلف عبد المطلب على ابنه عبد الله، وكان لآلهتهم خدام يقومون عليهم الذين كانوا يزينون للمشركين قتل أولادهم[1]. ومعنى الآية: وكما زين تحريم الحرث والانعام زين لكثير من المشركين دفن بناتهم أحياء كراهة لهن ومخافة الفقر. قوله تعالى: ﴿شُرَكَآؤُهُمْ﴾ أي قرناؤهم وشياطينهم. وقيل: سدنة آلهتهم، يعني خدام أصنامهم. قرأ بعضهم: زين - على ما لم يسم فاعله، ورفع قوله: ﴿قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ﴾ يحمل على المعنى على الفاعل، كأنه قال: من زين لهم؟ ثم قال: شركاؤهم، على إضمار «زين». وقرأ ابن عامر: زين بضم الزاي و«قتل» بضم اللام، «أولادهم» بالنصب، و«شركائهم» بالكسر[2]، ومعنى ذلك على التقديم والتأخير، كأنه قال: زين لكثير من المشركين قتل شركائهم أولادهم، فيكون معنى «الشركاء» الكفار القاتلين المتقدمين منهم والباقين. قوله تعالى: ﴿لِيُرْدُوهُمْ﴾ أي ليهلكوهم. يجوز أن تكون هذه لام العاقبة، فإنه لم يكن غرض المزينين الأمر بإهلاكهم، ويجوز أن تكون لام الصيرورة فإنه كان فيهم معاندون وغير معاندين فصلت هذه المعاندين.

قوله تعالى: ﴿وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ﴾ أي ليخلطوا وليشبهوا عليهم دين إسماعيل عليه السلام.

---

(1) القرطبي في المصدر نفسه: 7/ 91.
(2) ابن خالويه والقرطبي والنحاس في المصادر السابقة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ﴾ أي لو شاء الله لمنعهم عن دفن البنات أحياء ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ أي اتركهم وافتراءهم على الله أنه أمرهم بدفن بناتهم أحياء، فإن الله تعالى مع قدرته عليهم تركهم، فاتركهم أنت إن لهم موعداً يحاسبون فيه. وقرىء قتل أولادهم شركائهم - كلاهما بالكسر، فيكون الشركاء من نعت الأولاد، لأن أولادهم شركاؤهم في أموالهم.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالُوا۟ هَـٰذِهِۦٓ أَنْعَـٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ﴾ أي قالوا هذه الأنعام والحرث التي جعلوا بعضها لله وبعضها للأوثان حجر، أي حرام لا يأكلها ولا يذوقها إلا من يؤذن له في أكلها وهم الرجال دون النساء بزعمهم، أي بقولهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَـٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا﴾ هي البحيرة والسائبة والحام حرموا الركوب عليها، وأما الوصيلة فإنها كانت من الغنم خاصة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْعَـٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا﴾ أي وأنعام أخر كانوا يدعونها لأصنامهم تقرباً إليها زعموا أن الله أمرهم بذلك.

قوله تعالى: ﴿ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ﴾ نصب على معنى لا يذكرون اسم الله عليها كذباً على الله أنه أمرهم بذلك. وقيل: نصب على المصدر، أي افتروه افتراء.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِم﴾ أي سيكافئهم بكذبهم وافترائهم على الله.

قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (139) قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ (140)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا فِى بُطُونِ هَـٰذِهِ ٱلْأَنْعَـٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا﴾ أي قال أهل الجاهلية: إن الأجنة التي في بطون هذه الأنعام التي زعموا أنها لأوثانهم إذا انفصلت عن الأمهات فهي حلال لرجالنا منافعها

وألبانها، ومحرم على نسائنا ما دامت تلك الأجنة حية. وأما تأنيث الخالصة فعلى المعنى: كأنهم قالوا جماعة ما في بطون هذه الأنعام أو الأنعام التي في بطون هذه الأنعام. وأما تذكير قوله: ﴿مُحَرَّمٌ﴾ فلأنه مردود على لفظ «ما». وقرأ الأعمش: خالص لذكورنا ـ بغير هاء ورده إلى «ما» ومن نصب «خالصة» فعلى القطع تقديره: ما في بطون هذه الأنعام لذكورنا خالصاً. وقرأ ابن عباس: خالصه ـ بالاضافة إلى الهاء[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكُن مَّيْتَةً﴾ أي قالوا وإن يكن أجنة هذه الأنعام ميتة فهم فيه شركاء: الرجال والنساء. قرأ أبو جعفر وابن عامر: وإن تكن ـ بالتاء ـ ميتة بالرفع على معنى: وإن تقع. وقرأ ابن كثير: كذلك ـ إلا أنه بالياء. وقرأ أبو بكر: تكن ـ بالتاء ـ ميتة بالنصب على معنى: وإن تكن الأجنّة ميتة. وقرأ الباقون: يكن ـ بالياء والنصب[2]. وردوه إلى «ما» يؤيد ذلك قوله: ﴿فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ ولم يقل: فيها.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ﴾ أي سيجزيهم في الآخرة بوصفهم الذي وصفوا في هذه الأنعام، إلا أنه لما حذف الباء انتصب. ويجوز أن يكون معناه: سيجزيهم جزاء وصفهم. إلا أنه حذف الجزاء وأجرى إعرابه على وصفهم. ﴿إِنَّهُ حَكِيمٌ﴾ في مجازاتهم ﴿عَلِيمٌ﴾ بمقدار جزائهم. والمعنى: سيجزيهم على وصفهم الكذب على الله.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَـٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي الذين دفنوا بناتهم أحياء جهلاً منهم بغير علم بلا بيان ولا حجة. نزلت في ربيعة ومضر الذين كانوا يدفنون بناتهم أحياء مخافة السبي والفقر إلا ما كان من بني كنانة فإنهم كانوا لا يفعلون ذلك[3]. وقرأ الحسن والسلمي وأهل مكة والشام: قتلوا ـ بالتشديد على التكثير وخفف الباقون[4].

(1) تفسير القرطبي: 7/ 96 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 99.
(2) ابن خالويه. إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 171.
(3) تفسير الطبري: 12/ 154.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 172.

قوله تعالى: ﴿وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي حرموا على أنفسهم ما أعطاهم الله من الرزق ومن الأنعام والحرث، يعني أن هؤلاء الكفار بجهلهم يقتلون البنات أحياء مخافة الفقر والإنفاق، ثم يجعلون طائفة من أموالهم للأوثان ويحرمونها على أناث أولادهم. قوله تعالى: ﴿افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ﴾ أي يفترون ذلك افتراء على الله، فإن الله حرم هذه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ أي ضلوا في فعلهم هذا عن الهدى ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ من الضلالة.

قوله تعالى: ﴿۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (141) وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (142)﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ﴾ أول هذه الآية راجع إلى ما قبلها كأنه قال: افتراء على الله وهو الذي أنشأ جنات، أي وهو الذي ابتدأ خلق بساتين معروشات: وهي الكروم، رفع بعض أغصانها على بعض، وغير معروشات: وهي الشجر والزرع وكل ما لا يرتفع بعضه على بعض. هكذا روي عن ابن عباس والحسن. ويقال: معنى معروشات: ما ترفع له حيطان، وغير معروشات: ما لا يجعل عليه حائط. وقيل: المعروشات ما انبسط على الأرض وانتشر مما يفرش، مثل: الكروم والقرع والبطيخ وشبهها، وغير معروشات: ما قام على ساق وطال، مثل: النخل والزرع وسائر الأشجار. وقال الضحاك: معروشات وغير معروشات: الكرم خاصة، منها ما عرش ومنها ما لم يعرش. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً أن المعروشات: ما ينبته الناس، وغير المعروشات: ما أخذ من البراري والجبال من الثمار[1]. يدل عليه قراءة علي رضي الله عنه: مغروسات ـ بالغين والسين[2].

(1) تفسير الطبري: 12/ 156.

(2) تفسير القرطبي: 7/ 98.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ معناه: وأنشأ النخل والزرع. وهذا تخصيص بعض ما دخل في عموم الأول لكونهما أعم نفعاً من جملة ما يكون في البساتين: قوله تعالى: ﴿مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ﴾ أي مختلف جملة من الألوان كلها ومختلفاً في الطعم: من الحلو والحامض والمر والجيد والرديء. ونصب ﴿مُخۡتَلِفًا﴾ على الحال، أي النشأة في حال اختلاف أكله. وقد يقال: ارتفع «أكل» بالابتداء و«مختلفاً» نعته. إلا أنه لما تقدم النعت على الاسم نصب، كما يقال: عندي طباخاً غلام. قال الشاعر:

الشر منتشر يلقاك عن عرض ∴ والصالحات عليها مغلقاً باب[1]

قوله تعالى: ﴿وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ﴾ أي وأنشأ شجر الزيتون والرمان ﴿مُتَشَٰبِهًا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ﴾ أي منها ما هو متشابه ومنها ما هو غير متشابه. وقيل: متشابهاً في المنظر وغير متشابه في الطعم نحو الرمانتين لونهما واحد وطعمهما مختلف.

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ هذا أمر إباحة لا أمر إيجاب. والفائدة في قوله تعالى: ﴿إِذَآ أَثۡمَرَ﴾ إباحة الأكل منه قبل إخراج الحق الذي وجب فيه شائعاً للمساكين.

قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ﴾ أي اعطوا حق الله تعالى يوم يحصد: أراد العشر فيما سقته السماء، ونصف العشر فيما سقي بقرب ودالية. كذا قال ابن عباس والحسن[2]. وقال ابن عمر رضي الله عنه: معنى ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ﴾ أي ما يتطوع به الإنسان عند رفع الغلة والتصدق به. قال مجاهد: إذا حصدت فحضرك المساكين فاطرح لهم منه، وإذا دسته وذريته فاطرح لهم منه، فإذا عرفت كيله فأخرج زكاته[3]. قال إبراهيم النخعي: هذه الآية منسوخة بالعشر ونصف العشر[4]. في قوله: ﴿حَصَادِهِۦۖ﴾ قراءتان: بكسر الحاء وفتحها[5].

(1) ذكره القرطبي في تفسيره: 7/ 98 من غير نسبة.
(2) تفسير الطبري: 12/ 158.
(3) تفسير القرطبي: 7/ 99 ـ 100
(4) نفسه.
(5) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 172.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ هذا خطاب للأئمة، أي لا تأخذوا فوق حقكم. وقيل: خطاب لأرباب الأموال، أي لا تتصدقوا بالجميع فلا تبقوا للعيال شيئاً. قال ابن عباس: كانوا يتسارعون في المعروف عند الحصاد فيعطون المساكين والفقراء، فعمد ثابت بن قيس بن شماس من بينهم خاصة، فصرم خمسمائة نخلة وقسمها في موضع واحد ولم يترك لأهله شيئاً، فكره الله له ذلك، وأنزل قوله: ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾ أي لا تتجاوزوا الحد فتحتاجوا إلى ما عند الناس[1]. وقال الزهري: الإسراف هو الإنفاق في معصية الله تعالى[2]. وقال مجاهد: لو كان أبو قبيس ذهبا فأنفقته في طاعة الله لم تكن مسرفاً، ولو أنفقت درهماً أو دونه في معصية الله لكنت مسرفاً[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ظاهر المعنى. وقيل: معنى ﴿وَلَا تُسْرِفُوٓاْ﴾: أي لا تنقصوا عن العشر ونصف العشر فتمنعوا الصدقة وتأكلوا حق المساكين.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا﴾ الحمولة: كبار الإبل التي يمكن الحمل عليها. والفرش: صغارها التي لا يمكن الحمل عليها، سميت فرشاً لاستوائها في الصغر والانحطاط كاستواء ما يفرش من الفراش. وقيل: سميت فرشاً لقربها من الأرض، ويسمى أيضاً الغنم فرشاً. والمعنى: وأنشأ من الأنعام حمولة وفرشاً . ويقال: أراد بالفرش ما يفرش من الثياب والبسط التي تعمل من الوبر. إلا أن القول الأول أقرب، لأن الله تعالى ذكر في الآية بعدها: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ أي أنشأ الله الحمولة والفرش ثمانية أزواج[4].

قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أذن في الأكل من الحرث والأنعام ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ في تحريم الحرث والأنعام، ولا تتبعوا

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 174 ـ تفسير القرطبي: 7/ 110.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 428.
(3) نفسه.
(4) تفسير القرطبي: 7/ 111 ـ 112 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 101.

طرق الشيطان فإنه لا يدعوكم إلا إلى المعصية ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ أي ظاهر العداوة، وقد أبان عداوته لأبيكم آدم عليه السلام.

قوله تعالى:

﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ
ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (143) وَمِنَ
ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ
ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (144)﴾.

قوله عز وجل: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ معناه: وأنشأ لكم ثمانية أزواج، أي أصناف اثنين ذكر وأنثى، يعني بالذكر زوجاً وبالانثى زوجاً. يقال لكل من له قرين زوج كما قال تعالى: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي زوجين ذكر وأنثى اثنين. والضأن: ذوات الآلية، وهو جمع ضائن، كما يقال: تاجر وتجر. وقيل: واحده ضائنة. والمعز: ذوات الأذناب القصار، وفيه قراءتان: تسكين العين وفتحها[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ﴾ أي قل لهم يا محمد: من أين جاء هذا التحريم الذي تذكرونه أيها الكفار في الولد السابع في الغنم إنه حرام على النساء. أحرم الله الذكر من الضأن والذكر من المعز فحرم ولدها لحرمة الذكرين، أم حرم الأنثيين من الضأن والمعز فحرم ولدها لحرمة الإناث؟ فإن جاء هذا التحريم من قبل ذكورها فيجب أن يكون كل ذكر حراماً عليكم، وإن جاء من قبل الأنثيين فيجب أن تكون كل أنثى حراماً عليكم، وإن جاء من قبل الأنثيين فيجب أن تكون كل أنثى حراماً عليكم، وإن جاء من قبل اشتمال أرحام الأنثيين فيجب أن يكون كل أولادهما من الذكر والأنثى حراماً عليكم، لأن أرحام الأنثيين تشتمل عليهما جميعاً.

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 35 ـ سورة الأعراف (7)، الآية: 19.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 172.

قوله تعالى: ﴿نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي قل للكافرين خبروني وفسروا لي ما حرم عليكم ببيان وحجة إن كنتم صادقين في مقالتكم: إن الله حرم الوصيلة ونحوها وإنما قال: ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ لأن الصدق لا يمكن إلا بعلم.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ﴾ أي وأنشأ من الإبل اثنين ذكر وأنثى من جملة الثمانية الأزواج، ومن البقر اثنين ذكر وأنثى. ﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ﴾ أي قل لهم يا محمد: إنكم تحرمون الولد الخامس من الابل والبقر على النساء، من أين هذا التحريم من قبل الذكور أم من قبل الإناث أم من قبل الذي اشتملت عليه أرحام الأنثيين؟ ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَاۚ﴾ أي أم شاهدتم الله تعالى حرم هذه الأشياء التي تحرمونها وأمركم بتحريمها، يعني إذا كنتم لا تقرون بنبي من الأنبياء فمن أين علمتم تحريم الله بالقياس، لأن الله تعالى أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يناظرهم ويبين بالحجة فساد قولهم وبطلان اعتقادهم. فلما نزلت هذه الآية قرأها رسول الله ﷺ على أبي الاحوص الجشمي مالك بن عوف، وكان هو الذي يحرم لهم الحرام، وكانوا يرجعون فيه إليه. فسكت مالك وتحير في الجواب. فقال ﷺ: **«ما لك يا مالك لا تتكلم؟»** فقال له مالك: تكلم أنت وأنا أسمع. فنزل قوله تعالى[1]: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيۡرِ عِلۡمٍۚ﴾ وهذا استفهام بمعنى التوبيخ والتعجيب معناه: أي أحد أعتى وأجرأ على الله ممن اختلق على الله كذباً ليصرف الناس عن دينه وحكمه بالجهل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يهديهم إلى الحجة فيما افتروا على الله. ويقال: لا يهديهم إلى جنته وثوابه. فلما نزلت هذه الآية قال مالك بن عوف: فما هذا التحريم الذي حرمه آباؤنا من السائبة والوصيلة والحام والبحيرة؟ فأنزل الله عز وجل[2]: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا﴾ الآية..

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 430 ـ 431.

(2) نفسه.

ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ (145) وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ (146) فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ (147)﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ فقرأ النبي ﷺ الآية ثم قال: «**يا مالك أسلم**». فقال: إن لي أمراء من قومي فأخبرهم عنك. فأتى قومه فقالوا: كيف رأيت؟ فقال: رأيت رجلاً معلماً. وذكره لهم فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾[1]. ومعنى الآية: قل لهم يا محمد: لا أجد فيما أوحي إلي من القرآن شيئاً محرماً علي آكله إلا أن يكون ميتة لم يذك، وهي التي تموت حتف أنفها. فمن قرأ: إلا أن يكون ـ بالياء فعلى معنى: إلا أن يكون المأكول ميتة. ومن قرأ بالتاء فعلى معنى: إلا تكون تلك الأشياء ميتة[2]. وقرأ علي رضي الله عنه: يطعمه ـ بتشديد الطاء. أراد: يتطعمه، فأدغم التاء في الطاء[3].

قوله: ﴿أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا﴾ أي دماً مصبوباً سائلاً. وكانوا إذا ذبحوا أكلوا الدم كما يأكلون اللحم. وفي الآية دليل أن الدم إذا لم يكن سائلاً مثل الدم الذي يكون في عروق لحم المذكي فإنه لا يكون محرماً. هكذا قال عكرمة وقتادة. قال عمران بن حدير[4]: سألت أبا مجلز عما يتلطخ باللحم من الدم حتى يرى فيه حمرة الدم؟ قال: لا بأس به، إنما نهى عن الدم المسفوح وهو المهراق السائل[5].

---

(1) سورة الزخرف (43)، الآية: 23.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 172. وإعراب النحاس: 2/ 103.

(3) تفسير القرطبي: 7/ 123.

(4) عمران بن حدير السدوسي: كان ثقة كثير الحديث.
الطبقات الكبرى: 7/ 200.

(5) تفسير الطبري: 12/ 193.

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ﴾ فيه بيان أن لحم الخنزير وما يحرم لكونه ميتة فإنه يحرم لعينه.

قوله تعالى: ﴿أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ عطف على قوله: ﴿أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٍ﴾ والمراد بالفسق: المذبوح للصنم، وهو الذي يذكر على ذبحه اسم غير الله. ومعنى ﴿أُهِلَّ بِهِۦ﴾ أي رفع به، مأخوذ من الإهلال الذي هو رفع الصوت، ومنه إهلال المحرم بالحج، ومنه قوله ﷺ: «**إذا استهل الصبي صارخاً ورث وصلى عليه**»[1]. وأما الرجس فمعناه: الحرام وكل ما استقذرته فهو رجس. والرجس: العذاب أيضاً في غير هذا الموضع.

قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ﴾ أي دعته الضرورة إلى أكل شيء من هذه المحرمات غير طالب التلذذ بتناوله ولا مجاوز قدر المباح منه ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ إذ رخص لكم في تناول هذه الأشياء عند الضرورة. فإن قيل: لم قصر التحريم في هذه الآية على الأشياء المذكورة فيها مع أنه تعالى قد حرم أشياء غيرها في أول سورة المائدة؟ قيل: إن هذه الآية مكية نزلت في جواب الذين جادلوا رسول الله ﷺ في تحريم البحيرة ونحوها، وكانت هذه الأربع المحرمات المذكورات في هذه الآية محرمة يوم المجادلة، ثم نزل بعد هذه الآية قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ﴾[2] في سورة المائدة، وهذه الآية لا تمنع ثبوت تحريم شيء آخر بخبر الآحاد أو القياس على المحرمات المنصوصة باتفاق الفقهاء على تحريم أشياء غير مذكورة في هذه الآية كالخمر ولحم القرد والنجاسات. وأما الخبر المروي عن رسول الله ﷺ أنه نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير[3]، فهو بمنزلة أنه من كتاب

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 4/ 120، رقم: 1037، باب في ترك الصلاة على الطفل ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 919، رقم: 2750، باب إذا استهل المولود ورث ـ والدارمي في سننه: 2/ 392، باب ميراث الصبي.

(2) سورة المائدة (5)، الآية: 3.

(3) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 5/ 52، رقم: 1504، باب في كراهة كل ذي ناب وذي مخلب ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1077، رقم 3234، باب أكل ذي ناب من السباع.

الله تعالى لقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾[1].

قوله عز وجل: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ في هذه الآية بيان ما حرم الله على اليهود. قال ابن عباس: أراد بقوله ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الإبل والنعام والبط والإوز وما أشبه ذلك مما لا يكون منفرج الأصابع. وقيل: أراد به ما يصيد بالظفر مثل النسور والبزاة وما شاكل ذلك من الكلاب من السباع. وقال ابن زيد: هي الابل فقط[2]. قرأ الحسن: كل ذي ظفر ـ بكسر الظاء وإسكان الفاء. وقرأ أبو السمال: ظفر ـ بكسرهما جميعاً[3]، وهي لغة.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أي وحرمنا عليهم من البقر والغنم شحومهما إلا ما حملت ظهورهما من الشحم ـ وهو السمن ـ أو ما حملته الحوايا ـ وهي المباعر والامعاء التي عليها الشحم لا من داخلها ـ وواحدتها حاوية وحاوياء وحوية، سميت بذلك لأنها تحوي ما في البطن. قوله تعالى: ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ أراد به ما يكون من الشحم المخالط للحم على عظم الجنب. فأما الآلية فقد كانت داخلة في التحريم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ﴾ أي ذلك التحريم عاقبناهم بظلمهم ﴿وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ﴾ فيما نقول أن هذه الأشياء كانت حلالاً في الأصل، فحرمناها على اليهود بمعصيتهم ومخالفتهم لأنبيائهم. وكان اليهود مع هذا التحريم يجملون الشحوم فيبيعونها ويستحلون ثمنها، كما قال صلى الله عليه وسلم: «**لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها[4] فباعوها وأكلوا ثمنها**[5]». **إن الله تعالى**

---

(1) سورة الحشر (59)، الآية: 7.

(2) تفسير الطبري: 12/ 199 ـ 200.

(3) تفسير القرطبي: 7/ 124. ذكر بأن الحسن قرأ باسكان الفاء، وأبو السمال بكسر الظاء وإسكان الفاء ـ وكذا النحاس في إعراب القرآن: 2/ 104.

(4) فجملوها ـ بفتح الجيم والميم ـ: أذابوها. يقال: جمله إذا أذابه.

(5) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 5/ 164، رقم: 2223، باب لا يذاب شحم الميتة ولا يباع ودكه ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 11/ 7، باب تحريم بيع الخمر والميتة ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 732 رقم: 2167، باب ما لا يحل بيعه.

إذا حرم شيئاً حرم بيعه وأكل ثمنه». فلما نزلت هذه الآية قال النبي ﷺ: «**هذا ما أوحى الله تعالى إلي أنه محرم على المسلمين ومنه على اليهود**». فقال المشركون: إنك لم تصب فيما قلت. فقال عز وجل: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ أي إن أنكروا ولم يقبلوا قولك فقل ربكم ذو رحمة واسعة بالإمهال بأن لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي لا يرد عذابه عن المشركين واليهود إذا جاء وقت العذاب.

قوله تعالى:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (149) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا فَإِن شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (150)﴾.

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا﴾ أي من قبلنا الذين استننا بهم، ولا حرمنا على أنفسنا من شيء من الحرث والأنعام، ولكنه شاء لنا الشرك والتحريم.

قال الله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي هكذا كذب الذين من قبلهم رسلهم كما كذبك قومك ﴿حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ أي عذابنا. ومن قرأ: كذلك كذب ـ بالتخفيف فمعناه: كما كذب قومك على الله كذلك كذب من قبلهم من الأمم الخالية على الله حتى ذاقوا عذابنا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا﴾ أي قل لهم يا محمد: هل عندكم من علم؟ أي من بيان وحجة غير ما في القرآن فتبينوه لنا. ﴿إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ يعني ظنكم في تحريم البحيرة والسائبة والوصيلة والحام.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ أي ما أنتم إلا تكذبون على الله. وإنما قال المشركون: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾ على وجه الاستهزاء، فكذبهم

الله في ذلك وإن كانت المشيئة حقاً كما في سورة المنافقين: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾﴾[1] فكذبهم الله في قولهم: إنك لرسول الله وإن كان ذلك حقاً لأنهم قالوه على وجه الاستهزاء.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ عطف على الضمير المتصل معناه: ما أشركنا نحن ولا آباؤنا، وبعضهم قال: إن مشيئة المعاصي إذا أضيفت إلى الله تعالى كان معناها الخذلان مجازاة لهم على سوء فعلهم وإصرارهم على المعصية.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ أي أن الله قد أبلغكم حجته، وهو ما أصله من الثمانية الأزواج، فلو شاء لوفقكم لدينه وأكرمكم بمعرفته. وقال الحسن: معناه: قد قامت عليكم الحجة وجاءكم الرسول، فلو شاء لوفقكم ولأجبركم بالإيمان والحجة البالغة التامة الكافية.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا﴾ أي قل لهم يا محمد هاتوا شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذه الأشياء، فإن شهدوا بأن الله حرمها فلا تشهد أنت يا محمد معهم لأنهم لا يشهدون إلا بالباطل[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي لا تعمل بهواء الذين جحدوا بك وبالقرآن، ولا بهواء الذين لا يصدقون بالبعث. وإنما فصل بين الفريقين لأن من الكفار من يؤمن بالبعث كأهل الكتاب، ومنهم من لا يؤمن بذلك كعبدة الأوثان.

قوله تعالى: ﴿وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أي يسرون بالله تعالى في الطاعة.

قوله تعالى:

﴿۞ قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ

(1) سورة المنافقون (63)، الآية: الأولى.
(2) القرطبي في تفسيره: 7: 129.

مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿151﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿152﴾ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿153﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ﴾ قل يا محمد لمالك بن عوف الجشمي ولأصحابه: هلموا واجتمعوا أقرأ عليكم الذي حرم ربكم عليكم[1].

قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ﴾ أي أوصيكم وآمركم أن لا تشركوا. ويقال: أتل عليكم أن لا تشركوا. وقيل معناه: حرم عليكم أن لا تشركوا كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي وأوصاكم بالوالدين أي بالإحسان إلى الوالدين براً بهما وعطفاً عليهما: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ﴾ أي لا تدفنوا بناتكم أحياء مخافة الفقر. والإملاق في اللغة: نفاذ الزاد والنفقة. يقال: أملق الرجل: إذا نفذ زاده ونفقته، ومنه الملق: وهو بذل المجهود في تحصيل المراد.

قوله تعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾ أي علينا رزقكم ورزقهم جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ أي لا تقربوا الزنا مسرين ولا معلنين، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله قتلها إلا بإحدى ثلاث خلال: زنا بعد إحصان، أو كفر بعد إيمان، أو قتل نفس. روي أن عثمان رضي الله عنه حين أرادوا قتله أشرف عليهم وقال: علام تقتلونني؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يحل دم امرىء مسلم إلا بإحدى ثلاث: رجل زنا بعد إحصانه**

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 215.

(2) سورة الأعراف (7)، الآية: 12.

فعليه رجم، أو رجل قتل عمداً، أو ارتد بعد إسلامه»[1]. فوالله ما زنيت في جاهلية ولا إسلام، ولا قتلت أحداً فأقيد نفسي منه، ولا ارتددت منذ أسلمت. إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ. ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي هذا الذي ذكره لكم أمركم الله به في كتابه لكي تعقلوا ما أمركم به[2].

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ أي ولا تقربوا مال اليتيم الذي لا أب له إلا لحفظه وتثميره وإصلاحه حتى يبلغ أشده. قال الشعبي: هو بلوغ الحلم حتى تكون له الحسنات وتكتب عليه السيئات[3]. وقال السدي: أشده: أن يبلغ ثلاثين سنة[4] وقال الكلبي: ما بين ثماني عشرة وثلاثين سنة[5]. وجعل أبو حنيفة الأشد خمساً وعشرين سنة، فإذا بلغها دفع إليه ماله ما لم يكن معتوهاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي أتموا الكيل والوزن بالعدل ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي إلا جهدها وطاقتها. وهذه الآية أصل في جواز الاجتهاد في الأحكام، وأن كل مجتهد مصيب. فإذا اجتهد الإنسان في الكيل والوزن، ووقعت فيه زيادة يسيرة أو نقصان يسير لم يؤاخذه الله به إذا اجتهد جهده، وإن أعيد الكيل على ذلك فزاد أو نقص لم يثبت التراجع إذا كان ذلك القدر من التفاوت ما يقع بين الكيلين.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي إذا قلتم فاعدلوا في المقالة. وقيل: معناه قولوا الحق إذا شهدتم أو حكمتم ولو كان المشهود عليه أو له ذا قرابة من الشاهد.

قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟﴾ أي أتموا فرائض الله التي أمركم بها كما

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 4/ 657، رقم: 1421 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 847، رقم: 2534.

(2) تفسير القرطبي: 7/ 134.

(3) تفسير الطبري: 12/ 223.

(4) نفسه.

(5) البغوي في معالم التنزيل: 2: 439.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾[1]. ويقال: أراد بالعهد في هذه الآية النذر واليمين، كما قال تعالى: ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ أي في هذا الذي ذكره الله لكم أمركم الله به في الكتاب لكي تتعظوا فتمتنعوا عن المحرمات.

قوله عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ المراد بالصراط ههنا الشريعة. وسمي الشرع طريقاً لأنه يؤدي إلى الثواب ثم إلى الجنة. قوله تعالى: ﴿فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي فاعتقدوا حلال هذا الدين وحرامه ومأموره ومنهيه، ولا تتبعوا اليهودية والنصرانية وسائر ملل الكفر فإنها سبل الشيطان، وهي طريق النار. قوله تعالى: ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي فيضلكم ذلك السبيل الذي تتبعونه بهواكم عن دين الله الذي هو الإسلام ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ﴾ أي هذا الذي أمركم الله به في القرآن، واتقوا السبل المختلفة، واستقيموا على الايمان. قال ابن عباس: هذه الآيات الثلاث من المحكمات وهن أم الكتاب في التوراة والانجيل والزبور والفرقان لم ينسخهن شيء في جميع الكتب، وهي محرمات على بني آدم كلهم، وهن أم الكتاب من عمل بهن دخل الجنة ومن تركهن دخل النار[3]. قال كعب الأحبار: والذي نفس كعب بيده إن هذه لأول شيء في التوراة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث[4].

قوله تعالى:

﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿154﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿155﴾ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ

(1) سورة يس (36)، الآية: 60.
(2) سورة النحل (16)، الآية: 91.
(3) تفسير القرطبي: 7/132.
(4) تفسير الطبري: 12/227.

لَغَـٰفِلِينَ ﴿156﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى
ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿157﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾ معناه: قل آتينا موسى الكتاب. وقيل: معنى «ثم» معنى العطف، كأنه قال: تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ثم أتل ما آتاه الله موسى من التوراة. قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾ أي تماماً للإحسان على المحسنين: النبي موسى عليه السلام أحدهم. ويقال: معناه على ما أحسن موسى. وكان موسى عليه السلام محسناً في معرفة العلم وكتب المتقدمين، فأعطيناه التوراة زيادة على ذلك. و«تماماً» نصب على القطع، وقيل على التفسير. قرأ ابن يعمر: على الذي أحسن[1] - بالرفع، على معنى: على الذي هو أحسن.

قوله: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ أي تتميماً للإحسان إليهم وتبييناً لكل شيء من الحلال والحرام وهدى من الضلالة ونجاة من العذاب لمن آمن به وعمل بما فيه لعلهم بالبعث الذي فيه جزاء الأعمال يقرون ويصدقون.

قوله تعالى: ﴿وَهَـٰذَا كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ﴾ أي اقتدوا به في أوامره ونواهيه، واتقوا مخالفته وسخطه لتكونوا على رجاء الرحمة.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا﴾ أي كراهة أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا: أراد به التوراة واليهود، والإنجيل والنصارى ﴿وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ أي وقد كنا عن قراءة كتبهم: التوراة والانجيل لغافلين عما فيه. وقيل: معناه وما كنا عن قراءة كتبهم: التوراة والانجيل إلا غافلين عن ما فيه.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ﴾ أي كراهة

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 142.

أن تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب كما أنزل على اليهود والنصارى لكنا أسرع إجابة منهم، وذلك أن أهل مكة كانوا يقولون: قاتل الله اليهود كيف كذبوا على أنبيائهم والله لو أتينا تدبر وكتاب لكنا أهدى منهم.

قال الله تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي بياناً ودلالة من ربكم وهدى من الضلالة ورحمة لمن آمن به واتبعه رحم الله بإنزاله عباده.

قوله عز وجل: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا أحد أعتى وأجرأ على الله ممن كذب بآيات الله ﴿وَصَدَفَ عَنْهَا﴾ أي أعرض عنها. سنعاقب الذين يعرضون عن آياتنا أقبح العذاب وأشده بإعراضهم وتكذيبهم.

قوله تعالى:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿158﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي ما ينظرون أهل مكة بعد نزول الآيات وقيام الحجج عليهم إلا إتيان ملك الموت وأعوانه لقبض أرواحهم، أي لم يبق إلا هذا.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ معناه: أو يأتي أمر ربك بإهلاكهم والانتقام منهم إما بعقاب عاجل أو بالقيامة.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾ يعني طلوع الشمس من مغربها. قال الحسن: أو يأتي بعض آيات ربك الحاجبة من التوبة. قال رسول الله ﷺ: **«بادروا بالأعمال ستاً: طلوع الشمس من مغربها، ودابة الأرض، وخروج الدجال، والدخان، وخويصة أحدكم يعني موته، وأمر العامة»**[1] يعني القيامة. وقال ﷺ:

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 18/ 87 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1348، رقم: 4056.

«باب التوبة مفتوح من قبل المغرب مسيرة أربعين سنة، وملك قائم على ذلك الباب يدعو الناس إلى التوبة. فإذا أراد الله أن تطلع الشمس من مغربها طلعت من ذلك الباب تسود الأنوار لها فتوسطت السماء ثم رجعت فيغلق الباب وترد التوبة، ثم ترجع إلى مشرقها تطلع بعد ذلك مائة وعشرين سنة إلا أنها سنون تمر مراً».

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا غربت الشمس رفع بها إلى السماء السابعة في سرعة طيران الملائكة وتحبس تحت العرش، فتستأذن من أين تطلع أمن مطلعها أم من مغربها؟ وكذلك القمر. فلا يزالان كذلك حتى يأتي الله بالوقت الذي وقته لتوبة عباده، وتكثر المعاصي في الأرض، ويذهب المعروف فلا يأمر به أحد، وينتشر المنكر فلا ينهى عنه أحد، فإذا فعلوا ذلك حبست الشمس تحت العرش، فإذا مضى مقدار ليلة سجدت واستأذنت ربها من أين تطلع؟ فلم يجيء لها جواب حتى يوافيها القمر فيسجد معها ويستأذن من أين يطلع؟ فلا يجيء له جواب، فيسبحان مقدار ثلاث ليال، فلا يعرف مقدار تلك الليلة إلا المتهجدون في الأرض وهم يومئذ عصابة قليلة في حران من الناس. فينام أحدهم تلك الليلة ما كان ينام قبلها من الليالي، ثم يقوم فيتهجد ورده فلا يصبح، فينكر ذلك فيخرج وينظر إلى السماء، فإذا هو بالليل مكانه والنجوم مستديرة، فينكر ذلك ويظن فيها الطول فيقول: خففت قراءتي أم قصرت صلاتي ثم قمت قبل حيني.

ثم يقوم فيعود إلى مصلاه فيصلي نحو صلاته في الليلة الثانية ثم ينظر فلا يرى الصبح فيخرج فإذا هو بالليل كما هو فيخالطه الخوف، ثم يعود وجلا خائفاً إلى مصلاه فيصلي مثل ورده كل ليلة ثم ينظر فلا يرى الصبح، فيشتد به الخوف، فيجتمع المتهجدون من كل بلد في تلك الليلة في مساجدهم ويجأرون إلى الله بالبكاء والتضرع، فيرسل الله جبريل عليه السلام إلى الشمس والقمر فيقول لهما: إن الله يأمركما أن ترجعا إلى مغربكما فتطلعا منه فإنه لا ضوء لكما عندنا ولا نور. فيبكيان عند ذلك وجلا من الله بكاء يسمعه أهل السماوات السبع وأهل سرادقات العرش، ثم يبكي من فيهما من الخلائق من خوف الموت والقيامة. فبينما المتهجدون يبكون ويتضرعون والغافلون في غفلاتهم، إذا بالشمس

والقمر قد طلعا من المغرب أسودان لا ضوء للشمس ولا نور للقمر كصفتهما في كسوفهما، فذلك قوله تعالى: ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾[1] فيرفعان كذلك مثل البعيرين ينازع كل واحد منهما صاحبه استباقاً فيتصارخ أهل الدنيا حينئذ ويبكون، فأما الصالحون فينفعهم بكاؤهم ويكتب لهم عبادة، وأما الفاسقون فلا ينفعهم بكاؤهم يومئذ ويكتب ذلك عليهم حسرة وندامة، فإذا بلغ الشمس والقمر سرة السماء ومنتصفها جاء جبريل فأخذ بقرونهما فردهما إلى المغرب فيغربان، ويغلق باب التوبة». فقال عمر: بأبي وأمي أنت يا رسول الله ما بال التوبة؟ قال: «**يا عمر خلق الله بابا للتوبة خلف المغرب له مصراعان من ذهب، ما بين المصراع إلى المصراع أربعون سنة للراكب، فذلك الباب مفتوح منذ خلق الله خلقه إلى صبيحة تلك الليلة عند طلوع الشمس والقمر من مغربهما، فإذا غربا في ذلك الباب رد المصراعان والتأم ما بينهما فيصير كأن لم يكن بينهما صدع، فإذا غلق باب التوبة لم يقبل للعبد توبة بعد ذلك ولم ينفعه حسنة يعملها إلا من كان قبل ذلك محسناً فإنه يجري عليه ما كان يجري عليه قبل ذلك اليوم، فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾**». قال السدي: لا ينفع أحداً فعل الإيمان ولا فعل خير في تلك الحالة، إنما ينفع فعل هذا قبل تلك الحالة. وقيل: معنى «خيراً»: إخلاصاً، أي إذا لم تكن النفس مخلصة قبل مجيء الآيات لا ينفعها الإخلاص بعد مجيء الآيات. فقال أبي بن كعب: يا رسول الله وكيف الشمس والقمر يومئذ بعد ذلك؟ وكيف بالناس والدنيا؟ فقال: «**يا أبي إن الشمس والقمر يكسيان الضوء بعد ذلك، ثم يطلعان ويغربان كما كانا قبل ذلك، وأما الناس فيلحون على الدنيا حتى يجروا فيها الأنهار، ويغرسوا فيها الاشجار، ويبنوا فيها البنيان**». وقال حذيفة وأسيد والبراء بن عازب[2]: كنا نتذاكر الساعة إذ أشرف علينا رسول الله ﷺ فقال: «**ما**

---

(1) سورة القيامة (75)، الآية: 9.

(2) أبو عمارة البراء بن عازب الخزرجي صحابي قائد بن أصحاب الفتوح، جعله عثمان أميراً على الري بفارس وروى له البخاري ومسلم وغيرهما من رجال الحديث توفى سنة إحدى وسبعين هـ الاستيعاب 1: 155.

تتذاكرون؟» قلنا: الساعة يا رسول الله. فقال: **«إنها لا تقوم حتى يخرج الدجال، ودابة الأرض، وخسفاً بالمشرق، وخسفاً بالمغرب، وياجوج وماجوج، ونار تخرج من قعر عدن، ونزول عيسى، وطلوع الشمس من مغربها»**[1]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا جميعاً، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً»**[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍۚ﴾ قرأ حمزة والكسائي: فارقوا ـ بالألف، أي خرجوا من دينهم وتركوه، وهي قراءة علي رضي الله عنه، وقرأ الباقون: فرقوا ـ بالتشديد بغير ألف، وهي قراءة ابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب، أي جعلوا دين الله فرقاً: تهوّد قوم وتنصر آخرون. يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي فرقاً مختلفة. وقال مجاهد: أراد بهم اليهود فإنهم كانوا يمالئون المشركين على المسلمين لشدة عداوتهم[3]. وقال قتادة: هم اليهود والنصارى، فإن بعضهم يكفر بعضاً[4]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: هم أهل البدع والضلالة من هذه الأمة[5]. فإن بعضهم يكفر بعضاً بالجهالة. قوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أي فرقاً مختلفة. والشيع جمع شيعة:

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 18/ 28 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 11/ 426، رقم: 4289، باب أمارات الساعة ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1347، رقم: 4055، باب الآيات.

(2) رواه أبو داود في سننه: 11/ 435، رقم: 4290 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1352، رقم: 4068، باب طلوع الشمس من مغربها.

(3) تفسير الطبري: 12/ 269.

(4) نفسه.

(5) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 22ـ23، ثم قال: رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح.

وهي الفرقة التي يتبع بعضها بعضاً. يقال: شايعه على الأمر: إذا اتبعه. وقيل: أصل الشيع من الظهور. يقال: شاع الحديث يشيع: إذا ظهر. قوله تعالى: ﴿لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾ أي لست من مذاهبهم الباطلة في شيء أنت ترى من جميع ذلك ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي مصيرهم ومنقلبهم إلى الله يجزيهم في الآخرة ما كانوا يفعلون في الدنيا فيندم المبطل ويفرح المحق.

قوله عز وجل: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ أي من جاء بخصلة من الطاعة فله عشر حسنات ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ أي من جاء بخصلة من المعصية فلا يجزى إلا مثلها ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بالزيادة على مقدار ما استحقوا من العقاب، وإنما قال ذلك لأن التفضل بالنعم جائز والابتداء بالعقاب لا يجوز. قرأ الحسن وسعيد بن جبير: فله عشر ـ بالتنوين ـ أمثالها ـ بالرفع[1]، على معنى: فله حسنات عشر أمثالها. وقد تكلم أهل العلم في الحسنات العشر التي وعد الله في هذه الآية، قال بعضهم: المراد بها التحديد بالعشرة، وقال بعضهم المراد بها التضعيف دون التحديد بالعشرة كما يقول القائل: لئن أسديت إليّ معروفاً لأكافئنك بعشرة أمثاله. ثم اختلفوا فقال بعضهم: هو كل تفضل، والثواب غير ذلك، كأنه قال تعالى: من جاء بالحسنة فله عشر حسنات من النعيم والسرور زيادة على ثواب حسنته. ولا يجوز أن تساوي منزلة التفضل منزلة الثواب، لأن الثواب لا بد أن يقارنه التعظيم والإجلال. وقال بعضهم: هذه الحسنات العشر تفضل من الله تعالى. قالوا: ويجوز أن يتفضل الله على من لم يعمل مثل ثواب العامل ابتداء، لأنه يتفضل في فعله لا يستحق عليه شيء. وعن رسول الله ﷺ قال: «**إذا حسن إسلام أحدكم فكل حسنة يعملها تكتب له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ما شاء الله تعالى، وكل سيئة يعملها تكتب له مثلها إلى أن يلقى الله تعالى**»[2]. وعن حزيم بن فاتك[3] قال: قال رسول

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 151.
(2) ذكره البغوي في تفسيره: 2/ 447 بسنده من حديث أبي هريرة.
(3) حزيم بن الأخزم بن شداد بن عمرو بن الفاتك: صحابي جليل، شهد بدرا، وروى عن الرسول ﷺ. أسد الغابة: 2/ 112، الإصابة: 1/ 224 ـ الطبقات الكبرى: 6/ 112.

الله ﷺ: «**الأعمال ستة: موجبتان مثل بمثل، وحسنة بحسنة، وحسنة بعشر، وحسنة بسبعمائة. فأما الموجبتان فهو من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة، ومن مات وهو يشرك بالله شيئاً دخل النار، وأما مثل بمثل فهو من عمل سيئة فجزاء سيئة مثلها، وأما حسنة بحسنة فمن هم بحسنة حتى يشعر بها نفسه ويعلمها الله من قلبه كتبت له حسنة، وأما حسنة بعشر فمن عمل حسنة فله عشر أمثالها، وأما حسنة بسبعمائة فالنفقة في سبيل الله**»[1].

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي قل لهم يا محمد إنني وفقني ربي وأرشدني إلى دين الحق الذي أدعو الناس إليه.

قوله تعالى: ﴿دِينًا قِيَمًا﴾ أي ديناً هو غاية في الاستقامة. قرأ أهل الكوفة والشام: قيماً ـ بكسر القاف وفتح الياء مخففاً، فمعناه: المصدر كالصغر والكبر، ولم يقل: قوماً، لأنه من قولك: قام يقوم قياماً وقيماً، وقرأ الباقون بالتشديد[2]. وتصديق التشديد ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾[3]، ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾[4]. والقيم: المستقيم. واختلف النحاة في نصبه، فقال الأخفش معناه: هداني ديناً قيماً، وقيل: عرفني ديناً، وقيل: أعني ديناً، وقيل: انتصب على الإغراء، أي الزموا ديناً، واتبعوا ديناً.

قوله عز وجل: ﴿مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ أي دين إبراهيم، وهو بدل من قوله: ﴿دِينًا﴾. وقوله: ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن الشرك وجميع الأوثان الباطلة ميلاً لا رجوع فيه، وهو نصب على الحال كأنه قال: عرفني دين إبراهيم في حال حنيفة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ أي ما إبراهيم عليه السلام على دين المشركين. وإنما أضاف هذا الدين لأن ابراهيم معظماً في قلوب العرب وفي

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 12/ 279 بسنده.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 174.
(3) سورة التوبة (9)، الآية: 36 ـ سورة يوسف (12)، الآية: 40 ـ سورة الروم (30)، الآية: 30.
(4) سورة البينة (98)، الآية: 5.

قلوب سائر أهل الاديان، إذ أهل كل دين يزعمون أنهم ينتحلون دين إبراهيم عليه السلام.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿162﴾﴾ أي قل لهم يا محمد: إن صلاتي ـ يعني الصلوات الخمس المفروضة ـ ونسكي، أي طاعتي. وأصل النسك: كل ما يتقرب به إلى الله تعالى، ومنه قولهم للعابد: ناسك. وقال ابن جبير: نسكي في الحج والعمرة لله رب العالمين[1]. ويقال: أراد بالصلاة: صلاة العيد، وبالنسك: الأضحية. ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي وحياتي وموتي لله رب الخلائق كلهم. وإنما أضاف المحيا والممات إلى الله وإن لم يكن ذلك مما يتقرب به إليه، لأن الغرض بالآية: التبري إلى الله من كل حول وقوة، والإقرار له بالعبودية. وقيل: المراد بذلك أن الله تعالى هو المختص بأن يحييه ويميته، لا شريك له في ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي بذلك ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ أي أول من استقام على الإيمان من أهل هذا الزمان. قرأ أهل المدينة: ومحياي ـ بسكون الياء، وقرأ الباقون بفتحها لئلا يجتمع ساكنان[2]. وقرأ الحسن: ونسكي ـ بإسكان السين[3]. وعن أنس رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قرَّب كبشاً أملح أقرن فقال: «**لا إله إلا الله والله أكبر** ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾» الآية.. ثم ذبح فقال: «**شعره وصوفه فداء لشعري من النار، وجلده فداء لجلدي من النار، ودمه فداء لدمي من النار، ولحمه فداء للحمي من النار، وعظمه فداء لعظمي من النار، وعروقه فداء لعروقي من النار**». فقالوا: يا رسول الله هنيئاً مريئاً هذا لك خاصة. قال: «**لا، بل لأمتي عامة إلى أن تقوم الساعة**[4]**، أخبرني بذلك جبريل عليه السلام عن ربي عز وجل**».

(1) تفسير الطبري: 12/ 284.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 174.
(3) تفسير القرطبي: 7/ 152.
(4) البيهقي في الشعب: 2/ 225، رقم: 1591.

قوله تعالى:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿164﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿165﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ﴾ أي قل يا محمد: أغير الله أطلب إلهاً لي ولكم وهو رب كل شيء، أي هو مالكي ومالككم ومالك كل شيء، فكيف أطلب النفع من مربوب مثلي ومثلكم فهل يجوز هذا، وهل يحسن هذا؟ لا بد أن يكون جوابه: لا.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ﴾ أي لا تحمل كل نفس طاعة ولا معصية إلا عليها. قال أهل الإشارة: ولا تكسب كل نفس من خير أو شر إلا عليها، أما الشر فهو مأخوذ به، وأما الخير فمطلوب منه صحة قصده وخلوه من الرياء والعجب والافتخار به.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ﴾ أي لا تحمل حاملة ثقل أخرى. والمعنى: لا يحمل أحد ذنب غيره، بل كل نفس مأخوذة بجرمها وعقوبة إثمها. والوزر في اللغة: هو الثقل.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعُكُمْ﴾ أي مصيركم ومتقلبكم فيجزيكم بما كنتم تختلقون في دار الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ أي جعلكم يا أمة محمد خلفاً في الأرض. والخلائف جمع الخليفة، وكل قرن خليفة للقرن الذين كانوا قبلهم في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ أي فضل بعضكم في المال والمعاش والجاه، تقديره: إلى درجات، ثم حذف «إلى» وانتصب درجات. ويقال: إن الدرجات مفعول على تقدير: ورفعكم درجات، كما يقال: كسوت فلاناً ثوباً.

قوله تعالى: ﴿لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ﴾ أي ليختبركم فيما أعطاكم، يختبر الغني بالفقير والفقير بالغني، فيظهر للناس شكر الشاكرين وصبر الصابرين.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ أي إذا عاقب فإنه سريع. وإنما قال: سريع العقاب مع أنه موصوف بالحلم والإمهال، لأن كل ما هو آت قريب. وقيل: أراد بقوله: ﴿سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ﴾ سريع الحساب. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ أي لغفور لمن تاب من الذنوب، رحيم بمن مات على التوبة. وقال عطاء: سريع العقاب لأعدائه، غفور رحيم لأوليائه.

سُورَةُ الأَعْرَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ② ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ③ وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا بَيَٰتًا أَوْ هُمْ قَآئِلُونَ ④ فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ⑤ فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ⑥ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ⑦﴾.

قال أبو بكر الحداد:

سورة الأعراف: أربعة عشر ألف حرف ومائتان وعشرة أحرف، وثلاثة آلاف كلمة وثلاثمائة وخمس وعشرون كلمة، وهي مائتان وست آيات، وهي مكية[1].

بسم الله الرحمن الرحيم ﴿الٓمٓصٓ ① كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ②﴾. قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿الٓمٓصٓ ①﴾ معناه: أنا الله أعلم وأفصل[2]. وقيل: اللام افتتاح اسمه لطيف، والميم افتتاح اسمه مجيد ومالك، والصاد افتتاح اسمه صمد وصادق الوعد

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 3، فقد ذكر مثل هذا العدد.
(2) تفسير الطبري: 2/ 293.

وصانع المصنوعات. وقيل: هي حروف اسم الله الأعظم. وقيل: هي حروف تجري على معان كثيرة وموضعه رفع بالابتداء، وكتاب خبره، كأنه قال: ألمص حروف كتاب أنزل إليك، وقيل: كتاب خبر مبتدأ مضمر، أي هذا كتاب وقيل: رفع على التقديم والتأخير، يعني: أنزل كتاب إليك وهو القرآن.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ أي فلا يقع في نفسك شك منه، خاطب به النبي ﷺ وعنى به الخلق كلهم، أي لا ترتابوا ولا تشكوا. ويقال: الحرج: الضيق: أي لا يضيقن صدرك من تأدية ما أرسلت به، ولا تخافن في إبلاغ الرسالة لأنك في أمان ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾(1).

قوله: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ﴾ أي أنزل إليك لتخوف بالقرآن أهل مكة ﴿وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وليكون عظة لمن اتبعك.

قوله تعالى: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي اعملوا بما أنزل إليكم من ربكم. وحقيقة اتباع القرآن: تصرف الناس بتصريف القرآن لهم وتدبرهم بتدبيره. قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ أي لا تتخذوا من دونه أوثاناً، ولا تتولوا أحداً إلا لوجهه ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ أي قليلاً ما تتعظون.

قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ ﴿4﴾﴾ أي كم من قرية أهلكنا أهلها بألوان العذاب فجاءها عذابنا ليلاً. وسمي الليل بياتاً، لأنه يبات فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ أي وقت الظهيرة، يعني نهاراً في وقت القائلة. وقائلون: نائمون وقت الهاجرة. وإنما خص هذين الوقتين لأنهما من أوقات الراحة، وقيل: من أوقات الغفلة. ومجيء العذاب في حال الراحة أغلظ وأشد. أهلك الله قوم شعيب في نصف النهار وفي حر شديد وهم قائلون. وفائدة هذه الآية التهديد والوعيد على معنى: إن لم تتعظوا أتاكم العذاب ليلاً أو

(1) سورة المائدة (5)، الآية: 67.

نهاراً كما أتى الأولين الذين لم يتعظوا. ثم أخبر جل ذكره عن حال من أتاهم العذاب فقال عز وجل: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَىٰهُمْ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ معناه: لم يكن قولهم ودعاؤهم حين جاءهم عذابنا إلا الاعتراف بالظلم والشرك، أي اعتبروا بهم، كما لم ينفعهم تضرعهم عند رؤية البأس كذلك لا ينفعكم إذا جاءكم العذاب تضرعكم. قال سيبويه: إن الدعوى تصلح أن تكون في معنى الدعاء، ويجوز أن نقول[1]: اللّهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين ودعاء المسلمين. فإن قيل: إن الهلاك يكون بعد البأس، فكيف يقال: ﴿أَهْلَكْنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأْسُنَا﴾ قيل: إنهما يقعان معاً، كما يقال: أعطيتني فأحسنت. ويجوز أن يكون التقدير: أهلكناها في حكمنا فجاءها بأسنا.

قوله عز وجل: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝6﴾ إخبار عن حالهم يوم القيامة. ودخول الفاء في أول هذه الآية لتقريب ما بين الهلاك وسأل يوم القيامة. والمعنى: فلنسألن الذين أرسل إليهم هل بلغتم الرسل الرسالة؟ وماذا أجبتموهم؟ ولنسألن المرسلين هل بلغتم قومكم ما أرسلتم به؟ وماذا أجابوكم؟.

قوله عز وجل: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ۝7﴾ أي لنخبرنهم عما عملوا بعلم منا، معناه: إنا لا نسألهم لنعلم، وإنما نسألهم لإقامة الحجة عليهم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ﴾ معناه: إنا كنا عالمين بكل شيء من تبليغ الرسالة وجواب الأمم.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝8 وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝9 وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝10﴾.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي وزن الأعمال يوم القيامة الحق، ولا

(1) في النسخة (ف): أن يقال.

ينقص من إحسان محسن، ولا يزاد على إساءة مسيء. وقال مجاهد: معناه والقضاء يومئذ العدل[1]. قوله تعالى: ﴿وَٱلْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ﴾ أي وزن الأعمال يوم الحق لا ينقص.

قوله تعالى: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي من رجحت حسناته على سيئاته فأولئك هم الظافرون بالمراد ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ أي رجحت سيئاته على حسناته ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ﴾ حظ أنفسهم بما كانوا بمحمد ﷺ والقرآن يجحدون. والخسران: ذهاب رأس المال. ورأس مال الانسان نفسه، فإذا هلك لسوء عمله فقد خسر نفسه. وقد تكلموا في ذكر الموازين يوم القيامة، قال ابن عباس: توزن الحسنات والسيئات في ميزان له لسان وكفتان توضع فيه أعمالهم[2]، فأما المؤمن فيؤتى بعمله في أحسن صورة فتوضع في كفة الميزان فتثقل حسناته على سيئاته فيوضع عمله في الجنة عند منازله، ثم يقال له: الحق بعملك فيأتي منازله في الجنة فيعرفها بعمله، وأما الكافر فيؤتى بعمله في أقبح صورة فيوضع في كفة الميزان فتخف، والباطل خفيف، ثم ترفع فتلقى في النار، ثم يقال له: الحق بعملك. فيلحق فيأتي منازله في النار. وقيل: إن المراد بالعمل في هذا الخبر أن الله تعالى يجعل للحسنات صورة حسنة وللسيئات صورة قبيحة لا أن عين الأعمال توزن، لأن الأعمال أعراض منقضية لا تعاد. وقال ابن عمر[3]: يؤتى بصحف الطاعات وصحف المعاصي فتوزن الصحف[4]. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يؤتى بالعبد المؤمن يوم القيامة إلى الميزان، ثم يؤتى بتسعة وتسعين سجلاً، كل سجل منها مد البصر فيها خطاياه وذنوبه، فتوضع في كفة الميزان، ثم تخرج بطاقة من تحت العرش بمقدار الأنملة فيها شهادة أن لا إله إلا الله فتوضع في الكفة الأخرى فيقول العبد: يا رب ما تزن هذه البطاقة مع هذه الصحائف؟ فيأمر الله أن توضع، فإذا وضعت في الكفة طاشت الصحف**

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 309.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 3.
(3) في النسخة (س): ابن عمرو.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 452.

ورجحت البطاقة»[1]. وقال بعضهم: يوزن الانسان كما قال ﷺ: **«يؤتى بالرجل العظيم الاكول الشروب فيوزن فلا يزن جناح بعوضة**[2]. **اقرأوا إن شئتم قوله تعالى**: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾»[3]. وأما ذكر الموازين بلفظ الجماعة فلأن الميزان يشتمل على الكفتين والخيوط واللسان. فإن قيل: ما الحكمة في وزن الأعمال والله سبحانه وتعالى عالم بمقدار كل شيء قبل خلقه إياه وبعد؟ قيل: لإقامة الحجة عليهم: ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[4] فأخبر بنسخ الأعمال وإثباتها مع علمه بها لما ذكرنا. وقيل: الحكمة فيه تعريف الله العباد ما لهم عنده من جزاء على الخير والشر. وقيل: جعله الله علامة للسعادة والشقاوة. وقيل: لامتحان الله تعالى عباده بالإيمان به في الدنيا.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي مكناكم بالتمليك والأقدار ورفع الموانع، وجعلنا لكم في الأرض ما تعيشون به من الرزق، وما يخرج من الأرض من الحبوب ومن الأشجار من الثمار. وقيل: معنى معايش: التوصل إلى ما يعاش به بالحراثة والتجارة وأنواع الحرف والصناعات.

قوله عز وجل: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي شكركم فيما صنع إليكم قليل. وقيل: معنى قوله: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ﴾ أي تعيشون بها أيام حياتكم من المآكل والمشارب.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿11﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ

---

(1) رواه الحاكم في المستدرك: 1/ 529 وقال: هذا صحيح الإسناد ولم يخرجاه ـ وأحمد في المسند: 2/ 213.

(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 129.

(3) سورة الكهف (18)، الآية: 105.

(4) سورة الجاثية (45)، الآية: 29.

وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿12﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿13﴾ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿14﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿15﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿16﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿17﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿18﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ﴾ أي خلقنا آدم الذي هو أصل خلقتكم، ثم صورناه إنسانا، ثم قلنا من بعد خلقه من التراب وتصويره للملائكة الذين كانوا في الأرض مع إبليس: اسجدوا لآدم سجدة تحية. فسجد المأمورون إلا إبليس لم يكن من الساجدين لآدم. وقيل: معنى الآية: ولقد خلقناكم في بطون أمهاتكم نطفا ثم علقا ثم مضغا ثم عظاما ثم لحما ثم صورناكم: الحسن والدميم والطويل والقصير، وصورناكم أعضاء من العين والأنف والأذن واليد والرجل وأشباه ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ قال الأخفش: معنى «ثم» ههنا: معنى الواو، أي وقلنا للملائكة اسجدوا لآدم، لأن قوله تعالى ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِءَادَمَ﴾ قبل خلقنا وتصويرنا[1]. وأنكر سيبويه والخليل: أن تكون «ثم» بمعنى الواو، ولكن أن تكون للتراخي، ويجوز أن يكون معنى «ثم» ههنا التراخي من حيث الإخبار دون ترادف الحال.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾ أي ما منعك أن تسجد. ولا زائدة في الكلام كما في قوله تعالى: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[2] أي ليعلم. وقيل معناه: ما دعاك إلى أن لا تسجد وقد علم الله ما منعه من السجود، ولكن مسألته إياه توبيخ له وإظهار أنه معاند ركب المعصية. وعن ثعلب[3] أنه قال: كان بعضهم يكره إلغاء «لا» ويقول تقديره: من قال لك ألا تسجد.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ ليس هذا

(1) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 572.
(2) سورة الحديد (57)، الآية: 29.
(3) في النسخة (ف): يحي بن ثعلب.

بجواب عن ما سأله الله تعالى من جهة اللفظ، لأن هذا الجواب جواب أيكما خير؟ إلا أن هذا جواب من جهة المعنى فإن معناه: إنما منعني من السجود له لأني كنت أفضل منه، وكان هذا القول من اللعين تجهيلاً منه لخالقه، كأنه قال: إنك فضلت الظلمة على النور وليس ذلك من الحكمة. فأعلم الله تعالى أنه صاغر بهذا القول، وليس الأمر على ما قاله الملعون، لأنه رأى أن جوهر النار أفضل من جوهر الطين في المنفعة وليس كذلك، لأن عامة الثمار والحبوب والفواكه من الطين، وكذلك الملابس كلها من الطين وعمارة الأرض من الطين، وهو موضع القرار عليه لا يستغنى عنه في حال من الأحوال. وأما النار فهي للخراب وإن كان فيها بعض المنافع. قال ابن عباس: أول من قاس فأخطأ القياس إبليس لعنه الله، فمن قاس الدين بشيء من رأيه قرنه الله مع إبليس[1]. وكان قياس إبليس أنه قال: النار خير وأفضل وأصفى وأنور من الطين. وقال ابن سيرين: أول من قاس إبليس، وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس[2]. ولقد أخطأ عدو الله حين فضل النار على الطين، بل الطين أفضل من النار من وجوه كثيرة: أحدهما: أن جوهر الطين السكون والوقار والحياء والصبر والحلم، وذلك هو الداعي لآدم بعد السعادة التي سبقت له إلى التوبة والتواضع، فأورثه المغفرة والاجتباء والهداية والتوبة. ومن جوهر النار: الخفة والطيش والحدة والارتفاع والاضطراب، وذلك هو الداعي لابليس بعد الشقاوة التي سبقت له إلى الاستكبار والإصرار، فأورثه الهلاك والعذاب واللعنة والشقاء. والثاني: أن الطين سبب لجمع الأشياء، والنار سبب لتفريقها. والثالث: أن الخبر ناطق بأن تراب الجنة مسكٌ أذفر[3]. ولم ينطق الخبر أن في الجنة ناراً أو في النار تراباً. والرابع: أن النار سبب عذاب الله تعالى لأعدائه وليس التراب للعذاب. والخامس: أن التراب مستغن والنار تحتاج إلى المكان. ومكانها التراب[4].

(1) تفسير القرطبي: 7/ 171.
(2) تفسير الطبري: 12/ 328.
(3) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 5.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 455.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا﴾ أي من الجنة، وقيل: من السماء إلى الأرض فإن السماء ليس بموضع للمتكبرين، وقيل معناه: فاهبط من الأرض أي أخرج منها والحق بجزائر البحار فإنما سلطانه في الجزائر، فلا يدخل الأرض إلا كهيئة السارق عليه أطمار مروع فيها حتى يخرج من الأرض.

قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ أي ليس لك أن تتعظم في الأرض على بني آدم ﴿فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ أي من الأذلاء. والصغار: هو الذل.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ أي قال إبليس حين خشي أن يعاجله الله بالعقوبة: أمهلني وأخر جزائي إلى يوم يبعثون من قبورهم وهي النفخة الأخيرة عند قيام الساعة. أراد الخبيث أن لا يذوق الموت. قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾ أي المؤخرين المؤجلين إلى يوم الوقت المعلوم وهي النفخة الأولى عند موت الخلق كلهم. وهذا ليس بإجابة إلى ما سأل، لأنه سأل الله الإمهال إلى النفخة الثانية، فأبى الله أن يعطيه ذلك فقال: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ يعني إلى النفخة الأولى، يموت حينئذ أهل السماوات والأرض ويموت إبليس معهم. وبين النفخة الأولى والثانية أربعون سنة. واختلفوا في أن الله تعالى هل يجيب دعوة الكافر أم لا؟ قال بعضهم: لا يجيب، لأن إجابة الدعاء يكون تعظيماً للداعي. ولهذا يمدح الإنسان بأنه مجاب الدعوة، ولا يحسن من الله تعالى أن يعلم أحداً مدة حياته لما في ذلك من الإغراء بالمعاصي. وكيف يجوز أن يجيب الله تعالى إبليس إلى ما سأل، ولم يكن سؤاله على جهة التضرع والخشوع والرغبة إلى الله تعالى، وإنما سأل ليغوي الناس ويضلهم. وقال بعضهم: يجوز إجابة دعاء الكافر استدراجاً واستضلالاً له ولغيره، ولا تكون إجابة الكافر تعظيماً له بحال أبداً.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي فبما أضللتني عن الهدى لاقعدن لهم، أي لأرصدن على طريق بني آدم وأصدنهم عن دينك المستقيم. وقال الحسن: معنى أغويتني: لعنتني. وقيل: أغويتني أي

خيبتني، وقد يكون الغي بمعنى الخيبة. وقيل: أغويتني: أهلكتني[1].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ قال ابن عباس: معناه إن إبليس قال: لآتينهم من قبل آخرتهم فلأخبرنهم أنه لا جنة ولا نار ولا بعث ولا حساب. ومن خلفهم أي من قبل دنياهم فلآمرنهم بجمع المال مخافة الفقر وأن لا يؤدوا حقه ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ أي من قبل دينهم. فأزين[2] لهم ضلالتهم، وإن كانوا على هدى شبهته عليهم حتى أخرجهم منه.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ أي من قبل اللذات والشهوات فأزينها لهم ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾ لنعمتك[3]. وقال السدي: معنى ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ﴾ أراد الدنيا، أي أدعوهم إليها. ﴿وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ﴾ يعني الآخرة أشككهم فيها. ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ قال: الحق أشككهم فيه. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ قال: الباطل أخففه عليهم وأرغبهم فيه[4]. وقيل: أراد بقوله: ﴿وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ من جهة الحسنات أغفلهم عنها. ﴿وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ﴾ يعني من جهة السيئات. فإن الحسنات تضاف إلى اليمين، والسيئات تضاف إلى الشمال. وقيل معنى الآية: ثم لأحتالن في إغوائهم من كل وجه. قال قتادة: أتاك يا ابن آدم من كل وجه غير أنه لا يستطيع أن يحول بينك وبين رحمة ربك، إنما تأتيك الرحمة من فوقك[5]. وقال شقيق بن ابراهيم:[6] ما من صباح إلا قعد لي الشيطان على أربعة مراصد: من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي. أما من بين يدي فيقول لي: لا تحزن فإن الله غفور رحيم. فأقول:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 5.
(2) في النسخة (ف): فأبين.
(3) تفسير الطبري: 12/ 338 ـ 339.
(4) تفسير الطبري: 12/ 340.
(5) نفسه.
(6) أبو علي، شقيق بن ابراهيم الأزدي البخلي: زاهد صوفي، من مشاهير خراسان ومن كبار المجاهدين، توفي سنة أربع وتسعين ومائة. طبقات الصوفية: 61 ـ لسان الميزان: 3/ 151 ـ ميزان الاعتدال: 1/ 449.

ذلك ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[1]. وأما من خلفي فيخوفني الضيعة على ذريتي ومن خلفي فأقول: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾[2] وأما من قبل يميني فيأتيني من قبل النساء فأقول: ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[3] وأما من قبل شمالي فيأتيني من اللذات والشهوات فأقول: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾[4] وإنما ذكر «من» في قوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ وذكر «عن» في قوله: ﴿وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ﴾ لأن القدام والخلف يكونان لابتداء الغاية وانتهاء الغاية. والغاية تذكر بحرف «من». وأما جهة اليمين والشمال فإنما يكونان للانحراف فذكرها بـ «عن» فإن قيل: من أين علم إبليس أنه لا يكون أكثر الناس شاكرين؟ قيل: لأنه ظن بهم ظناً فوافق ظنه مظنونه كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾[5] وإنما ظن ذلك لأنه لما تمكن من استنزال آدم وحواء، علم أن أولادهما أضعف منهما، فيكون تمكنه منهم أكثر.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا﴾ أي قال الله تعالى: أخرج من الجنة من السماء مذؤوما أي مذموماً معيباً. والذأم والذم: شدة العيب. يقال: ذأمت الرجل أذأمه ذأماً: إذا عبته وذممته. وقوله: ﴿مَّدْحُورًا﴾ أي مبعداً من الخير والرحمة. والدحور: الدفع على وجه الهوان والذل. وقال ابن عباس: مذموماً: ممقوتاً. وقال مجاهد: مذءوماً: صاغراً. وقال أبو العالية: مذءوماً أي مزدرا به. وقال عطاء: مذءوماً أي ملعوناً. وقال الكسائي: المذءوم: المقبوح.

قوله تعالى: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ اللام في قوله: ﴿لَّمَن تَبِعَكَ﴾ لام القسم دخلت على لفظ الشرط والجزاء لمعنى التأكيد والمبالغة، كأنه تعالى قال: من تعبك لأبالغن في تعذيبه عذاباً شديداً، كذلك قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي منك ومن ذريتك ومن كفار ذرية آدم عليه السلام.

---

(1) سورة طه (20)، الآية: 82.
(2) سورة هود (11)، الآية: 6.
(3) سورة هود (11)، الآية: 49.
(4) سورة سبأ (34)، الآية: 54.
(5) نفس السورة، الآية: 20.

قال الله تعالى:

﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا
مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿19﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا
نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿20﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي
لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿21﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ
عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ
لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿22﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ
﴿23﴾ قَالَ ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿24﴾ قَالَ
فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿25﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ أي اسكن أنت وزوجتك، لأن الإضافة إليه دليل على ذلك، وحذف التاء أحسن لما فيه من الإيجاز من غير إخلال بالمعنى. وأما الجنة التي أسكنهما الله فيها فهي جنة الخلد في أكثر أقوال أهل العلم، بخلاف ما يقوله بعضهم: أنها كانت بستاناً في السماء غير جنة الخلد، وذلك أن الله تعالى عرف الجنة بالألف واللام على جهة التشريف.

قوله تعالى: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ أي من أي شيء شئتما موسعاً عليكما. ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ أي لا تقرباها للأكل. وقد تقدم تفسير الشجرة في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يجوز أن يكون منصوباً لأنه جواب النهي، ويجوز أن يكون مجزوماً عطفاً على النهي، ومعناه: وتكونا من الضارين لأنفسكما.

قوله عز وجل: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ أي زين إبليس الأكل من الشجرة ليظهر لهما ما ستر عنهما من عوراتهما. والوسوسة: إلقاء المعنى إلى النفس بصوت خفي. والفرق بين وسوس له ووسوس إليه: أن معنى وسوس له أوهمه، ومعنى وسوس إليه، أي ألقى إليه.

وإنما سميت العورة سوأة: لأنه يسوء الإنسان انكشافها.

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ قرأ بعضهم: ملكين ـ بكسر اللام[1]، ومعناه: إلا أن تكونا ملكين تعلمان الخير والشر، وإن لم تكونا ملكين تكونا من الخالدين، أي لا تموتان. وقال في وسيط الواحدي[2] معناه: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ لا تموتان إلى يوم القيامة كما لا تموت الملائكة.

وقوله: ﴿أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ أي لا تموتان فتبقيان أبداً فذلك قوله تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾[3] أي شجرة من أكل منها لم يمت. وقوله: ﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ أي جديد لا يفنى على قراءة من قرأ: ملكين ـ بكسر اللام استدلالاً له بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾. فإن قيل: كيف أوهمهما أنهما إذا أكلا من تلك الشجرة تغيرت صورتهما إلى صورة الملك أو يزداد في حياتهما؟ قيل أوهمهما أن من حكمة الله تعالى أن من أكل منها صار ملكاً ولا تبيد حياته. وقيل: إنه لم يطمعهما في أن تصير صورتهما كصورة الملك، وإنما أطمعهما في أن تصير منزلتهما كمنزلة الملك في العلو والرفعة.

قوله عز وجل: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿21﴾﴾ أي حلف لهما إني لكما لمن الناصحين فيما أقول. وإنما قال ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ على لفظ المفاعلة لأنه قابلهما بالحلف، وهذا كما يقال: عاقبت اللص وناولت الرجل. قال قتادة:

---

(1) قرأ بها جماعة منهم: ابن عباس والضحاك ويحيى بن أبي كثير. تراجع هذه القراءات في: النحاس، إعراب القرآن: 2/ 118 ـ تفسير الطبري: 12/ 348

(2) أبو الحسن، علي بن أحمد الواحدي: مفسر، عالم بالأدب، واللغة. وصفه الذهبي بأنه إمام علماء التأويل. كان أوحد عصره، لازم أبا اسحاق الثعلبي وأخذ عنه وعن غيره. له عدة مؤلفات، منها ثلاثة تفاسير: البسيط، والوسيط، والوجيز، وكتاب أسباب النزول وهو مطبوع متداول. توفي سنة ثمان وستين وأربعمائة هجرية.

الداودي، طبقات المفسرين: 1/ 394 ـ السبكي، طبقات الشافعية: 5/ 240 ـ معجم الأدباء، لياقوت: 5/ 97، وفيات الأعيان: 2/ 264.

(3) سورة طه (20)، الآية: 120.

حلف لهما حتى خدعهما. وقد يخدع المؤمن بالله تعالى، وقال لهما: إني خلقت قبلكما، وأنا أعلم منكما فاتبعاني أرشدكما. وكان بعض العلماء يقول: من خادعنا بالله خدعنا[1]. وقال ﷺ: «**المؤمن غر كريم**[2]، **والفاجر خب لئيم**»[3]. وأنشد نفطويه[4]:

إن الكريم إذا تشاء خدعته ∴ وترى اللئيم مجرباً لا يخدع[5]

قوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ أي حدرهما من أعلى إلى أسفل ولأن الخير عال والشر سافل. وقال بعضهم: قربهما مما أراد من التدلية وهي التقريب، مأخوذ من إدلاء الدلو، ويقال: فلان يدلي فلاناً بغرور، أي يخدعه بكلام مزخرف بالباطل. وقال مقاتل: فدلاهما بغرور، أي زين لهما الباطل. وقوله تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ الغرور ما تقدم ذكره بقوله لهما: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾. وفي بعض الروايات أن آدم عليه السلام كان يقول وقت توبته: ما ظننت يا رب أن أحداً يتجرأ فيحلف باسمك كاذباً.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾ فيه دليل أنهما لم يبالغا في الأكل، ولكن لما وصل إلى جوفهما تهافت عنهما لباسهما، وظهر لكل واحد منهما عورة صاحبه، فاستحيا ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي عمدا وأخذا يلزقان عليهما من ورق التين. والخصف: إلزاق بعضه على بعض كما

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 351.

(2) «المؤمن غر..» ـ بكسر الغين المعجمة وتشديد الراء ـ أي موصوف بالوصفين له: الاغترار لكرمه. والفاجر: الفاسق. خب ـ بفتح خاء معجمة وتكسر وتشديد الباء ـ أي يسعى بين الناس بالفساد.

(3) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 146، رقم: 4769، باب في حسن العشرة ـ والبيهقي في الشعب: 6/ 269، رقم: 8115، باب في حسن الخلق.

(4) أبو عبد الله ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدي نفطويه: إمام في النحو، وكان فقيهاً في مذهب داود، مسند في الحديث، ثقة. من مؤلفاته: غريب القرآن. توفي سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة هجرية. الزبيدي، طبقات النحويين: 172 ـ إرشاد الأريب: 1/ 196 ـ الداودي، طبقات المفسرين: 1/ 19.

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 6 في تفسير سورة الأعراف.

يعمل الخصاف الذي يرقع النعل. ومعنى طفقا: أخذا في العمل، يقال: بات يفعل كذا: إذا فعله ليلاً، وظل يفعل كذا: إذا فعله نهاراً، وطفق يفعل كذا: إذا فعله في أي وقت كان. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن آدم كان رجلاً طوالاً كأنه نخلة سحوق**[1] **كثير شعر الرأس، فلما وقع بالخطيئة بدت سوأته وكان لا يراها، فانطلق هارباً في الجنة فعرضت له شجرة من شجر الجنة فحبسته بشعره فقال لها: أرسليني. فقالت: لست مرسلتك. فناداه ربه: يا آدم أمني تفر؟ قال: لا، ولكني استحييتك**»[2]. وقال ابن عباس: قال الله: يا آدم ألم يكن لك فيما أبحت لك من الجنة مندوحة عن الشجرة؟ قال: بلى، ولكن وعزتك ما حسبت أن أحداً من خلقك يحلف بك كاذباً. قال: فبعزتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كدا. فأهبط إلى الأرض هو وحواء فعلم صنعة الحديد، وأمر بالحرث فحرث وزرع وسقى وحصد، ثم درس وذرا، ثم طحن، ثم عجن، ثم إنه خبز، ثم أكل فلم يبلغ إلى الأكل حتى يبلغ ما شاء الله أن يبلغ[3].

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾ قال محمد بن قيس[4]: ناداه ربه: يا آدم لم أكلت منها وقد نهيتك؟ قال: يا رب أطعمتني حواء. قال: يا حواء لم أطعمته؟ قالت: أمرتني الحية. فقيل للحية: لم أمرتها؟ قالت: أمرني إبليس: فقال الله تعالى: أما أنت يا حواء كما أدميت الشجرة تدمين كل شهر، وأما أنت يا حية فأقطع قوائمك فتمشين في التراب على وجهك، وسيشدخ رأسك من لقيك، وأما أنت يا إبليس فملعون مدحور[5].

---

(1) نخلة سحوق: هي الطويلة المفرطة التي يبعد ثمرها عن الجاني.

(2) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 2/ 460 عن أبي بن كعب ـ والطبري في تفسيره بسنده: 12/ 352، رقم: 14398.

(3) في تفسير الطبري: 12/ 353 مع بعض الاختلاف اليسير.

(4) محمد بن قيس بن مخرمة المطلبي: تابعي ثقة، روى عن أبي هريرة وعائشة وغيرهما، وعنه روى ابنه حكيم وابن عجلان وابن اسحاق وغيرهم.
الطبقات الكبرى: 5/ 240 ـ تهذيب التهذيب: 9/ 912.

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 6 ـ تفسير الطبري: 12/ 355.

قوله عز وجل: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ أي حرمناها بالمعصية. وهذا اعتراف بالخطيئة على أنفسهما ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بالعقوبة.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي قال اهبطوا من الجنة إلى الأرض في حال عداوة بعضكم لبعض ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ﴾ ومنفعة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى منتهى آجالكم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ أي في الأرض تعيشون، وفي الأرض تموتون ﴿وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم إلى البعث.

قال الله تعالى:

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ
ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (26) يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ
أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا
تَرَوْنَهُمْ ۗ إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (27) وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ
ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (28)
قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا
بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (29) فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ (30)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ أي أنزل الله المطر من السماء فكانت الكسوة منه، يعني أن لباسهم من نبات الأرض من القطن والكتان وهو من ماء السماء، وما يكون من الكسوة من أصناف الأنعام، فقوام الأنعام أيضاً من ماء السماء. كذا قال ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله تعالى: ﴿يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ﴾ أي يستر عوراتكم.

قوله تعالى: ﴿وَرِيشًا﴾ أي مالاً. هكذا قال ابن عباس ومجاهد والضحاك والسدي. يقال: تريَّش الرجل إذا تموَّل. وقال ابن زيد: الريش: الجمال[1].

---

(1) تفسير الطبري: 2/ 365 ـ 366.

وقرأ عثمان بن عفان والحسن وقتادة: ورياشاً ـ بالألف وهو جمع ريش مثل: ذئب وذئاب[1]. وقال الأخفش: الرياش الخصب والمعاش. وقيل: معنى الريش: ما يتأثث به في البيت من متاعه[2].

قوله تعالى: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ قال قتادة والسدي: هو العمل الصالح لأنه يقي من العذاب والعقاب، كأنه قال: لباس التقوى خير من الثياب، لأن الفاجر وإن كان حسن الثياب فهو بادي العورة قال الشاعر:

إني كأني أرى من لا حياء له ∴ ولا أمانة وسط القوم عرياناً[3]

وقال ابن جريج: لباس التقوى هو الإيمان. وقال معبد الجهني[4]: هو الحياء. وقيل: هو السمت الحسن. وقال وهب: الإيمان عريان ولباسه التقوى، وريشه الحياء، وماله الفقه، وثمرته العمل الصالح. وقيل: لباس التقوى: ما يلبس من الثياب للتضرع والتخشع مثل الصوف والثياب الخشنة هو خير من لباس التكبر[5]. قرأ أهل المدينة والشام والكسائي: لباس ـ بالنصب عطفاً على قوله: ﴿وَرِيشًا﴾، وقرأ الباقون: بالرفع على الابتداء، وخبره ﴿خَيْرٌ﴾ وجعلوا ﴿ذَٰلِكَ﴾ صلة في الكلام، وكذا قرأ ابن مسعود وأبي بن كعب: ولباس التقوى خير[6].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ معناه: أن إنزال اللباس من دلائل الله على إثبات وحدانيته ونعمته ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لكي يتعظوا فيعرفوا أن ذلك كله من الله تعالى:

قوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 7.
(2) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 515.
(3) نسبه الثعلبي في تفسيره، ورقة: 6 لأبي عوانة السدوسي.
(4) أبو زرعة، معبد بن خالد الجهني: صحابي جليل من القادة، أسلم قديماً، وكان أحد الأربعة الذين حملوا ألوية جهينة يوم الفتح، وكان يلزم البادية. توفي سنة اثنتين وسبعين. الطبقات الكبرى: 4/ 259.
(5) يراجع تفسير الطبري في معنى اللباس: 12/ 366 ـ 367.
(6) تفسير الثعلبي، ورقة: 7، ـ كتاب السبعة في القراءات، لابن مجاهد: 280.

﴿ٱلْجَنَّةِ﴾ أي لا يضلكم الشيطان بالدعاء إلى الغي والمعصية كما استنزل أبويكم آدم وحواء من الجنة تسبب في نزع لباسهما بحملهما على المعصية.

وقوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ أي ليظهر لهما عوراتهما لأن ذلك يغيظهما. وإنما أضاف الإخراج من الجنة إلى الشيطان، لأن ذلك كان بوسوسته وإغوائه. واختلفوا في لباسهما في الجنة، فقال بعضهم: كان من ثياب الجنة. وعن ابن عباس أن لباسهما كان من الظفر، أي كان يشبه الظفر فإنه كان مخلوقاً عليهما خلقة الظفر. وقال وهب: كان لباسهما من النور[1]. ومعنى قوله: ﴿لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي كونوا على حذر من ذلك فإنه عدو لكم. وهذا اللفظ أبلغ من أن يقول: لا تقبلوا فتنة الشيطان.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان ونسله يرونكم وأنتم لا ترونهم. وإنما قال هكذا، لأنا إذا لم نرهم لم نعرف قصدهم بالكيد والإغواء حتى نكون على حذر فيما نجده في نفوسنا من وساوسه. وفي هذا بيان أن أحداً من البشر لا يرى الجن بخلاف ما يقول بعضهم: أن منا من يراهم. وإنما لا يراهم البشر لأنهم أجسام رقيقة تحتاج في رؤيتها إلى فضل شعاع، والله تعالى لم يعطنا من الشعاع قدر ما يمكننا من أن نراهم. وأما هم فإنهم يروننا لأنهم يروا بعضهم بعضاً أنهم أجسام رقيقة، فلأن يرونا ونحن أجسام كثيفة أولى. وذهب بعض الناس إلى أنه يجوز أن يراهم البشر بأن يكثفوا أجسامهم، قال: وهم ممكنون من ذلك. وقيل: إن هذا لا يصح لأن لو أمكنهم أن يكثفوا أجسام أنفسهم أمكنهم أن يكثفوا أجسام غيرهم. وقال مالك ابن دينار: إن عدواً يراك ولا تراه لشديد المؤنة إلا من عصم الله[2]. وقيل: صدر ابن آدم مسكن له، ويجري من ابن آدم مجرى الدم، وأنت لا تقاومه إلا بعون الله، والشيطان يراك وأنت لا تراه، وهو لا ينساك وأنت تنساه، وفيه يقول بعضهم:

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 374.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 463.

ولا أراه حـيـث مـا يـرانـي ∴ وعـنـدمـا أنـسـاه لا يـنـسـانـي

فـسـيـدي إن لـم تـعـن سـبـانـي ∴ كـمـا سـبـا آدم مـن جـنـانِ

وقال ذو النون: إن كان هو يراك وأنت لا تراه، فإن الله يراه من حيث لا يرى الله فاستعن بالله عليه[1] ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي جعلناهم قرناء للذين لا يؤمنون بالله.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ معناه: إن كفار مكة كانوا إذا فعلوا معصية يعظم قبحها نحو طوافهم بالبيت عراة، وتحريمهم ما أحل الله تعالى من البحيرة والسائبة قالوا وجدنا على هذا آباءنا وأسلافنا والله أمرنا بهذه الأشياء قل لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي لا يأمرنا بالمعاصي ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ استفهام بمعنى الإنكار على جهة إلزام الحجة، لأنهم إن قالوا: نقول على الله ما لا نعلم فضحوا أنفسهم، وإن قالوا: لا نقول على الله ما لا نعلم لزمتهم الحجة لأنهم لم يكن لهم حجة على ما قالوا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل والصواب. وقال ابن عباس: لا إله إلا الله. وقال الضحاك: بالتوحيد[3] ﴿وَأَقِيمُواْ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ قال مجاهد والسدي: أي توجهوا إلى القبلة في الصلاة أداء من عند كل مسجد[4]. وقال الكلبي معناه: إذا حضرت الصلاة وأنتم في مسجد فصلوا فيه ولا يقول أحدكم أصلي في مسجدي، وإذا لم يكن عند مسجد فليأت أي مسجد شاء فليصل فيه. وهذه الآية تدل على وجوب فعل الصلاة المكتوبة في الجماعة[5]. وقد روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من استمع النداء فلم يجبه**

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 7

(2) سورة النساء 4، الآية: 76.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 7

(4) تفسير القرطبي: 12/ 380.

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 7.

فلا صلاة له»[1]. وقال ﷺ: **«لقد هممت أن آمر رجلاً يصلي بالناس ثم أنظر إلى قوم يتخلفون عن الجماعات فأحرق عليهم بيوتهم»**[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي مخلصين له الطاعة والعبادة.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ أي خلقكم حين خلقكم مؤمناً وكافراً وشقياً وسعيداً، فكما خلقكم فكذلك تعودون إليه يوم القيامة ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ﴾ وهم المؤمنون ﴿وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ وهم أهل الكفر. وهذا قول ابن عباس. كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾[3] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمناً وكافراً، فيبعث المؤمن مؤمناً، والكافر كافراً. وقال الحسن ومجاهد معناه: كما بدأكم فخلقكم في الدنيا ولم تكونوا شيئاً كذلك تعودون يوم القيامة أحياء.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وذلك أن أهل الضلالة اتخذوا الشياطين أولياء بطاعتهم لهم فيما دعوهم إليه ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ أي يظنون أنهم على الهدى.

قال الله تعالى:

﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ ۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿31﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ
لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿32﴾ قُلْ
إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا
لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿33﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ
لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿34﴾ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ
ءَايَٰتِى ۙ فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿35﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

---

(1) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 1/ 362، رقم: 217 ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 260، رقم: 793.

(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 5/ 153 ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 259، رقم: 791.

(3) سورة التغابن (64)، الآية: 2.

وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿36﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ﴾ أي أهل الجاهلية كانوا يطوفون بالبيت عراة ويقولون: لا نطوف في الثياب التي أذنبنا فيها ودنسناها بالذنوب. فكانت المرأة منهم تطوف عريانة بالليل إلا أنها كانت تتخذ سيوراً مقطعة تشدها في حقويها، فكانت السيور لا تسترها ستراً تاماً. قال المفسرون: كانت بنو عامر في الجاهلية يفعلون ذلك، كان رجالهم يطوفون عراة بالنهار، ونساؤهم بالليل. وحكي أن امرأة[1] كانت تطوف عريانة وهي تقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ∴ فما بدا منه فلا أحله

وكانوا إذا قدموا منى طرح أحدهم ثيابه في رحله، فإن طاف وهي عليه ضرب وانتزعت منه. فأنزل الله هذه الآية[2] ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ يعني الثياب. وقال مجاهد: يعني ما يوارى عورتك ولو عباءة. وقال الكلبي: كانت بنو عامر لا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، ولا يأكلون دسماً في أيام حجهم يعظمون بذلك حجهم، وكذلك كانت قريش وكنانة يفعلون. فقال المسلمون: يا رسول الله نحن أحق أن نفعل ذلك. فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ﴾ أي البسوا ثيابكم عند كل مسجد، وكلوا اللحم والدسم، واشربوا من ألبان السوائب والبحائر، ولا تسرفوا، لا تتجاوزوا تحريم ما أحل الله لكم. والإسراف: مجاوزة الحد فتارة يكون بمجاوزة الحلال إلى الحرام، وتارة يكون بمجاوزة الحد في الإنفاق، وتارة بأن يأكل الإنسان فوق الشبع فيؤدي به ذلك إلى الضرر. ويروى أن هارون الرشيد كان له طبيب نصراني حاذق فقال لعلي بن الحسين بن واقد: أليس في كتابكم من علم الطب شيء والعلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان؟ فقال له: إن الله

---

(1) هي ضباعة بنت عامر بن صعصعة: من بني سلمة بن قشير. كانت ترتجز وتطوف عريانة. سيرة ابن هشام: 1/ 202 ـ ابن كثير، البداية والنهاية: 2/ 305.

(2) الواحدي، اسباب النزول: 184 ـ وتفسير الطبري: 12/ 390، ورواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 18/ 162 عن شعبة.

تعالى قد جمع الطب كله في نصف آية من كتابنا. قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾. فقال النصراني: وهل يؤثر عن رسولكم شيء من الطب؟ قال: نعم، جمع رسولنا ﷺ الطب في ألفاظ يسيرة. قال: وما هي؟ قال: قوله ﷺ: **«المعدة بيت الأدواء، والحمية رأس كل داء، وعوِّدوا كل جسم ما اعتاد»**[1]. فقال النصراني: ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طباً[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ أي لا يرضى عملهم ولا يثني عليهم. فلما نزلت هذه الآية طاف المسلمون في ثيابهم وأكلوا اللحم والدسم. فعيرهم المشركون بذلك، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ أي قل لهم يا محمد: من حرم الثياب التي يتزين بها الناس؟ ومن حرم المستلذات من الرزق. ويقال: أراد بالطيبات: الحلال من الرزق. وقوله تعالى: ﴿خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ أمر للإنسان أن يلبس أحسن ثيابه في الأعياد والجمع.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾. قال ابن عباس معناه: إن المسلمين يشاركون المشركين في الطيبات في الدنيا، فأكلوا من طيبات طعامهم، ولبسوا من أخيار ثيابهم، ونكحوا من صالحي نسائهم، ثم يخلص الله تعالى الطيبات في الآخرة للذين آمنوا وليس للمشركين فيها شيء[3]. وتقدير الآية: قل هي للذين آمنوا مشتركة في الدنيا، وخالصة يوم القيامة. وقيل معناه: هي للمؤمنين في الدنيا غير خالصة من الهموم والأحزان والمشقة. قرأ ابن عباس وقتادة ونافع: خالصة ـ بالرفع، أي قل هي خالصة، وقرأ الباقون بالنصب على الحال والقطع، لأن الكلام قد تم دونه[4].

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي فصلنا لكم الدلائل والأوامر

---

(1) الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: 1/ 276، رقم: 252 ـ كشف الخفاء: 2/ 74، رقم: 1788 ـ ابن القيم، زاد المعاد: 3/ 102.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 7 ـ تفسير القرطبي: 7/ 192.

(3) تفسير الطبري: 12/ 399.

(4) ابن مجاهد، السبعة: 280 ـ تفسير القرطبي: 7/ 199.

والنواهي، هكذا نفصلها لقوم يفقهون أوامر الله تعالى. ثم بين الله تعالى ما حرم عليهم فقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ معناه: أن الله تعالى لم يحرم الثياب ولا الطيبات من الرزق، وإنما حرم الذنوب. والفواحش هي: الكبائر. وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي ما عمل علانية ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يعني سراً. والإثم: كل ذنب وإن لم يكن فيه حد. وفائدة ذكر الإثم بيان أن التحريم غير مقصور على الكبائر. والبغي: يتناول الاقدام على الغير بغير حق.

قوله تعالى: ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ معناه: وحرم عليكم أن تشركوا بالله ما لم ينزل به عذراً ولا حجة. ثم بين تعالى ما يصير جامعاً للمحرمات كلها، وهو تحريم القول الذي لا علم لقائله به فقال: ﴿وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وقيل: يعني بالفواحش الطواف عراة، ويعني بقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ طواف الرجال عراة ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ طواف النساء بالليل عراة. وقيل: أراد بقوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ التعري عن الثياب في الطواف ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ يعني الزنا ويعني بالإثم: كل المعاصي. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَغْىَ﴾: طلب الترأس على الناس بالقهر والاستطالة عليهم بغير حق. وقال الحسن: يعني بالإثم: الخمر. قال الشاعر:

شربت الإثم حتى ضل عقلي ∴ كذاك الإثم يذهب بالعقول[1]

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ تخويف ووعيد من الله تعالى لهم، معناه: لكل أهل دين مهلة، ولكل وقت مؤقت، فإذا انقضت مهلتهم فلا يستأخرون من بعد الأجل ساعة ولا يستقدمون في الأجل. وليس ذكر الساعة في الآية على وجه التحديد فإنهم لا يستأخرون ولا يستقدمون ساعة ولا أقل من ساعة، ولكن ذكرت الساعة لأنها أقل أسماء الأوقات بين الناس. فإن قيل: لم قال: ولا يستأخرون ولم يقل: ولا يتأخرون؟ قيل معناه: لا يطلبون التأخر عن ذلك الأجل لليأس عنه. وقرأ ابن سيرين: (فإذا

---

(1) ذكره ابن منظور في اللسان: (اثم) من غير نسبة، وهو من البحر الوافر. وسميت الخمر إثماً لأن شاربها آثم.

جاء آجالهم)[1].

قوله عز وجل: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي﴾ معناه: يا بني آدم إن تأتيكم رسل من جنسكم يقرءون ويعرضون عليكم كتابي وكلامي، فمن اتقى الله أو طاع الرسول وأصلح العمل ﴿فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ حين يخاف أهل النار ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ على ما خلفوا في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ ظاهر المعنى. وقيل: معناه: وتكبروا عن الإيمان بمحمد والقرآن.

قال الله تعالى:

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ قَالُوٓاْ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ (37) قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ (38) وَقَالَتۡ أُولَىٰهُمۡ لِأُخۡرَىٰهُمۡ فَمَا كَانَ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلٖ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ (39) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ (40) لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ (41)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ يَنَالُهُمۡ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِۖ﴾ أي حظهم مما قضى الله عليهم في الكتاب، وهو سواد الوجوه وزرقة الأعين كما قال الله ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 8 قراءة ابن سيرين بالجمع ـ وكذا ابن عطية في المحرر الوجيز: 7/51 وقال: قال أبو الفتح: هذا هو الأظهر لأن لكل إنسان أجلاً. فأما الافراد فلأنه جنس، وإضافته إلى الجماعة حسنت الإفراد.

﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾[1] وقال الحسن: معناه ما كتب لهم من العذاب[2]. وقال مجاهد: ما سبق من الشقاوة والسعادة[3]. وقال الربيع: يعني ينالهم ما كتب لهم من الأعمال والأرزاق والأعمار، فإذا فرغت وفنيت ﴿جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ أي يقبضون أرواحهم، يعني ملك الموت وأعوانه.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوۡنَهُمۡ﴾ أي إذا جاءتهم ملائكة العذاب يذيقونهم عذاباً في الآخرة كما قال تعالى: ﴿وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖ﴾[4] فتقول لهم الملائكة وهم خزنة جهنم: ﴿أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعنون الأصنام يقولون لهم ذلك توبيخاً وتبكيتاً لهم وحسرة عليهم، فيقول الكفار عند ذلك: ﴿ضَلُّواْ عَنَّا﴾ أي ذهبت الأصنام عنا فلم يقدروا لنا على نفع ولا على دفع ضر ﴿وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي أقروا بعدما شهدت عليهم الجوارح بما كتمت الألسن.

قوله: ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ﴾ في الدنيا. قال مقاتل: يشهدون على أنفسهم بعدما شهدت عليهم الجوارح بما كتمت الألسن.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِ﴾ معناه: قال الله لهم: ادخلوا النار مع أمم قد مضت من قبلكم من الجن والإنس في النار.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَا﴾ في الدين والملة. ولم يقل أخاها، لأنه عني بها الأمم والجماعة، فلعن المشركون المشركين، واليهود اليهود، والنصارى النصارى، والمجوس المجوس، وتلعن الأتباع القادة يقولون: لعنكم الله أنتم غررتمونا.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا﴾ أي تلاحقوا واجتمعوا في النار.

---

(1) سورة الزمر (39)، الآية: 60.
(2) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 2/ 470.
(3) المصدر نفسه.
(4) سورة ابراهيم (14)، الآية: 17.

قرأ الأعمش: حتى إذا تداركوا فيها[1]. وقرأ النخعي: حتى إذا ادركوا ـ بتشديد الدال من غير ألف[2]. والمعنى: حتى إذا اجتمعوا في النار، يعني القادة والأتباع ﴿قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ﴾ أي قالت أخرى الأمم المكذبة لأول الأمم: ربنا هؤلاء المتقدمون أضلونا عن الهدى بإلقاء الشبهة علينا ﴿فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ أي زدهم في عذابهم واجعل عذابهم مضاعفاً مما علينا. قال الله تعالى: ﴿لِكُلٍّ ضِعْفٌ﴾ أي لكل من الأولين والآخرين ضعف من العذاب ﴿وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ أنتم شدة ما عليهم. ومن قرأ: ولكن لا يعلمون ـ بالياء[3]، فمعناه: لا يعلم كل فريق منهم مقدار عذاب الفريق الآخر. وقال مقاتل معناه: قالت أخراهم لأولاهم، أي أخراهم دخولاً في النار وهم الأتباع لأولاهم وهم القادة. وقال السدي: أخراهم الذين أتوا في آخر الزمان لأولاهم يعني الذين شرعوا لهم ذلك الدين[4] قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي قالت أول الأمم لأخرى الأمم والمتبوعون للتابعين: لم يكن لكم علينا من فضل في شيء حتى تطلبوا من الله أن يزيد في عذابنا وينقص من عذابكم وأنتم كفرتم كما كفرنا فنحن وأنتم في الكفر سواء فكذا نكون في العذاب سواء.

وقوله تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الأولين للآخرين، ويجوز أن يكون قال الله لهم ذلك.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُوا۟ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي إن الذين جحدوا بآياتنا وتعظموا عن الإيمان بها لا تفتح لأرواحهم أبواب السماء إذا ماتوا هواناً لهم، وتفتح للمؤمنين كرامة لهم. وقيل معناه: لا تفتح لأعمالهم أبواب السماء لأنها خبيثة، بل يهوى بعملهم إلى الأرض السابعة فترقم في الصخرة التي تحت الأرضين كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى

(1) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 125.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 8.
(3) نسبها ابن خالويه في: إعراب القراءات: 1/ 181 إلى عاصم في رواية أبي بكر.
(4) تفسير الطبري: 12/ 417.

سِجِّينٍ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾[1]. قوله تعالى: ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ﴾ قراءة الأكثرين بالتاء والتشديد راجع إلى جماعة الأبواب. وقرأ بعضهم: لا يفتح - بالياء والتخفيف، لأن تأنيث الأبواب ليس بحقيقي[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ﴾ معناه: لا يدخلون الجنة أبداً كما لا يدخل البعير في خرت الإبرة. وهذا تمثيل في الدلالة على يأس الكفار من دخولهم الجنة، لأن العرب إذا أرادت تأكيد النفي علقته بما يستحيل كونه، كما قال الشاعر:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي ∴ وصار القار كاللبن الحليب

والخياط والمخيط بمعنى واحد. وعن ابن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الجمل فقال: زوج الناقة، كأنه استجهل من سأله وتعجب منه. وفي قراءة ابن عباس: حتى يلج الجمل - بضم الجيم وتشديد الميم، وهو حبل السفينة يسمى القلس. وقال عكرمة: هو الحبل الذي يصعد به النخل[3].

قوله عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي هكذا نجزي المشركين.

قوله عز وجل: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي لهم من جهنم فراش من النار يضطجعون فيه ويقعدون فيه ﴿وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ أي غاشية من فوق غاشية كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[4]. وقال رسول الله ﷺ: «**الكافر يكسى لوحين من نار في قبره**»[5]. فذلك قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِن فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾ وأصل

---

(1) سورة المطففين (83)، الآية: 7 - 9.
(2) يراجع ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 180.
(3) تفسير الطبري: 12/ 428.
(4) سورة الزمر (39)، الآية: 16.
(5) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 9.

غواش: من غواشي ـ بإثبات الياء مع الضمة، فحذفت الضمة والياء استثقالاً، وأدخل التنوين عوضاً من ذهاب حركتها ويائها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي نجزي الكافرين.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ (42) وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓا۟ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (43) وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُوا۟ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ (44) ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ (45) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ ۚ وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (46)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي إن الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا الطاعات المفروضة في إيمانهم بوسعهم ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ﴾ أي طاقتها وقدرتها ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ أي مقيمون دائمون.

قوله تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ أي ونزعنا ما في صدورهم من غش وحقد وعداوة كان من بعضهم على بعض في الدنيا، وألقينا في قلوبهم التوادد في الآخرة حتى لا يحسد بعض أهل الجنة بعضاً إذا رآه أرفع درجة منه.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت شجرهم وغرفهم الأنهار في حال نزعنا الغل عن قلوبهم، فيكون «تجري» في موضع الحال. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وابن مسعود وعمار بن ياسر وسلمان وأبي ذر، ينزع الله في الآخرة ما كان في قلوبهم من غش بعضهم لبعض في الدنيا من العداوة والقتل الذي كان بعد رسول الله ﷺ، والأمر الذي اختلفوا فيه، فيدخلون إخواناً على سرر

متقابلين[1] قال: فأول ما يدخلون الجنة تعرض لهم عينان تجريان فيشربون من إحدى العينين فيذهب الله ما في قلوبهم من غل، ثم يدخلون العين الأخرى فيغتسلون فيها فتشرق ألوانهم وتصفو وجوههم، ويلبسون الجمال والبهاء والنور، ويطيِّب الله ريحهم به، فعند ذلك يقولون: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ أي أرشدنا إلى ما صرنا إليه حتى شربنا واغتسلنا من العينين.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ قرأ ابن عامر: ما كنا لنهتدي ـ بغير واو، وقرأ الباقون بالواو[2]، أي ما كنا لنهتدي إلى هذا الذي أكرمنا الله به لولا أن هدانا الله. قال ﷺ: «**كل أهل النار يرى منزله في الجنة فيقول: لو هدانا الله. فتكون عليهم حسرة، وكل أهل الجنة يرى منزله في النار فيقولون: ﴿لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ فهذا شكرهم**»[3].

قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ شهادة منهم بتبليغ الرسل للحق إليهم، أي جاءوا بالصدق فصدقناهم.

قوله عز وجل: ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه: نادتهم الملائكة أن هذه الجنة التي وعدتم بها في الدنيا بأعمالكم، وقيل: معنى أورثتموها: أبدلتموها. وفي الخبر أنه يقال لهم يوم القيامة: جوزوا على الصراط بعفوي وادخلوا الجنة برحمتي، واقتسموها بأعمالكم.

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ﴾ وذلك حين يستقر أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار ينادي أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا من الثواب والكرامة حقاً، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم من العقاب حقاً؟ قالوا: نعم. فاعترفوا في وقت لا ينفعهم الاعتراف. وفي «نعم» قراءتان: قراءة الكسائي: نعم ـ بكسر العين وحده في جميع القرآن، وقرأ الباقون: بالفتح،

(1) تفسير الطبري: 12/ 438، وتفسير القرطبي: 7/ 208.
(2) الداني، التيسير في القراءات السبع: 110.
(3) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: 10/ 399.

وهما لغتان[1]. وإنما سأل أهل الجنة أهل النار، لأن الكفار كانوا يكذبون المؤمنين فيما يدعون لأنفسهم من الثواب ولهم من العقاب. فلهذا سألهم المسلمون تبكيتاً لهم ليكون ذلك حسرة على الكافرين وسروراً للمؤمنين.

قوله تعالى: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ روي في الخبر أنه ينادي مناد بين الجنة والنار يسمعه الخلائق كلهم: أن رحمة الله على المحسنين، وأن لعنة الله على الظالمين، أي على الكافرين. وقرأ بعضهم: أنَّ لعنة الله - بالتشديد ونصب اللعنة[2].

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي عن الدين الذي هو طريق الله تعالى إلى جنته ﴿وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي يطلبون لها غيراً أو زيغاً بإلقاء الشبه التي يلبسون بها على الناس ﴿وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ﴾ أي هم جاحدون للبعث بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ﴾ أي بين الجنة والنار سور يحجب بين الفريقين، كما قال تعالى: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ أي وعلى أعالي السور يقال لكل عال عرف، وجمعه أعراف، ومنه عرف الديك، وعرف الفرس. والأعراف: سور بين الجنة والنار، سمي أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس كلا بسيماهم، يعرفون أهل الجنة ببياض الوجوه وأهل الناس بسواد الوجوه. قال عبد الله بن عباس: أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فحالت حسناتهم بينهم وبين النار، وحالت سيئاتهم بينهم وبين الجنة، فلم يكن لهم حسنات فاضلة يدخلون بها الجنة، ولا سيئات فاضلة يدخلون بها النار، فوقفوا على السور بين الجنة والنار يعرفون الكل بسيماهم فمن دخل الجنة عرفوه ببياض وجهه أغر محجلاً

---

(1) ابن مجاهد، السبعة في القراءات: 281.

(2) ذكر ابن مجاهد في: السبعة: 281 ابن عامر وحمزة والكسائي.

(3) سورة الحديد (57)، الآية: 13.

من أثر الوضوء ضاحكاً مستبشراً، ومن دخل النار عرفوه بسواد وجهه وزرقة عينيه[1]. وعن أبي مجلز رحمه الله أنه قال: هم الملائكة، فبلغ ذلك مجاهداً فقال: كذب أبو مجلز، يقول الله تعالى: وعلى الأعراف رجال فبلغ ذلك أبا مجلز فقال: هم الملائكة، والملائكة ذكور ليسوا بإناث، وصورتهم صورة الرجال. وقيل: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فوقفوا هناك حتى يقضي الله فيهم ما شاء، ثم يدخلهم الله الجنة بفضل رحمته، وهم آخر من يدخل الجنة، وقد عرفوا أهل الجنة وأهل النار، فإذا أراد الله تعالى أن يعافيهم انطلق بهم إلى نهر يقال له: نهر الحياة حافتاه تصب الذهب، مكلل باللؤلؤ، ترابه المسك، فألقوا فيه حتى تصبح ألوانهم، في نحورهم شامة بيضاء يعرفون بها، ثم يؤتى بهم فيدخلون الجنة، يسمون مساكين أهل الجنة[2]. وسأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله من أصحاب الأعراف؟ فقال: «**هم رجال غزوا في سبيل الله عصاة لآبائهم، فقتلوا فأعتقوا من النار بقتلهم في سبيل الله، وحبسوا عن الجنة بمعصية آبائهم فهم آخر من يدخل الجنة**»[3]. وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: أولاد الزنا. وعن مجاهد: أنهم قوم رضي عنهم آباؤهم دون أمهاتهم أو أمهاتهم دون آبائهم، فيحبسون في الأعراف إلى أن يقضي الله بين خلقه ثم يدخلهم الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَوْا۟ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ معناه: أن أصحاب الأعراف إذا نظروا إلى أصحاب الجنة قال لهم سلام عليكم فرد أهل الجنة عليهم السلام قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا﴾ أي لم يدخل أصحاب الأعراف الجنة ﴿وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ في دخولها بأن يغفر الله لهم سيئاتهم ويدخلهم الجنة بحسناتهم، وما جعل الله الطمع في قلوبهم إلا الكرامة يزيدهم بها.

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 456.
(2) نفسه: 12/ 459.
(3) تفسير الطبري: 12/ 457.

قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿47﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿48﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿49﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿50﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُوا۟ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿51﴾ ﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ قَالُوا۟ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ معناه: وإذا نظر أصحاب الأعراف إلى أصحاب النار دعوا الله تعالى، واستعاذوا من النار فقالوا: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في النار أي يدعون بذلك خوفاً من الله لأجل معاصيهم.

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ قال ابن عباس: إن أصحاب الأعراف ينادون الكبار من الكفار الذين كانوا عظماء في الكفر: كالوليد بن المغيرة وأبي جهل وسائر رؤسائهم ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ﴾ ينادونهم وهم على السور: يا وليد بن المغيرة: يا أبا جهل بن هشام، يا فلان، يا فلان... ما أغنى عنكم جمعكم في الدنيا من المال والولد ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي تتعظمون عن الإيمان بالله عز وجل، ثم ينظرون إلى الجنة فيروا فيها الضعفاء والمساكين ممن كان يستهزىء بهم كفار مكة مثل: صهيب وخباب وعمار وسلمان وبلال وأشباههم... فينادون: أهؤلاء الضعفاء الذين حلفتم أيها المشركون وأنتم في الدنيا لا ينالهم الله برحمة؟ أي أقسمتم لا يدخلهم الله الجنة؟[1] قال ابن عباس: فيقول الله تعالى لأصحاب

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 478.

الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾. فإن قيل: كيف يصح هذا التأويل في الحجاب بين الجنة والنار، ومعلوم أن الجنة في السماء والنار في الأرض؟ قيل: لم يبين الله حال الحجاب المذكور في الآية ولا قدر المسافة فلا يمتنع أن يكون بين الجنة والنار حجاب وإن بعدت المسافة. وقرأ بعضهم : وما كنتم تستكثرون ـ بالثاء ـ، أي تجمعون المال للكثرة[1]. قال مقاتل في تفسير هذه الآية: إذا قال أصحاب الأعراف لأصحاب النار: ما أغنى عنكم جمعكم. قال لهم أصحاب النار: ما أغنى عنكم جمعكم، وأقسموا ليدخلن معنا النار، فيقول الله تعالى، أو تقول الملائكة لأهل النار: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ﴾ أي لا يصيبهم برحمة. ثم قال لأصحاب الأعراف: ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ﴾ قال ابن عباس: وذلك أنه لما سكن أهل الجنة الجنة، وسكن أهل النار النار، وحرم أهل النار الماء والثمار مع ما هم فيه من ألوان العذاب، نادوا أصحاب الجنة أن أسقونا من الماء، أو صبوا وأفرغوا علينا وأطعمونا شيئاً مما رزقكم الله من ثمار الجنة. فيجيبهم أهل الجنة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[2] أي شراب الجنة وثمارها. وإنما جعل شراب الكافرين الحميم الذي يصهر به ما في بطونهم والجلود، وطعامهم الضريع والزقوم. وقيل: إن أهل النار ينادون أهل الجنة بعد أن يستغيثوا فيغاثوا بماء كالمهل، ثم يستغيثون بالطعام فيغاثون بالزقوم والضريع فيقبلون على الصبر فلا يغني عنهم، ثم يقبلون على الجزع فلا يغني عنهم فيقولون: سواء علينا أجزعنا أم صبرنا. ثم ينادون حينئذ أهل الجنة: يا أهل السعادة منكم الآباء والأمهات والأبناء والأخوان والجيران والمعارف والأصدقاء أفيضوا علينا من الماء حتى يطفي عنا حر ما نجد من العطش، أو مما رزقكم الله من الطعام فنأكله لعله يطفي عنا الجوع. فلا يؤذن

(1) ذكر هذه القراءة ابن عطية في تفسيره: 7/ 69.
(2) البغوي، معالم التنويل: 2/ 479.

لأهل الجنة في الجواب مقدار أربعين سنة، ثم يؤذن لهم في جوابهم فيقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ يعنون الماء والطعام. وفي الآية بيان أن الإنسان لا يستغني عن الطعام والشراب وإن كان في العذاب. قال أبو الجوزاء: سألت ابن عباس أي الصدقة أفضل؟ قال: الماء، أما رأيت أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا: أفيضوا علينا من الماء[1]؟

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أول هذه الآية نعت للكافرين ومعناه: أنهم اتخذوا دينهم بهوى أنفسهم لاهين لاعبين، ويقال: هم الذين اختاروا دينهم الباطل واللعب والفرح والهزؤ. ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ أي غرهم ما أصابوه من زينة الدنيا مع ما كانوا فيه من طول الأمل، ولذلك كانوا يستهزئون بالمسلمين، كما روي في الخبر أن أبا جهل بعث إلى النبي ﷺ رجلاً يستهزىء به أن أطعمني من عنب جنتك أو شيئاً من الفواكه؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه: قل له إن الله حرمهما على الكافرين.

قوله عز وجل: ﴿فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا﴾ معناه: فاليوم يوم القيامة، أي يوم القيامة نتركهم في النار كما تركوا العمل للقاء يومهم هذا. ويقال: معنى قوله تعالى: ﴿نَنسَىٰهُمْ﴾ نتركهم في النار كالمنسي كما أعرضوا عن العمل للقاء يومهم هذا إعراض الناسي للشيء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ في موضع الجر عطفاً على ﴿كَمَا نَسُواْ﴾ المعنى: وبجحودهم بآياتنا الدالة على التوحيد.

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (52) هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشْفَعُواْ لَنَآ أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ (53) إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 10 ـ تفسير القرطبي: 7/ 215.

أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ (54)﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ أي لقد جئناهم بالقرآن الذي أتينا به آية بعد آية وسورة بعد سورة على علم بأن ذلك أقرب إلى التدبر.

وقوله تعالى: ﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على تقدير: هادياً وذا رحمة لقوم يصدقون أنه من عند الله.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ معناه: ما ينتظر أهل مكة إلا عاقبة ما وعدهم الله به في القرآن أنه كائن منه ما يكون في الدنيا، ومنه ما يكون في الآخرة. ويقال معناه: هل ينتظرون إلا ما يؤول إليه أمرهم من البعث والعذاب وورود النار. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُۥ﴾ أي يوم يأتي عاقبة ما وعدوا فيه وهو يوم القيامة يقول الذين كفروا، وتركوا العمل له في دار الدنيا: قد جاءت رسل ربنا بالصدق في أمر البعث بعد الموت فكذبناهم فهل لنا من شفعاء؟ يقولون هذا القول حين يرون الشفعاء يشفعون للمؤمنين فيقال لهم: ليس لكم شفيع: فيقولون: فهل نرد إلى الدنيا فنصدق الرسل ونعمل الأعمال الصالحة؟ فذلك قوله تعالى: ﴿فَنَعْمَلَ غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ وجواب الاستفهام بالفاء يكون نصباً.

قوله عز وجل: ﴿قَدْ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ أي غبنوا حظ أنفسهم من الجنة فورثهم المؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي ذهبت عنهم آلهتهم وهي التي كانوا يفترون بها على الله أنهم شفعاؤهم. ويقال معناه: وضل عنهم حينئذ افتراؤهم على الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ وذلك أن الله تعالى لما عير المشركين بعبادة الأصنام بقوله: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟

﴿يَفْتَرُونَ﴾ سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد من ربك الذي تدعونا إليه؟ وأرادوا بذلك أن يجحدوا معنى في اسمه أو في شيء من أفعاله. فأنزل الله هذه الآية فتحيروا وعجزوا عن الجواب[1] ومعنى الآية: إن خالقكم ورازقكم هو الله الذي ابتدأ خلق السماوات والأرض لا على مثال سبق، فوحدوه يا أهل مكة واعبدوه وأطيعوه ودعوا هذه الأصنام فإنها لم تخلق سماء ولا أرضاً. قوله تعالى: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قال ابن عباس: أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة. قال الحسن: هي ستة أيام من أيام الدنيا. ويقال: في ست ساعات من ستة أيام من أول أيام الدنيا، ولو شاء لخلقها في أسرع من لحظة، ولكنه علَّم عباده التأني والرفق والتدبير والتثبت في الأمور[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ اختلف المفسرون في ذلك، قال بعضهم: يطلق الاستواء كما نطق به القرآن، ونثبته كما يثبته الله ولا نكيفه. وهذا القول يحكى عن مالك بن أنس فإنه سئل عن معنى هذه الآية فقال: الاستواء غير مجهول، والكيفية غير معقولة، والإيمان به واجب، والجحود به كفر، والسؤال عنه بدعة[3]. وقال بعضهم: معنى استوى: استولى، كما يقال: استوى الأمير على بلد كذا أي استولى عليه واحتواه وأحرزه. ولا يراد بذلك الجلوس. قال الشاعر:

قد استوى بشر على العراق ∴ من غير سيف ودم مهراق[4]

أراد بذلك بشر بن مروان، واستواؤه على العراق الملك. وقال بعضهم: لفظ الاستواء في الآية كناية عن نفاذ الأمر وعظم القدرة. وقيل معناه: ثم اقبل على خلق العرش وعمد إلى خلقه، وكذلك ثم استوى إلى السماء، أي عمد إلى خلق السماء. فإن قيل: وما معنى دخول «ثم» في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 10

(2) نفسه.

(3) تفسير القرطبي: 7/ 219.

(4) هذا البيت من الرجز، قاله الأخطل في بشر بن مروان أخو عبد الملك ووزيره. (شرح القاموس: (بشر) ـ اللسان: (سوا) ـ التحرير والتنوير: 8/ 164 ـ الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 276).

﴿ٱلْعَرْشِ﴾ و«ثم» تكون للحادث، واستيلاء الله تعالى واقتداره وملكه للأشياء ثابت فيما لم يزل ولا يزال؟ قيل: معناه: ثم رفع العرش فوق السموات واستولى عليه. وإنما أدخل «ثم» على رفع العرش وإن كان متصلاً في اللفظ بالاستواء. إلا أن الدلالة قد دخلت من جهة العقل على أن اقتداره على الأمور ثابت فيما لم يزل. وهذا مثل قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ﴾[1] أي حتى يجاهد المجاهدون منكم ونحن عالمون بهم. ويقال: معنى «ثم» ههنا بمعنى الواو على طريق الجمع والعطف دون التراخي، فإن خلق العرش والاستيلاء عليه كان قبل خلق السموات والأرض، وقد روي في الخبر أن أول شيء خلقه الله: القلم ثم اللوح، فأمر الله القلم أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة، ثم خلق العرش، ثم خلق حملة العرش، ثم خلق السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي يغشى بظلمة الليل ضوء النهار. ولم يقل: يغشى النهار الليل، لأن في الكلام دليلاً عليه وقد بين في آية أخرى فقال عز وجل: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾[2] ويقرأ: يغشّي ويغشى بالتشديد والتخفيف[3]. اللى

وقوله: ﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي يطلب سواد الليل ضوء النهار سريعاً حتى يغلب بسواده بياضه، وكل واحد منهما في طلب صاحبه ومسيره ما بقيت الدنيا. والحثيث: السريع في السوق من غير نفور.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ أي وخلق هذه الأشياء مذللات بالمسير في ساعات الليل والنهار جاريات على مجاريهن لمنافع بني آدم بأمر الله وتدبيره وصنعه. ومن قرأ: والشمس والقمر والنجوم مسخرات. كلها بالرفع فعلى الابتداء[4].

(1) سورة محمد (47)، الآية: 31.
(2) سورة الزمر (39)، الآية: 5.
(3) ذكر القراءتين ابن مجاهد في السبعة: 282.
(4) ابن مجاهد في المصدر السابق - ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 156.

قوله عز وجل: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ كله بنيته معناه: اعلموا أن خلق الأشياء كلها لله ومن الله، وأن الأمر وهو القضاء نافذ في خلقه.

وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي تعالى الله، وهو ثابت لم يزل ولا يزال. ويقال: تبارك: تفاعل من البركة، أي البركة كلها من الله تعالى، واسمه بركة لمن ذكره. قوله تعالى: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي خالق الخلق أجمعين. قال رسول الله ﷺ: «**من لم يحمد الله على ما عمل من عمل صالح وحمد نفسه فقد كفر وحبط عمله، ومن زعم أن الله جعل للعباد من الأمر شيئاً فقد كفر بما أنزل الله على أنبيائه**»[1] لقوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ قال الشاعر:

إلى الله كل الأمر في خلقه جمعاً ∴ وليس إلى المخلوق شيء من الأمر[2]

قال الله تعالى:

﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿55﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿56﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿57﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿58﴾﴾.

قال أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ أي ادعوه علانية وسراً، فإن المتضرع من الضراعة، وهي إظهار شدة الحاجة. ويقال: معنى التضرع: التملق والتخشع والميل في الجهات: يقال: ضرع يضرع ضرعاً: إذا مال بأصبعه يميناً وشمالاً خوفاً وذلاً. قوله تعالى: ﴿وَخُفْيَةً﴾ أي ادعوه بالخضوع في السر دون العلانية. وكأن الله تعالى أمر في الدعاء أن يجمع بين أن يخفيه وبين أن يفعله

(1) ذكره الطبري بسنده في تفسيره: 12/ 484، رقم: 14776.
(2) نسبه الثعلبي في تفسيره، ورقة: 10 إلى محمود الوراق.

في نهاية الخضوع والانقطاع إليه، لأن ذلك أبعد من الرياء. وهذا القول أصح من الأول لقوله ﷺ: «**خير الذكر الخفي**»[1]. وعن الحسن أنه قال: كانوا يجتهدون في الدعاء فلا يسمع إلا همساً. وعن عمر رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا رفع يديه في الدعاء لا يردهما حتى يمسح بهما وجهه[2]. وعن أبي موسى الاشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ في سفر فأشرفوا على واد فجعل الناس يكبرون ويهللون ويرفعون أصواتهم فقال: «**أربعوا[3] على أنفسكم إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً قريباً وإنه معكم**»[4]. وقال الله عز وجل في مدح عبد صالح رضي دعاءه: ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾[5].

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ أي لا يحب المتجاوزين في الدعاء. وفي الخبر عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إياكم والاعتداء في الدعاء فإن الله لا يحب المعتدين واختلفوا في الاعتداء في الدعاء**»، فقال بعضهم: هو أن تدعو باللعن والخزي فتقول: اللّهم العن فلاناً واخز فلاناً. أو تدعو بما لا يحل فتتجاوز العبودية. وقال بعضهم: هو أن يسأل لنفسه منازل الأنبياء، أو يسأل الله تعالى شيئاً من حكمته أنه لا يفعله في الدنيا. وقيل: هو أن يقول: أسألك بحق جبريل وبحق الأنبياء أن تعطيني كذا. وقيل: هو أن يدعو بالصياح. وقيل: هو أن تعمل عمل الفجار وتسأل مسألة الأبرار. ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ أي لا تفسدوا فيها بالشرك والمعصية بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل إليها فأمروا فيها بالحلال، ونهوا عن الحرام فتصلح الأرض بالطاعة. وقيل معناه: لا تعصوا في الأرض فيمسك الله المطر عنها، ويهلك الحرث لمعاصيكم.

---

(1) رواه البيهقي في الشعب: 7/ 296، رقم: 10369، باب في الزهد.
(2) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 9/ 328، رقم: 3446.
(3) اربعوا ـ بفتح الموحدة ـ: ارفقوا بأنفسكم. السفر: غزوة خيبر.
(4) أخرجه البخاري في صحيحه: 6/ 240، رقم: 2992، كتاب الجهاد ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 25.
(5) سورة مريم (19)، الآية: 3.

وقيل معناه: لا تجوروا في الأرض فتخربوها، لأن الأرض قامت بالعدل، وقد أصلحها الله بالنعمة.

قوله عز وجل: ﴿وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي واعبدوه خائفين من عذابه طامعين في رحمته وثوابه. وقال الربيع: خوفاً وطمعاً أي رغبا ورهباً. وقال ابن جريج: خوف العدل وطمع الفضل. وقال عطاء: خوفاً من النيران وطمعاً في الجنان. وقال ذو النون المصري: خوفاً من الفراق وطمعاً في التلاق[1].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ معناه: إن إنعام الله قريب من المؤمنين. ويقال: إن المحسن من أخلص حسناته من الإساءة. وإنما قال: ﴿قَرِيبٌ﴾ ولم يقل: قريبة، لأن الرحمة والعفو والغفران في معنى واحد، ولم يكن فيه تأنيث حقيقي كنت بالخيار إن شئت ذكَّرته وإن شئت أنثته. وقال ابن جبير: الرحمة هنا الثواب. وقال الأخفش: هي المطر. فيكون القريب نعتاً للمعنى دون اللفظ، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ﴾[2] ولم يقل منها، لأنه أراد بالقسمة الميراث والمال، وكذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾[3] والصاع مذكر إلا أنه أراد به السرقة والسقاية. قال الكسائي: أراد أن رحمة الله قريب كقوله: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾[4] أي لعل إتيانها قريب.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ قرأ عاصم: بشراً ـ بالباء المضمومة والشين المجزومة، يعني بمعنى أنها تبشر بالمطر، ويدل عليه قوله: ﴿ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾[5]. وقرىء بشراً ـ بضم الباء والشين على جمع بشير، مثل: نذر ونذير. وقرأ ابن عامر: نشراً ـ بالنون مضمومة وإسكان الشين. وقرأ حمزة والكسائي: نشرا ـ بالنون المفتوحة وجزم الشين على

(1) ذكر هذه المعاني الثعلبي في تفسيره، ورقة: 11.
(2) سورة النساء (4)، الآية: 8.
(3) سورة يوسف (12)، الآية: 76.
(4) سورة الأحزاب (33)، الآية: 63.
(5) سورة الروم (30)، الآية: 46.

التخفيف. وقرأ مسروق: نشراً ـ بفتحتين، أراد منشوراً. وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: نشراً ـ بالنون وضمها وضم الشين[1]. وقرأ بعضهم ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ﴾ بلفظ الوحدان[2]، واختار أبو عبيد لفظ الجماعة، وكان يقول: كل ما في القرآن من ذكر الرياح فهو للرحمة، وما كان من ذكر الريح فهو للعذاب. واحتج بما روي عن النبي ﷺ أنه كان يقول إذا هب الريح: «**اللّهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً**». والنشر، جمع النشور، وهي الريح التي تهب من كل جانب فتنشر السحاب كصبور وصبر. ومن قرأ: نشراً ـ بضمة واحدة فللتخفيف كما يقال: رسل، ومن قرأ: نشراً ـ بنصب النون فعلى معنى تنشر السحاب نشراً، والنشر خلاف الطي كنشر الثوب بعد طيه. وقال الفراء: النشر من الرياح الطيبة اللينة التي تنشر السحاب[3]. ومن قرأ: بشراً ـ بالباء والضم فهو جمع بشير.

قوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ أي قدام المطر.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا﴾ أي إذا حملت ورفعت سحاباً ثقالاً بالماء. والسحاب: هو الغيم الجاري في السماء.

وقوله تعالى: ﴿سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي سقنا السحاب يمر بأمر الله إلى أرض ليس فيها نبات. قال ابن عباس: يرسل الله الرياح فتحمل السحاب فتمريه كما يمري الرجل الناقة والشاة حتى تدر ثم تمطر فيخرج بالمطر من كل الثمرات. وقوله تعالى: ﴿سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ أي إلى بلد ميت، أو لإحياء بلد ميت لا نبات فيه، وقيل: لا تمطر السماء حتى يرسل الله أربع رياح: فالصبا تهيجه، والشمال تجمعه، والجنوب تدره، والدبور تفرقه.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ﴾ أي بالسحاب وقيل: بالبلد الميت الذي لا ماء فيه ولا كلأ، ينزل الله به المطر فتخرج به من ألوان الثمرات ﴿كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي مثل ذلك الإخراج الذي ذكرناه في إحياء الأرض الميتة، كذلك نخرج

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 283 ـ ابن خالويه، الحجة: 157 ـ تفسير القرطبي: 7/ 229.
(2) ابن مجاهد في المصدر السابق.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/ 380.

الموتى من قبورهم يوم القيامة لعلكم بما بينا لكم تستدلون على توحيد الله، وأنه يبعث من في القبور. وقال ابن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهما: إذا مات الناس كلهم في النفخة الأولى مطرت السماء أربعين سنة قبل النفخة الآخرة مثل مني الرجل فينبتون من قبورهم بذلك المطر كما ينبتون في بطون أمهاتهم، وكما ينبت الزرع من الماء، حتى إذا استكملت أجسادهم نفخ فيها الروح، ثم تلقى عليهم نومة فينامون في قبورهم، فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية، وهي نفخة البعث، عاشوا وخرجوا من قبورهم وهم يجدون طعم النوم في رؤوسهم كما يجد النائم إذا استيقظ من نومه، فعند ذلك يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ فيناديهم المنادي[1]: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾[2].

قوله عز وجل: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ يعني أن المكان الزاكي من الأرض يخرج ربعه بلا كد ولا عناء ولا مشقة فينتفع به، والذي خبث ترابه وهو الأرض السبخة لا يخرج ربعها إلا في كد وعناء ومشقة. قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر: فإن المؤمن يسمع الموعظة فينتفع وينفعه القرآن كما ينفع المطر البلد الطيب، والكافر لا يسمع الموعظة ولا يعمل عملاً من الطاعة إلا شيئاً يسيراً[3]. والنكد في اللغة: هو القليل الذي لا ينتفع به. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ أي عسيراً قليلاً بعناء ومشقة. وقرأ أبو جعفر: نكداً ـ بفتح الكاف[4]، أي بالنكد. وقيل: هو لغة في نكد، ويقرأ: نكداً ـ بإسكانها[5] لغة أيضاً، ويقال: رجل نكد: إذا كان عسراً ممتنعاً من إعطاء الحق على وجه البخل.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي كما صرفنا لكم آية في أثر آية هكذا نبين الآيات لقوم يشكرون نعم الله تعالى، ويعتبرون بآياته وأمثاله.

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 493 ـ 494.
(2) سورة يس (36)، الآية: 52.
(3) تفسير الطبري: 12/ 496.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 11.
(5) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 134.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ
أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿59﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ
﴿60﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿61﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ
رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿62﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن
رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿63﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى
ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿64﴾﴾.

قال أبو بكر الحداد: قوله عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ هو: نوح بن لمك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس. وكان نوح نجاراً، بعثه الله إلى قومه وهو ابن خمسين سنة ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي وحدوا الله وأطيعوه ولا تعبدوا معه غيره.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ قرأ أبو جعفر ويحيى بن وثاب والأعمش والكسائي: غيره ـ بالخفض نعتاً للإله، وقرأ الباقون: بالرفع على معنى ما لكم إله غيره، وقيل: على نية التقديم وإن كان مؤخراً في اللفظ تقديره: ما لكم غير الله من إله[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ معناه: إني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم القيامة. وقد يذكر الخوف ويراد به اليقين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿60﴾﴾ أي قال الأشراف والرؤساء من قومه: إنا لنراك يا نوح في ذهاب عن الحق بيِّن لمخالفتك لنا. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ﴾ أي ذهاب عن الحق فيما أدعوكم إليه، ولكني رسول أرسلني إليكم رب العالمين الذي يملك كل شيء. وإنما لم يقل: ليست بي ضلالة لأن معنى الضلالة: الضلال.

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي أؤدي إليكم ما حملني الله من الرسالة. وإنما قال: رسالات، لأن الرسالة تتضمن أشياء كثيرة من الامر

(1) ابن مجاهد، السبعة: 284 ـ تفسير القرطبي: 7/ 223.

التفصيل

والنهي، والترغيب والترهيب، والوعد والوعيد. فذكر تارة بلفظ يدل على التفصل، وتارة بلفظ يدل على الوحدان. قرأ أبو عمرو: أبلغكم ـ بالتخفيف في جميع القرآن[1]، لقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي﴾[2] ﴿لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا﴾[3] وقرأ الباقون مشدداً كما قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿وَأَنصَحُ لَكُمْ﴾ أي أنصح لكم فيما أدعوكم إليه وأحذركم عنه. والنصح: إخراج الغش من القول والفعل. ويقال: نصحته ونصحت له، وشكرته وشكرت له.

قوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم إن لم تتوبوا من الشرك أتاكم العذاب.

قوله تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ الألف في أول هذه الآية ألف استفهام دخل على واو العطف على جهة الإنكار فبقيت الواو مفتوحة كما كانت، ومعناه: أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على آدمي مثلكم تعرفون نسبه فيكم لينذركم، أي ليعلمكم بموضع المخافة، ولتتقوا الشرك والمعاصي، ولكي تطيعوا فترحموا. ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ﴾ أي فكذبوا نوحاً فأنجيناه من الطوفان والمؤمنين الذين كانوا معه في السفينة، وكانوا نحوا من ثمانين إنساناً. كذا قال الكلبي: أربعين رجلاً وأربعين امرأة. وقيل: سام، وحام، ويافث، وأزواجهم، وستة أناس غيرهم[5]. وأغرقنا الذين كذبوا بدلائلنا وآياتنا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ أي قد عموا عن الحق والإيمان. وواحد العمين: عم، وهو الذي قد عمي عن الحق. وقيل معناه: إنهم كانوا قوماً جاهلين لأمر الله. وقيل: كفاراً. وقيل: عمين عن نزول الغرق بهم.

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 284.
(2) سورة الأعراف (7)، الآية: 93.
(3) سورة الجن (72)، الآية: 28.
(4) سورة المائدة (5)، الآية: 67.
(5) تفسير الطبري: 12/502 ـ تفسير الثعلبي وورقة: 12.

قال الله تعالى:

﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿65﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿66﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿67﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿68﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿69﴾ ﴾.

قال الفقيه أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي وأرسلنا إلى عاد - وهم قوم من أهل اليمن، وكان اسم ملكهم عاد فنسبوا إليه، وهو عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. وقوله تعالى: ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين، وهو هود بن عبد الله بن رباح بن الجلود بن عاد بن عوض بن إرم بن سام بن نوح. وقيل: هود بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح. وإنما أرسل الله إليهم منهم لأنهم له أفهم وإليه أسكن ﴿فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ الآية... ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ أي قال الأشراف والرؤساء الذين كفروا منهم إنا لنراك في جهالة. والسفاهة في اللغة: خفة الحلم والرأي.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ يعني أنهم كذبوه في دعوى الرسالة ونزول العذاب بهم ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ﴾ أي ليس بي جهالة ﴿لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ إليكم فيما يأمركم به من عبادته وتوحيده. وفي الآية موضع أدب للخلق وتعليم من الله حسن جواب السفهاء، لأن هودا عليه السلام اقتصر على دفع ما نسبوه إليه، فنفى ما قالوه فقط، ولم يقابلهم بشيء من الكلام القبيح. وكذلك فعله نوح عليه السلام فقال: ليس بي ضلالة.

قوله تعالى: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿68﴾﴾ على الرسالة.

وقوله: ناصح، أي أدعوكم إلى التوبة وقد كنت قبل اليوم فيكم أميناً فكيف تتهموني اليوم؟

قوله تعالى: ﴿أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾ قد تقدم تفسيره.

وقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ أي اذكروا هذه النعمة العظيمة بأن أورثكم الأرض بعد هلاك قوم نوح. والخلفاء جمع الخليفة جاء على غير لفظ الوحدان، لأن لفظه يقتضي أن يجمع على خلائف كما يقال: صحيفة وصحائف، إلا أنه مثل ظريف وظرفاء.

قوله تعالى: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ أي فضلة في الطول قال ابن عباس: أطولهم مائة ذراع وأقصرهم ستون ذراعاً. قال وهب: كان رأس أحدهم كالقبة العظيمة، وكان عين الرجل تفرخ فيها السباع وكذلك مناخرهم[1].

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي نعم الله عليكم واعملوا بما تقتضيه نعمه ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي لتظفروا بالنجاة والبقاء.

قال الله تعالى:

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ (70) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ (71) فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ (72)﴾

قال الإمام أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ﴾ أي قالوا له يا هود أتأمرنا أن نعبد ربا واحداً ونترك ما يعبد آباؤنا من الآلهة؟

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 12 ـ تفسير البغوي: 2/ 291.

فقال لهم: إن لم تفعلوا ما أمرتكم به أتاكم العذاب. قالوا: فأتنا ما تخوفنا به من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أنك رسول من عند الله ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ أي قد وجب عليكم من ربكم عذاب وسخط. والرجس والرجز بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي أتخاصمونني في آلهتكم وأنتم صنعتموها بأيديكم وسميتموها آلهة ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي لم ينزل بها برهان أو حجة في عبادتها، فانتظروا حلول العذاب بكم ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ أن يهلككم الله بعذاب من عنده.

قوله عز وجل: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي خلصناه من العذاب والذين معه بنعمة منا عليهم أمرناهم بالخروج من بين الكفار قبل إنزال العذاب عليهم ﴿وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي استأصلناهم بالريح العقيم فما بقي منهم أحد.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما أهلكهم الله إلا وكان في علمه أنه لو لم يهلكهم ما كانوا مؤمنين.

فصل: وكانت قصة عاد وإهلاكهم على ما ذكر السدي وغيره من المفسرين: أن عادا كانوا يسكنون اليمن، وكان مساكنهم الأحقاف فهي رمال يقال لها: رمل عالج ودهمان ويتربن ما بين عمان إلى حضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض وقهروا أهلها بقوتهم التي أعطاهم الله إياها، وكانوا يعبدون الأوثان، فبعث الله إليهم هودا نبياً عليه السلام ومن أوسطهم في النسب وأفضلهم في الحسب فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يعبدوا غيره، وأن يكفوا عن ظلم الناس، فأبوا عليه وكذبوه وقالوا: من أشد منا قوة. وتجبروا في الأرض وبطشوا بطشة الجبارين. فلما فعلوا ذلك أمسك الله عليهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم ذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهد مضوا إلى البيت الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم وسألوا الله الفرج، وكان الناس مسلمهم ومشركهم

معظم لمكة حرسها الله تعالى، عارف بحرمتها[1]. وكان أهل مكة يومئذ العماليق، أبوهم: عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح، وكان رئيس العماليق يومئذ بمكة رجلاً يقال له: معاوية بن بكر، وكانت أمه من عاد. فلما قحط المطر عن عاد جهدوا فقالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة يستسقون. فبعثوا قيل بن عنز ولقيم بن هزال في سبعين رجلاً، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو في خارج مكة، فأنزلهم وكرمهم وكانوا أخواله وأصهاره، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان ـ وهما قينتان لمعاوية ـ فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يستغيثون من البلاء الذي أصابهم، شق ذلك عليه فقال: أخوالي وأصهاري وهؤلاء مقيمون عندي وهم ضيفي، والله ما أدري كيف أصنع بهم؟ أستحيي أن آمرهم بالخروج إلى حاجتهم فيظنوا أن ذلك لضيق مكانهم عندي وقد هلك قومهم من ورائهم جهداً وعطشاً. فشكا ذلك إلى قينتيه الجرادتين فقالتا: قل شعراً نغنيهم به ولا يدرون من قاله لعل ذلك يحركهم. فقال معاوية:

ألا يا قيل ويحك قم فهينم ∴ لعل الله يسقينا غماما[2]
فيسقي أرض عاد إن عادا ∴ قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس يرجو ∴ ن به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير ∴ فقد أمست نساؤهم أيامى[3]
وإن الوحش تأتيهم جهاراً ∴ ولا تخشى لعاديٍّ سهاما
وأنتم ههنا فيما اشتهيتم ∴ نهاركم وليلكم التماما
فقبح وفدكم من وفد قوم ∴ ولا لقّوا التحية والسلاما

فلما غنتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض: يا قوم قد أبطأتم على

---

(1) تفسير الطبري: 12/ 507 ـ تفسير البغوي: 2/ 492.
(2) ابن كثير، البداية والنهاية: 1/ 126 ـ شرح شواهد الكشاف: 4/ 522.
(3) نساؤهم أيامى، جمع أيم: وهي التي مات زوجها.

أصحابكم فقوموا. فادخلوا الحرم واستسقوا فقدموا إلى الحرم فقام قيل بن عنز يستسقي في المسجد فقال: اللَّهم إني لم أجىء لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه. اللَّهم اسقنا فإنا قد هلكنا. اللَّهم اسق عادا ما كنت تسقيهم. وقال قومه: اللّهم اعط قيلا ما سألك، واجعل سؤالنا مع سؤاله. فأنشأ الله سحابة بيضاء وسحابة حمراء وسحابة سوداء ونودي: يا قيل اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب ما شئت. فقال: اخترت السوداء لأنها أكثر السحاب ماء. فنودي: اخترت رماداً رمددا لا تبقى في آل عاد أحدا لا والداً تترك ولا ولدا إلا جعلته همداً. ثم ساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بما فيها من النقمة والبلاء إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد يقال له: المغيث، فلما رأوها فرحوا وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. يقول الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[1] أي كل شيء مرت به ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾[2] أي دائمة، فكانت الريح تحمل الظعن ما بين السماء والأرض وتدفعهم بالحجارة، وكانوا قد حفروا لأرجلهم في الأرض وغيبوها إلى ركبهم، فجعلت الريح تدخل تحت أقدامهم، وترفع كل اثنين وتضرب بأحدهما على الآخر في الهواء ثم تلقيهما في الوادي والباقون ينظرون حتى رفعتهم كلهم، ثم رمت بالتراب عليهم وكان يسمع أنينهم من تحت التراب. فاعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة فما كان يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم وتلذ به أنفسهم. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لما أراد الله إرسال الريح العقيم إلى عاد، أوحى إلى الريح أن تخرج إلى عاد فتنتقم منهم، فخرجت على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب، فقالت الخزان: يا رب لن نطيقها ولو خرجت على حالها لأهلكت ما بين مشارق الأرض ومغاربها فأوحى الله إليها: أخرجي على قدر خرت الخاتم: فخرجت على قدر ذلك[3]. قال السدي: فلما

---

(1) سورة الأحقاف (46)، الآية: 24 ـ 25.

(2) سورة الحاقة (69)، الآية: 7.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 13 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 492.

بعثت الريح إليهم ودنت منهم، نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين السماء والأرض فتبادروا إلى البيوت فأخرجتهم الريح من البيوت حتى أهلكتهم على ما ذكرنا[1]. وعن علي رضي الله عنه أنه سأل رجلاً من حضرموت: هل رأيت كثيبا أحمر تخالطه مدرة حمراء فيه أراك وسدر كثير في ناحية كذا من حضرموت؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، والله إنك نعتَّه نعت رجل قد رآه. قال: إني لم أره، ولكن حدثت عنه. قال: يا أمير المؤمنين وما شأنه؟ قال: فيه قبر هود عليه السلام[2]. وعن عبد الرحمن بن سابط[3] قال: بين الركن والمقام وزمزم تسعة وتسعين نبياً، وإن قبر هود وشعيب وصالح وإسماعيل في تلك البقعة[4]. وفي بعض الأخبار أنه كان إذا هلك قوم نبي ونجا هو ومن آمن معه أتى مكة بمن معه فيعبدون الله فيها حتى يموتوا.

قال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿73﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿74﴾﴾.

قال الإمام أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً في النسب. وثمود: اسم للقبيلة

---

(1) الثعلبي في المصدر السابق.

(2) تفسير الطبري: 12/ 507.

(3) عبد الرحمن بن سابط الجمحي المكي: تابعي ثقة، أرسل عن النبي ﷺ، وروى عن عمر وسعد بن أبي وقاص ومعاذ وعنه ابن جريج وليث وعلقمة. توفي سنة ثماني عشرة ومائة. ابن حجر، تهذيب التهذيب: 5/ 287.

(4) الثعلبي في المصدر السابق.

سموا بهذا الاسم لأنهم كانوا على عين قليلة الماء، وموضعهم بالحجر بين الشام والمدينة. والثمد: الماء القليل. وثمود في كتاب الله مصروف وغير مصروف. قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾(1) فصرف الأول دون الثاني، فمن صرفه جعله اسماً للحي، فيكون مذكراً مسمى به مذكر، ومن لم يصرفه جعله اسماً للقبيلة.

قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ﴾ أي دلالة فاصلة بين الحق والباطل من ربكم.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ﴾ إشارة إلى ناقة بعينها. قال ابن عباس: أتاهم صالح عليه السلام بناقة من الصخرة الملساء بمسألتهم فتحركت الصخرة بدعائه، فانصدعت ناقة عشراء فلم يؤمنوا. وفي بعض الروايات: أخرج الله من الصخرة ناقة خلفها سقبها، أي ولدها. وقوله: ﴿ءَايَةً﴾ أي علامة لنبوتي لتعتبروا وتوحدوا ربكم.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ﴾ أي دعوها ترتع في أرض الحجر من العشب ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ أي بقتل أو ضرب أو مكروه ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي مؤلم إن فعلتم ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ أي واذكروا إذ استخلفكم في الأرض من بعد هلاك عاد، وأنزلكم في أرض الحجر تبنون في سهولها قصوراً في القيظ، وتنحتون من الجبال بيوتاً لأيام الشتاء. وقيل: إنهم لطول أعمارهم كانوا يحتاجون أن ينحتوا من الجبال، لأن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم.

قوله تعالى: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ﴾ أي احفظوا نعم الله عليكم ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي ولا تعملوا في الأرض بالمعاصي، والدعاء إلى غير عبادة الله.

---

(1) سورة هود (11)، الآية: 68.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿75﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿76﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿77﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿78﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿79﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ أي قال الأشراف والرؤساء منهم الذين تعظموا عن الإيمان به للذين استضعفوهم من المؤمنين: أتعلمون أن صالحاً مرسل إليكم من ربه؟ وفي هذا ذم للكفار من وجهين: أحدهما: الاستكبار وهو رفع النفس فوق قدرها وجحود الحق، والآخر: أنهم استضعفوا من كان يجب أن يعظموه ويبجلوه. وفي قول قوم صالح: إنا بما أرسل به مؤمنون مدح لهم، حيث ثبتوا على الحق وأظهروه مع ضعفهم على مقاومة الكفار.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي قال رؤساؤهم الذين تعظموا عن الإيمان بصالح عليه السلام: إنا بالذي صدقتم به جاحدون.

قوله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ معناه: عقروا الناقة التي جعلها الله لهم آية ودلالة على نبوة نبيهم. وقد كان صالح عليه السلام قال لهم: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾[1] وإنما أضافها إلى الله على التخصيص والتفضيل كما يقال: بيت الله. وقيل: أضيفت إلى الله لأنها كانت بالتكوين من غير اجتماع ذكر وأنثى، ولم تكن في

---

(1) سورة الأعراف (7)، الآية: 73.

صلب ولا رحم، ولم يكن للخلق فيها سعي. وقوله تعالى: ﴿ءَايَةً﴾ نصب على الحال. وقوله تعالى: ﴿وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ أي تجاوزوا الحد في الكفر والفساد ﴿وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ به من العذاب على قتل الناقة ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي أخذتهم الزلزلة، ثم صيحة جبريل عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ﴾[1] والصاعقة: هي الاحتراق. واحترقوا ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي ميتين قد همدوا رماداً جثوماً. والجثوم: البروك على الركب. وقيل: معنى الصيحة والصاعقة واحد، فإن الصاعقة اسم لما يصعقون فيه، أي يموتون.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ في أداء الرسالة إليكم ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ﴾ من ينصح لكم. قال ابن عباس: فخرج صالح ومن معه من المؤمنين وهم: مائة وعشرة، حتى إذا فصل من عندهم وهو يبكي التفت خلفه فرأى الدخان ساطعاً، فعرف أن القوم قد هلكوا وكانوا: ألفاً وخمسمائة فلما هلكوا رجع صالح ومن معه فسكنوا ديارهم حتى توالدوا وماتوا فيها. فإن قيل: قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ﴾ عطف على قوله: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ فكيف تكون الصيحة بعد هلاكهم؟ قيل: إن الفاء في قوله: ﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ للتعقيب والإخبار لا لترادف الحال، وهذا راجع إلى حال عقرهم الناقة، لكنه إنما ساق القصة في أمرهم إلى آخرها ثم عطف على ذلك ما فعله صالح للكشف عن عذره في مسألة إنزال العذاب بهم بعد كثرة نصحه لهم وإصرارهم على فعلهم. وجواب آخر: إن صالحاً قال هذا القول بعد هلاك القوم ليعتبر بذلك من كان معه من المؤمنين.

فصل: وقصتهم ما حكاه السدي وغيره: أن عادا لما هلكت عمرت ثمود بعدها، واستخلفوا في الأرض فنزلوا فيها وكثروا، وكانوا في سعة من عيشهم، فعتوا على الله وأفسدوا في الأرض وعبدوا غير الله، فبعث الله إليهم صالحاً من

(1) سورة فصلت (41)، الآية: 17.

أوسطهم نسباً، فدعاهم إلى الله تعالى حتى شمط[1] وكبر، ولا يتبعه منهم إلا قليل مستضعفون، فلما ألح عليهم في الدعاء والتخويف سألوه أن يريهم آية تكون مصداقاً لقوله، فقال لهم: أي آية تريدون؟ فأشاروا له إلى صخرة منفردة من ناحية الحجر وقالوا: أخرج لنا من هذه الصخرة ناقة جوفاء عشراء، فإن فعلت آمنا بك وصدقناك. فأخذ صالح عليه السلام المواثيق، ففعلوا، فصلى ركعتين ودعا ربه، فتمخضت الصخرة تمخض النتوج[2] بولدها ثم تحركت وانصدعت عن ناقة عشراء جوفاء كما وصفوا وهم ينظرون، ثم نتجت سقباً مثلها في العظم. فلما خرجت الناقة قال لهم صالح عليه السلام: هذه ناقة الله لها شرب ولكم شرب يوم معلوم. فمكثت الناقة ومعها سقبها في أرض ثمود ترعى الشجر وتشرب الماء، فكانت ترد الماء غباً، فإذا كان يومها وضعت رأسها في بئر يقال لها: بئر الناقة، فما ترفعه حتى قد شربت كل ما فيها لا تدع قطرة واحدة، ثم ترفع رأسها فتفشج - يعني تتفحج[3] لهم - فيحلبون ما شاءوا من لبنها فيشربون ويدخرون ويملأون آنيتهم كلها، ثم تصدر من غير الفج الذي وردت منه لأنها لا تقدر أن تصدر من حيث ترد لضيقه[4]. قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: أتيت أرض ثمود فذرعت مصدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً[5]. وكان إذا جاء يومهم وردوا الماء فيشربون ويسقون مواشيهم ويدخرون من الماء ما يكفيهم لليوم الثاني، وكانوا كذلك، وكانت الناقة إذا رأتها مواشيهم تنفر منها، وكانت الناقة ترعى في وادي الحجر، فكبر ذلك على أهل المواشي منهم، واجتمعوا وتشاوروا على عقر الناقة. وكان في ثمود امرأة يقال لها: صدوف[6]، وكانت جميلة الخلق غنية ذات إبل وبقر وغنم، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت تحث على عقر الناقة لأجل أنها أضرت بمواشيها، فطلبت ابن عم لها

---

(1) شمط: ابيض شعر رأسه.

(2) النتوج - بفتح النون: الحامل.

(3) تفحجت: باعدت بين رجليها.

(4) تفسير الطبري: 12/ 528 وما بعدها - والبغوي، معالم التنزيل: 2/ 498 وما بعدها.

(5) تفسير الطبري: 12/ 539.

(6) صدوف بنت المحيا بن دهر بن المحيا.

يقال له: مصدع[1]، وجعلت له نفسها إن عقر الناقة، وكانت من أحسن الناس وأكثرهم مالاً. فأجابها إلى ذلك، ثم طلبت قدار بن سالف، وكان رجلاً أحمر أزرق قصيراً يزعمون أنه ولد زنا، ولكنه ولد على فراش سالف، فقالت له: يا قدار أزوجك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة. وكان منيعاً في قومه. فأجابها أيضاً، فانطلق قدار ومصدع، فاستغووا غواة ثمود فأتتهم تسعة رهط، فاجتمعوا على عقر الناقة، فأوحى الله إلى صالح أن قومك سيعقرون الناقة. فقال لهم صالح بذلك، فقالوا: ما كنا لنفعل. ثم تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله وقالوا: نخرج فيرى الناس أنا قد خرجنا إلى سفر فنأتي الغار فنكون فيه، حتى إذا كان الليل وخرج صالح إلى مسجده قتلناه ثم رجعنا إلى الغار فكنا فيه، فإذا رجعنا قلنا: ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون، أي تعلمون أنا خرجنا في سفر لنا. وكان صالح عليه السلام لا ينام في القرية وكان له مسجد خارج القرية يقال له: مسجد صالح يبيت فيه، فإذا أصبح أتاهم فوعظهم، فإذا أمسى خرج إلى المسجد. فانطلقوا ودخلوا الغار، فلما كان الليل سقط عليهم الغار فقتلهم، فلما أصبحوا رآهم رجل فصاح في القرية فقال: ما رضي صالح حتى قتلهم. فاجتمع أهل القرية على عقر الناقة. وقال ابن اسحاق: إنما اجتمع التسعة الذي عقروا الناقة فقالوا: هلم لنقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلنا قتله، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته. فأتوا ليلاً فبيتوه في أهله، فدفعتهم الملائكة بالحجارة[2].

وقال بعضهم: انطلق قدار ومصدع وأصحابهما التسعة فرصدوا الناقة حين صدرت عن الماء، وقد كمن لها قدار في أصل صخرة على طريقها، وكمن لها مصدع في أصل صخرة أخرى، فمرت على مصدع فرماها بسهم فانتظم به عضلة ساقها، ثم خرج قدار فعقرها بالسيف فخرت ترغو، ثم طعنها في لبتها ونحرها، وخرج أهل البلد واقتسموا لحمها. فلما رأى سبقها ذلك هرب يرغو ودموعه تنحدر، حتى أتى الصخرة التي خلق منها، فانفتحت له فدخلها. فبلغ صالح عليه

---

(1) مصدع بن مهرج بن المحيا.

(2) تفسير البغوي: 2/ 503.

السلام عقر الناقة فأقبل إليهم فجعلوا يعتذرون إليه ويقولون: إنما عقرها فلان ولا ذنب لنا. فقال صالح: انظروا هل تدركون سقبها، فإن أدركتموه فعسى أن يرفع عنكم العذاب. فخرجوا في طلبه فلم يجدوه، فقال صالح: لكل دعوة أجل يا قوم ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾[1]. وقال ابن اسحاق: عقروا الناقة وسقبها وألقوا لحمه مع لحم أمه، فقال لهم صالح: أبشروا بعذاب الله ونقمته. فقالوا له: وما علامة ذلك؟ قال: تصبحون غداً ووجوهكم مصفرة، وبعد غد محمرة، وبعد ذلك مسودة. وكانوا عقروا الناقة يوم الاربعاء فأصبحوا يوم الخميس كأن وجوههم طليت بزعفران صغيرهم وكبيرهم ذكرهم وأنثاهم، فأيقنوا بالعذاب، وعلموا أن صالحاً قد صدق، فطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم واختفى في موضع فلم يجدوه، فجعلوا يعذبون أصحابه الذين آمنوا معه ليدلوهم عليه. فلما أصبحوا يوم الجمعة أصبحت وجوههم محمرة كأنها خضبت بالدماء فصاحوا بأجمعهم وضجوا وبكوا، وعرفوا أن العذاب قد دنا إليهم، وجعل كل واحد منهم يخبر الآخر بما يرى في وجهه، ثم أصبحوا يوم السبت ووجوههم مسودة كأنها طليت بالقار والنيل، فصاحوا جميعاً: ألا قد حضر العذاب. فلما أصبحوا يوم الأحد خرج المسلمون إلى صالح عليه السلام فمضى بهم إلى الشام، فلما اشتد الضحى يوم الأحد أتتهم صيحة من السماء عظيمة هائلة فيها صوت كل صاعقة فانصعقت قلوبهم في صدورهم وتقطعت فلم يبق منهم صغير ولا كبير إلا هلك كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾[2]. وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لما مر النبي ﷺ بالحجر في غزوة تبوك - يعني موضع ثمود - قال لأصحابه: «**لا يدخلن أحد منكم هذه القرية إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم**»[3]. ثم قال: «**لا تسألوا رسولكم الآيات فإن هؤلاء قوم صالح سألوا رسولهم الآية،**

(1) سورة هود (11)، الآية: 65.
(2) سورة القمر (54)، الآية: 31.
(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 8/ 468، رقم: 4419، كتاب المغازي - ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 18/ 111.

فبعث الله إليهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج، وتصدر من هذا الفج، فشربت ما هو يوم وردها»، وأراهم مرتقى الفصيل حين ارتقى. ثم أسرع رسول الله ﷺ السير حتى أجاز الوادي. وعن رسول الله ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه: «**أتدري من أشقى الأولين؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**عاقر الناقة**». ثم قال: «**أتدري من أشقى الآخرين؟**» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «**قاتلك**»[1].

قال الله تعالى:

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿80﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿81﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿82﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿83﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿84﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿80﴾﴾ معناه: وأرسلنا لوطاً إذ قال لقومه: أتأتون السيئة: وهي إتيان الذكور في الأدبار. والفاحشة: السيئة العظيمة القبح. قوله تعالى: ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي لم يفعلها أحد قبلكم. وقال الكلبي: أول ما عملوا عملهم الخبيث أن بلادهم أخصبت فانتجعها أهل البلدان، فتمثل لهم إبليس في صورة شاب، ثم دعا إلى دبره فنكح، فعبثوا بذلك العمل زمانا، فلما كثر فيهم عجت الأرض إلى ربها، فسمعت السماء فعجت إلى ربها، فسمع العرش فعج إلى ربه، فأمر السماء أن تحصبهم والأرض أن تخسف بهم[2].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي إنكم لتأتون الرجال في أدبارهم بشهوة، وتتركون إتيان النساء التي أباح الله لكم ﴿بَلْ

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 15 عن الضحاك بن مزاحم.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 15 ـ تفسير البغوي: 2/ 506.

أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ أي متجاوزون من الحلال إلى الحرام.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ﴾ أي ما كان جوابهم إذ قال لهم ذلك إلا أن قال بعضهم لبعض: أخرجوا لوطا ومن آمن به من بلدكم إنهم أناس يتنزهون عن فعلنا ويتقذروننا. والعرب تسمي المدينة قرية.

قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أي خلصناه وابنتيه: زعوراء ورويثاء. وأهل الرجل: هم المختصون به اختصاص القرابة. قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ﴾ أي إلا زوجته كانت على دينهم. وقوله: ﴿كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ أي من الباقين في العذاب غبرت فيمن غبر. ومعناه: بقيت في العذاب ولم تذهب معه، فهلكت مع القوم فيما هلكوا.

قوله عز وجل: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًاۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ قال ابن عباس: أمطرت الحجارة على مسافريهم وعلى الذين لم يكونوا معهم في المدينة حتى هلكوا. فأما المدينة فقد جعل الله عاليها سافلها. ويقال: مطروا أولاً بالحجارة ثم خسف بهم الأرض. وأما الألف في «أمطرنا» قال بعضهم: يقال لكل شيء من العذاب: أمطرت ـ بالألف، والرحمة: مطرت، وقال بعضهم: أمطرت ومطرت بمعنى واحد. وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي فكر في آخر أمر الكافرين المكذبين كيف فعلنا بهم.

قال الله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ
قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ
أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ
ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ (86) وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ
وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (87) ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ

ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ ﴿88﴾».

قوله تعالى: «وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥ» معناه: وأرسلنا إلى مدين أخاهم في النسب شعيباً. قال الضحاك: كان شعيب أفضلهم نسباً وأصدقهم حديثاً وأحسنهم وجهاً. يقال: إنه بكى من خشية الله تعالى حتى ذهب بصره وصار أعمى. وأما مدين فإنه مدين بن ابراهيم خليل الله، تزوج رويثاء بنت لوط فولدت له وكثر نسله، فصار مدين مدينتهم أو قبيلتهم.

قوله تعالى: «قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» أي برهان ودلالة من ربكم على نبوتي «فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ» أي أدوا حقوق الناس بالمكيال والميزان على التمام ولا تنقصوا شيئاً من حقوقهم. «وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا» أي لا تعملوا فيها بالمعاصي بعد إصلاح الله إياها بالمحاسن. وقيل معناه: لا تظلموا الناس في الأرض بعد أن من الله فيها بالعدل.

وقوله تعالى: «ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» أي إيفاء الحقوق وترك الفساد في الأرض خير لكم إن كنتم مصدقين بالله ورسوله. وقد كان لشعيب عليه السلام آية تدل على نبوته كما قال تعالى: «قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ» إلا أنها لم تذكر في القرآن. كما أن أكثر معجزات نبينا ﷺ [غير][1] مذكورة في القرآن.

قوله عز وجل: «وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ» أي لا تقعدوا على كل طريق تخوفون وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن بالله، وذلك أنهم كانوا يخوفون بالقتل كل من قصد شعيباً للإيمان به.

وقوله تعالى: «وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ» أي تطلبون لها عثراً وزيغاً وعدولاً عن الحق.

وقوله تعالى: «وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ» أي احفظوا نعم الله عليكم إذ كنتم قليلاً في العدة فكثر عددكم. ويقال: معنى كثركم: جعلكم أغنياء

(1) في النسخة (ف) سقطت لفظة «غير».

ذوي مقدرة بعد أن كنتم ضعفاء فقراء.

قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي تفكروا كيف كان آخر أمر من كان قبلكم من الكفار في إهلاك الله تعالى لهم وإنزال العذاب بهم فتحذروا من سلوك مسالكهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ معناه: وإن كان جماعة منكم صدقوا بالذي أرسلت به وجماعة لم يصدقوا، فاصبروا حتى يقضي الله بين المؤمنين والكافرين وهو أعدل القاضين، سيجزي كل واحد من الفريقين ما يستحقه على عمله في الدنيا والآخرة. فقضى الله بهلاك قوم شعيب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ أي قال الذين تعظموا عن الإيمان به لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لترجعوا إلى ديننا، ولا ندعكم في أرضنا على مخالفتنا. قال شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ﴾ معناه: أتعيدوننا في ملتكم وتجبروننا على ذلك وإن كرهنا. فإن قيل: كيف قالوا لشعيب: ﴿أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ وشعيب عليه السلام لم يكن في ملتهم قط، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر في حال من الأحوال؟ قيل: يجوز أن يكون المراد بهذا الخطاب قومه الذين كانوا على ملتهم، فأدخلوه معهم في الخطاب، ويحتمل أنهم توهموا أن شعيبا كان على ملتهم لأنهم لم يروا منه المخالفة لهم إلا في وقت ما دعاهم إلى نبوته.

قال الله تعالى:

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ (89) وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ (90) فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ (91) ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ (92) فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ (93)﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ أي قد اختلقنا على الله الكذب فيما دعوناكم إليه إن عدنا في ملتكم بعد إذ خلصنا الله منها بالدلالة على بطلانها، وتبين الحق لنا، وقبولنا له.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا﴾ قال بعضهم معناه: ما نعود فيها إلا أن يكون في علم الله ومشيئته أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا. وقال بعضهم معناه: إلا أن يشاء الله أن نكره عليه بالقتل فنظهر كلمة الكفر مع طمأنينة القلب بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ أي أحاط ربنا بكل شيء علمه، فهو أعلم ما هو أصلح لنا فيبعدنا به، وهو يعلم بأنا هل ندخل في ملتكم أو لا ندخل؟

قوله تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾ أي به وثقنا في الانتصار عليكم.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ أي اقض بيننا وبينهم بما يدل على أنا على الحق وهم على الباطل ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾ والفاتح: هو الحاكم بلغة أهل عمان. سمي فاتحاً لأنه يفتح المشكلات ويفصل الأمور. ويجوز أن يكون معنى افتح: أظهر أمرنا بإهلاك العدو حتى ينفتح ما بيننا وبينهم، أي يظهر وينكشف.

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿90﴾﴾ معناه: قال الأشراف الذين كذبوا شعيب: لئن اتبعتم شعيباً فيما دعاكم إليه إنكم إذا بمنزلة من ذهب رأس ماله لإفنائكم العمر في ترك الشهوات فتكونون مغبونين جاهلين.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ أي الزلزلة الشديدة. قال ابن عباس: رجفت بهم الأرض، وأصابهم حر شديد، فرفعت لهم سحابة فخرجوا إليها يطلبون الروح منها، فلما كانوا تحتها سالت عليهم بالعذاب ومعه صيحة جبريل عليه السلام[1].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 510.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ أي بقرب دارهم تحت الظلة كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿جَٰثِمِينَ﴾ أي ميتين على وجوههم وركبهم. وروي أنهم احترقوا تحت السحابة فصاروا ميتين بمنزلة الرماد الجاثم أجسام ملقاة على الأرض محترقة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فتح الله عليهم بابا من جهنم فأرسل عليهم منه حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم، فدخلوا جوف البيوت فلم ينفعهم ماء ولا ظل، وأنضجهم الحر فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا برد الريح وطيبها وظل السحابة فتنادوا: عليكم بها. فخرجوا نحوها، فلما اجتمعوا تحتها رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ألهبها الله عليهم ناراً، ورجفت الأرض بهم فاحترقوا كما يحترق الجراد المقلي، وصاروا رماداً، وهو عذاب يوم الظلة[2].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾ يقول الله تعالى: الذين كذبوا شعيباً كأن لم ينزلوا في ديارهم. ويقال معنى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ﴾: كأن لم يقيموا فيها مقام المستغني ويقال معناه: كأن لم يعيشوا ولم يكونوا. قال الأصمعي: المغنى: المنزل، والمغاني، المنازل التي كانوا بها. يقال: غنينا بمكان كذا، أي نزلنا فيه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ فيه بيان أن الخسران حل بهم دون المؤمنين. وإنما أعاد ذكر الذين كذّبوا شعيباً للتغليظ عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ معناه أي فلما رأى العذاب مقبلاً عليهم أعرض عنهم بعد الإياس منهم ولم يعذب قوم قط حتى يخرج نبيهم من بين أظهرهم، وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ﴾ أي كيف يشتد حزني على قوم كافرين حل بهم العذاب باستحقاقهم له بعد أن نصحتهم فلم يقبلوا. والأسى: الحزن، وقيل: الأسى: الصبر.

(1) سورة الشعراء (26)، الآية: 189.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 16.

قال الله تعالى:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ﴿94﴾
ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ وَّقَالُواْ قَدۡ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ فَأَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ
وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿95﴾ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿96﴾ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا
وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿97﴾ أَوَ أَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿98﴾ أَفَأَمِنُواْ
مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿99﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي ما أرسلنا في مدينة من رسول فكذبوه إلا عاقبنا أهلها بالبأساء والضراء. فالبأساء ما نزل بهم من الشدة في نفوسهم، والضراء ما نزل بهم من الضرر في أموالهم. وقيل: على عكس هذا وقيل البأساء: البؤس والشدة وضيق العيش، والضراء: الفقر والجوع.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ﴾ أي لكي يتضرعوا ويتوبوا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلۡنَا مَكَانَ ٱلسَّيِّئَةِ ٱلۡحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ أي حولنا مكان الشدة والكرب العافية والخصب والسعة حتى كثروا وكثرت أموالهم ومعايشهم. وإنما سميت الشدة سيئة لأنها تسوء الإنسان، كما سمي الإحسان حسنة لأنه يحسن أثره على الإنسان. وإلا فالسيئة هي الفعلة القبيحة، والله تعالى لا يفعل القبيح. وقال الحسن: عفوا أي سمنوا، وأراد به السمن في المال لا في تعظيم الجسم. وقال قتادة: حتى عفوا، أي حتى أشروا وبطروا ولم يشكروا ربهم. وأصله من الكثرة[1]. قال صلى الله عليه وسلم: «**أحلقوا الشوارب واعفوا اللحاء**»[2]. وقال الشاعر:

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 17.
(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 3/ 147، خصال الفطرة ـ والنسائي في سننه: 1/ 19.

عـفـوا مـن بـعـد إقـلال وكـانـوا ∴ زمـانـاً لـيـس عـنـدهـم بـعـيـر

وقال ابن عباس: حتى عفوا، أي جموا، وقال ابن زيد: حتى كثروا[1] كما يكثر النبات والريش[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ أي قالوا: هكذا عادة الزمان أي يسيء تارة ويحسن أخرى، وهكذا كانت عادته مع آبائنا فثبتوا على دينهم ولم ينتقلوا عنه، فاثبتوا أنتم على دينكم ولا تنتقلوا عنه.

قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً﴾ أي أخذناهم بالعذاب فجأة من حيث لا يشعرون بالعذاب. والمعنى: أخذناهم بالعذاب وهم في أمن ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بنزوله.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ معناه: لو أن أهل القرى التي أهلكناهم بتكذيبهم الرسل قالوا: آمنا بالله وبالرسل، وألقوا الشرك والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ﴾ نامية ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ وهي المطر، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي النبات والثمار ﴿وَلَٰكِن كَذَّبُواْ﴾ الرسل فأخذناهم بما كانوا يكسبون من المعاصي. وفي الآية دلالة أن الكفاية والسعة في الرزق من سعادة المرء إذا كان شاكراً. والمراد بقوله: ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ﴾[3] الكثرة التي تكون وبالأعلى من لا يشكر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ معناه: أفأمن أهل القرى المكذبة[4] لك يا محمد أن ينزل بهم عذابنا ليلاً وهم نائمون في فرشهم ومنازلهم لا يشعرون بالعذاب لغفلتهم.

قوله تعالى: ﴿أَوَ أَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ معناه: أو أمن أهل القرى المكذبة لك أن يأتيهم عذابنا نهارا وهم مشغولون

(1) في النسخة (ف): حتى كبروا.
(2) تفسير الطبري: 12/ 575.
(3) سورة الزخرف (43)، الآية: 33.
(4) في النسخة (س): المكذبين.

بلهوهم ولعبهم. والضحى: صدر النهار عند ارتفاع الشمس.

قوله عز وجل: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ معناه: أبعد هذا كله أمنوا عذاب الله لهم من حيث لا يعلمون؟ وإنما سمي العذاب مكراً على جهة الاتساع والمجاز، لأن المكر ينزل بالممكور من جهة الماكر من حيث لا يشعر به. وأما المكر الذي هو الاحتيال للإظهار بخلاف الإضمار فذلك لا يجوز على الله.

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ فإن قيل: أليس الأنبياء قد أمنوا عذاب الله وليسوا من القوم الخاسرين؟ قيل: معنى الآية: لا يأمن عذاب الله في العصاة، أو لا يأمن عذاب الله من المذنبين. والأنبياء صلوات الله عليهم لا يأمنون عذاب الله على المعصية، ولهذا لا يعصون بأنفسهم.

قال الله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم
بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿100﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا
وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ
ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿101﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ
لَفَٰسِقِينَ ﴿102﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُواْ بِهَا فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿103﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿104﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ
مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿105﴾﴾

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ قرأ قتادة: أو لم نهد - بالنون على التعظيم[1]. ومعنى الآية: ألم يبين الله للذين يخلفون في الأرض من بعد أهلها الذين أهلكهم الله بتكذيبهم الرسل؟ وقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ أي أو لم نبين لهم

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 17 قراءة قتادة.

مشيئتنا لأصبناهم بعقاب ذنوبهم كما أخذنا من كان قبلهم بذنوبهم.

وقوله تعالى: ﴿وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ أي نختم عليها عقوبة لهم. وليس هو عطفا على أصبناهم، لأنه لو عطف عليه لقال: ولطبعنا لأن قوله: أصبناهم على لفظ الماضي. وكان موقع «ونطبع» أي ونحن نطبع، ومعناه: الختم على قلوبهم بأنهم لا يؤمنون على جهة الذم لهم.

قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ أي لا يقبلون الوعظ.

قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا﴾ أي تلك القرى التي أهلكنا أهلها بجحودهم لآيات الله نقص عليك يا محمد في القرآن من أخبارها كيف هلكت، لما في ذلك من العبرة لمن تدبر حالهم؟ ولقد جاءتهم رسلهم بالحجج والبراهين القاطعة التي لو اعتبروا بها لاهتدوا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ قال مجاهد معناه: فما أهلكناهم إلا وقد كان في معلومنا أنهم لا يؤمنون أبداً[1]. وقال الحسن معناه: فما كانوا ليؤمنوا لعتوهم وتمردهم في الباطل ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ بك. ومعنى الآية: تلك القرى، أي هذه القرى التي ذكرت لك يا محمد أمرها وأمر أهلها، يعني قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وشعيب. وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ قال أبي بن كعب معناه: فما كانوا ليؤمنوا عند مجيء الرسل بما سبق في علم الله أنهم يكذبون به[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ﴾ أي ما وجدنا لأكثر المهلكين من وفاء فيما أمروا به. فقول العرب فلان لا عهد له أي لا وفاء له بالعهد. وهذا العهد المذكور في الآية يجوز أن يكون ما أودع الله في العقول من وجوب شكر الله، والقيام بحق المنعم، ووجوب طاعة المحسن. ويجوز أن يكون ما أخذ عليهم على ألسنة الرسل من هذه الأمور.

---

(1) تفسير البغوي: 2/ 515.
(2) تفسير الطبري: 13/ 8 - ابن عطية، المحرر الوجيز: 7/ 123.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَـٰسِقِينَ﴾ أي إنا وجدنا أكثرهم ناقضين للعهد تاركين لما أمروا به من الحلال والحرام. وأما دخول «إن» و«اللام» في مثل هذا فعلى وجه التأكيد كما يقال: إن ظننت زيداً لقائماً، وتريد بذلك تأكيد الظن.

قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ معناه: ثم بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين سبق ذكرهم «موسى» بدلائلنا وحججنا من العصا، واليد، والطمس، وغير ذلك إلى فرعون وأشراف قومه. ويعني بالرسل الذين بعث موسى من بعدهم: نوحاً، وهوداً، وصالحاً، وشعيباً، ولوطاً، . واسم فرعون أعجمي لا ينصرف، اجتمع فيه العجمة، والتعريف. كانوا يسمون كل من ملك مصر هذا الاسم، واسمه: الوليد بن مصعب، وكان من القبط وعمر أكثر من: أربعمائة سنة. وقوله تعالى: ﴿فَظَلَمُوا۟ بِهَا﴾ أي جحدوا بالآيات، وسماه ظلماً لأنهم جعلوا بدل وجوب الإيمان بها الكفر، وذلك من أبين الظلم.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي فانظر كيف صار آخر أمر المفسدين في العقاب. قال ابن عباس: كان طول عصا موسى عشرة أذرع على طوله، وكانت من آس الجنة، وكان يضرب بها الأرض فيخرج النبات، ويلقيها فإذا هي حية تسعى، ويضرب بها الحجر فينفجر، وضرب بها باب فرعون ففزع منها فشاب رأسه، فاستحيا فخضب بالسواد. وأول من خضب بالسواد فرعون[1].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿104﴾﴾ وذلك أن موسى دخل على فرعون ومعه أخوه هارون بعثهما الله إليه بالرسالة، فقال موسى: يا فرعون إني رسول من رب العالمين. فقال له فرعون: كذبت. فقال موسى: ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ أي جدير بأن لا أقول على

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 18.

الله إلا الحق. وقرأ نافع: علي ـ بالتشديد، أي واجب عليّ: أن لا أقول على الله إلا الحق[1].

وقوله تعالى: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي ببرهان وحجة من ربكم فاطلق بني إسرائيل من التسخير ولا تستعبدهم، لأحملهم إلى الأرض المقدسة. وكان فرعون وقومه القبط يكلفون بني إسرائيل الاعمال الشاقة مثل: حمل الطين والماء، وبناء المنازل، وأشباه ذلك.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿106﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿107﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ ﴿108﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ ﴿109﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿110﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿111﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿112﴾﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

وقوله تعالى: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ قال فرعون: إن كنت جئت بعلامة لنبوتك فأت بها إن كنت من الصادقين في أنك رسول الله ﴿فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿107﴾﴾ أي ثعبان بين لا لبس فيه ولا يشتبه على أحد أنه ثعبان. والثعبان: الحية الصفراء الذكر الأشعر أعظم الحيات، لها عرف كعرف الفرس. وروي أنها ملأت دار فرعون، ثم فتحت فاها وأخذت قبة فرعون بين فكيها. وتضرع فرعون إلى موسى وهرب الناس واستغاثوا بموسى، فأخذها موسى فإذا هي عصاه بيده كما كانت. قال ابن عباس والسدي: لما فغرت فاها كان بين لحييها ثمانون ذراعا، وضعت لحيها الأسفل في الأرض ولحيها الأعلى على سور القصر، ثم توجهت نحو فرعون لتأخذه، فوثب من سريره وهرب، وهرب الناس، وانهزموا، فمات منهم خمسة وعشرون ألفاً، فصاح فرعون: يا موسى خذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بني إسرائيل. فأخذها

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 287.

فعادت عصا كما كانت[1]. فقال له فرعون: هل معك آية أخرى؟ قال: نعم. فأدخل يده في جيبه ثم نزعها فإذا هي بيضاء لها شعاع يغلب نور الشمس.

قوله عز وجل: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿109﴾﴾ أي قال الأشراف من قوم فرعون: إن هذا لساحر حاذق بالسحر ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أي يريد موسى أن يستميل قلوب بني إسرائيل إلى نفسه ويتقوى بهم، فيقتلكم ويخرجكم من بلادكم، فماذا تشيرون في أمره؟ كأنهم خاطبوا فرعون. ويجوز أن يكون قوله: ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم﴾ من مقالة فرعون لقومه. ويعني بقوله: ﴿مِّنْ أَرْضِكُمْ﴾ أرض مصر. وكان بين اليوم الذي دخل يوسف فيه مصر وبين اليوم الذي دخل موسى فيه رسولاً: أربعمائة عام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أي قالوا لفرعون أحبسه وأخاه، أخر أمرهما ولا تعجل بقتلهما، فتكون عجلتك حجة عليك ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ أي ابعث للشرطة في المدائن التي حولك يحشرون السحرة إليك. والسحر في اللغة: لطف الحيلة في إظهار الأعجوبة، وأصل ذلك من خفي الأمر، ومن ذلك سمي آخر الليل: سحر، لخفاء الشخص تبعاً لظلمته. والسحر الرئة، سميت بذلك لخفاء أمرها بانتفاخها تارة وضمورها أخرى.

قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿113﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿114﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴿115﴾ قَالَ أَلْقُواْ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴿116﴾ ۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿117﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿118﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿119﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿120﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿121﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿122﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ﴾ قال ابن عباس: كانوا سبعين

(1) البغوي في معالم التنزيل: 2: 517.

ساحراً شباباً غير رئيسهم، وكان اللذان يعلمانهم مجوسيين من أهل نينوى. وقال محمد بن إسحاق: كانوا خمسة عشر ألف ساحر، مع كل واحد منهم حبل وعصا. وقال كعب: كانوا اثني عشر ألفاً. وقال ابن المنكدر: ثمانين ألفاً. وقال مقاتل: كان رئيس السحرة شمعون[1]. فلما اجتمعوا قالوا لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ أي جعلا ومالا ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ عندي في المنزلة. قال الكلبي: أول من يدخل علي وآخر من يخرج.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾ أي قالت السحرة: يا موسى إما أن تلقي ما معك من العصا وإما أن نلقي نحن ما معنا من العصي والحبال قبلك. ﴿قَالَ أَلْقُواْ﴾ ما معكم من الحبال والعصي. ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ﴾ ذلك أخذوا بها أعين الناس واستدعوا رهبتهم حتى رهبتهم الناس ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ في أعين الناس. وكانوا قد حطوا فيها الزئبق بعد أن صوروها بصورة الحيات، فلما أوقعوها في الشمس اضطربت باضطراب ما كان فيها من الزئبق، لأنه لا يستقر، ومتى زاد مكثه في الشمس زادت حركته، فخيل إلى موسى أن حبالهم وعصيهم حيات كما كانت عصا موسى عليه السلام. فإن قيل: كيف يجوز من موسى عليه السلام أن يأمرهم بالإلقاء. وكان إلقاؤهم إرادة منهم مغالبة موسى، وذلك كفر ولا يجوز على الأنبياء أن يأمروا بالكفر؟ قيل معناه: ألقوا إن كنتم محقين على زعمكم. ويجوز أن يكون أمرهم بالإلقاء لتأكيد معجزته.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ من يدك فألقاها ﴿فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾ أي تلقم وتبتلع ما كانوا يكذبون أنها حيات. والإفك: الكذب. ويقرأ: تلقف ـ بجزم اللام خفيفة. وقرأ سعيد بن جبير: تلقم[2]. قال ابن عباس: لما كبرت حياتهم جعلت عصا موسى تزداد عظماً حتى سدت الأفق، ثم فتحت فاها فابتلعت جميع ما ألقوه من حبالهم وعصيهم، ثم أهوت بذنبها فعلقته

(1) ذكر الثعلبي هذه الأقوال في تفسيره، ورقة: 18.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 18.

برأس فيه فرعون وهو فيها، وفتحت فاها لتبتلعه، فصرخ إلى موسى، فأخذها فإذا هي عصا كما كانت، ونظر السحرة فإذا حبالهم وعصيهم قد ذهبت، فذلك قوله تعالى: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ أي ظهر الحق وبطل ما كانوا يعملون من السحر. وقال النضر بن شميل: فوقع الحق، أي صدهم وأقرعهم فغلبوا هنالك، يعني السحرة ﴿وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ﴾ أي رجعوا ذليلين.

قوله تعالى: ﴿وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ قال الأخفش: من شدة سرعة سجودهم كأنهم ألقوا، وقد كانوا في اللوح المحفوظ سعداء شهداء.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾﴾ فقال لهم فرعون: إياي تعنون؟ قالوا: رب موسى وهارون. فبهت فرعون وندم على ما سألهم، فظهر للناس أنهم آمنوا بالله عز وجل.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ أي قال لهم فرعون: أصدقتم برب موسى وهارون قبل أن آذن لكم في الإيمان به؟ إن هذا لشيء واطأتموه عليه حتى يدعي هو النبوة، ثم تظهرون مخالفته في ابتداء الأمر، حتى إذا غلبكم أظهرتم موافقته بعد ذلك. أراد فرعون بهذا القول أن يموه على الناس ليصرف وجوههم إلى نفسه ثم قال للسحرة: سوف تعلمون ماذا ينزل بكم من النكال.

قوله تعالى: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ أي لأقطعن أيديكم اليمنى

وأرجلكم اليسرى من خلاف ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ على شاطىء نهر مصر على جذوع النخل حتى تموتوا من الجوع والعطش والألم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿125﴾﴾ أي قالت السحرة إنا لا نبالي من فعلك وعقوبتك، فإن مرجعنا إلى الله يوم القيامة، فإن الحياة وإن طالت فإنها تختم بالممات.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا﴾ أي قالت السحرة: ما تعيب علينا ولا تنكر إلا لأنا صدقنا بعلامات توحيد ربنا لما ظهر لنا أن ذلك حق من الله. ثم ألهموا الدعاء فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ أي أصبب علينا صبراً وأنزله علينا، ووفقنا للثبات على الإيمان إلى وقت الوفاة. قال ابن عباس: فأخذ فرعون السحرة فقطعهم ثم صلبهم على شاطىء نيل مصر[1]، وخلى سبيل موسى وهارون ولم يتعرض لهما. وقال الملأ من القبط: ﴿أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أتتركهم ليغيروا عليك دينك في أرض مصر، ويدعو الناس إلى مخالفتك، فينتقص بذلك أمرك وملكك؟ ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ أي يدعك موسى فلا يعبدك، ويدع أصنامك التي أمرت بعبادتها. قال الحسن: كان فرعون يستعبد الناس ويعبد الأصنام بنفسه. وقال السدي: كان يستعبد الناس ويعبد هو ما استحسن من البقر، ومنه أخذ السامري عبادة البقر. وقيل: كان فرعون قد صنع أصناماً صغاراً وأمر قومه بعبادتها، وقال: أنا رب هذه الأصنام الأعلى وهم أربابكم[2]. وقرأ الحسن: وما تنقم - بفتح القاف، وهما لغتان. قال الضحاك معناه: وما تطعن علينا. قال عطاء: ما لنا عندك من ذنب تعذبنا عليه ﴿إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا﴾ وقرأ الحسن: ويذرك - بالرفع عطفاً على ﴿أَتَذَرُ﴾. وقرأ ابن مسعود، وابن عباس، والضحاك: وإلاهتك[3] - أي عبادتك - فلا يعبدك، وقيل: أراد بالآلهة الشمس، وكان فرعون وقومه يعبدونها. وقال ابن عباس: كان لفرعون بقرة يعبدها، وكان إذا رأى بقرة

---

(1) تفسير الطبري: 13/ 34.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 19.
(3) هذه القراءات في تفسير الثعلبي، ورقة: 19.

حسناء أمرهم أن يعبدوها، فلذلك أخرج لهم السامري عجلاً. وروي أنه قيل للحسن: هل كان فرعون يعبد شيئاً؟ قال: نعم، كان يعبد تيساً.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ أي قال فرعون: سنعود إلى قتل أبنائهم واستخدام نسائهم عقوبة لهم كما كنا نفعل وقت ولادة موسى.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ أي مستعلون عليهم بالقوة.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (128) قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (129) وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (130)﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ أي فشكت بنو إسرائيل إلى موسى فقال لهم: استعينوا بالله في دفع بلاء فرعون عنكم ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟﴾ على دينكم ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ﴾ التي أنتم فيها لله يسكنها من يشاء من عباده، فيورثكم هذه الأرض بعد إهلاك فرعون وقومه ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي آخر الأمر للذين يتقون الله، وقيل: أراد بالعاقبة الجنة في الآخرة. وقيل: النصر والظفر. وقيل: السعادة والشهادة.

قوله عز وجل: ﴿قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ قال ابن عباس: وذلك أن فرعون عاد إلى قتل أبنائهم، وزاد في إتعابهم في العمل. كان يستعملهم قبل مجيء موسى بضرب اللبن والبناء. فلما أتاهم موسى غضب وكلفهم أيضاً أشد من ذلك. قال وهب: جعلهم أصنافاً في خدمته: فقوم يحملون السواري من الجبال وقد قرحت أعناقهم وعواتقهم ودبرت ظهورهم من ثقل ذلك، وقوم قد قرحوا من نقل الحجارة والطين للبناء، وقوم يلبنون الطين ويطبخون الآجر، وقوم نجارون وحدادون. وأما الضعفاء الذين لا يطيقون العمل فجعل عليهم الخراج يؤدونه كل يوم، فمن غربت عليه الشمس قبل أن يؤدي

ضريبته غلت يمينه إلى عنقه. وأما النساء فيغزلن الكتان وينسجنه. فلما شكوا عليه موسى وقالوا: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ قال لهم: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ يعني فرعون وقومه ويجعلكم مكانه في أرض مصر من بعدهم[1]. وعسى: كلمة إطماع، وما أطمع الله فيه فهو أوجب، لأن الكريم إذا أطمع ووعد وفي فيصير كأنه أوجبه على نفسه.

وقوله تعالى: ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي فيرى عملكم كيف تشكرون صنعه، كأنه قال: ويستخلفكم في الأرض لكي تعملون بطاعة الله تعالى:

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ أي أخذنا قوم فرعون وأهل دينه بالجوع عاماً بعد عام إلى سبعة أعوام. وآل الرجل: خاصته الذين يؤول أمره إليهم وأمرهم إليه. والسنون في كلام العرب: الجدب. يقال: مستهم السنون، أي الجدب.

قوله تعالى: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ زيادة في القحط، لأن الثمار قوت الناس وغذاءهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لكي يتعظوا فيؤمنوا. فلم يتعظوا. وقيل: أراد بقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الثَّمَرَاتِ﴾ الغلاء.

قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (131) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (132) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (133)﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ أي إذا جاءهم الخصب والخير قالوا نحن أهل لهذه وأحق بها، ومن عادة بلادنا أنها تأتي بالسعة والخصب. ولم يروا ذلك منا وتفضلا من الله ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ أي جدوبة

---

(1) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 19 قول وهب.

وقحط وبلاء وشدة ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي تشاءموا بموسى وأصحابه فقالوا: أصابنا هذا البلاء من شؤم هؤلاء. والطيرة في اللغة: الشآمة. كما روي أن النبي ﷺ كان يحب الفأل ويكره الطيرة. والأصل في هذا أن العرب كانوا يتفاءلون بالطير، فإذا جاءهم طائر من جهة اليمين وهو السانح تبركوا به، وإن جاءهم طائر من جهة الشمال وهو البارح تشاءموا به، ثم كثر قولهم في الطير حتى استعملوه في كل ما تشاءموا به. ومعنى الآية ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ أي تشاءموا بهم، قالوا: ما أصابنا بلاء حتى رأيناكم. وقرأ طلحة: تطيروا ـ بالتاء وتخفيف الطاء على الفعل الماضي[1]. قال سعيد بن جبير: كان ملك فرعون أربعمائة سنة، فعاش ثلاثمائة سنة لا يرى فيها مكروهاً، ولو رأى في تلك المدة جوع يوم أو حمى يوم أو وجع ساعة لما ادعى الربوبية.

قوله عز وجل: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ معناه: الذي أصابهم من الخصب والجدب والخير والشر كان ذلك من عند الله ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه أصابهم من عند الله. وقال ابن عباس معناه: ألا إن مصائبهم عند الله. وقال ابن جريج: ألا إن الأمر من قبل الله. وقيل معناه: ألا إنما الشؤم الذي يلحقهم هو الذي وعدوا به في الآخرة لا ما نالهم من الدنيا، فإن القحط الذي هم فيه قليل في جنب عقوبة الآخرة. وقرأ الحسن: ألا إن طيرهم عند الله ـ بغير ألف، والمعنى واحد[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا﴾ قال الخليل: أصل مهما: ما، أبدلت الألف الأولى هاء لتخفيف اللفظ. وقال بعضهم: أصله مه، أي اكفف. ثم قال: ما تأتنا بمعنى الشرط أي ما تأتنا به يا موسى من آية لتسحرنا بها، أي لتوهمنا أنه حق ﴿فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين بالرسالة. وكان موسى رجلا حديداً فدعا عليهم فأرسل عليهم الطوفان كما قال عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ﴾.

---

(1) تفسير القرطبي: 7/ 264 ـ البحر المحيط: 4/ 370.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 19 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 146.

اختلفوا في الطوفان ما هو؟ قال الضحاك: الغرق. وقال عطاء ومجاهد: الموت الغالب الشائع. وقال وهب: الطوفان هو الطاعون بلغة أهل اليمن. وقال أبو قلابة: هو الجدري، وهم أول من عذبوا به وبقي في الناس إلى الآن. وقال الأخفش: هو السيل الشديد(1). وقال مقاتل: هو الماء طغا فوق حروثهم. وقال بعضهم: هو كثرة المطر والريح. والأظهر ما قاله ابن عباس: انه المطر الدائم، أرسل الله عليهم المطر ليلاً ونهاراً من السبت إلى السبت حتى خربت أبنيتهم، وكاد أن يصير المطر بحراً فخافوا الغرق(2). قال ابن عباس وسعيد بن جبير وقتادة: لما آمنت السحرة وغلب فرعون أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر أخذهم الله بالسنين ونقص من الثمرات. فلما عالجهم موسى بالآيات الأربع: العصا واليد والسنين ونقص الثمرات، دعا فقال: يا رب إن عبدك فرعون علا في الأرض وبغى وعتا، وإن قومه قد نقضوا عهدك وأخلفوا وعدك، رب فخذهم بعقوبة تجعلها لهم نقمة، ولقومي عظة، ولمن بعدهم من الأمم عبرة. فبعث الله عليهم الطوفان ـ وهو الماء ـ أرسله عليهم من السماء حتى كادوا يهلكون. وبيوت بني اسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة بعضها ببعض، فامتلأت بيوت القبط ماء حتى قاموا في الماء إلى تراقيهم من جلس منهم غرق ولم يدخل بيوت بني اسرائيل من الماء قطرة، فأقام بينهم ذلك سبعة أيام فقالوا: يا موسى ادع لنا ربك يكشف عنا المطر فنؤمن بك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا ربه فكشف عنهم ذلك وأرسل الريح فجفت الأرض وخرج من النبات شيء لم يروا مثله فقالوا: هذا الذي كنا نتمناه، وما كان هذا الماء إلا نعمة علينا وخصباً، فلا والله لا نؤمن بك يا موسى ولا نرسل معك بني إسرائيل. فنقضوا العهد وعصوا ربهم، وأقاموا على كفرهم شهراً، فبعث الله عليهم الجراد وغشي مصر منه أمر عظيم حال بينهم وبين السماء وغطى الشمس، ووقع على الأرض بعضه على بعض ذراعاً، وأكل جميع ما نبت في الأرض وأكل الأشجار حتى أكل الأبواب وسقوف البيوت والخشب والثياب والأمتعة حتى مسامير الحديد،

(1) الأخفش، معاني القرآن: 2/ 531.
(2) تفسير الطبري: 13/ 50 ـ 51 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 19.

ولم يدخل بيوت بني إسرائيل منه شيء، فعجوا إلى موسى وقالوا: يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا هذا لنؤمنن بك ولنرسلن معك بني إسرائيل وأرادوا بالساحر: العالم يعظمونه. فدعا موسى ربه فكشف عنهم الجراد بعد أن أقام في أرضهم سبعة أيام، فلم يبق في الأرض جرادة واحدة، ثم نظروا فإذا في بعض المواضع من نواحي مصر بقية من كلإ وزرع فقالوا: هذا يكفينا بقية عامنا هذا، فلا والله لا نؤمن بك يا موسى ولا نرسل معك بني إسرائيل. فأرسل الله عليهم القمل ـ وهو صغار الجراد يقال له الدبى ـ وقيل: أرسل الله عليهم سوس الحنطة، فمكث في أرضهم سبعة أيام فلم يبق لهم عوداً أخضر إلا أكله، ولحس جميع ما بقي في أراضيهم. وقال سعيد بن جبير: القمل: هو السوس الذي يخرج من الحبوب، يقال: إن موسى عليه السلام أتى إلى كثيب بقرية من قرى مصر وكان كثيباً هائلاً عظيماً، فضربه بعصاه فانبعث قملاً، فأكل جميع ما على الأرض حتى لحسها، وكان يدخل بين ثيابهم وجلودهم فينهشهم ويأكل شعرهم وحواجبهم وأشفار عيونهم، ومنعهم النوم والقرار، وظهر بهم منه الجدري، وكان أحدهم لا يأكل لقمة إلا مملوءة قملاً. فصرخوا إلى موسى: ادع لنا ربك في هذه المرة ونعطيك عهوداً ومواثيق لنؤمنن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فدعا به فكشف عنهم بعد أن أقام سبعة أيام، ثم قالوا: وما عسى ربك أن يفعل بنا وقد أهلك كل شيء من نبات أرضنا، فعلى أي شيء نؤمن بك؟ اذهب فما استطعت أن تفعل فافعله. فدعا عليهم موسى عليه السلام، فأرسل الله عليهم الضفادع خرجت عليهم من البحر مثل الليل الدامس فملأ بيوتهم وطرقهم وأطعمتهم، فلا يكشف أحد طعاماً ولا شراباً إلا وجد فيه الضفادع، وكان الرجل إذا جلس تراكمت عليه الضفادع حتى تكون إلى فمه، فإذا هم أن يتكلم وثب الضفدع في فيه فانشدخت، وكان أحدهم إذا اضطجع تراكمت عليه حتى يكون ركاماً فوق الذراع بعضه على بعض حتى لا يستطيع أن يتقلب إلى جنب آخر، ولا يقدر على القيام، وكان إذا فتح أحدهم فمه ليأكل لقمة وثبت الضفدع في فمه فتسبق اللقمة، وكانوا لا يوقدون ناراً إلا امتلأت ضفادع، ولا يطبخون قدراً إلا امتلأت ضفادع، وكان بعضهم لا يسمع كلام بعض من كثرة صراخ الضفادع، وكانوا إذ قتلوا واحداً منها خاف ما حوله

حتى لا يستطيعون الجلوس. قال عكرمة عن ابن عباس: كانت الضفادع برية، فلما أرسلها الله على قوم فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف نفسها في القدور وهي تغلي، وفي التنانير وهي تنور، فأثابها الله بحسن طاعتها بالماء. فلما ضاقت الأرض على قوم فرعون عجوا وشكوا إلى موسى وبكوا وقالوا: يا موسى هذه المرة نتوب ولا نعود ونحلف لك لئن رفعت عنا هذه الضفادع لنؤمنن لك. فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشفها عنهم بريح عظيمة نبذتها في البحر، فقال لهم موسى: ويحكم إلى كم تسخطون ربكم، ارسلوا معي بني إسرائيل؟ فأبوا ونقضوا العهود والمواثيق وعادوا لكفرهم وتكذيبهم، فدعا عليهم، فأرسل الله عليهم الدم، فجرت أنهارهم وآبارهم دماً أحمر عبيطاً، وبنو إسرائيل في الماء العذب الطيب وكان الإسرائيلي يستقي ماء عذباً صافياً، فإذا أخذه القبطي تحول دماً، وكانت القبطية تقول للإسرائيلية: مجي الماء من فمك إلى فمي. فكانت تمجه من فمها فيصير في فم القبطية دماً عبيطاً. وكان فرعون يجمع بين الرجلين على الإناء الواحد القبطي والإسرائيلي، فيكون مما يلي الإسرائيلي ماء ومما يلي القبطي دماً وكان يستقيان من جرة واحدة فيخرج للإسرائيلي ماء عذباً زلالاً صافياً، ويخرج للقبطي دماً أحمر عبيطاً. وكان النيل ماؤه طيباً، فإذا أخذ منه القبطي عاد في إنائه وفي فمه دماً. فمكثوا على هذا سبعة أيام لا يشربون إلا الدم حتى مات كثير منهم. ثم إن فرعون أجهده العطش واشتد به، فيأتونه بأوراق الأشجار الرطبة فيمصها فتصير دماً عبيطاً أو ملحاً أجاجا فكانوا لا يأكلون إلا الدم ولا يشربون إلا الدم، فقال فرعون: أقسم بإلهك يا موسى لئن كشفت عنا هذا الدم لنؤمنن بك. فدعا موسى ربه فأذهب عنهم الدم[1]، وعذب ماؤهم، فعادوا لكفرهم إلى أن كان من أمر الغرق ما كان.

قوله: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أي دلالات واضحات بعضها منفصل من بعض، كل آية من السبت إلى السبت، وبين كل آيتين شهر.

---

(1) ذكر الطبري قول ابن عباس وسعيد وقتادة في: تفسيره: 13/57 ـ وكذا الثعلبي في تفسيره، ورقة: 20.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي تكبروا وتعظموا عن الإيمان بموسى ﴿وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ أي مصرين مهيمنين على كفرهم. فمكث موسى في آل فرعون بعدما غلب السحرة عشرين سنة يريهم الآيات.

قال الله تعالى:

﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ (134) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ (135) فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ (136)﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله عز وجل: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ معناه: ولما وقع عليهم العذاب الذي تقدم ذكره من الطوفان وغيره. وقال عكرمة: الرجز: الدم، لأنه نغص عليهم. وقال ابن جبير: هو الطاعون[1]. وذلك أن موسى آمن قومه من بني إسرائيل من بعد ما جاء قوم فرعون بالآيات الخمس. أما قوم فرعون فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بني إسرائيل. أرسل الله عليهم الطوفان فهلك منهم سبعون ألفا فقال فرعون عند ذلك ﴿يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ أي بما تقدم به إليك أن يجيب دعاءك إذا دعوته كما أجاب دعاءك في إنزال هذه الآيات لئن كشفت عنا هذا الطاعون. وقرأ سعيد بن جبير ومجاهد: الرجز ـ بضم الراء[2]، وهما لغتان كالعُضو والعِضو.

وقوله تعالى: ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ﴾ أي لنصدقنك ﴿وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أي ليطلعنكم من التسخير والأعمال الشاقة.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ﴾ أي العذاب ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة 20.

(2) ابن عطية: المحرر الوجيز: 7/ 146.

بَٰلِغُوهُ﴾ وهو الوقت الذي علم الله من حالهم أن صلاح غيرهم ببقائهم إلى ذلك الوقت، يعني إلى وقت الغرق.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا هُمۡ يَنكُثُونَ﴾ يعني ينكثون العهد.

قوله تعالى: ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ وذلك أن الله تعالى أمر موسى أن يخرج ببني إسرائيل، فاستعار نسوة بني إسرائيل من نساء آل فرعون حليهن وقلن: إن لنا خروجاً إلى عيد. فخرج موسى ببني إسرائيل في أول الليل وهم ستمائة ألف من رجل وامرأة وصبي. فبلغ الخبر فرعون فركب معه ألفاً ألف ومائتا ألف، فأدركهم فرعون حين طلعت الشمس، وانتهى موسى إلى البحر، فضرب البحر فانفلق اثنتي عشر طريقاً، وكانت بنو إسرائيل اثنا عشر سبطا، فعبر كل سبط طريقاً، وأقبل فرعون ومن معه فدخلوا بعدهم من حيث دخلوا، فلما صاروا جميعاً في البحر أمر الله البحر فالتطم عليهم فغرقوا، فسأل بنو إسرائيل موسى أن يريهم فرعون، فدعا ربه فالتطم البحر ولفظ فرعون فنظروا إليه وإلى من معه، فلا يقبل الماء غريقاً بعد ذلك أبداً. ورجع موسى ببني إسرائيل فسكنوا أرض مصر. ومعنى قوله: ﴿فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ أي في البحر بلسان العبرانية.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي بتكذيبهم الآيات التسع التي أتاهم بها موسى: اليد والعصا والسنون ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾ أي عاقبناهم بتعرضهم لأسباب الغفلة.

قال الله تعالى:

﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ (137) وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ (138) إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٞ مَّا هُمۡ فِيهِ وَبَٰطِلٞ مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ (139) قَالَ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِيكُمۡ إِلَٰهٗا وَهُوَ فَضَّلَكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ (140) وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ

يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿141﴾ ﴾.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ معناه: وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفهم القبط وهم بنو إسرائيل مشارق الأرض التي كانوا فيها ومغاربها. وقيل: أراد بهذه الأرض الأرض المقدسة: الأردن وفلسطين بارك الله فيها بكثرة المياه والأشجار والثمار. قال ابن عباس: وذلك أن المياه كلها تخرج من تحت الصخرة التي ببيت المقدس.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ أن تمت عدة ربك، يعني قوله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[2]. قال ابن عباس: فأهلك فرعون وقومه وأورثهم أرض مصر وأرض الشام.

وقوله: ﴿بِمَا صَبَرُوا۟﴾ أي بصبرهم على دينهم أن يرجعوا إلى دين فرعون.

قوله تعالى: ﴿وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ﴾ أي أهلكنا ما كان يفعل فرعون وقومه من المكايد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ﴾ أي وما كانوا يبنون من البيوت والقصور والكروم والشجر، ويستخدمون بني إسرائيل في بنائها ورفعها. قرأ ابن عامر وأبو بكر: يعرشون ـ بضم الراء[3]. وهما لغتان فصيحتان.

قوله عز وجل: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ أي أمرناهم بمجاوزته ويسرنا عليهم حتى خلفوا البحر وراءهم على سلامة، وذلك من أعظم نعم الله تعالى ﴿فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ أي يعبدون ويواظبون على عبادة أصنام

(1) سورة القصص (28)، الآية: 5.
(2) سورة الأعراف (7)، الآية: 129.
(3) الداني، التيسير في القراءات السبع: 113.

لهم وهم أهل لخم أناس كفروا بعد إبراهيم مرت بهم بنو إسرائيل وهم قعود حول أصنامهم فقالوا ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ يعبدونها. وفي هذا بيان غاية جهلهم وعنادهم، فإن الله خلصهم من عدوهم ونجاهم من الغرق، وقالوا هذا القول حين رأوا هؤلاء القوم يعبدون الأصنام فقال لهم موسى ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ صفات الله تعالى، وما يجوز عليه وما لا يجوز، أي لا تعرفون أن الذي يتخذ إلها هو خالق الأجسام. ثم بين أن هؤلاء سيهلكون ويهلك ما يعبدونه فقال كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ﴾ أي مهلك ما هم فيه وضلال ما كانوا يعملون. والتبار: هو الهلاك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا﴾ أي قال لهم موسى أسوى الله أطلب لكم ربا تعبدونه؟ وهو فضلكم على عالمي زمانكم من القبط وغيرهم بما كنتم مستعبدين أذلاء.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي واذكروا إذ نجيناكم من آل فرعون ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يولونكم سوء العذاب ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ أي يذبحونهم ﴿وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ أي يستبقونهم للاستخدام ﴿وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. قرأ حمزة والكسائي - يعكفون - بكسر الكاف، والباقون بضمها وهما لغتان. وقرأ أهل الشام: وإذ أنجاكم من آل فرعون، وقرأ الباقون: أنجيناكم. وقوله تعالى: ﴿يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ قرأ نافع بالتخفيف، وقرأ الباقون بالتشديد على التكثير[1].

قال الله تعالى:

﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿142﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ

(1) ذكر الداني في التيسير: 113 هذه القراءات - وكذا ابن مجاهد في كتاب السبعة في القراءات: 292.

مُوسَىٰ صَعِقًاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ (143) قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (144)﴾

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةً وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾ قال مجاهد: كان الله تعالى وعد موسى أن يعطيه التوراة لثلاثين ليلة، يعني شهر ذي القعدة وأتممناها بعشر من ذي الحجة، كأنه قال شهراً وعشر أيام[1]. وقال بعضهم: أمر الله تعالى موسى إلى موضع بينه له أن يعبده في ذلك الموضع ثلاثين يوماً يصوم النهار ويقوم الليل لينزل عليه التوراة، فلما صام ثلاثين أنكر خلوف فمه فاستاك بعود خرنوب، فقالت الملائكة: كنا نستنشق منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك. فأمره الله تعالى أن يصوم عشراً بعد ذلك ليعود ذلك الخلوف[2]، فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ أي تم الوقت الذي أمر الله بالعبادة فيه أربعين ليلة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي﴾ أي قال موسى لهارون قبل انطلاقه إلى الجبل الذي أمر بالعبادة فيه: قم مقامي في قومي وأصلح فيما بينهم ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ منهم ولا ترضى بعملهم. وذلك أن موسى كان شاهد كثرة خلافهم حالاً بعد حال، فأوصى أخاه في أمرهم. ومن قرأ: هارون ـ بالرفع فمعناه: قال يا هارون[3].

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي لما انتهى موسى إلى المكان الذي وقتنا له وأمرناه بالمصير إليه وهو مدين. وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ أي كلمه من غير ترجمان ولا سفير لا كما كلم الأنبياء على ألسنة الملائكة. فلما فاجأه ربه استحلى كلامه واشتاق إلى رؤية ربه وطمع فيها ﴿قَالَ

---

(1) تفسير الطبري: 13/ 86.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 535.
(3) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 148.

رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أي أعطني أنظر إليك ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾ ولست تطيق النظر إلي في الدنيا، فمن نظر إلي مات. فقال: إلهي سمعت كلامك واشتقت إلى رؤيتك ولأن أنظر إليك، ثم أموت أحب إلي من أن أعيش ولا أراك. فقال الله تعالى: انظر إلى أعظم جبل بمدين[1] وهو جبل زبير، فإن استقر مكانه فسوف تراني.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي أظهر له من نوره ما شاء، ويقال: ألقى عليه نوراً من الأنوار ﴿جَعَلَهُۥ دَكّٗا﴾ أي كسرا جبالا صغارا، فقطع الجبل من هيبة الله تعالى فصار ستة أجبل: ثلاثة وقعت بمكة: ثور وثبير وحراء، وثلاثة وقعت بالمدينة: أحد وورقان ورضوى.

قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾ أي سقط مغشياً عليه، فلما فاق من غشيته قال سبحانك، أي تنزيهاً لك من قولي ومن كل شيء، تبت إليك من مسألتي الرؤية ﴿وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي من أول من آمن من أهل هذا الزمان بأنك لا ترى في الدنيا. وقال الحسن: قال الله تعالى لموسى: اعرض رؤيتي على الجبل فإن لم يحملها مع عظمه وبقائه على مر الزمان فأنت أيضاً لا تحتملها. قال: ومعنى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ﴾ أي أوحى ربه قال: وما رأى شيء ربه قط ولكن أوحى الله إلى الجبل: هل تطيق رؤيتي؟ فصاخ الجبل في الأرض وموسى ينظر. وقيل: إن الله تعالى أبرز من العرش مقدار الخنصر فتدكدك به الجبل، لأن أجسام الدنيا لا تحتمل آيات القيامة والأجسام العلوية، أو من حكم الدنيا أن تفنى بآيات القيامة فلا تحتملها الدنيا. وقرأ بعضهم: دكاء ـ بالهمز والمد[2]، أي طاب أعلى الجبل وبقي أسفله أرضاً دكا. والدكاء واحدة الدكاوات وهي روابي الدنيا التي تكون ناشزة لا تبلغ أن تكون جبلاً. وناقة دكاء إذا لم يكن لها سنام. ويحتمل أن يكون معنى الدك: دق الجبل في الأرض، يقال: دكدكت الشيء إذا دققته. قرأ عاصم: دكا ـ ههنا بالقصر والتنوين، والتي في

---

(1) في النسخة (ف): لمدين.

(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 7/ 157.

الكهف بالمد من غير تنوين، ومدهما حمزة والكسائي، والباقين مقصورين[1] منونين. وقيل: لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والظلمة والرعد والبرق فأحاطت بالجبل الذي عليه موسى، وأمر الله ملائكته أن يعرضوا على موسى، فقال لهم: اهبطوا على عبدي موسى الذي أراد أن يراني. فهبطوا عليه، في يد كل ملك منهم مثل النخلة الطويلة ناراً شديدة الضوء أشد ضوءاً من الشمس ولباسهم كلهب النيران، كلهم يقولون بشدة أصواتهم: سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت. في رأس كل ملك منهم أربعة أوجه. فلما رآهم موسى فزع وجعل يسبح معهم وهو يبكي ويقول: يا رب اذكرني ولا تنس عبدك. فقال له رئيس الملائكة: اصبر لما سألت. ثم رفعت الملائكة أصواتهم فارتج الجبل واندك وخر العبد موسى صعقاً على وجهه، فلما أفاق قال: سبحانك آمنت وصدقت أنه لا يراك أحد في الدنيا، ومن نظر إلى ملائكتك انخلع قلبه، فما أعظمك يا رب. وعن سهل[2] أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نوراً قدر الدرهم فجعل الجبل دكا[3].

قوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًاۚ﴾ قال ابن عباس: مغشياً عليه، وقال قتادة: ميتا، وقول ابن عباس أظهر، لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾ ولا يقال للميت أفاق من موته ولن يقال: بعث من موته، كما قال تعالى في حديث السبعين ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ أي قال الله تعالى: يا موسى إني اتخذتك صفوة برسالتي التي أرسلتها إليك وبكلامي معك من غير وحي ﴿فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ﴾ أي اعمل بما علمتك من التوراة ﴿وَكُن

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 293.
(2) أبو العباس، سهل بن سعد الأنصاري الساعدي: صحابي جليل، سمع النبي ﷺ، وروى عنه أبو هريرة والزهري وابن المسيب وابنه العباس وغيرهم، وتوفي سنة ثمان وثمانين هجرية. ابن الأثير، أسد الغابة: 2/ 330، رقم: 2293.
(3) تفسير البغوي: 2/ 539.
(4) سورة البقرة (2)، الآية: 56.

﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لما أعطيتك وأكرمتك.

قوله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿145﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي في تسعة ألواح من الزبرجد الأخضر، وقيل من الياقوت الأحمر، أعطاها الله موسى وفيها التوراة كنقش الخاتم، طول كل لوح عشرة أذرع. وقوله تعالى: ﴿مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ يعني من أمور الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً﴾ يعني ما تدعو إلى الطاعة وتزجر عن المعصية بالوعد والوعيد وأخبار الأمم الماضين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ معناه: لكل أمر من أمور الدنيا من الحلال والحرام والأمر والنهي.

قوله تعالى: ﴿فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ﴾ أي اعمل بها بجد في طاعة الله والمواظبة عليها.

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا﴾ أي مر قومك يعملوا بأحسن ما بين لهم فيها، أي مروا بالخير ونهوا عن الشر، وعرفوا ما لهم في ذلك، أي فمرهم يأخذوا بالأحسن. ويقال: مرهم يأخذوا بالفرائض والنوافل دون المباح الذي لا حمد فيه ولا ثواب. وقيل معناه: يأخذوا بالناسخ دون المنسوخ.

قوله تعالى: ﴿سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي سوف أريكم جهنم في الآخرة هي دار الخارجين عن طاعة الله، ويقال أراد به ما مروا عليه في سفرهم من منازل عاد وثمود والقرون الذين أهلكوا بالتكذيب. وقال قتادة معناه: سأدخلكم النار فأريكم منازل الكافرين. وقيل معناه: سأوريكم دار فرعون وقومه وهي مصر[1].

(1) تفسير الطبري: 13/111.

قال الله تعالى:

﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (146) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (147)﴾.

قوله تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي سأجعل جزاء المتكبرين الذين لا يؤمنون بالمعجزة الإضلال عن الهدى، وعن معرفة الله تعالى في الكتاب يقرؤونه ولا يفهمون ما أراد الله به. وقيل معناه: سأصرفهم عن الاعتراض على آياته بالإبطال. وقيل معناه: سأصرفهم عن نيل ما في آياتي من العز والكرامة. ومعنى ﴿الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾: هم الذين يرون أنهم أفضل الخلق، وأن لهم ما ليس لغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾ معناه: وإن يروا كل علامة تدل على وحدانية الله وما أودع الله تعالى وبينه الأنبياء لا يصدقون بها ﴿وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ﴾ أي سبيل الإسلام لا يتخذوه ديناً لأنفسهم، يعني هؤلاء المتكبرين. وقرأ مجاهد والأعمش وحمزة والكسائي: الرشد ـ بفتح الراء والشين، وهما لغتان كالسُّقْم والسَّقَم، والحُزْن والحَزَن. وقيل: الرشد ـ بالفتح: الاستقامة في الدين. والرشد ـ بضم الراء الصلاح. وقرأ عبد الرحمن: وإن يروا سبيل الرشاد ـ بالألف. وقرأ مالك بن دينار: وإن يروا ـ بضم الياء[1].

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يحتمل أن يكون ذلك في موضع الرفع على معنى: أمرهم ذلك. ويحتمل أن يكون نصباً على معنى: فعل الله ذلك بتكذيبهم بآياتنا. قال مقاتل: أراد بقوله تعالى: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ أي الآيات التسع، كأنه ذهب إلى أن هذا كله خطاب لموسى. وقال الكلبي: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بمحمد ﷺ والقرآن، وذهب إلى أن قوله: ﴿سَأَصْرِفُ﴾ خطاب لنبينا ﷺ.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 293 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 24.

قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾ أي عنها لاهين ساهين لا يتفكرون فيها ولا يتعظون بها.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بالعبث بعد الموت، بطلت أعمالهم التي عملوها على جهة البر ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى:

﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (148)﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن موسى كان وعد قومه بالانطلاق إلى الجبل ثلاثين يوماً، فلما تأخر رجوعه قال لهم السامري - وكان رجلاً مطاعاً -: إنكم اتخذتم الحلي من فرعون فعاقبكم الله بتلك الخيانة ومنع موسى عنكم، فاجمعوا الحلي حتى نحرقها لعل الله يرد علينا موسى. فجمعوا الحلي، وكان السامري صائغاً فجعل الحلي في النار واتخذ منه عجلاً، ونفخ فيه التراب الذي أخذه من أثر فرس جبريل، وكان ذلك الفرس فرس الحياة، ما وضع حافره في موضع إلا أخضر. فلما نفخ فيه شيئاً من ذلك التراب صار عجلاً جسداً له خوار فعبدوه ووقفوا حوله. وقيل: إن السامري حين صاغ العجل جعل فيه خروقاً تجري فيها الريح، وكان يسمع من تلك الخروق شبه الخوار فأوهم بني اسرائيل أنه حي يخور. قال الزجاج: معنى قوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ﴾ أي جثة لا تعقل، ليس له روح ولا عقل ولا كلام إنما له خوار فقط[1]. وأما إضافة الخوار إلى العجل في الآية فهو كما يقال: صوت الحجر، وصوت الطست. وأما الحلي فهو جمع الحلية: وهو ما يتزين به من الذهب والفضة. وقرأ علي رضي الله عنه: له جؤار - بالجيم والهمز[2] - وهو الصوت أيضاً. وقوله: ﴿حُلِيِّهِمْ﴾ قرأ

---

(1) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 377.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 24.

يعقوب بفتح الحاء وجزم اللام، وقرأ حمزة والكسائي بكسر الحاء واللام وتشديد الياء، اتبعا الحاء كسرة اللام، وقرأ الباقون بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء[1] وهما لغتان.

قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ معناه: ألم ينظروا إلى العجل لا يكلمهم بما يجري عليهم نفعاً أو يدفع عنهم ضراً ولا يرشدهم طريقاً إلى خير ليأتوه ولا إلى شر لينتهوا عنه، ولو كان إلهاً لهداهم لأن الإله لا يهمل عباده.

قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ يجوز أن يكون معناه: لا يرشدهم الطريق الذي يتخذونه ويجوز أن يكون ابتداء على معنى عبدوه إلهاً، وكانوا بعبادتهم إياه ظالمين.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿149﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا﴾ أي لما ندموا على عبادتهم العجل ورأوا أنهم قد ضلوا عن الحق ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ عملنا ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ بالعقوبة. قال الزجاج: يقال للنادم على ما فعل، المتحسر على ما فرط منه: قد سقط فلان في يده وأسقط[2]. والمعنى: لما سقط من الندم في أيديهم. قوله تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا﴾ من قرأ: ترحمنا ـ بالتاء[3]، وربنا ـ بالنصب فهو على الخطاب والنداء كأنهم قالوا: لئن لم ترحمنا يا ربنا وتغفر لنا.

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: 294 ـ ابن خالويه، الحجة في القراءات السبع: 164.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 378.
(3) الداني، التيسير: 113.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا قَالَ بِئۡسَمَا خَلَفۡتُمُونِي مِنۢ بَعۡدِيٓۖ أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ قَالَ ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي وَكَادُواْ يَقۡتُلُونَنِي فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ وَلَا تَجۡعَلۡنِي مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿150﴾ قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِأَخِي وَأَدۡخِلۡنَا فِي رَحۡمَتِكَۖ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿151﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ أي لما رجع موسى من الجبل إلى قومه شديد الغضب حزيناً قال: بئسما فعلتم خلفي في غيبتي بعبادة العجل ﴿أَعَجِلۡتُمۡ أَمۡرَ رَبِّكُمۡۖ﴾ معناه: أسبقتم وعد ربكم الذي وعدني من الأربعين ليلة ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ﴾ التي كانت فيها التوراة، ألقاها من يده وأخذ برأس أخيه هارون يجره إليه. قال ابن عباس: أخذ رأسه بيده اليمنى ولحيته باليسرى[1] فقال هارون: يا ﴿ٱبۡنَ أُمَّ إِنَّ ٱلۡقَوۡمَ ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ أي قهروني واستذلوني وعنوا بقتلي. وكان هارون أخاه لأبيه وأمه، ولكنه قال: يا ابن أم ليرفقه عليه، وعلى هذه الطريقة العرب.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ أي لا تفرجهم علي ولا تظنن أني رضيت بفعل الظالمين، فلا تجعلني مع عبدة العجل في الغضب علي. وكان هارون أكبر من موسى بثلاثين سنة، وأحب إلى بني إسرائيل من موسى. قرأ ابن عامر والكوفيين إلا حفصاً بكسر الميم هنا وفي طه، فحذفوا ياء الإضافة، لأن مبنى النداء على الحذف وبقيت الكسرة على الميم دليلاً على ياء الإضافة كقوله: يا عباد، ويا قوم. وقرأ ابن السميقع: يا ابن أمي - بإثبات الياء، وقرأ الباقون بفتح الميم على معنى: يا ابن أماه[2].

وقوله: ﴿ٱسۡتَضۡعَفُونِي﴾ يعني بعبادة العجل. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُشۡمِتۡ بِيَ ٱلۡأَعۡدَآءَ﴾ قرأ مجاهد ومالك بن دينار: فلا تشمت بي - بفتح التاء والميم ورفع الأعداء[3]. والشماتة: هي سرور العدو. فإن قيل: لم جاز لموسى أن يجر رأس

---

(1) تفسير الطبري: 13/ 122.

(2) ابن مجاهد، السبعة: 295 ـ تفسير القرطبي: 7/ 290.

(3) تفسير القرطبي: 7/ 291 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 152.

هارون ولحيته، والأنبياء لا يجوز لأحد أن يستخف بهم وكان هارون نبياً؟ قيل: إن هذا كان منه على جهة العقاب لا على جهة الهوان، وقيل: لأنه أجراه مجرى نفسه من حيث أنهما كانا في النبوة والأخوة كالنفس الواحدة، وقد يقبض الإنسان عند الغيظ على لحية نفسه ويعض إبهامه وشفته، كما روي أن عمر رضي الله عنه كان إذا حزبه أمر فتل شاربه. إلا أن هارون خاف أن يتهم جهال بني إسرائيل أن موسى غضبان عليه لغضبه عن من عبد العجل فقال: يا ابن أم إن القوم استضعفوني... الآية. وقيل: إن موسى فعل هذا بهارون في حالة الغضب الذي لا يملك الإنسان فيها نفسه، وكان ذلك صغيرة منه، كما ألقى الألواح لشدة الغضب وكان الواجب عليه أن يعظمها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى﴾ أي اغفر لي ما فعلت بأخي، ولأخي ما كان منه من التقصير في رد القوم عن عبادة العجل ﴿وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ﴾ أي في جنتك ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ أي أرحم بنا منا، وأرحم بنا من آبائنا وأمهاتنا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ (152) وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (153)﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ معناه: إن الذين اتخذوا العجل إلهاً سيصيبهم عذاب من ربهم في الآخرة. والغضب من الله إرادة الانتقام على ما سلف.

قوله تعالى: ﴿وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أراد به ما أمروا به من استسلامهم للقتل بقعودهم ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ﴾ أي كما جزينا هؤلاء، فكذلك نجزي الكاذبين على الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ﴾ قيل أراد بالسيئات الشرك وسائر المعاصي إذا تاب صاحبها منها ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿154﴾ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿155﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ أي سكن عن موسى الغضب وزالت قوة غضبه. وقيل معناه: سكت موسى عن الغضب، وهذا من المقلوب كما يقال: أدخلت قلنسوة في رأسي، وإنما يريد: أدخلت في رأسي قلنسوة. وقوله تعالى: ﴿أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ﴾ يعني بعدما كان ألقاها وبعدما تكسرت وذهب منها ستة أسباعها.

قوله: ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا﴾ قال عطاء: وفيما بقي منها ولم يذهب[1]. ويقال معناه: فيما نسخه موسى مما تكسر.

وقوله تعالى: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ أي بيان من الضلالة ونجاة للذين يخشون ربهم ويعملون بها.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ معناه: واختار موسى من قومه سبعين رجلاً للوقت الذي وقتنا له يصحبهم مع نفسه عند الخروج إلى الميقات، فشهدوا عند قومهم على سماع كلام الله فإنهم كانوا لا يصدقون موسى في أن الله تعالى كلمه، وكانوا اثني عشر سبطاً، فاختار موسى من كل سبط ستة، فخلف منهم رجلين وقال: إنما أمرت بسبعين فليرجع اثنان منكم ولهما أجر من حضر. فرجع يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، وذهب موسى مع السبعين إلى الجبل.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة عند الجبل، قال موسى: رب لو شئت أهلكتهم من قبل أن حملتهم إلى الميقات وأهلكتني معهم

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 549.

بقتل القبطي. وظن موسى أن الرجفة إنما أخذتهم بسبب عبادة بني إسرائيل العجل فقال: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ﴾؟ وهو لم يرد به الاستفهام وإنما أراد به النفي، أي إنك لا تهلكنا بما فعل السفهاء منا. ثم قال: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ يعني ما عبادة العجل إلا بليتك إذ صار الروح في العجل تضلل بالفتنة من تشاء وتهدي من تشاء ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا﴾ أي أنت ناصرنا وحافظنا ومتولي أمرنا فاغفر لنا ذنوبنا وارحمنا ولا تعذبنا وأنت خير الغافرين. وقيل: إن موسى عليه السلام لما هلك السبعون جعل يبكي ويقول: يا رب ماذا أقول لبني إسرائيل إذا رجعت إليهم وقد أهلكت خيارهم. فبعثهم الله تعالى كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾[1]، وقد تقدم تفسير ذلك كله في سورة البقرة.

قوله تعالى:

﴿۞ وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ (156)﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي اجعل لنا في هذه الدنيا حسنة، يعني العلم والعبادة. وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي واكتب لنا في الآخرة حسنة وهي الجنة.

وقوله: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبنا ورجعنا بالتوبة. يقال هاد يهود إذا رجع ولم يؤخذ اسم اليهود من هذا وإنما أخذ من تهود.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ﴾ ممن هو أهل لذلك ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ يعني وسعت البر والفاجر. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية تطاول لها إبليس وقال: أنا شيء من الأشياء. فأخرجه الله من ذلك بقوله: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي سأوجبها في الآخرة للذين يتقون الشرك والمعاصي ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾. فقالت اليهود والنصارى:

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 56.

نحن نتقي ونؤتي الزكاة ونؤمن بآيات ربنا، فأخرجهم الله تعالى منها[1] بقوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿157﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾ يعني محمدا ﷺ، سماه أمياً لأنه لم يحسن الكتابة. قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[2]. وقال ﷺ: «**إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب**»[3].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ يعني نعته وصفته وخاتمه الذي بين كتفيه ونعت أمته وشريعته.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي بالتوحيد وشرائع الإسلام ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي كل ما لا يعرف في شريعة ولا سنة.

وقوله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ أي ما اكتسبوه من وجه طيب ويحرم عليهم ما اكتسبوه من وجه خبيث ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ يعني ثقلهم. قال قتادة: يعني الشديد الذي كان عليهم في الدين وما أمروا به من قتل أنفسهم في التوراة وقطع الأعضاء الخاطئة[4]. وقال عطاء: يأمرهم بالمعروف بخلع الأنداد ومكارم الأخلاق وصلة الأرحام ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عن عبادة الأصنام وقطع الأرحام[5] ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ يعني الحلال الذي كانت الجهال تحرمها من البحائر والسوائب والوصائل ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ يعني الميتة

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 552.

(2) سورة العنكبوت (29)، الآية: 48.

(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 4/ 623، رقم: 1913، كتاب الصوم ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 7/ 192، وجوب صيام رمضان.

(4) ذكر الثعلبي القولين في تفسيره، ورقة: 26.

(5) نفس المرجع السابق.

والدم ولحم الخنزير والربا وغيره من المحرمات.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ كناية عن الأمور الشديدة التي كانت عليهم، كان إذا أصاب أحدهم شيء من النجاسة وجب قطعه، وكان عليهم أن لا يعملوا في السبت.

قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ أي فالذين صدقوا بهذا النبي وعظموه وأعانوه بالسيف على الأعداء واتبعوا النور الذي أنزل معه، يعني القرآن الذي ضياؤه في القلوب كضياء النور في العيون ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي الظافرون بالمراد والبقاء.

قوله تعالى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ (158)﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ قال ابن عباس: كان كل رسول يبعث إلى قومه، وبعث الله محمداً ﷺ إلى قومه وغيرهم[(1)]. ومعنى الآية: قل يا محمد إني رسول الله إليكم كافة أدعوكم إلى طاعة الله وتوحيده واتباعي فيما أؤديه إليكم.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تصريف الله الذي أرسله إليهم.

وقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا شريك له في الإلٰهية ولا خالق ولا رازق غيره، يحيي ويميت، أي يحيي الخلق من النطفة ويميتهم عند انقضاء آجالهم لا يقدر على ذلك أحد سواه. وقيل معنى يحيي الأموات للبعث ويميت الأحياء في الدنيا.

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 7/ 182.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ﴾ أي صدقوا بالله ورسوله النبي الذي لا يكتب، فيؤمن من جهته أن يقرأ الكتب وينقل إليهم أخبار الماضين، ويتبع ما يوحى إليه.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي بالله وكتبه ومن قرأ: وكلمته فهو عيسى(1).

وقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿159﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿160﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿159﴾﴾ أي جماعة يدعون إلى الحق وبه يعملون، وهم مؤمنوا أهل الكتاب: عبد الله بن سلام وأصحابه. وروي عن ابن عباس أنهم قوم من بني إسرائيل قبل المشرق وخلف الصين عند المطلع، أخذوا من بيت المقدس فرمى بهم هناك متمسكين بالتوراة مشتاقين إلى الإسلام، يعملون بفرائض الله، بيوتهم مستوية، والأمانة فيهم فاشية، قبورهم عند أبوابهم لا تباغض بينهم ولا تحاسد ولا خلف ولا خيانة ولا كذب ولا غش، يعملون بالحق فيما بينهم فلا أمير ولا قاض، مر بهم رسول الله ﷺ ليلة أسري به، فعرض عليهم الإسلام فقبلوه(2). وذكر مقاتل أن بينهم وبين الصين وادياً جارياً من رمل فمنع الناس من إتيانهم وأخبارهم، إلا أنا لم نسمع أخبارهم إلا من النبي ﷺ أخبره بهم ربه عز وجل، وأخبر بهم النبي ﷺ ابن عباس. وقال السدي: هم قوم بينكم وبينهم نهر من شهد. وقال ابن جريج: إن بني إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا تبرأ هؤلاء القوم منهم وسألوا الله أن

---

(1) المحرر الوجيز: 7/ 182.

(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 556 ـ المحرر الوجيز: 7/ 183.

يفرق بينهم وبينهم، ففتح الله لهم نفقاً في الأرض فساروا فيه سنة ونصفاً حتى خرجوا من وراء الصين، فهم هناك مسلمون يصلون إلى قبلتنا[1]. وقال الكلبي والربيع: هم قوم خلف الصين على نهر يجري على الرمل يسمى نهر أرادف، يمطرون بالليل ويصبحون بالنهار ويزرعون، لا يصل إليهم منا أحد ولا منهم إلينا، وهم على الحق، ذهب جبريل بالنبي ﷺ إليهم ليلة أسري به فكلمهم، فقال لهم جبريل: هل تعرفون هذا الذي تكلمونه؟ قالوا: لا. قال: هذا محمد النبي الأمي رسول الله. فآمنوا به وقالوا: يا رسول الله إن موسى أوصانا فقال: من أدرك منكم أحمد ﷺ فيقرأ عليه مني السلام. فرد محمد على موسى وعليهم السلام، ثم أقرأهم عشر سور من القرآن نزلت بمكة، ولم يكن يومئذ نزلت فريضة غير الصلاة والزكاة، وأمرهم أن يقيموا مكانهم، وأمرهم أن يجمعوا ويتركوا السبت[2].

قوله عز وجل: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ أي فرقنا بني إسرائيل اثنتي عشرة فرقة. والسبط في ولد اسحاق كالقبيلة في ولد إسماعيل. وإنما ذكر اثنتي عشرة على لفظ التأنيث وإن كان السبط مذكراً، لأن الأسباط هي الفرق والجماعات. فإن قيل: كيف قال أسباطا بالجمع ولا يجمع ما بعد العشرة على لفظ الجمع، وإنما يقال اثنى عشر درهما ولا يقال اثنتي عشرة درهماً؟ ذكر الزجاج أن قوله: ﴿أَسْبَاطًا﴾ بدل لا تمييز، كأنه قال: قطعناهم أسباطاً اثنتي عشرة[3]. وروى أبان بن يزيد[4] عن عاصم: وقطعناهم ـ بالتخفيف[5].

---

(1) تفسير الطبري: 13/ 173.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة 27.

(3) الزجاج: معاني القرآن: 3/ 382.

(4) في النسخة (ف): زيد.

أبو يزيد، أبان بن يزيد بن أحمد البصري العطار النحوي: ثقة صالح، قرأ على عاصم، وروى الحروف عن قتادة بن دعامة، وروى القراءة عنه بكار بن عبد الله العودي وغيره. توفي سنة بضع وستين ومائة هجرية.
غاية النهاية: 1/ 14.

(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 27 ـ المحرر الوجيز: 7/ 183.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ﴾ أي أوحينا إليه في التيه حين طلب قومه منه الماء ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ قال ابن عباس: كان حجر يحملونه معهم على حمار ولهذا عرف بالألف واللام.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ الانبجاس: خروج الماء قليلاً، والانفجار: خروجه واسعاً. وإنما قال: ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ لأن الماء كان يخرج من الحجر في الابتداء قليلاً ثم يتسع، فاجتمع فيه صفة الانبجاس والانفجار، وإنما يتفجر منه اثنتي عشرة عيناً لأنهم كانوا اثنتي عشرة سبطاً، وكان لا يخالط كل سبط السبط الآخر، قد علم كل سبط موضع شربه.

قوله عز وجل: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ﴾ أي ضللناه عليهم بالنهار في التيه ليقيهم حر الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ فالمن: النرجبين، والسلوى: طائر يشبه السمان.

قوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ أي من حلال ما رزقناكم من المن والسلوى ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ أي ما ضرونا بمخالفتهم أمرنا وإعراضهم عن شكر النعمة، ولكن ضروا أنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿161﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿162﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ أي قيل لهم وقت خروجهم من التيه اسكنوا قرية أريحاء بيت المقدس فكلوا منها حيث شئتم من نعيمها وقولوا مسألتنا حطة، أي احطط عنا ذنوبنا، وادخلوا باب أريحاء خاشعين لله خاضعين يغفر لكم ما سلف من ذنوبكم باستغفاركم وخضوعكم. قرأ أهل المدينة: تغفر ـ بالتاء مضمومة، وقرأ ابن عامر بتاء مضمومة ـ خطيئتكم ـ واحدة[1].

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة في القراءات: 295 ـ 296.

وقوله تعالى: ﴿سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي الذين لا ذنب لهم في الدنيا يزيدهم فضلاً وفي الآخرة ثواباً.

قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ أي غير الذين ظلموا أنفسهم القول الذي أمروا به فقالوا: إطة سمقاتا، أي حنطة حمراء، وقالوا: حنطة ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي عذاباً: نزلت بهم نار فأحرقتهم بتبديلهم ما أمروا به.

قوله تعالى:

﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿163﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿164﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ معناه: سل يا محمد يهود المدينة عن القرية التي كانت بقرب البحر وهي مدينة أيلة على ساحل البحر بين المدينة والشام وهذا سؤال توبيخ وتقريع وتعريف لهم بالسؤال - تصرف من قبلهم - وفي السؤال لهم بيان أن يهود المدينة جروا على عادة أسلافهم في التمرد والمعصية، وكان الله أمر نبيه ﷺ أن يسألهم ما فعل الله بأهل تلك القرية، أليس قد جعلهم قردة بمخالفتهم أمر الله؟ فما يؤمنكم في تكذيب محمد ﷺ من عذاب الله تعالى؟

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ﴾ أي حين يتجاوزون الحد بأخذهم السمك في يوم السبت وقد أمروا أن لا يصطادوا فيه، وأن يتفرغوا للعبادة والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ قال ابن عباس: أي ظاهر على وجه الماء[1]. وقال الضحاك: متتابعة مثل الكباش البيض

(1) تفسير الطبري: 13/ 183.

أيست يومئذ أن تصاد[1].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ أي يوم لا يكون يوم السبت كانت الحيتان تغوص في الماء ولا تأتيهم شرعاً. قرأ أبو نهيك: إذ يعدون في السبت ـ بضم الياء وكسر العين وتشديد الدال، يريد: يهيئون الآلهة لأجلها. وقرأ ابن السميقع: في الأسبات ـ على جمع السبت. وقرأ بعضهم: إذ تأتيهم حيتانهم يوم أسباتهم شرعاً[2]. فجعلت طائفة من أهل هذه القرية يلقون الشبك في الماء في يوم السبت، ويقولون حتى يقع فيها، ثم كانوا لا يخرجون الشبكة من الماء إلا يوم الأحد، وقالوا إنما نصطاد في يوم الأحد.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي كذلك نشدد عليهم في التكليف بعصيانهم وفسقهم. ووقف بعض القراء على قوله: كذلك[3]، على معنى: لا تأتيهم في غير يوم السبت كما تأتيهم في يوم السبت ثم ابتدأ فقال: ﴿نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ فإن قيل: كيف عرف الله الحيتان الفصل بين يوم السبت من غيره من الأيام؟ قيل: لا يمنع أن الله عرفها ذلك، أو قوى دواعيها إلى الشروع في يوم السبت معجزة لنبي ذلك الوقت وابتلاء لأولئك القوم.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ في الآخرة، ولم يقولوا هذا كراهة الوعظ ولا رضى بالمعصية منهم، ولكن قالوا ذلك لإثابتهم عن قبول الوعظ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ أي قالت الفرقة الواعظة موعظتنا إياهم معذرة إلى الله أن نبتلى فذلك عذرنا عند الله. ومن قرأ: معذرة ـ بالنصب، فعلى معنى: نعتذر معذرة[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي ورجاء أن يتقوه، وكأن الواعظين لم

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 27.

(2) المحرر الوجيز: 7/ 186 ـ 187.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 7/ 187.

(4) ابن مجاهد، السبعة: 296 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 157 ـ 158.

ييأسوا من قبولهم الوعظ. وقيل معناه: ولعلهم يتقون صيد الحيتان.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿165﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ﴾ أي فلما تركوا ما وعظوا به ﴿أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ﴾ أي خلصنا الذين ينهون عن حبس السمك في الحاضرة يوم السبت ﴿وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ﴾ أي شديد. يقال: بئس يبأس بئساً أي إذ اشتد وبؤس يبؤس بؤساً إذا افتقر.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ أي بفسقهم. ولم يذكر في الآية حال الفرقة الثالثة. وقد روي عن ابن عباس أنه قال: كان القوم ثلاث فرق، فكانت الفرقة الوسطى تعمل بالسوء، والفرقة اليمنى تنهى وتحذرهم بأس الله، وكانت الأخرى تكف ألسنتها وتمسك أيديها. فلما عملت الوسطى بذلك زماناً وكثرت أموالهم ولم تنزل بهم عقوبة استبشروا وقالوا: نرى السبت قد حل لنا وذهبت حرمته. وكانوا نحواً من سبعين ألفاً. وكانت الفرقة الناهية وهم نحوا من اثني عشر ألفاً يقولون لهم: لا تعتدوا ولا تأمنوا من عذاب الله. فلم يتعظوا فأصبحوا وقد مسخهم الله قردة خاسئين، فمكثوا كذلك ثلاثة أيام عبرة للناظرين ثم ماتوا[1]. قال ابن عباس: وأنجى الله الذين ينهون عن السوء. وليت شعري ما صنع الله بالذين لم ينهوا؟ وقال عكرمة: بل أهلكهم الله أيضاً وما نجى إلا الذين ينهون عن السوء وهلك الباقون بظلم الاستحلال وترك الأمر بالمعروف. فقال ابن عباس: نزل والله بالمداهن ما نزل بالمستحل[2]. وقال الحسن: بل نجى فرقتان وهلكت فرقة[3]. وأنكر القول الذي ذكر له عن ابن عباس وقال: ما هلك إلا فرقة، لأنه ليس شيء أبلغ بالأمر بالمعروف والوعظ من ذكر الوعيد. وقد ذكرت

(1) تفسير الطبري: 13/ 186.
(2) نفس المرجع: 13/ 186.
(3) المحرر الوجيز: 7/ 188.

الفرقة الثالثة الوعيد فقالت: لم تعظون قوماً الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً؟ وقول الحسن أقرب إلى ظاهر الآية.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿166﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿167﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ﴾ أي أبوا أن يرجعوا عن المعصية. العاتي: هو الشديد الدخول في الفساد المتمرد الذي لا يقبل الموعظة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ﴾ أي مطرودين مبعدين عن كل خير، من قولهم: خسأت الكلب إذا قلت له اخسأ على الطرد له. قال ابن عباس: يا لها من أكلة ما أوخمها أن مسخوا قردة في الدنيا وفي الآخرة النار وعن الضحاك قال: ألقى الله في فكر الناهين حتى باعوا الدور والمساكن فخرجوا من القرية فضربوا الخيام خارجاً منها، فأقبل العذاب وهم ينظرون قيد المسخ من الرأس حتى صارت لهم أذناب كأذناب القردة، فكان الناهون لا يرون أحداً يخرج من القرية فقالوا: لعل القوم قد خسفوا أو رموا بحجارة من السماء. فحملوا رجلاً منهم على سلم فأشرف عليهم فإذا هم قردة لهم أذناب، فصاح فقال: إن القوم قد صاروا قردة. فكسروا الباب ودخلوا عليهم منازلهم فإذا هم يبكون ويضربون بالأذناب، يعرف الرجل من المرأة، فقالوا لهم: ألم ننهكم عن معصية الله؟ فأشاروا برؤوسهم: بلى، ودموعهم تسيل على خدودهم[1]. قال أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه سئل: هل في أمتك خسف؟ قال: «**نعم**». قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إذا لبسوا الحرير، واستباحوا الربا، وشربوا الخمور، وطففوا المكيال والميزان، واتخذوا القينات والمعازف، وضربوا بالدفوف، واستحلوا الصيد في الحرم**»، وقال عكرمة: جئت ابن عباس وهو يبكي

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 559.

والمصحف في حجره فقلت: ما يبكيك؟ قال: هؤلاء الورقات - فإذا هي سورة الأعراف - قال: أتعرف أيلة؟ قلت: نعم. قال: كان بها حي من اليهود في زمن داود حرم عليهم صيد الحيتان في يوم السبت، وذلك كان اليهود أمروا في اليوم الذي أمرتم فيه يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا فيه، وحرم عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه، إن أطاعوا أجروا وإن عصوا عذبوا. وكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا عظاماً سماناً كأنها الكباش تنتطح، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم، فوسوس لهم الشيطان وقال: إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت، فاتخذوا الحياض وكانوا يسوقون إليها الحيتان يوم الجمعة فتبقى فيها ولا يمكنها الخروج منها لقلة الماء، فيأخذونها يوم الأحد. فلما رأوا العذاب لا يأتيهم أخذوا وأكلوا وباعوا وكثر مالهم، فلعنهم داود عليه السلام فأصبحوا قردة خاسئين[1].

وقال قتادة: صار الشباب قردة والشيوخ خنازير[2].

قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي شديد وجيع. قرأ أهل المدينة: بيس - بكسر الباء وجزم الياء من غير همز، وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه همز، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتح الباء وجزم الياء وفتح الهمزة على وزن فيعل مثل: صيقل، وقرأ بعض أهل البصرة بئس - بفتح الباء وكسر الهمزة على وزن فعل، وقرأ الحسن: بئس - بكسر الباء وفتح السين على معنى: بئس العذاب، وقرأ مجاهد: بائس على وزن فاعل، وقرأ أبو إياس[3]: بيس - بفتح الباء والياء من غير همز، وقرأ الباقون: بيس على معنى فعيل[4].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ معناه: وإذا علم ربك. وقد يأتي تفعل بمعنى أفعل فقال: أوعدني

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 560.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 7/ 191.
(3) أبو إياس، هارون بن علي بن حمزة الكوفي الكسائي، أخذ القراءة عن أبيه الكسائي، وهو من المكثرين عنه.
غاية النهاية: 2/ 346. رقم: 3760.
(4) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 296 - تفسير الثعلبي، ورقة: 28.

وتوعدني، ومعناهما واحد، وقيل: معنى تأذن: أقسم ربك. وقوله تعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ليبعثن على من بقي منهم من الذين لا يؤمنون من بعدهم الجزية والقتل، فبعث الله محمداً ﷺ وأمته فوضعوا عليهم الجزية إلى يوم القيامة[1]. وفي هذه الآية دلالة أن اليهود لا ترفع لهم راية عز إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ﴾ يجوز أن يكون المراد به عقوبة الآخرة، وكل آت قريب، ويجوز أن يكون المراد به أنه سريع العقاب لمن شاء أن يعاقبه في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب عن الكفر والمعاصي.

قوله تعالى:

﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿168﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا﴾ معناه: وفرقنا اليهود في البلاد تفريقاً شديداً، أي شتتنا أمرهم فليس لهم مكان يجتمعون فيه. ولا يمكنهم المقام في موضع إلا على ذل بالقتل أو بالجزية.

وقوله تعالى: ﴿مِّنْهُمُ ٱلصَّـٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أراد بالصالحين مؤمني أهل الكتاب، وقيل: أراد بهم الذين وراء نهر أردم، يعني الذين وراء رمل عالج من قوم موسى الذين ذكرنا أن النبي ﷺ ليلة أسري به مر عليهم، وقد ذكرناهم فيما تقدم. قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أراد به الكفار، كأنه قال: منهم الصالحون ومنهم سوى الصالحين، وقيل معناه: ومنهم دون الذين هم في رمل عالج، يعني الذين هم في هذه البلاد من اليهود.

قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَـٰهُم بِٱلْحَسَنَـٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي اختبرناهم بالخصب

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 561.

والجدب[1] ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ من الكفر إلى الإيمان.

قوله تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُوا۟ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿169﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿170﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي خلف من بعد هؤلاء الذين قطعناهم في الأرض ذرية سوء، وهم الذين أدركهم النبي ﷺ. قال ابن الأعرابي[2]: الخلف ـ بفتح اللام: الصالح، وبإسكان اللام: الطالح[3]. قال لبيد:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم ∴ وبقيت في خلف كجلد الأجرب[4]

ومنه قيل لرديء الكلام خلف، ومنه المثل السائر: سكت ألفاً ونطق خلفا. وقال النضر بن شميل: الخلف ـ بفتح اللام وإسكانها في القرن السوء، وأما في القرن الصالح فبتحريكها لا غير. قال الشاعر:

إنا وجدنا خلفا بئس الخلف ∴ عبداً إذ ما ناء بالحمل خصف[5]

وقال محمد بن جرير: أكثر ما جاء في المدح بفتح اللام، وفي الذم بتسكينها، وقد تحرك في الذم وتسكن في المدح[6]. قال حسان في المدح:

---

(1) معالم التنزيل: 2/ 561 ـ المحرر الوجيز: 7/ 194.

(2) أبو عبد الله، محمد بن زياد بن الاعرابي، كان نحوياً عالماً باللغة والشعر. من مؤلفاته: «كتاب النوادر» و«معاني الشعر» و«تفسير الأمثال». توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين هجرية.

بغية الوعاة: 1/ 105 ـ ابن الأنباري، نزهة الألبا: 207 ـ اليافعي مرآة الجنان: 2/ 106.

(3) معالم التنزيل: 2/ 562.

(4) هذا البيت من الكامل، من جملة أبيات رثى بها لبيد أخاه أربد لما أصابته الصاعقة. (ديوانه، القصيدة الثامنة)، والمبرد في الكامل: 2/ 339.

(5) قال ابن يعيش في شرح المفصل: 4/ 58، لم أجد من نسب هذا البيت.

(6) تفسير الطبري: 13/ 209.

لنا القدم الأولى إليك وخلفنا .:. لأولنا في طاعة الله تابع[1]

قال: وأحسب أنه في الذم مأخوذ من خلف اللبن: إذا حمض من تركه في السقاء حتى يفسد، ومنه قولهم: خلف فم الصائم: إذا تغيرت ريحه وفسدت[2]. فكأن الرجل الفاسد مشبه به، والحاصل أن كلاهما يستعملان في الخير والشر، إلا أن أكثر الاستعمال في الخير بالفتح.

قوله تعالى: ﴿وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ أي التوراة. والميراث: ما صار للباقي من جهة الفاني، كأنه قال: فخلف من بعد الهالكين منهم خلف ورثوا كتابهم.

وقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَـٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ﴾ يعني به أخذ الرشوة في الحكم لتغيير الحق إلى الباطل. وقال بعضهم: كانوا يحكمون بالحق لكن بالرشوة. وإنما سمي متاع الدنيا عرضا لقلة بقائه كأنه يعرض فيزول. قال الله تعالى: ﴿هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾[3] أراد به السحاب.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ أي يقولون مع أخذهم الرشوة إنه سيغفر لنا ذلك، وما عملناه بالليل كفر عنا بالنهار وما عملناه بالنهار كفر عنا بالليل ﴿وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ﴾ معناه: وإن عرض لهم ذنب آخر عملوه. وفي هذا بيان أنهم كانوا يصرون على الذنب وأكل الحرام، وكانوا يستغفرون مع الإصرار، فكيف يغفر لهم؟

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَـٰقُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن لَّا يَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾ معناه: ألم يؤخذ عليهم الميثاق في التوراة أن لا يقولوا على الله إلا الصدق. وكان في التوراة أن من ارتكب ذنباً عظيماً لم يغفر له بالتوبة، فكانوا يدرسون ما

---

(1) هذا البيت من الطويل، من قصيدة بكى بها حسان بن ثابت سعد بن معاذ في يوم بني قريظة ورجالاً من أصحاب رسول الله ﷺ من الشهداء. وقوله: القدم الأولى، يعني سابقة الأنصار في الإسلام.

ديوانه: 310 ـ وشرح الديوان: 307.

(2) تفسير الطبري: 13/ 209.

(3) سورة الأحقاف (46)، الآية: 24.

في التوراة ويذكرون ما أخذ عليهم من المواثيق، ويقولون مع إصرارهم على الذنوب سيغفر لنا. وقال الحسن: معنى الآية أنهم كانوا يأخذون من كل وجه حرم عليهم، ويمنعون كل شيء، وينفقون في كل إسراف، ويتمنون مع هذه الأشياء على الله الأماني ويقولون سيغفر لنا، وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه كما أخذوا، ألم يقرأوا في الكتاب خلاف ما هم عليه: وقرأ السلمي: وادارسوا ما فيه[1]، مثل: اداركوا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ أي يتقون المعاصي والشرك وأكل الحرام، ولا يعقلون ما يدرسون في كتابهم. وقيل: أفلا يعقلون أن الإصرار على الذنب ليس من علامة المغفور لهم.

قوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ معناه: والذين يعملون بما في كتاب الله. قال مجاهد: هم اليهود والنصارى الذين تمسكوا بالكتاب الذي جاء به موسى ولا يحرفونه ولا يكتمونه، أحلوا حلاله وحرموا حرامه ولا يتخذونه مأكلة، نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه. وقال عطاء: يعني أمة محمد ﷺ[2]. وقوله تعالى: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي عملوا الصالحات، إلا أنه خص الصلاة بالذكر لعظم شأنها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ أي نعطيهم أجرهم ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ في القول والعمل.

قوله تعالى:

﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ﴾ معناه: واذكر يا محمد إذ قلعنا الجبل من أصله فجعلناه كالظلة فوق رأس بني إسرائيل، وكل شيء

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 29.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 564.

أقلعته فقد نتقته، ومنه نتقت المرأة إذا أكثرت الولد، أي اقتلعت ما في رحمها من ولدها، وامرأة منتاق إذا كانت تكثر الولد. وقال مجاهد: نتقنا الجبل أي قطعنا الجبل. وقال الفراء: علقنا[1]. وقال بعضهم: أصل النتوق والنتق أن يقطع الشيء من أصل موضعه فيرمى به. وقال أبان بن تغلب: سمعت رجلاً من العرب يقول لغلامه: خذ الجوالق فانتقه، أي نكسه[2]. وقوله: ﴿كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٞ﴾ قال عطاء: كأنه قال: سقيفة. والظلة كل ما أظلك.

قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعُۢ بِهِمۡ﴾ أي ظنوا أنه ساقط عليهم لارتفاعه فوقهم. وكان السبب في رفعه فوقهم أنه لما شق عليهم ما كان في التوراة من المواثيق وخافوا أن لا يمكنهم الوفاء به امتنعوا عن التزامه فرفع الله الجبل فوقهم.

وقوله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ أي وقلنا لهم خذوا ما آتيناكم بقوة، أي اعملوا به بجد ومواظبة في طاعة الله، واذكروا ما في الكتاب الذي أعطيناكم من عظة وزجر لكي تتقوا المعاصي، وكان ذلك حين أبوا أن يقبلوا أحكام التوراة ويعملوا بما فيها وكانت شريعة ثقيلة. فرفع الله عليهم جبلاً على مقدار عسكرهم، وكانوا فرسخاً في فرسخ. وقيل لهم: إن قبلتم ما فيها وإلا لنرفعنه عليكم. قال الحسن: فلما نظروا إلى الجبل خر كل منهم ساجداً على حاجبه الأيسر ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفاً أن يسقط عليهم. فلذلك ليس في الأرض يهودي إلا وهو يسجد على حاجبه الأيسر ويقولون: هذه السجدة التي رفعت بها عنا العقوبة[3].

قوله تعالى:

﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ (172) أَوۡ تَقُولُوٓاْ

(1) معاني القرآن: 1/ 399.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 29.
(3) تفسير الطبري: 13/ 219.

إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ﴾ قال المفسرون: لما خلق الله آدم مسح ظهره وأخرج منه ذريته كلهم كهيئة الذر. واختلفوا في موضع الميثاق فقال ابن عباس: هو بطن نعمان ـ واد جنب عرفة ـ وقيل: هو أرض بالهند، وقال الكلبي: هو بين مكة والطائف. وقال السدي: أخرج الله آدم من الجنة ولم يهبطه من السماء فأخرج من ظهره ذريته وكل من هو خارج إلى يوم القيامة، فأخرج من صفحة ظهره اليمنى ذرية صغاراً بيضاً مثل اللؤلؤ فقال لهم: ادخلوا الجنة برحمتي، وأخرج من صفحة ظهره اليسرى ذرية سودا وقال لهم: ادخلوا النار ولا أبالي[1]. فذلك قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾[2] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾[3] ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[4] ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾[5] وركب فيهم جميعاً العقول حتى سمعوا كلام الله وفهموا خطابه فقال لهم: اعلموا أن لا إله غيري، ولا رب لكم سواي، ولا تشركوا بي شيئاً، وإني مرسل إليكم رسلاً يذكرونكم عهدي وميثاقي، ومنزل عليكم كتباً، فتكلموا ألست بربكم؟ فقالوا: بلى شهدنا أنك ربنا وإلهنا لا رب غيرك. فأقروا كلهم طائعين، وأخذ بذلك ميثاقهم وكتب آجالهم وأرزاقهم ومصائبهم. فنظر إليهم آدم عليه السلام فرأى فيهم الغني والفقير وحسن الصورة وغير ذلك فقال: يا رب لو سويت بينهم. ونظر إلى الأنبياء منهم يومئذ مثل السرج. فلما أخذ عليهم الميثاق ردهم إلى صلب آدم. فالناس محبوسون في أصلاب آبائهم حتى يخرج كل شيء ممن أخرجه في ذلك الوقت، وكل من ثبت على الإسلام فهو على الفطرة الأولى، وكل من جحد وكفر فإنما تغير عنها. ومنه قوله ﷺ: «**كل**

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 566 ـ ابن عطية، المحرر: 7/ 198.

(2) سورة الواقعة (56)، الآية: 27.

(3) نفس السورة، الآية: 41.

(4) نفس السورة، الآية: 8.

(5) نفس السورة، الآية: 9.

مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه»(1). حتى يعرف عنه لنا إنه إما شاكراً وإما كفوراً، فلا تقوم الساعة حتى يولد كل من أخذ ميثاقه لا يزاد فيهم ولا ينقص منهم. وتقدير الآية: وإذا أخذ ربك من ظهور بني آدم ذرياتهم، ولم يذكر ظهر آدم، وإنما أخرجوا يوم الميثاق من ظهره، لأن الله أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهر بعض على نحو ما يتوالد الأبناء من الآباء، فاستغنى به عن ذكر ظهر آدم بقوله: ﴿مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ﴾ لأنه قد علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره.

قوله تعالى: ﴿شَهِدْنَآ﴾ يجوز أن يكون هذا من قول الذين أخذ عليهم الميثاق. ثم ابتدأ فقال تعالى: ﴿أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾ أي كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين. ويجوز أن يكون تمام الكلام عند قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ﴾. ثم يقول الله: شهدنا عليكم وأخذنا الميثاق كيلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين هذا الميثاق والإقرار، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم، أي لكن لا تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم فاتبعناهم لأنا قد جعلنا في عقولكم ما يمكنكم أن تعرفوا به صحة ما كان عليه آباؤكم وقت أدائه.

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي آباؤنا المشركون. يقال لهؤلاء لا نهلككم بما فعل آباؤكم وإنما نهلككم بما فعلتم أنتم. فإن قيل: كيف يكون الميثاق حجة عليهم، أي على الكفار منهم وهم لا يدركون ذلك حين أخرجهم من صلب آدم؟ قيل: لما أرسل الله إليهم الرسل فأخبروهم بذلك الميثاق صار قول الرسل حجة عليهم وإن لم يذكروا. ألا ترى أن من ترك من صلاته ركعة ونسي ذلك فذكرت له الثقات كان قولهم حجة عليه.

قوله تعالى: ﴿وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ﴾ قرأ أهل مكة وأهل الكوفة: ذريتهم ـ بغير ألف،

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 3/ 583، رقم: 1359 ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 16/ 207.

وقرأ الباقون بالألف على الجمع[1].

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ﴿أَوْ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشْرَكَ﴾ قرأهما أبو عمرو بالياء، والباقون بالتاء فيهما[2].

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾ أي هكذا نبين الآيات كما ثبتناها في أمر الميثاق. ونفصل الآيات: ذكر آية بعد آية ببيان الموعظة والمعصية والوعد والوعيد.

قوله تعالى: ﴿وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لكي ترجعوا عن الكفر إلى الإيمان. والمعنى: ليعلموها مفصلة ولعلهم يرجعون.

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿175﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ قال ابن عباس، وابن مسعود: نزلت في بلعم بن باعوراء. قال مجاهد: ويقال له: بلعم بن باعر. وقال مقاتل: يقال له أيضاً: بلعام[3]. وكان من عباد بني إسرائيل، وكان في المدينة التي قصدها موسى عليه السلام، وكان أهل تلك المدينة كفاراً، وكان عنده اسم الله الأعظم فسأله ملكهم أن يدعو على موسى بالاسم الأعظم ليدفعه عن تلك المدينة، فقال لهم: ديني ودينه واحد، وهذا شيء لا يكون، فكيف أدعو عليه وهو نبي الله ومعه الملائكة والمؤمنون وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ وإني إن فعلت ذلك ذهبت دنياي وآخرتي. فلم يزالوا به يفتنونه بالمال والهدايا حتى فتنوه فافتتن، فركب أتانا له متوجهاً إلى جبل ليطلعه على عسكر بني إسرائيل، فلما سار عليها غير كثير ربضت، فنزل عنها فضربها حتى يكاد يهلكها فقامت فركبها فربضت فضربها حتى كاد يهلكها فقامت فركبها فمشت قليلاً ثم ربضت فضربها، فأطلقها الله تعالى فقالت: يا بلعم ويحك أين تذهب بي؟ ألا

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 298.

(2) نفس المرجع.

(3) الواحدي أسباب النزول: 185 ـ ابن عطية، المحرر: 7/ 203 ـ 204.

ترى إلى هؤلاء الملائكة أمامي تردني على وجهي، فكيف تريد أن تذهب لتدعو على نبي الله عليه السلام وعلى المؤمنين؟ فخلى سبيلها وانطلق حتى وصل الجبل وجعل يدعو، فكان لا يدعو بشر إلا صرف الله به لسانه على قومه، ولا يدعو بخير إلا صرف الله به لسانه إلى موسى وقومه، فقال له قومه: يا بلعم إنما أنت تدعو علينا أو تدعو لهم. فقال: هذا والله الذي أملكه وأطلق الله به لساني. ثم امتد لسانه حتى بلغ صدره فقال لهم: قد ذهبت والله مني الآن الدنيا والآخرة، فلم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، خلوا النساء وزينوهن وأعطوهن الطيب وأرسلوهن إلى المعسكر، ومروهن لا تمنع امرأة نفسها من رجل راودها، فإنهم إن زنا منهم رجل واحد كفيتموهم. ففعلوا، فلما دخل النساء المعسكر مرت امرأة منهن برجل من عظماء بني إسرائيل فقام إليها فأخذ بيدها حين أعجبته بجمالها، ثم أقبل بها إلى موسى وقال له: إني لأظنك ستقول هذه حرام؟ قال: نعم هي حرام عليك لا تقربها. قال: فوالله لا أطيعك في هذا. ثم دخل بها إلى قبته فوقع عليها، فأرسل الله على بني إسرائيل الطاعون في الوقت. وكان فنحاص بن العيزار صاحب أمر موسى، وكان رجلاً له بسطة في الخلق وقوة في البطش، وكان غائباً حين صنع ذلك الرجل بالمرأة ما صنع، فجاء والطاعون يجوس في بني إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته وكانت من حديد كلها، ثم دخل عليه القبة فوجدهما متضاجعين فدقهما بحربته حتى انتظمهما بها جميعاً، فخرج بهما يحملهما بالحربة رافعاً بهما إلى السماء والحربة قد أخذها بذراعيه واعتمد بمرفقه، وأسند الحربة إلى لحيته وجعل يقول: اللّهم هكذا نفعل بمن يعصيك. فرفع الطاعون من حينئذ عنهم، فحسب من هلك من بني إسرائيل في ذلك الطاعون فوجدوهم سبعين ألفاً في ساعة من نهار، وهو ما بين أن زنا ذلك الرجل بها إلى أن قتل[1]. وقال مقاتل: دعا بلعام على موسى وقومه بالاسم الأعظم أن لا يدخل المدينة، فاستجيب له ووقع موسى وقومه في التيه بدعائه عليه، فقال موسى: يا رب بأي ذنب وقعنا في التيه؟ فقال: بدعاء بلعام. قال: يا رب فكما سمعت دعاءه علي فاسمع دعائي عليه. فدعا موسى أن

---

(1) ذكر هذه القصة: البغوي: 2/ 568 ـ وابن عطية: 7/ 204 وما بعدها.

انزع عنه الاسم الأعظم والإيمان فسلخه الله مما كان عليه ونزع عنه المعرفة، فخرجت منه كحمامة بيضاء، فذلك قوله تعالى: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ إلا أن في هذا ما يمنع صحته، لأنه لا يجوز أن يستجاب دعاء إنسان على نبي من أنبياء الله ولا سيما إذا قصد الدعاء على موسى صار كافراً، والكافر لا يجوز أن يستجاب دعاءه. وروي عن عبد الله بن عمرو: أن الآية نزلت في أمية بن أبي الصلت الثقفي، وهو رجل كان في وقت النبي ﷺ، وكان قد أتاه الله العلم والحكمة وله أشعار في الموت والبعث، وكان قد علم أن الله يبعث نبياً في وقته، وكان يرجو أن يكون ذلك النبي، فلما بعث الله محمداً ﷺ ورأى من أمره ما رأى، عزم أن لا يؤمن به حسداً[1]. ومعنى الآية: واقرأ يا محمد خبر الذي آتيناه علم وفهم معانيها فصار عالماً بها. والنبأ: الخبر عن أمر عظيم.

وقوله: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ أي خرج من العلم بها إلى الجهل ومن الهدى إلى الضلال، كما يقال: انسلخت الحية من جلدها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أي اتبعه بالتزين لذلك الضلال. ويقال معنى اتبعه: أدركه. يقال: اتبعت القوم إذا لحقتهم وتبعتهم: إذا سرت في أثرهم.

وقوله تعالى: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ أي كان في علم الله أن يكون في ذلك الوقت من الغاوين. وقيل معناه: صار من الضالين. والغي بمعنى الهلاك، ويذكر بمعنى الخيبة.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴿176﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ﴿177﴾ مَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلۡمُهۡتَدِيۖ وَمَن يُضۡلِلۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿178﴾﴾.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 186 ـ ابن عطية، المحرر: 7/ 205.

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ أي بالآيات بأن نميته على الهدى ونعصمه عن الكفر ونحول بينه وبين المعصية. وقيل معناه: ولو شئنا لفضلناه وشرفناه ورفعنا منزلته بالآيات، وقال مجاهد وعطاء معناه: لو شئنا لرفعنا عنه الكفر بالآيات وعصمناه[1] ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ركن إلى الأرض. وقال مجاهد: سكن إلى الأرض. وقال مقاتل: رضي بالدنيا. وقيل: مال إلى مسافل الأمور وترك معاليها. وأصل الإخلاد: البقاء والإقامة واللزوم على الدوام، كأنه لزم الميل إلى الأرض لتعجل الراحة واللذة. يقال: فلان مخلد، أي بطيء الشيب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ أي انقاد لهواه فلم يرفعه بالآيات. قال عطاء: أراد الدنيا واتبع شيطانه. وقال بعضهم: واتبع هواه أي امرأته لأنها كانت حملته على الخيانة.

قوله تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ اللهث: شدة النفس عند الإعياء وهو في الكلب طبع، فإن كل شيء يلهث من إعياء أو عطش ما خلا الكلب فإنه يلهث في الأحوال كلها، فإنك إن طردته وزجرته يلهث وإن تركته يلهث، فكذلك الكافر إن وعظته وزجرته لم يتعظ، وإن تركته لم يتعقل. قال ابن عباس معناه: إن الكافر إن تحمل عليه الحكمة لم يحملها وإن ترك عنها لم يهتد لها كالكلب إن كان رابضاً لهث وإن طرد لهث. وقيل: هو المنافق لا ينيب إلى الحق دعي أو لم يدع وعظ أو لم يوعظ، كالكلب يلهث ترك أو طرد، وكذا الكافر إن وعظته فهو ضال وإن تركته فهو ضال كالكلب[2]. ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿193﴾﴾[3].

قوله تعالى: ﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أي ذلك صفة

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/572.
(2) تفسير الطبري: 13/272.
(3) سورة الأعراف (7)، الآية: 193.

المكذبين بآياتنا ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ﴾ أي اقصص عليهم أخبار الماضين ليعتبروا بهم فلا يسلكوا مسالكهم.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي رجاءً أن يتفكروا.

قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ أي بئس الوصف وصف مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا. وهذا السوء إنما يرجع إلى فعلهم لا إلى نفس المثل. كأنه قال: ساء فعلهم الذي جلب إليهم هذا الوصف القبيح. فأما المثل فهو من الله حكمة وصواب. ومثلاً منصوب على التمييز، أي ساء المثل مثلاً.

قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ أي إنما يضرون أنفسهم بمعصيتهم، والله تعالى لا تضره معصية العاصين ولا تنفعه طاعة المطيعين.

قوله تعالى: ﴿مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي﴾ أي من يوفقه الله لدينه فهو المهتدي من الضلالة ومن يحد له عن دينه ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ المغبونون بعقوبة الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (179)﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ قال ابن عباس معناه: ولقد خلقنا لجهنم أهلاً لهم قلوب لا يعقلون بها الخير، ولهم أعين لا يبصرون بها الهدى، ولهم آذان لا يسمعون بها الحق، أولئك كالأنعام في المأكل والمشرب والذهن لا في الصورة، بل هم أضل لأن الأنعام مطيعة لله تعالى والكافر غير مطيع.

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ أي عن ما ينفعهم وعن ما يحل لهم في الآخرة. وقيل: إن اللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ لام العاقبة، يعني أن عاقبتهم إلى المصير إلى جهنم، وهذا كما قال تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾[1] أي كان عاقبتهم أن صار لهم عدواً وحزناً، وإلا فهم التقطوه

(1) سورة القصص (28)، الآية: 8.

ليكون لهم قرة عين كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمۡرَأَتُ فِرۡعَوۡنَ قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا تَقۡتُلُوهُ﴾[1]. ويقال: لدوا للموت وابنوا للخراب. قال الشاعر:

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ∴ ودورنا لخراب الدهر نبنيها[2]

وقال آخر:

ألا كل مولود فللموت يولد ∴ ولست أرى حياً لحي يخلد[3]

وقال آخر:

وللموت تغذو الوالدات سخالها ∴ كما لخراب الدهر تبنى المساكن[4]

وعن رسول الله ﷺ في هذه الآية قال: «**إن الله تعالى لما ذرأ لجهنم ما ذرأ كان ولد الزنا ممن ذرأ لجهنم**»[5].

قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿180﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ سبب نزول هذه الآية: أن رجلاً دعا الله في صلاته ودعا الرحمن، فقال أبو جهل لعنه الله: أليس يزعم محمد ﷺ وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحداً، فما بال هذا يدعو اثنين؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية[6]، ومعناها: ولله

---

(1) نفس السورة، الآية: 9.

(2) ذكره ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة: 7/ 256 من غير نسبة.

(3) ذكره البغدادي في الخزانة من غير نسبة: 9/ 531.

(4) نسب هذا البيت إلى سابق بن عبد الله البربري «تغذو» بمعجمتين: من الغذاء ـ بالكسر والمد ـ: ما به نماء الجسم وقوامه. وأما الغداء ـ بالفتح وإهمال الدال ـ فطعام الغدوة وهو خلاف العشاء. والسخال ـ بالكسر ـ جمع سخلة: وهي ولد الشاة من الضأن والمعز ذكراً كان أو أنثى. (العقد الفريد: 2/ 69 ـ خزانة الأدب: 9/ 532).

(5) ذكره الطبري في تفسيره بسنده: 13/ 277، رقم: 15446.

(6) معالم التنزيل: 2/ 575 ـ المحرر الوجيز: 7/ 212.

الصفات العلى، وهو الرحمن الرحيم والعزيز والجبار والمؤمن والمهيمن والقدوس وأشباه ذلك من الصفات التي يحسن معانيها ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَا﴾ أي بالأسماء الحسنى. لا ينبغي أن تقول: يا سخي، يا خالد، يا رفيق ولكن لتقول: يا جواد، يا قوي، يا رحيم كما وصف بها نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ أي يكذبون. وقال قتادة: يشركون. وقال عطاء: يضاهون، وقال ابن عباس: إلحادهم في أسماء الله أنهم عدلوا بها عن ما هي عليه، فسموا أوثانهم وزادوا فيها ونقصوا منها، فاشتقوا اللات من الله، والعزى من العزيز، والمناة من المنان[1]. قرأ الأعمش وحمزة: يلحدون ـ بفتح الياء والحاء ههنا وفي النحل[2] وفي حم[3]، وقرأ الباقون بضم الياء وكسر الحاء وهما لغتان فصيحتان. والإلحاد: هو الميل عن القصد. وروي عن الكسائي أنه قرأ الذي في النحل بفتح الياء والحاء، والذي في الأعراف، وحم بالضم، وكان يفرق بين الإلحاد واللحود فيقول الإلحاد: العدول عن القصد، واللحود: الركون. ويزعم أن الذي في النحل بمعنى الركون[4].

قوله تعالى: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ وعيد لهم على الكفر والتكذيب.

قوله تعالى:

﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿181﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿182﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ﴿183﴾ أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ﴿184﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَمِمَّنۡ خَلَقۡنَآ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿181﴾﴾ قال أنس: وذلك أنه لما ذكر الله تعالى: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ﴿159﴾﴾[5] قال أناس من أصحاب النبي ﷺ: ذكر الله هؤلاء الرهط بالخير

(1) معالم التنزيل: 2/ 576.
(2) سورة النحل (16)، الآية: 103.
(3) سورة فصلت (41)، الآية: 40.
(4) ابن مجاهد، السبعة: 298 ـ ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 215 ـ 216.
(5) سورة الاعراف (7)، الآية: 159.

الجسيم، وإن آمنوا بك وصدقوك جعل لهم أجران ولنا أجر واحد، ونحن صدقنا بالرسل والكتب. فأنزل الله: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني أمة محمد ﷺ لا يخلو الزمان من فرقة منهم علماء أتقياء يدعون الناس إلى الحق[(1)].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الذين كذبوا بدلائلنا نحطهم إلى العذاب درجة إلى أن يبلغوا إلى العذاب. وقال عطاء: سنمكر بهم من حيث لا يعلمون. وقال الكلبي: نزين لهم أعمالهم فنهلكهم. وقال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة. وقال الخليل: سنطوي عمرهم في اغترار منهم. وقال أهل المعاني: الاستدراج: أن يندرج إلى الشيء في خفية قليلاً قليلاً ولا يباغت ولا يجاهر[(2)]. يقال: استدرج فلاناً حتى يعرف ما صنع، أي لا تجاهره ولا تكثر عليه السؤال دفعة واحدة، ولكن كلمه درجة درجة قليلاً قليلاً حتى يعرف حقيقة ما فعل. وقيل: معنى قوله: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ سنذيقهم بأسنا قليلاً قليلاً.

قوله عز وجل: ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ أي أمهلهم وأطيل لهم المدة فإنهم لا يفوتونني ولا يفوتني عذابهم ولا يعجزونني عن تعذيبهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ أي إن صنعي شديد محكم وأخذي قوي شديد. والكيد: هو الإضرار بالشيء من حيث لا يشعر به.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ﴾ قال الحسن وقتادة: وذلك أن النبي ﷺ صعد الصفا ذات ليلة يدعو قريشاً إلى عبادة الله قبيلة قبيلة وفخذا فخذا: يا بني فلان يا بني فلان. يحذرهم بأس الله وعقابه، فقال المشركون: إن صاحبكم قد جن بات ليلة يصوت إلى الصباح. فأنزل الله هذه الآية[(3)]، ومعناها: أو لم يتفكروا بقلوبهم ليعلموا ويستيقنوا ما بمحمد ﷺ من جنون.

قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ما هو إلا معلم بموضع المخالفة

---

(1) معالم التنزيل: 2/ 576 ـ المحرر الوجيز: 7/ 215.
(2) تراجع هذه المعاني في: معالم التنزيل: 2/ 577.
(3) السيوطي، أسباب النزول: 130 ـ تفسير الطبري: 13/ 289.

ليتقى، وموضع الأمن ليبتغى. وقوله تعالى: ﴿مُّبِينٌ﴾ أي بين أمره يجالسه الكفار فيطلبوا حقيقة أمره، ويتفكروا في دلائله ومعجزاته.

قوله تعالى:

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿185﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ معناه: أو لم ينظروا في السماوات والأرض طالبين لما يدلهم على وحدانية الله، وعلى صدق رسوله فيما دعاهم إليه. والملكوت: هو الملك العظيم. وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ معناه: وما خلق الله بعد السماوات والأرض فإن ذلك يدل على توحيد الله تعالى مثل ما تدل السماوات والأرض «ما» بمعنى الذي.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ﴾ معناه: لم ينظروا في أن عسى أن يكون قد دنا هلاكهم بعد قيام الحجة عليهم.

وقوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: إن لم يؤمنوا بهذا القرآن مع وضوح دلالته فبأي حديث بعده يؤمنون، وليس بعده كتاب منزل ولا نبي مرسل.

قوله تعالى:

﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

قوله عز وجل: ﴿مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ﴾ أي من يخذله الله عن دينه فلا هادي له إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي وندعهم في تجاوزهم الحد في كفرهم يتحيرون فلا يرجعون إلى الحق. من قرأ: ونذرهم ـ بالنون وضم الراء فهو على الاستئناف، ويقرأ: ونذرهم ـ بالجزم عطفاً على موضع الفاء[1]. والمعنى: من يضلل الله نذره في طغيانه عامها.

(1) ابن مجاهد، السبعة: 298.

قوله تعالى:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (187)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ قال الحسن وقتادة: سألت قريش رسول الله ﷺ متى الساعة التي تخوفنا بها؟ فأنزل الله هذه الآية ومعناه: يسألونك عن الساعة، أي أوان قيامها؟ ومتى مثبتها؟ يقال: رسى الشيء يرسو إذا ثبت، ومنه الجبال الراسيات أي الثابتات. والمرسى: مستقر الشيء الثقيل. وقال ابن عباس: سألت اليهود محمداً ﷺ فقالوا له: أخبرنا عن الساعة إن كنت نبياً فإنا نعلم متى هي؟ فأنزل الله هذه الآية[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي علم قيامها عند الله سبحانه ما لي لها من علم. ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا يكشفها ويظهرها في وقتها إلا الله عز وجل. وقال مجاهد: لا يجليها: أي لا يأتي بها إلا هو. وقال السدي: لا يرسلها لوقتها إلا هو. ووجه الامتناع عن الإجابة عن بيان وقتها أن العباد إذا لم يعرفوا وقت قيامها كانوا على حذر من ذلك، فيكون ذلك أدعى للطاعة وآجر عن المعصية[2].

قوله تعالى: ﴿ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ قال الحسن: ثقل وضعها على أهل السموات والأرض من انتثار النجوم وتكوير الشمس وتسيير الجبال. وقال قتادة: ثقلت على السموات والأرض لا تطيقها لعظمها. وقال السدي: ثقل عملها على أهل السموات والأرض فلم يطيقوه أدراكاً له. وكل شيء خفي فقد ثقل. ولا يعلم قيامها ملك مقرب ولا نبي مرسل[3].

قوله تعالى: ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾ أي فجأة لا تعلمون وقت قيامها فتقوم

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 186 ـ المحرر الوجيز: 7/ 219.
(2) تفسير الطبري: 13/ 294 ـ 295.
(3) المصدر نفسه.

والرجل يسقي ماشيته، والرجل يصلح حوضه، والرجل يقيم سلعته في سوقه، والرجل يخفض ميزانه ويرفعه، والرجل يهوي بلقمته إلى فمه فما يدرك أن يضعها في فمه.

قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا﴾ قال الضحاك ومجاهد معناه: كأنك عالم بها. قال ابن عباس: هذا على التقديم والتأخير معناه: يسألونك عنها كأنك حفي بهم، أي بار لطيف بهم، من قوله: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا﴾[(1)]. وقيل معناه: كأنك فرح بمسألتهم إياك. وقيل معناه: كأنك حاكم بها. يقال: تحافينا إلى فلان، أي تخاصمنا إليه. والحافي: هو الحاكم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ الفائدة في إعادته رد المعلومات كلها إلى الله، فيكون التكرار على وجه التأكيد. وقيل: أراد بالأول علم وقتها، وبالثاني علم كنهها.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي لا يعلمون أنها كائنة، وأن علمها عند الله. وفي الآية دلالة على بطلان قول من يدعي العلم بمدة الدنيا ويستدل بما روي: أن الدنيا سبعة آلاف سنة، لأنه لو كان كذلك كان وقت قيام الساعة معلوماً. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[(2)]. وأشار إلى السبابة والوسطى فمعناه: تقريب الوقت لا تحديده كما قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[(3)] أي مبعث النبي ﷺ من أشراطها.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿188﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن أهل مكة قالوا: يا محمد ألا يخبرك ربك بالسعر الرخيص قبل

---

(1) سورة مريم (19)، الآية: 47.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 10/ 550، رقم: 5301، كتاب الطلاق ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 6/ 154.

(3) سورة محمد (47)، الآية: 18.

أن يغلو فنشتريه ونربح فيه، وبالأرض الذي يريد أن تجدب فنرتحل عنها إلى ما أخصب؟ فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: قل يا محمد لا أقدر على نفع أجره إلى نفسي ولا على ضر أدفعه عن نفسي إلا ما شاء الله أن يملكني بالتمكين من ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ﴾ أي لو كنت أعلم جدوبة الأرض وقحط المطر لادخرت من السنة الخصبة للسنة المجدبة وما مسني الفقر. وقيل معناه: ولو كنت أعلم متى أموت لبادرت بالأعمال الصالحة قبل اقتراب الأجل ولم اشتغل بغيرها، وما بي جنون ولا آفة كما تقولون. وقيل معناه: لو كنت أعلم متى الساعة لبادرت بالجواب عن سؤالكم، فإن المبادرة إلى جواب السائل يكون استكثاراً من الخير، وما مسني سوء التكذيب منكم.

قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ﴾ أي ما أنا إلا معلم بموضع المخافة ليتقى وبموضع الأمن ليختار ﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بالبعث.

قوله تعالى:

﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿189﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿190﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ أي نفس آدم ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي خلق حواء من ضلع من أضلاعه ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي ليطمئن إليها ويستأنس بها ويأوي إليها لقضاء حاجته منها ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ أي جامعها حملت ماءه وكان حملاً خفيفاً، فاستمرت بذلك الماء، أي قامت وقعدت كما كانت تفعل من قبل وهي لا تدري أنها حبلى أم لا؟ ولم تكترث بحملها، تدل عليه قراءة ابن عباس: فاستمرت به[2]. وقال قتادة: معنى ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ استبان

(1) الواحدي، أسباب النزول: 187 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 580 ـ 579.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 33 ـ المحرر الوجيز: 7/ 223.

حملها. وقرأ يحيى بن يعمر: فمرت ـ مخففاً من المرية، أي شكت أحملت أم لا؟[1]

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ أي لما كبر الولد في بطنها وتحرك وصارت ذات ثقل بحملها، وشق عليها القيام، أتاها إبليس في صورة رجل فقال: يا حواء ما هذا الذي في بطنك؟ قالت: ما أدري. قال: إني أخاف أن يكون بهيمة، وذلك أول ما حملت. فقالت ذلك لآدم عليه السلام. فلم يزالا في هم من ذلك، ثم عاد إبليس إليها فقال: يا حواء إني من الله بمنزلة، فإن دعوت الله ربي فولدت إنساناً تسميه بي؟ قالت: نعم. قال: فإني أدعو الله. وكانت هي وآدم يدعوان الله لئن آتيتنا ولدا حسن الخلق صحيح الجوارح ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك في هذه النعمة. ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ أي سوياً صحيحاً أتاهما إبليس فقال لها: عدتي. قالت: ما اسمك؟ قال: الحارث. ولو سمى نفسه فقال غرار لعرفته، ولكنه تسمى بغير اسمه. فسمته: عبد الحارث، ورضي آدم. فعاش الولد أياماً ثم مات[2]. وهذا لا يصح، لأن حواء وإن لم تكن نبية فهي زوجة نبي، وفي الآية أن الله قال: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ومثل هذه القبائح لا يجوز إضافتها إلى الأنبياء، ولأن الله تعالى قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولأن الواحد منا لو أتاه من ينعته على أن يسمي ولده عبد شمس أو عبد العزى أو نحو هذا لم يقبل منه، ولو أمكنه أن يعاقبه على ذلك فعل، فكيف يجوز مثل هذا على آدم؟ وقد رفع الله قدره بالنبوة. وقال الحسن معناه: أن الله خلق حواء من ضلع آدم وجعلها سكناً له، وكذلك حال الخلق مع أزواجهم، كأنه قال: وجعل من كل نفس زوجها، كما قال في آية أخرى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾[3]. قال الحسن: انقضت قصة آدم عند قوله: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ ثم أخبر الله عن بعض خلقه أنه يغشى زوجته فحملت حملاً خفيفاً فمرت به، فلما أثقلها ما في بطنها دعوا الله ربهما لأن آتيتنا صالحاً لنشكرنك فلما

---

(1) المصدران السابقان.

(2) حكى البغوي في معالم التنزيل هذه الحكاية عن المفسرين: 2/ 581.

(3) سورة الروم (30)، الآية: 21.

آتاهما صالحاً جعلا له شركاً بعملهما الذي عملاه بأن هوّداه ونصّراه ومجّساه، أو علماه شيئاً من الأديان الخبيثة التي يدعو إليها إبليس. ولهذا عظم نفسه في آخر الآية[1] فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ولو كان المراد بالآية حواء وآدم لقال: عما يشركان يقال: إن حواء كانت تلد في كل بطن ذكر وأنثى، ويقال: ولدت لآدم في خمسمائة بطن ألف ولد. وقرىء: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شِرْكًا﴾ - بكسر الشين على المصدر[2]. وكان من حقه أن يقال على هذه القراءة: جعلا لغيره شركاً، لأنهما لا ينكران أن الأصل لله.. ويجوز أن يكون معناه: جعلا له ذا شرك، فحذف «ذا» كما في قوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[3] أي أهل القرية.

قوله تعالى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (191) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ
يَنصُرُونَ (192) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ
صَـٰمِتُونَ (193) إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟
لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ (194) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ
لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا
تُنظِرُونِ (195) إِنَّ وَلِـِّۧىَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّـٰلِحِينَ (196) وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن
دُونِهِۦ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ (197) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا
يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (198)﴾.

قوله عز وجل: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾ معناه: أيشركون في العبادة ما لا يقدر على خلق شيء يستحق به العبادة لأن الخلق هو الذي يدل على الله، والله تعالى إنما يستحق العبادة على الخلق لخلقه أصول النعم التي لا يقدر عليها أحد سواه مثل: الحياة والسمع والبصر والعقل، فإذا لم تقدر الأصنام على خلق شيء لم تحسن عبادتها.

---

(1) تفسير الطبري: 13/314 ـ 315.
(2) ابن مجاهد، السبعة: 299.
(3) سورة يوسف (12)، الآية: 82.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ معناه: أن الأصنام مخلوقة منحوتة. وقيل: أراد به الأصنام والعابدين جميعاً.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي لا يستطيع الأصنام دفع ضرر عنهم ولا جلب نفع إليهم، ولا أن تنصر نفسها بأن تدفع عن أنفسها من أرادها بسوء. فإن قيل: كيف قال: ﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ﴾ على لفظ من يعقل والأصنام موات؟ قيل: لأن الكفار كانوا يتصورونها على صورة من يعقل، ويجرونها مجرى من يعقل، فأجرى الله عليها لفظ ما قدروا ما هم عليه.

قوله عزَّ وجل: ﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ أي إن تدعوا الأصنام إلى الهدى لم تقبل الهدى فإنها لا تهدي غيرها ولا تهتدي بأنفسها، ولا ترد جواب وإن دعيت إلى الهدى، سواء عليكم أدعوتموهم أم صمتم عنهم لا يتبعوكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ أراد الأصنام مملوكة مخلوقة أشباههم سماها عباداً لأنهم صوروها على صورة الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿فَٱدْعُوهُمْ﴾ ليس هو الدعاء الأول، ولكن أراد فادعوهم في مهامكم عند الحاجة إلى كشف الأسواء عنكم.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ﴾ صيغته صيغة الأمر ومعناه التعجيز، أي فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين في أنها آلهة.

قوله تعالى: ﴿أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ * أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ * أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ * أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ معناه: إن معبودي ينصرني ويدفع كيد الكائدين عني، ومعبودكم لا يقدر على نصركم، فإن قدرتم أنتم لي على ضر فاجمعوا أنتم مع الأصنام على كيدي ولا تؤجلوني. وهذا لأنهم كانوا يخوفون النبي ﷺ بآلهتهم، عرف الله الكفار بهذه الآية أنهم مفضلون على الأصنام لأن لهم جوارح يتصرفون بها وليس للأصنام ذلك، فكيف يعبدون من هم أفضل منهم؟ فالعجب من أنفتهم عن اتباع النبي ﷺ مع ما قد أيده الله به من الآيات المعجزة والدلائل الظاهرة، لأنه بشر مثلهم، ولم يأنفوا من عبادة حجر لا

قدرة له ولا تصرف، وهم أفضل منه في القدرة على التصرف.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ وَلِـِّۧيَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾ معناه: إن الذي يحفظني ويكلؤني ويتولى أمري الذي أنعم علي بإنزال القرآن علي وهو يتولى الصالحين، أي يتولى حفظهم لا يكلهم إلى غيره، ولا تضرهم عداوة من عاداهم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ الآية... قد تقدم تفسيره.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ أي كما أنها لا تهدي غيرها فلا تسمع الهدى ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ﴾ يا محمد فاتحة أعينهم نحوكم، يعني الأصنام، ينظرون إليك ﴿وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾ وذلك أنهم كانوا يصورونها فيجعلون لهم أعينا وآذاناً وأرجلاً، فإذا نظر الناظر إليها خيل إليه أنها تنظر إليه وهي لا تبصر، وكانوا يلطخون أفواه الأصنام بالخلوق والعسل، وكانت الذباب يجتمعن عليها فلا تقدر على دفع الذباب عن أنفسها. وقال بعضهم معناه: وتراهم كأنهم ينظرون إليك، كقوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ﴾[1] أي كأنهم سكارى. وقال مقاتل: معنى قوله: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَسۡمَعُواْۖ﴾ أي إن تدع يا محمد أنت والمؤمنون كفار مكة إلى الهدى لا يسمعوا ﴿وَتَرَىٰهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ وَهُمۡ لَا يُبۡصِرُونَ﴾.

قوله تعالى:

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٠٠﴾.

قوله عز وجل: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ قال ابن عباس والسدي معناه: خذ الفضل من أموالهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾[2] وهذا إنما كان قبل فرض الزكاة، فصار منسوخاً بالزكاة.

---

(1) سورة الحج (22)، الآية: 2.
(2) سورة البقرة (2)، الآية: 219.

قال الفقيه أبو بكر:

وقال الحسن ومجاهد معناه: خذ العفو من أخلاق الناس في القضاء والاقتضاء وقبول عذرهم وحسن المعاملة معهم، وما يسهل عليهم. وأصل العفو: الترك، من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾[1] أي ترك. والعفو عن الذنب: ترك العقوبة عليه. ويقال: معنى العفو: المساهلة في الأمور. يقال: خذ ما أتاك عفواً، أي سهلاً. وعن النبي ﷺ أنه سأل جبريل عن هذه الآية فقال: حتى أسأل. فذهب ثم رجع فقال: يا محمد إن الله يأمرك أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك[2].

قوله تعالى: ﴿وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ﴾ أي بالمعروف الذي يعرف العقلاء صحته. وقال عطاء: يعني بالعرف: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ أي عن أبي جهل وأصحابه. نسختها آية السيف. ومعنى الإعراض عنهم: أي أعرض عنهم بعد إقامة الحجة عليهم، ووقوع الإياس من قبولهم، فلا تقابلهم بالسفه، ولا تجاوبهم استخفافاً بهم وصيانة لقدرك، فإن مجاوبة السفيه تضع القدر.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ معناه: إما يغرينك الشيطان بالوسوسة عند الغضب فالتجىء إلى الله واستغث به، إنه سميع لدعائك عليم بك. والنزغ: هو الازعاج بالحركة إلى الشر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿201﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴿202﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟﴾ معناه: إن الذين اتقوا الشرك والمعاصي إذا مستهم وسوسة من الشيطان بإلقاء خواطر الشر عليهم فزعوا إلى تذكر ما أوضح الله لهم من الحجة ﴿فَإِذَا هُم

---

(1) نفس السورة، الآية: 178.

(2) تفسير الطبري: 13/ 330، رقم: 15547 ـ الترغيب والترهيب: 3/ 147.

﴿مُّبْصِرُونَ﴾ عواقب أمورهم يرجعون من الهوى إلى الهدى. قرأ النخعي، وابن كثير وأبو عمرو، والكسائي: طيف، وقرأ الباقون: طائف[1]، وهما لغتان: وقيل: الطائف: ما يطوف حول الشيء، والطيف: الوسوسة والخطرة. وقيل: الطائف: ما طاف به من الوسوسة، والطيف اللمم والمس. وقرأ سعيد بن جبير: طيف ـ بالتشديد. وقال الكلبي: طائف من الشيطان أي ذنب. وقال مجاهد: الغضب. وعن مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه. وقال السدي معناه: إذا زلوا تابوا[2].

قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ أي وإخوان المشركين وهم الشياطين يدعونهم إلى المعاصي والجهل. يقال: لكل كافر أخ من الشياطين يمده في الغي. قرأ نافع: يمدونهم ـ بضم الياء وكسر الميم[3]، وهما لغتان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ أي ثم لا يقصر إخوان المشركين من الوسوسة، لأنهم إذا علموا قبولهم لقولهم زادوا في إغوائهم، وزاد الكفار في طاعتهم لهم فلا يقصرون كما يقصر المتقون. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ﴾ يعني إخوان الشياطين وهم الضلال يمدون المشركين في الغي. وقرأ الجحدري: يمادونهم في الغي، وقرأ عيسى: ثم لا يقصرون ـ بفتح الياء وضم الصاد[4].

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَـٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿203﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿204﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا ۚ﴾ معناه: إذا لم تأتهم يا محمد بالآية التي سألوكها تعنتاً قالوا: هلا طلبتها من الله فيأتينا بها.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 301.

(2) ذكر الثعلبي هذه الأقوال في تفسيره، ورقة: 34.

(3) ابن مجاهد، السبعة: 301.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 34 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 172.

وقيل معناه: إذا لم تأتهم يا محمد بالآية التي هلا أتيت بها من تلقاء نفسك. قال الحسن: كانوا إذا جاءتهم آية كذبوا بها، وإذا أبطأت عليهم التمسوها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن رَّبِّى ۚ هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي قل لهم ليست الآيات إلي، ولكن الله يوحي بها على ما يعلم من المصلحة، وليس لي أن أسأله إنزالها إلا إذا أذن لي في سؤالها. هذا القرآن بصائر من ربكم وهدى من الضلالة، ونجاة من العذاب لقوم يصدقون أنه من الله.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ قال ابن عباس، وابن مسعود، وأبو هريرة، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب والزهري: إن هذه الآية نزلت في الصلاة. وعن أبي العالية الرياحي قال: كان النبي ﷺ إذا صلى قرأ أصحابه خلفه حتى نزلت هذه الآية فسكت القوم[1]. وقال بعضهم: المراد بالآية وقت نزول القرآن، أمرهم الله بالاستماع والإنصات. وقال الزجاج: يحتمل أن يكون معنى الاستماع: العمل بما فيه[2]. وعن قتادة قال: كان المسلمون قبل نزول هذه الآية يتكلمون في الصلاة، ويأمرون بحوائجهم، ويجيء الرجل إلى الرجل فيقول له: كم صليتم؟ فيقول كذا. فأنزل الله هذه الآية[3]، والقول الأول أصح وأقرب إلى ظاهر الآية، لأنه ليس في الآية تخصيص زمان دون زمان، ولا يجب على القوم الإنصات لقراءة كل من يقرأ في غير الصلاة.

قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿205﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ ۩ ﴿206﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ يجوز أن يكون هذا الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ والمراد به

(1) الواحدي: أسباب النزول: 187 ـ المحرر الوجيز: 7/ 288.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 2/ 398.
(3) تفسير الطبري: 13/ 348.

جميع الخلق، ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربك أيها المستمع للقرآن إذا تلي عليك. وقوله تعالى: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ يعني التفكر في النفس والتعرض لنعم الله مع العلم بأنه لا يقدر عليها أحد سواه، وأنه متى شاء سلبها منه. والمراد بقوله: ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ﴾ التكلم بذكر الله على وجه الخفية بالتضرع إليه والمخافة منه، لأن أفضل الدعاء ما كان خفياً على إخلاص وخضوع من غير رياء ولا سمعة. وقوله تعالى: ﴿فِى نَفْسِكَ﴾ أشار إلى الإخلاص، وقيل: المراد بقوله: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ الذكر بالكلام الخفي، وبقوله: ودون الجهر إظهار الكلام بالصوت العالي. وقال ابن عباس: معنى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ﴾ يعني القراءة في الصلاة، ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي جهراً، ﴿وَخِيفَةً﴾ أي سراً، ﴿وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي دون رفع الصوت من خفض وسكون تسمع من خلفك القرآن. وقال أهل المعاني: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ﴾ أي اتعظ بالقرآن واعتبر بآياته، واذكر ربك فيما يأمرك بالطاعة. ﴿تَضَرُّعًا﴾ أي تواضعا وتخشعاً، ﴿وَخِيفَةً﴾ أي خوفاً من عقابه. وقال مجاهد: أمروا أن يذكروه في الصدور. وقال ابن جريج: يؤمر بالتضرع والاستكانة، ويكره رفع الصوت والنداء والصياح في الدعاء[1].

قوله: ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي صلاة الغداة والمغرب والعشاء. والأصيل في اللغة: ما بين العصر إلى الليل، وجمعه أصل ثم آصال جمع الجمع ثم أصائل. وقيل معنى الغدو والآصال: البكر والعشيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ زيادة تحريض على ذكر الله تعالى كيلا يغفل الإنسان عن ذلك في أوقات العبادات.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾ معناه: إن الملائكة المقربين الذين أكرمهم الله لا يتعظمون عن طاعته. إن استكبرتم أنتم عن عبادته فمن هو أفضل منكم وهم الملائكة لا يستبكرون عن عبادته، وينزهونه عما لا يليق به ﴿وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾ أي يصلون فيخرون له سجداً في صلاتهم. وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ يريد قربهم من الفضل والرحمة لا من حيث المكان

(1) تفسير الطبري: 13/ 354 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 591.

والمسافة. وعن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**كان جبريل عليه السلام إذا أقبل شيء من القرآن فيه سجود قرأه ثم يخر ساجداً، ويأمرني بذلك ثم يقول: يا محمد واجب عليك، وعلى أمتك**». وعن ابراهيم قال: من قرأ آخر الأعراف إن شاء ركع وإن شاء سجد[1]. وعن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**من قرأ سورة الأعراف جعل الله بينه وبين النار ستراً يوم القيامة، وكان آدم له شفيعاً**»[2].

(1) رواه الإمام الحافظ أبي بكر عبد الرزاق الصنعاني في مصنفه: 3/ 347، رقم: 5919 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 35 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 7/ 240.

(2) ذكره الزمخشري في الكشاف: 2: 140، والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

سُورَةُ الأَنفَالِ

وهي خمسة آلاف ومائتان وأربعة وتسعون حرفاً، وألف ومائتان واحدى وثلاثون كلمة، وخمس وسبعون[1] آية[2].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ أي عن الغنائم، قل الغنائم ﴿لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ الإضافة للغنائم إلى الله على جهة التشريف لها، والإضافة إلى الرسول لأنه كان بيان حكمها وتدبيرها إليه، لأن الغنائم كانت كلها له كما قال صلى الله عليه وسلم في وبرة أخذها من سنام بعير من الفيء: «**والله ما يحل لي من فيئكم إلا الخمس، والخمس مردود فيكم**»[3]. وقيل إنما سألوا عن الغنائم لأنها كانت حراماً على من قبلهم كما قال عليه السلام: «**لم تحل الغنائم لقوم سود الرؤوس قبلكم، فكانت تنزل نار من السماء فتأكلها**». وإنما سميت الغنائم أنفالاً، لأن الأنفال جمع نفل، والنفل: الزيادة: والأنفال مما زاده الله هذه الأمة من الحلال.

---

(1) في النسخة (ف) وتسعون.

(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 35 هذا العدد.

(3) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 7/ 434، رقم: 2738، باب في الإمام يستأثر بشيء لنفسه ـ والتبريزي في مشكاة المصابيح: 2/ 406، رقم: 4026، كتاب الجهاد.

والنافلة من الصلاة ما زاد على الفرض. ويقال لولد الولد نافلة، لأنه زيادة على الولد، وعن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ رغب أصحابه يوم بدر فقال: «**من قتل قتيلاً فله كذا، ومن جاء بأسير فله كذا**». فلما هزم الله المشركين تسارع الشبان وأقبلوا بالأسارى، وأقام الشيوخ عند الرايات مع رسول الله مخافة أن يغتاله أحد المشركين، فوقع الاختلاف بينهم في استحقاق الغنيمة، فقال الذين ثبتوا مع رسول الله: قيامنا أفضل من ذهابهم، فلو أعطيتهم ما وعدتهم لم يبق لنا ولا لعامة أصحابك شيء. وقال الآخرون: نحن قتلنا وأسرنا. فكان في ذلك مراجعة بينهم ورسول الله ﷺ ساكت لا يقول شيئاً، فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: يسألونك عن الأنفال لمن هي؟ ويجوز أن يكون (عن) صلة في الكلام. والمعنى: يسألونك الأنفال التي وعدتهم بها يوم بدر ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ ليس لكم فيها شيء. قال عبادة بن الصامت: لما اختلفنا في غنائم بدر وساءت أخلاقنا، نزعها الله من أيدينا وجعلها إلى رسوله فقسمها بيننا على السواء[2]. وقيل: إن التنفيل المذكور في هذه الرواية قبل القتال غلط وقع من الراوي لا وعد، ولا يجوز على النبي ﷺ خلف الوعد ولا استرجاع ما جعله لأحد منهم. والصحيح أنهم اختلفوا في الغنائم من غير تنفيل كان من رسول الله ﷺ.

قوله عز وجل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ أي اتقوا معاصيه واحذروا مخالفة أمره وأمر رسوله ﴿وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ أي كونوا مجتمعين على ما يأمركم به الله ورسوله ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في الغنائم وغيرها ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ بالله ورسوله كما تزعمون.

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 189 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 593.

(2) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 136 ـ والبيهقي في السنن الكبرى: 6/ 292 ـ، الواحدي، أسباب النزول: 190 ـ سيرة ابن هشام: 2/ 666.

إيمانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: أن صفتهم إذا ذكر الله عندهم فزعت قلوبهم عند الموعظة. والوجل: هو الخوف مع شدة الحزن. والمعنى: ليس المؤمن الذي يخالف الله ورسوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي إذا قرئت عليهم آياته بالأمر والنهي ﴿زَادَتْهُمْ﴾ يقيناً وبصيرة وتصديقاً بالفرائض مع تصديقهم بالله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ أي يفوضون أمورهم إلى الله لا يثقون بغيره. ثم زاد في نعت المؤمنين فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ أي يقيمونها بوضوئها وركوعها وسجودها في مواقيتها، ومما أعطيناهم من الأموال ينفقون في طاعة الله. وإنما خص الله الصلاة والزكاة لعظم شأنهما وتأكيد أمرهما.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي أهل هذه الصفة الذين تقدم ذكرهم هم الذين استحقوا هذه الصفة صدقاً ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي لهم فضائل ومنازل في الرفعة في الآخرة على قدر أعمالهم ﴿وَمَغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، وثواب حسن في الجنة.

قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ بلغه أن عير قريش أقبلت من الشام، وفيهم أبو سفيان ومخرمة[1] بن نوفل في

---

(1) أبو صفوان، مخرمة بن نوفل الزهري القرشي: كان مع أبي سفيان في عير قريش، وأسلم يوم فتح مكة، وكان عالماً بالأنساب، عمر طويلاً، وكف بصره في زمن عثمان بن عفان، وتوفي بالمدينة سنة أربع وخمسين هجرية. الإصابة: 4/ 76، رقم: 7842 ـ الأعلام: 7/ 193.

أربعين رجلاً من قريش تجاراً، فقال عليه السلام لأصحابه: «**هذه عير قريش قد أقبلت فاخرجوا إليها، فلعل الله أن ينفلكموها فتتقووا بها على عدوكم**». فغدوا على نواضحهم ومعهم فرسان لا غير، أحدهما للزبير والآخر للمقداد، فخرجوا بغير قوة ولا سلاح، وهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً لا يرون أنه يكون قتال، فبلغ ذلك أبو سفيان فأرسل من الطريق: ضمضم بن عمرو الغفاري يخبر أهل مكة أن محمداً قد اعترض لعيرهم[1] فأدركوها، فنزل جبريل عليه السلام على رسول الله ﷺ فأخبره بنفير المشركين يريدون عيرهم وقال: يا محمد إن الله يعدك إحدى الطائفتين إما العير وإما العسكر. فأخبر بذلك رسول الله ﷺ المسلمين فسروا بذلك وأعجبهم، فاستشار رسول الله ﷺ المسلمين حين عرف أنهم لا يخالفونه، فقالوا له: والله لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه. ثم أخبرهم أن في المشركين كثرة، فشق على بعضهم فقالوا: ألا كنت أخبرتنا أنه يكون قتال فنخرج معنا سلاحنا وقوتنا؟ إنما خرجنا في ثيابنا نريد العير. فأنزل الله هذه الآية وهم بالروحاء، ومعناها: امض على وجهك من الروحاء ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ أي من المدينة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي بالأمر الواجب ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ﴾ يعني كراهة الطبع للمشقة لا كراهة الحق. وقيل معناه: يجادلونك في الحق متكرهين له ﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ﴾ مع تكرههم له. ومعنى ﴿يُجَٰدِلُونَكَ﴾ أي يخاصمونك بقولهم: هلا أعلمتنا أنه القتال حتى كنا نستعد له.

قوله تعالى: ﴿بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ أي بعدما ظهر لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك ربك.

قوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ أي هم بما عليهم من شدة المشقة لقلة عددهم وعدتهم وكثرة عدوهم كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون إلى أسباب الموت.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ أي اذكروا إذ

---

(1) سيرة ابن هشام: 2/ 606 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 598 وما بعدها.

يعدكم الله إحدى الطائفتين إما العير وإما العسكر أنها لكم، وتمنون أن تكون لكم العير دون العسكر، لأن العسكر ذات شوكة وهي السلاح ﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ أي يظهر الإسلام بوعده الذي أنزل في الفرقان، ويقال: بأمره لكم بالقتال ﴿وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي يظفركم على ذات الشوكة فتستأصلوهم ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ﴾ بإهلاك أهله ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي مشركو مكة.

قوله تعالى:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿9﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿10﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿9﴾﴾ معناه: إذ تستغيثون أيها المسلمون ربكم حين رأيتم قلة عددكم وكثرة عدوكم، فلم يكن لكم مفزع إلا الدعاء لله تعالى وطلب المعونة منه ﴿فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ أي أجابكم. والاستجابة: العطية على موافقة المسألة. قوله تعالى: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ قال ابن عباس: كان مع كل ملك ملك، وكان جملتهم ألفين. يقال: ردفت الرجل: إذا ركبت خلفه، وأردفته إذا أركبته خلفك. فقال عكرمة وقتادة والضحاك معناه: بألف من الملائكة متتابعين يتبع بعضهم بعضاً، وقد يجوز أن يقال: أردف الرجل إذا جاء بعده وكذلك ردفه. وأما قراءة نافع: مردفين - بفتح الدال[1]، فمعناه: أردفهم الله للمؤمنين ويقال: أردفته يعني تبعته. قال الشاعر:[2]

إذا الجوزاء أردفت الثريا ∴ ظننت بآل فاطمة الظنونا[3]

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 304.

(2) هو حزيمة بن نهد بن زيد بن ليث بن قضاعة: من شعراء الجاهلية وحزيمة - بالحاء المهملة المفتوحة والزاي المكسورة - ضبط في تاج العروس، وفي كتب كثيرة: خزيمة بن نهد، أو خزيمة بن مالك. (اللسان: ردف - الأغاني: 13/ 78 - ابن قتيبة، المعارف: 302).

(3) هذا البيت من الوافر، قاله حزيمة الذي علق فاطمة بنت يذكر وقد اجتمع قومه وقومها في مربع. ومعناه: أن الجوزاء تردف الثريا في اشتداد الحر، فتتكبد السماء في آخر الليل، =

أي جاءت بعدها، لأن الجوزاء تطلع بعد الثريا. فنزل جبريل في خمسمائة ملك على الميمنة، ونزل ميكائيل في خمسمائة على الميسرة في صورة الرجال عليهم ثياب بيض وعمائم بيض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ أي ما جعل الله إمداد الملائكة إلا بشارة بالنصر للمؤمنين. وقيل معناه: وما جعل الله إخبار النبي ﷺ بإمداد الملائكة إلا بشرى بالنصر.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولتسكن قلوبكم في الحرب فلا تخافون من عدوكم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي ليس النصر بقلة العدد ولا بكثرته، ولا من قبل الملائكة، ولكن النصر من عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ بالنقمة ممن عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. وقد اختلفوا هل قاتلت الملائكة يوم بدر مع المؤمنين أم لا؟ قال بعضهم: لم يقاتلوا، ولكن الله أيد بهم المؤمنين ليشجع بهم قلوبهم ويلقي بهم الرعب في قلوب الكافرين. ولو بعثهم الله للمحاربة لكان يكفي ملك واحد، فإن جبريل أهلك بريشة واحدة سبعا من قريات قوم لوط، وأهلك بصيحة واحدة جميع بلاد ثمود. وهذا القول أقرب إلى ظاهر الآية. وقال بعضهم: إن الملائكة قاتلت ذلك اليوم، لأنه روي أن أبا جهل قال لابن مسعود: من أين كان ذلك الضرب الذي كنا نسمع ولا نرى شخصاً؟ فقال له: من الملائكة. فقال أبو جهل: هم غلبونا لا أنتم[1].

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ (11)﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ قال جماعة من المفسرين: وذلك أنه لما أمر الله النبي ﷺ بالمسير إلى الكفار، سار بمن معه حتى إذا كان

= وعند ذلك تجف المياه فيتفرق الناس في طلب الماء، فتغيب عنه محبوبته فلا يدري أين نزلت. (الأزمنة والأمكنة: 2/ 130 ـ شرح ديوان أبي ذؤيب: 145 ـ أمثال الميداني: 1/ 65).

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 37.

قريباً من بدر لقي رجلين في الطريق فسألهما: «**هل مرت بكما العير؟**» قالا: نعم، مرت بنا ليلاً. وكان بين يدي رسول الله عشرة من المسلمين، فأخذوا الرجلين، وكان أحدهما غلام العباس بن عبد المطلب يقال له: أبو رافع، والآخر غلام لعقبة بن أبي معيط يقال له: أسلم، كانا يسقيان الماء فجاءوا بهما إلى رسول الله ﷺ، فاستخلى بأبي رافع ودفع أسلم لأصحابه يسألونه، فقال صلى الله عليه وسلم لأبي رافع: «**من خرج من أهل مكة؟**» فقال: ما بقي بها أحد إلا وقد خرج. فقال ﷺ: «**قاءت مكة اليوم بأفلاذ كبدها**»[1]. ثم قال: «**هل رجع منهم أحد؟**» قال: نعم، ابن شريقٍ في ثلاثمائة من بني زهرة. فكان خرج لمكان العير، فلما أقبلت العير رجع، فسماه رسول الله ﷺ الاخنس حين خنس بقومه[2]. ثم أقبل رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يسألون أسلم، وكان يقول لهم: خرج فلان وفلان، وأبو بكر رضي الله عنه يضربه بالعصا ويقول له: كذبت، أتجبن الناس؟ فقال ﷺ: «**إن صدقكم ضربتموه وإن كذبكم تركتموه**». فعلموا أن رسول الله ﷺ قد عرف أمرهم، فساروا حتى نزلوا بدرا بجانب الوادي الأدنى على غير ماء، ونزل المشركون على جانبه الأقصى على الماء والوادي بينهم، فباتوا ليلتهم تلك، فألقى الله على المسلمين النوم فناموا، ثم استيقظوا وقد أجنبوا وليس معهم ماء، فأتاهم الشيطان فوسوس إليهم وقال لهم: تزعمون أنكم على دين الله وأنتم مجنوبون تصلون على الجنابة والمشركون على الماء. فأمطر الله الوادي وكان ذا رمل تغيب فيه الأقدام، فاشتد الرمل وتلبدت بذلك أرضهم وأوحل أرض عدوهم، وبنى المسلمون في مكانهم حياضاً واغتسلوا من الجنابة، وشربوا وسقوا دوابهم، وتهيئوا للقتال، فذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي اذكروا إذ يلقي الله عليكم النعاس. والنعاس: أول النوم قبل أن يثقل. وقوله تعالى ﴿أَمَنَةً مِّنْهُ﴾ أي أمنا من الله أمنهم بوعد النصر أمنا حتى غشيهم النعاس في حال الاستعداد للقتال. قال ابن عباس: النعاس عند القتال أمن من الله[3]، وفي

(1) سيرة ابن هشام: 2/ 616 ـ 617.
(2) سيرة ابن هشام: 2/ 619.
(3) وفي امتنان الله عليهم بنعمة النوم في هذه الليلة وجهان: أحدهما: أنه قواهم بالاستراحة على القتال من الغد، والثاني: أنه أمنهم بزوال الرعب من قلوبهم.

الصلاة من الشيطان. قرأ ابن كثير، وأبو عمرو: يغشاكم[1]، واحتجا بقوله تعالى: ﴿يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾[2] فجعلوا الفعل للنعاس. وقرأ نافع: يغشيكم[3] ـ على أن الفعل لله تعالى ليكون مطابقاً لقوله: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ واحتج بقوله: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ﴾[4] وقرأ الحسن وأبو رجاء وعكرمة وأهل الكوفة وابن عامر ويعقوب: يغشيكم ـ بالتشديد[5]، لقوله تعالى: ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾[6].

قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ﴾ يعني المطر ليطهركم من الجنابة والحدث، ويذهب عنكم وسوسة الشيطان التي كان وسوس إليكم بأن عدوكم قد غلب على الماء، وأنكم في مكان تسوخ أقدامكم في الرمل. ويقال: أراد بالرجز: الجنابة التي أصابتهم بالاحتلام، فإن الاحتلام إنما يكون من وسوسة الشيطان. وقرأ سعيد بن المسيب: ليظهركم به ـ بالظاء، من أظهركم الله. وقرأ ابن محيصن: رجز الشيطان ـ بضم الراء. وقرأ أبو العالية: رجس الشيطان ـ بالسين[7]، والعرب تعاقب بين السين والزاي فتقول: بزق وبسق، والسراط والزراط.

قوله عز وجل: ﴿وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ﴾ أي وليشد على قلوبكم بالصبر ويشجعكم على القتال. وقيل معناه: وليربط على قلوبكم باليقين والصبر.

قوله تعالى: ﴿وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ﴾ أي ويثبت بالمطر الأقدام حتى لا تسوخ في الرمل. وقيل معناه: ويثبت بالبصيرة وقوة القلب الأقدام، لأن الأقدام إنما تثبت في الحرب بقوة القلب.

---

(1) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 304.
(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 154.
(3) ابن مجاهد في المصدر السابق.
(4) سورة يونس (10)، الآية: 27.
(5) ابن مجاهد، السبعة: 304 تفسير الثعلبي، ورقة: 38.
(6) سورة النجم (53)، الآية: 54.
(7) تفسير الثعلبي، ورقة: 38.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿12﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿13﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿14﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ إذ يلهم ربك الملائكة النازلين من السماء أني معكم بالنظر للمسلمين ﴿فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالتنبيه والإخطار في البال، ويقال: بشروهم بالنصر، وقيل: أروهم أنفسهم مدداً لهم فإذا عاينوكم ثبتوا. والوحي: إلقاء المعنى إلى النفس من وجه خفي. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: سوى أصحاب رسول الله ﷺ صفوفهم، وقدموا راياتهم فوضعوها مواضعها، ووقف رسول الله ﷺ على بعير له يدعو الله ويستغيث، فهبط جبريل في خمسمائة على ميمنتهم، وميكائيل في خمسمائة على مسيرتهم فكان الملك يأتي الرجل من المسلمين على صورة رجل ويقول له: دنوت من عسكر المشركين فسمعتهم يقولون: والله لئن حملوا علينا لا نثبت لهم أبدا[1]. وألقى الله في قلوب الكفرة الرعب بعد قيامهم للصف، فقال عتبة بن ربيعة: يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قريش نقاتلهم. فقام إليهم بنو عفراء وهم: عوف ومعوذ ومعاذ أمهم عفراء وأبوهم الحارث فثبتوا إليهم، فقالوا لهم: ارجعوا وأرسلوا إلينا أكفاءنا من قريش من بني هاشم. فخرج إليهم: علي وحمزة، وعبيدة بن الحارث[2]. قال علي: فثبت إلى الوليد بن عتبة، ومشى إلي فضربته بالسيف أطرت يده ثم بركت عليه فقتلته، فقام شيبة بن ربيعة إلى عبيدة ابن الحارث فاختلفا بضربتين، ثم ضرب عبيدة ضربة أخرى فقطع ساق شيبة، ثم قام حمزة إلى عتبة فقال: أنا أسد الله، وأسد رسوله. ثم ضربه حمزة فقتله[3].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 38.

(2) أبو الحارث، عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف القرشي، من أبطال قريش في الجاهلية والإسلام، أسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم، وعقد له ثاني لواء في المدينة، وشهد بدرا فاستشهد بها سنة اثنتين.
الاستيعاب: 3/ 1020 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 38.

(3) في سيرة ابن هشام: 2/ 625. المبارز لحمزة هو شيبة بن ربيعة.

فقام أبو جهل في أصحابه يحرضهم ويقول: لا يهولنكم ما لقي هؤلاء فإنهم عجلوا وامتحقوا. ثم هوى هو بسيفه فنهشه فقتل يومئذ، ثم حمل المسلمون كلهم على المشركين فهزموهم.

قوله عز وجل: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ أي سأقذف في قلوبهم المخافة منكم. ثم علم الله المسلمين كيف يضربونهم فقال عز وجل: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ معناه: على الأعناق: وقال عطية والضحاك معناه: فاضربوا الأعناق، كقوله تعالى في آية أخرى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾[1]. وقال صلى الله عليه وسلم: «**إني لم أبعث لأعذب بعذاب الله، وإنما بعثت لضرب الرقاب، وشد الوثاق**»[2]. وقال بعضهم: «فوق» بمعنى: «على»، أي فاضربوا على الأعناق. وقال عكرمة معناه: فاضربوا الرؤوس والأعناق، وقال ابن عباس: فاضربوا الأعناق فما فوقها، يعني الرؤوس والأعناق، نظيره قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ﴾[3] أي اثنتين فما فوقهما. وإنما أمر الله تعالى بضرب الأعناق، لأن أعلى جلد العنق هو المقتل.

قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ قال عطية: يعني كل مفصل، وقال ابن عباس والضحاك: يعني الأطراف. وقال بعضهم: معنى قوله تعالى: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾ الصناديد. وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ يعني السفلة، إلا أن الأول أصح. وقيل معناه: واضربوا منهم كل عضو أمكنكم وليس عليكم توقي عضو دون عضو. وعن أبي سعيد الفارابي أنه كان يقول: أراد الله أن لا تتلطخ سيوف المسلمين بفرث الكفار، فأمرهم الله أن يضربوا فوق الأعناق ويضربوا منهم كل بنان. والبنان في اللغة: هي الأصابع، وغيرها من الأعضاء التي يكون بها قوام الإنسان، وحياته، مأخوذ من قولهم: أبن الرجل بالمكان إذا أقام به.

---

(1) سورة محمد (47)، الآية: 4.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 13/429، رقم: 15785 بسنده.
(3) سورة النساء (4)، الآية: 11.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي ذلك الضرب والقتل بأنهم شاقوا أولياء الله ورسوله. والمشاقة: أن يصير أحد العدوين في شق والآخر في شق آخر، كما أن المحادة أن يصير أحدهما في حد غير حد الآخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ﴾ أي ومن يخالف أولياء الله ورسوله فإن الله شديد العقاب له. وأما إظهار التضعيف في موضع الجزم في قوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ﴾ فهو لغة أهل الحجاز وغيرهم، يدغم أحد الحرفين في الآخر لاجتماعهما من جنس واحد كما قال تعالى في سورة الحشر: ﴿وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ﴾[1] بقاف واحدة.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ﴾ معناه إن الذي ذكرت لكم أيها الكفار من العذاب العاجل في الدنيا فذوقوه. ثم بين جل ذكره أن القتل في الدنيا لا يصير كفارة لهم، وأن الله سيعاقبهم في الآخرة بقوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾. وإنما قال تعالى في عذاب الدنيا: ﴿فَذُوقُوهُ﴾ لأن الذوق يتناول اليسير من الشيء، فكلما يلقى الكفار من ضرب أو قتل في الدنيا فهو قليل من العذاب معجل لهم، ومعظم عذابهم يؤخر إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ في فتح «أن» وجهان: أحدهما لأنها في موضع الرفع تقديره: ذلكم فذوقوه وذلك أن للكافرين، والثاني: لأنها في موضع النصب تقديره: ذلكم فذوقوه واعلموا بأن للكافرين. فلما حذف الباء نصب.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلْأَدْبَارَ ﴿15﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿16﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ

---

(1) سورة الحشر (59)، الآية: 4.

﴿ٱلْأَدْبَارَ﴾ خطاب من الله عز وجل للمسلمين حين التقوا بالعدو يوم بدر، ومعناه: إذا لقيتم الذين كفروا مزاحفة مستعدين لحربهم فلا تنهزموا حتى يدبروا. والزحف في اللغة: هو الدنو قليلاً قليلاً. والتزاحف: التداني. يقال: زاحفت القوم: إذا ثبت لهم، فكأنه قال تعالى: إذا واقعتموهم للقتال فاثبتوا لقتالهم. والتولية: جعل الشيء يلي غيره، وهو متعد إلى مفعولين. وولى دبره: إذا جعله يليه[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ﴾ أي من يجعل ظهره إليهم وقت القتال إلا أن يتحرف لقتال في موضع رآه أصلح في باب المحاربة، أو ليطلب غرة ينعطف فيها على العدو ﴿أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ﴾ أي إلا أن يقصد الانضمام إلى جماعة يمنعونه من العدو، يعني إذا كثر العدو وللمؤمنين فئة يلجؤون إليها فيحاربون العدو بعد ذلك معهم، كما لهم ترك القتال عند ذلك، ومن ولاهم الدبر على سبيل الانهزام غير هذين الوجهين فقد عصى الله ومأواه في الآخرة جهنم وبئس المصير صائر إليه. والتحريف في اللغة: هو الزوال عن جهة الاستواء. والتحيز: طلب حيز يتمكن فيه. واختلف العلماء في هذا الوعيد في هذه الآية مقصور على حرب بدر أم هو عام في جميع الأوقات؟ فقال بعضهم: إنه خاص في حرب بدر لأنه لم يكن يومئذ للمسلمين فئة سواهم، وكان ﷺ حاضراً في ذلك الحرب، وكان النصر موعود به يومئذ، ومع حضوره كان لا يعد غيره فئة، وكان المنهزم من القتال يومئذ غير متحيز إلى فئة، فأما اليوم فالمنهزم عن الحرب يكون متحيزاً إلى فئة أعظم من المحاربين من المسلمين. وقال بعضهم: إنه عام في جميع الأوقات ولا يجوز الانهزام عن قتال المشركين مع قوة القتال، وإلى هذا ذهب ابن عباس[2]. وذكر محمد بن الحسن في السير الكبير أن الجيش إذا بلغوا اثنا عشر ألفاً فليس لهم أن يفروا من العدو وإن كثر العدو، واحتج بما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**خير الأصحاب أربعة، وخير السرايا أربعمائة،**

(1) في النسخة (ف): إليه.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 609.

وخير الجيوش أربعة آلاف، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة»[1].

قوله تعالى:

﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿17﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿18﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ معناه: فلن تقتلوهم يوم بدر بأنفسكم ولكن الله قتلهم بالملائكة. وأضاف الله قتلهم إلى نفسه، لأن السبب في قتلهم كان من الله تعالى، فإنه هو الذي أيد المؤمنين بالملائكة حتى شجع من قلوبهم وأنزل المطر حتى ثبت به الأقدام، وألقى في قلوب المشركين الرعب حتى انهزموا. وقيل: كان المسلمون يقولون: قتلنا فلاناً وفلاناً. فأراد الله ان لا يعجبوا بأنفسهم. قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ﴾ معناه: ما روي أن النبي ﷺ قال لعلي رضي الله عنه: «**ناولني كفا من تراب الوادي**». فناوله قبضة فاستقبل بها وجوه المشركين، فرماهم بها وقال: «**شاهت الوجوه**»، أي قبحت، فملأ الله أعينهم بها فلم يبق منهم أحد إلا وقد شغل بعينه، فحمل عليهم المسلمون، فهزموهم، فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ أعلم الله تعالى أن كفا من التراب لا تملأ عيون ذلك الجيش برمية بشر، وأنه تعالى تولى إيصال ذلك إلى أبصارهم من الموضع الذي كان فيه النبي ﷺ حتى أصاب عين كل واحد منهم قسط من ذلك التراب[2].

قوله تعالى: ﴿وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ﴾ أي ولينعم على المؤمنين بالنصر والغنيمة والأسارى نعمة حسنة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي سميع لدعائكم عليم بأفعالكم وضمائركم.

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 7/ 268، رقم: 2594 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 944، رقم: 2827، باب السرايا.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 191 ـ السيوطي، أسباب النزول: 134.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿18﴾﴾ أي ذلكم الذي ذكرت لكم من القتل الرمي والإبلاء الحسن ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ أي واعلموا أن الله. وفي فتح «أن» من الوجوه مثل ما في قوله: ﴿وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ وقد بيناه. قوله تعالى: ﴿مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي مضعف كيدهم. قرأ أهل الكوفة إلا حفصاً ويعقوب وابن عامر: موهن ـ بالتخفيف والتنوين، كيد ـ بالنصب، وقرأ الحسن والأعمش وحفص: موهن ـ مخففاً مضافاً بالجر طلباً للخفة[1]، كقوله: ﴿مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾[2] و﴿كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾[3].

قوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ۖ وَإِن تَنتَهُوا۟ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَعُودُوا۟ نَعُدْ وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿19﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ هذا خطاب للكفار، وذلك أن أبا جهل قال يوم بدر قبل القتال: اللَّهم انصر أعز الجندين، وأكرم الفئتين، وخير الدينين. اللَّهم أينا أقطع للرحم وأفسد للجماعة فأحنه اليوم. فاستجاب الله دعاءه على نفسه وأتاه الفتح، فضربه أبناء عفراء: عوف ومعاذ، وأجهز عليه ابن مسعود. وقال السدي والكلبي: كان المشركون حين خرجوا إلى بدر تعلقوا بأستار الكعبة وقالوا: اللَّهم انصر أعلى الجندين، وأهدى الفئتين، وأكرم الحرمين، وأفضل الدينين. اللَّهم أي الفئتين أحب إليك فانصرهم. اللَّهم اقض بيننا وبينهم. فأنزل الله هذه الآية، أي إن تستنصروا فقد جاءكم النصر. فنصر محمد ﷺ. وقال عكرمة: قال المشركون: اللَّهم لا نعرف ما جاء به محمد فافتح بيننا وبينه بالحق. فأنزل الله هذه الآية[4]: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ﴾ أي إن تستحكموا فقد جاءكم الحكم، وإن تستقضوا فقد جاءكم القضاء.

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 304 ـ 305 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 182.
(2) سورة القمر (54)، الآية: 27.
(3) سورة الدخان (44)، الآية: 15.
(4) الواحدي: أسباب النزول: 191 ـ 192.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وإن تنتهوا عن الشرك والمعاصي فهو خير لكم، ﴿وَإِن تَعُودُواْ﴾ إلى القتال ﴿نَعُدْ﴾ بأن نأمر المسلمين بجهادكم وننصرهم عليكم. وقال بعضهم: هذه الآية خطاب للمؤمنين، أي إن تستنصروا الله وتسألوه الفتح فقد جاءكم الفتح والنصر، وإن تنتهوا عن فعلكم في الأسارى والفداء يوم بدر فهو خير لكم وإن تعودوا إلى فعلكم في الأسارى نعد إلى الإنكار عليكم ﴿وَلَن تُغْنِىَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي نسلب النصر عنكم لا تغني عنكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت في العدد ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. قرأ نافع وابن عامر، وحفص: وأن الله ـ بفتح أن، بمعنى: ولان الله، وقيل: عطف على قوله: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾، وقيل على معنى: واعلموا أن الله، وقرأ الباقون بالكسر على الابتداء[1]، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم، لأن في قراءة عبد الله: والله مع المؤمنين. ومعنى الآية: وأن الله مع المؤمنين بالنصر والمعونة[2].

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿20﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿21﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿22﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي أطيعوا الله ورسوله في أمر الغنيمة وغيرها، ولا تولوا عن أمر الله وأنتم تسمعون ما أنزل الله تعالى. وقال الحسن معناه: وأنتم تسمعون الحجة في وجوب طاعة الله وطاعة رسوله. وأما تخصيص المؤمنين بالأمر لهم بالطاعة وإن كانت هذه الطاعة واجبة على غير المؤمنين كوجوبها على المؤمنين، فلأحد معنيين: إما إجلالا لهم ورفعا لقدرهم، فيدخل غيرهم في الخطاب على جهة التبع لهم، وإما لأنه لم يعتد بغير المؤمنين لإعراضهم عما وجب عليهم.

(1) ابن مجاهد، السبعة: 305.
(2) تفسير الثعلبي ورقة: 40.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي لا تكونوا كالذين قالوا سمعنا على جهة القبول وهم لا يسمعون للقول، وإنما سمعنا به للرد والإعراض عنه. ويقال معناه: ولا تكونوا كالذين قالوا قبلنا وهم لا يقبلون، ومنه قولهم: سمع الله لمن حمده، أي قبل الله حمد من حمده. واختلفوا فيمن نزلت هذه الآية: قال ابن جريج: نزلت في المنافقين، وقال الحسن: في أهل الكتاب ويقال في مشركي العرب[1].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ معناه: إن شر الخليقة على وجه الأرض الكفار الذين لا يسمعون الهدى ولا يتكلمون بخير ولا يتدبرون القرآن. وسماهم صماً وبكماً لأنهم لم ينتفعوا بما سمعوا من دلائل الله تعالى. قال الاخفش: كل محتاج إلى غذاء فهو دابة. فمعنى الآية: إن شر ما دب على وجه الأرض من خلق الله الصم والبكم عن الحق فهم يسمعونه ولا يعقلونه. وقيل: صم القلوب وعميها. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾[2].

قوله تعالى:

﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ﴾ أي لو علم الله فيهم أنهم يصلحون بما يورده عليهم من الحجة وآياته لأسمعهم إياها. وقيل معناه: لأسمعهم جواب كل ما سألوا عنه، فلو بين لهم كلما يختلج في نفوسهم لتولوا عن الهدى وهم معرضون لمعاندتهم.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ

---

(1) سيرة ابن هشام: 2/ 669 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 40.

(2) سورة الحج (22)، الآية: 46.

ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿25﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ معناه: أجيبوا الله والرسول. وقيل: معنى الإجابة طلب الموافقة للداعي على وجه الطاعة، وقيل: في الجمع بين الاستجابة لله وللرسول، أي استجيبوا لله بسرائركم وللرسول بظواهركم. وقوله تعالى: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي إذا دعاكم إلى العلم الذي يحييكم في أمر الدين. وقيل معناه: إذا دعاكم إلى الجهاد الذي يحيي أمركم، وقيل: إذا دعاكم إلى ما يكون سبباً للحياة الدائمة في نعيم الآخرة، لأنه إذا حصل الامتثال بأمر الله ورسوله حصلت هذه الحياة الدائمة، وإن لم يحصل الامتثال أدى ذلك إلى العقاب الذي يتمنى معه الموت. وقال القتيبي: معنى قوله تعالى: ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ يعني الشهادة[(1)]، لأن الله تعالى قال في الشهداء: ﴿بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[(2)]. واللام في قوله: ﴿لِمَا﴾ بمعنى «إلى»

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ فيه ثلاثة أقوال: أحدها أن معناه: يحول بين المرء وأمله بالموت، أو غيره من الآفات، فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة، ودعوا التسويف فإن الأجل يحول دون الأمل. وقال مجاهد: يحول بين المرء وقلبه وحتى يتركه لا يعقل[(3)]، والثاني: أن معناه إن الله تعالى أقرب إلى ذي القلب من قلبه، فإن الذي يحول بين الشيء وغيره أقرب إلى ذلك الشيء من غيره كما قال تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾[(4)] وفي هذا تحذير شديد، والثالث: أن معناه: أن الله تعالى يقلب القلوب من حال إلى حال، كما جاء في الدعاء: يا مقلب القلوب. وقال ابن جبير: يحول بين الكافر أن يؤمن، وبين المؤمن أن يكفر. وقال ابن عباس والضحاك: يحول بين المؤمن ومعصيته، ويحول بين الكافر وطاعته. وقال السدي: يحول بين المرء وقلبه فلا

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 40.
(2) سورة آل عمران (3)، الآية: 169.
(3) تفسير الطبري: 13/ 470.
(4) سورة ق (50)، الآية: 16.

يستطيع أن يؤمن ولا يكفر إلا بإذنه[1]. وقرأ الحسن: بين المر ـ بتشديد الراء من غير همز. وقرأ الزهري: بين المرء ـ بضم الميم والهمزة[2] وهي لغات صحيحة.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ معناه: واعلموا أن محشركم في الآخرة إلى الله فيجزي كل عامل بما عمل، إن كان خيراً فخير، وإن كان شراً فشر. وقيل: تأويل الآية: أي أن الذي يحول بين المرء وقلبه قادر على أن يبدل خوفكم أمنا وأمن عدوكم خوفاً، فيجعل القوي ضعيفاً والضعيف قوياً، والعزيز ذليلاً والذليل عزيزاً، والشجاع جباناً والجبان شجاعاً، يفعل ما يشاء ويريد، فأجيبوا الرسول في الجهاد ولا تخافوا ضعفكم وقوتهم.

قوله عز وجل: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ نزلت في عثمان، وعلي رضي الله عنهما، أخبر الله النبي ﷺ بالفتنة التي تكون بسببهما أنها ستكون بعدك يلقاها أصحابك تصيب الظالم والمظلوم، ولا تكون بالظلمة وحدهم خاصة ولكنها عامة. فأخبر النبي ﷺ بذلك أصحابه. فكان بعد وفاة النبي ﷺ من الفتن بسبب علي وعثمان رضي الله عنهما ما لا يخفى على أحد[3]. وقوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ جواب الأمر بلفظ النهي، كما يقال: أنزل عن الدابة لا تطرحنك، معناه: إن تنزل عنها لا تطرحنك. فإذا أتيت بالنون الخفيفة أو الثقيلة كان آكد للكلام، ومثله قوله تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾[4]. والمراد بالفتنة القتل الذي تركت الناس فيه الظلم، فكأن الله أمر باتقاء ترك الإنكار على أهل المعاصي واتقاء الاختلاط بأهل المعصية. قال ابن عباس: أمر الله المؤمنين أن لا يقروا المنكر بين أظهرهم فيصيبهم الله بالعذاب[5].

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 616 فقد ذكر هذه الأقوال.
(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 41 هاتين القراءتين.
(3) ذكره البغوي في معالم التنزيل: 2/ 617 ـ والطبري في تفسيره: 13/ 473.
(4) سورة النمل (27)، الآية: 18.
(5) تفسير الثعلبي، ورقة: 41.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ تحذير بشدة العقوبة لمن أهاج الفتن. قال ﷺ: **«الفتنة واقعة في بلاد الله واضعة خطامها، فالويل لمن أهاجها»**. وفي بعض الأخبار: **«الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»**.

قوله تعالى:

﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿26﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ نزلت في المهاجرين خاصة. احفظوا معشر المهاجرين إذ أنتم قليل في العدة مقهورون في أرض مكة تخافون أن يتخطفكم ويذهب بكم أهل مكة، فآواكم إلى المدينة وأعانكم يوم بدر بالملائكة، ورزقكم الحلال من الغنائم لكي تشكروا الله وتعرفوا ذلك منه فتطيعوه.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿27﴾ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿28﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نزلت في أبي لبابة بن عبد المنذر، فإن بني قريظة قالوا لرسول الله ﷺ: ابعث لنا حليفاً من حلفائنا ننزل على حكمه. فأبى رسول الله ﷺ أن لا ينزلوا إلا على حكم سعد بن معاذ، وكانوا يقولون: ارسل إلينا أبا لبابة. وكان عياله ولده وأهله عندهم، فبعثه النبي ﷺ إليهم فقالوا له: يا أبا لبابة أننزل على حكم سعد ابن معاذ؟ فأشار بيده إلى حلقه ـ أي إنه الذبح فلا تفعلوا ـ ولم يتكلم بلسانه، فأنزل الله هذه الآية[1] قال أبو لبابة: فما زالت قدماي من مكانهما حتى علمت أني خنت الله ورسوله، فذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ كما فعل أبو لبابة. فلما نزلت هذه الآية، شد أبو لبابة نفسه على سارية

(1) الواحدي، أسباب النزول: 192.

من سواري المسجد وقال: لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله علي. فمكث سبعة أيام لا يذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه، ثم تاب الله عليه فجاء رسول الله ﷺ فحله بيده، فقال أبو لبابة: من تمام توبتي أن أهجر دار قومي التي أصبت فيها الذنب، وأن انخلع من مالي. فقال ﷺ: «**يجزيك الثلث أن تصدق به**»[(1)]، وقال ابن عباس: معنى الآية: لا تخونوا الله بترك فرائضه والرسول بترك سنته[(2)]. ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ أي ولا تخونوا أماناتكم، انتصب على الظرف، أي إنكم إن فعلتم ذلك فإنما خنتم أماناتكم، ويقال: أراد بقوله: ﴿لَا تَخُونُواْ﴾: الخيانة من الغنائم التي هي عطية الله، والخيانة فيها خيانة الرسول أيضاً، لأنه هو القيم بتقسيمها. وقوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ يحتمل الخيانة في الغنائم أيضاً لأنهم كلهم مشتركون فيها، فمن استبد بشيء فقد خان. ويحتمل الخيانة في ائتمان بعض الناس بعضاً من حقوق أنفسهم. وقال الأخفش: قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ عطف على ما قبله من النهي تقديره: ولا تخونوا أماناتكم.

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ﴾ معناه: أن الانسان ربما يترك الجهاد ويخون في الأمانات لأجل الأولاد أو حرصاً على المال. وقد روينا أن أبا لبابة إنما حمله على ما فعل ماله وأهله وولده الذين كانوا في بني قريظة، لأنه إنما ناصحهم لأجلهم وخان المسلمين بسببهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ﴾ أي ثواب جسيم في الآخرة لمن لم يعص الله لأجل المال والذرية.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

(1) تفسير الطبري: 13/ 481 ـ 482.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 620.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْۗ﴾ أي إن تتقوا الله في الأمانات فتمتنعوا من معاصيه بأداء فرائضه يجعل لكم نوراً في قلوبكم تفرقون به بين الحق والباطل. وقيل: يجعل لكم مخرجاً ونجاة في الدنيا والآخرة. وقال الضحاك: فرقاناً أي بياناً[(1)].

قوله تعالى: ﴿وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾ أي يمحق عنكم ذنوبكم ويستر عليكم خطاياكم ولا يؤاخذكم بها ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي عظيم الفضل على عباده ابتدأهم بالنعم.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿30﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ﴾ ذكر الله تعالى نبيه ﷺ ببعض ما أنعم عليه من النصر والظفر يوم بدر ما كان من مكر المشركين في أمره بمكة فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي اذكر تلك الحالة. قال ابن عباس: وذلك أن رؤساء قريش اجتمعوا في دار الندوة يمكرون برسول الله ﷺ ويحتالون عليه، منهم: عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث، وأبو البختري بن هشام ونبيه ومنبه وأمية[(2)] بن خلف وزمعة ابن الأسود، فدخل عليهم إبليس في صورة شيخ كبير عليه ثياب أطمار فجلس بينهم[(3)]، فقالوا: ما لك يا شيخ دخلت في خلوتنا بغير إذننا؟ فقال: أنا رجل من أهل نجد قدمت مكة، فأراكم حسنة وجوهكم طيبة رائحتكم فأحببت أن أسمع حديثكم فأقتبس منكم خيراً فدخلت، وإن كرهتم مجلسي خرجت، وما جئتكم إلا أني سمعت باجتماعكم فأردت أن أحضر معكم، ولن تعدموا مني رأياً ونصحاً. فقالوا: هذا رجل لا بأس عليكم منه. فتكلموا فيما بينهم فبدأ هشام بن

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 621.
(2) في النسخة (ف): وأبي.
(3) تفسير الطبري: 13/ 494.

عمرو فقال: أما أنا فأرى أن تأخذوا محمداً فتجعلوه في بيت تسدون عليه بابه وتشدون وثاقه وتجعلون له كوة تدخلون عليه منها طعامه وشرابه فيكون محبوساً عندكم إلى أن يموت. فقال إبليس لعنه الله: بئسما رأيت تعمدون إلى رجل له فيكم أهل بيت وقد سمع به من حولكم فتحبسوه، يوشك أن يقاتلكم أهل بيته ويفسدوا عليكم جماعتكم. فقالوا: صدق والله الشيخ. ثم تكلم أبو البختري فقال: أرى أن تحملوه على بعير فتشدوا وثاقه عليه ثم تخرجوه من أرضكم حتى يموت أو يذهب حيث شاء. فقال إبليس: بئس الرأي ما رأيت، تعمدون إلى رجل فسد جماعتكم ومعه منكم طائفة فتخرجوه إلى غيركم فيأتيهم فيفسد أيضاً منهم جماعة لما يرون من حلاوة كلامه وطلاقة لسانه، ويجتمع إليه العرب ويستمع إلى حسن حديثه منهم جماعة فيخرجوكم من دياركم ويقتل أشرافكم. قالوا: صدق الشيخ. فتكلم أبو جهل فقال: أرى أن تأخذوا من كل بطن منكم رجلاً ويأخذون السيوف فيضربونه جميعاً ضربة رجل واحد، فإذا قتلتموه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا يدري قومه من يأخذون، ولا يقومون على حرب قريش كلها، وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا الدية فتؤدي قريش ديته واسترحنا منه. فقال إبليس: صدق والله الشاب وهو أجودكم رأياً، القول قوله لا أرى غيره. فتفرقوا على ذلك، فنزل جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ بذلك، وأمره أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، وأمره الله بالهجرة إلى المدينة، فكان من أمر الغار ما كان[1]. فذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي ليحبسوك، وهو ما قال هشام بن عمرو ويقال: معنى ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ أي يقيدوك. ويقال: يخرجوك. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَقْتُلُوكَ﴾ ظاهر المعنى، وهو ما قال أبو جهل. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ أي من بين أظهرهم إلى غيرهم، وهو ما قال أبو البختري بن هشام.

قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي يريدون بك الشر والهلاك ﴿وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ﴾ أي يريد قتلهم ببدر مجازاة لهم على فعلهم وسوء

---

(1) تفسير الطبري: 13/ 494 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 621 ـ 622 ـ ابن هشام، السيرة النبوية: 2/ 124.

صنعهم. وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ أي أفضل الصانعين وأقوى المدبرين لأنه لا يمكر إلا بحق وصواب ومكرهم باطل وظلم.

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ يعني النضر بن الحارث، وذلك أنه كان يختلف تاجراً إلى فارس والحيرة، فيسمع سجع أهلها وذكرهم أخبار العجم وغيرهم من الأمم، ويمر باليهود والنصارى فيراهم يقرءون التوراة والإنجيل، فجاء مكة فوجد محمداً يقرأ القرآن فقال: ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي أخبار الأمم الماضية وأسماؤهم. وكان النضر يقول: إن هذا الذي يخبركم به محمد ما هو إلا مثل ما أحدثكم من أحاديث الأولين. وكان النضر كثير الحديث عن الأمم الخالية[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾.

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾﴾ نزلت في النضر بن الحارث أيضاً قال: لو شئت لقلت مثل هذا، إن هذا إلا أساطير الأولين في كتبهم. ثم قال: اللّٰهم إن كان الذي يقوله محمد هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء كما أمطرتها على قوم لوط، أو ائتنا ببعض ما عذبت به الأمم[2]. وفيه

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 623.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 192.

نزل: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ﴾[1]. وكان النضر من بني عبد الدار. ومعنى الآية: واذكر يا محمد إذ قالوا اللّهم وأنت بين أظهرهم بمكة فلم يعذبهم الله حينئذ وعذبهم من بعد، فأسر النضر يوم بدر وقتل صبرا، وكان الذي أسره المقداد بن الأسود.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ﴾ هو عماد وتوكيد وصلة في الكلام، والحق نصب خبراً لكان.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ قال ابن عباس: قال الحارث بن عامر بن نوفل: يا محمد والله إنك فينا لصادق ولا نتهمك، ولكنا متى نؤمن بك غزانا العرب. فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ أي مقيماً بين أظهرهم. ولم تعذب أمة قط ونبيها بين أظهرهم حتى يخرج منها ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ﴾ أي وما كان الله أن يسلط عليهم عدوهم وهم يستغفرون، أي يصلون.

قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ يعني عذاب الآخرة[2]. وعن [سعيد بن] عبد الرحمن بن أبزى[3] قال: كان رسول الله ﷺ بمكة فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾ فخرج رسول الله ﷺ إلى المدينة فنزل: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمۡ وَهُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ وكان من المسلمين بقية بمكة لم يهاجروا، وكانوا يستغفرون الله ويصلون. فلما خرج كفار مكة إلى حرب بدر نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾ أي يمنعون المؤمنين عنه فيعذبهم الله في يوم بدر[4].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ﴾ أي ما كان الكفار أولياء المسجد

---

(1) سورة المعارج (70).

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 43.

(3) سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى الخزاعي: تابعي ثقة، روى عن أبيه وابن عباس، وروى عنه عطاء بن السائب، وطلحة بن مصرف، وجعفر بن أبي المغيرة، وغيرهم. ابن حجر، تهذيب التهذيب: 4/ 54.

(4) تفسير الطبري: 13/ 509.

الحرام. قال الحسن: وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن أولياء المسجد الحرام. فرد الله ذلك عليهم. وقيل معناه: وما كانوا أولياء الله.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي ما أولياء الله، وقيل: ما أولياء المسجد الحرام إلا المتقون للشرك، ولكن أولئك الكفار لا يعلمون ذلك.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿35﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿36﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿37﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾ معناه: أن دعاء المشركين إلى الله كان بالصفير والتصفيق، كانوا يفعلون ذلك عند البيت مكان الدعاء والتسبيح، وقيل: كانوا يأتون بأفعال الصلاة، إلا أنهم مع ذلك يصفرون فيها ويصفقون. والمكاء: طائر أبيض يكون في الحجاز يصفر، فسمي تصويته باسمه. ويقال: مكا يمكو: إذا صفر. وصدى يصدى تصدية: إذا صفق بيده، وقال مقاتل: كان النبي ﷺ إذا صلى في المسجد قام رجلان من بني عبد الدار عن يمينه ورجلان عن يساره فيصفرون كما يصفر الماء، ويصفقون بأيديهم ليخلطوا على النبي ﷺ صلاته وقراءته، وكانوا يفعلون كذلك بصلاة من آمن به[1]. فقتلهم الله يوم بدر، وذلك قوله تعالى: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ويقال: أراد بهذا أنه يقال لهم يوم القيامة: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ وقال جعفر[2] [بن ربيعة]: سألت أبا سلمة عن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ﴾ فجمع يديه ثم نفخ فيهما صفيراً[3]. وقال ابن عباس: كانت

---

(1) البغوي: معالم التنزيل: 2/ 628.

(2) جعفر بن ربيعة بن عبد الله بن شرحبيل بن حسنة الأزدي: ثقة، توفي بمصر سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية. الطبقات الكبرى: 7/ 356.

(3) تفسير الطبري: 13/ 523.

قريش يطوفون بالبيت عراة، ويدخلون أصابعهم في أفواههم فيصفرون.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ نزلت هذه الآية في المطعمين منهم يوم بدر، وكانوا اثني[1] عشر رجلا، منهم أبو جهل، وأخوه الحارث، والنضر بن الحارث، وأبي بن خلف، وزمعة بن الأسود، وعتبة، وشيبة، كان لكل واحد منهم نوبة في الإطعام[2]. ومعنى الآية: إن الذين كفروا ينفقون أموالهم على عداوة رسول الله ﷺ ليصرفوا الناس عن دين الله، فسيقع هذا الإنفاق منهم، ثم يكون إنفاقهم ندامة عليهم يوم القيامة، ثم يهزمون، ويقتلون ببدر لا تنفعهم نفقتهم. والحسرة مأخوذة من الكشف يقال: حسر رأسه إذا كشفه. والحاسر: كاشف الرأس، فيكون المعنى: ثم يكشف لهم عن ذلك ما يكون حسرة عليهم. قيل: كان يطعم كل واحد منهم كل يوم عشر جزر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ بيان أن ذلك القتل والهزيمة لا يكفران ذنوبهم، وأنهم يحشرون في الآخرة إلى جهنم للجزاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾ أي ليميز الله نفقة المؤمنين من نفقة الكافرين، والعمل السيء من العمل الصالح. وقرىء: ليميز الله - بالتشديد[3]. فالمعنى: ليميز الله بذلك الحشر الخبيث من الطيب، أي الكافر من المؤمن، فينزل المحق الجنان، والكافر النيران.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي يجعل ما أنفقه المشركون في معصية الله بعضه فوق بعض فيجعله ركاماً فتكوى بذلك جباههم وجنوبهم في جهنم. وقيل: أراد بقوله: ﴿فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا﴾ طرح بعضه على بعض كما يفعل بالمتاع الخسيس تحقيراً له. وقيل: معنى ﴿فَيَرْكُمَهُۥ﴾ أي يجمعه حتى يصير كالسحاب المركوم: وهو المجتمع الكثيف فيجعله في جهنم.

---

(1) في النسخة (ف): ثلاثة عشر.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 193.

(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 306.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ أي هم الذين خسروا أنفسهم في الدنيا والآخرة، وغبنت صفقتهم، وخسرت تجارتهم لأنهم اشتروا بأموالهم عذاب الله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿38﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿39﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿40﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ أي قل لأبي سفيان وأصحابه إن ينتهوا عن الشرك، وقتال محمد ﷺ يغفر لهم ما قد سلف، أي ما قد مضى من ذنوبهم قبل الإسلام، وإن يعودوا لقتال محمد ﴿فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ في نصر الأنبياء والأولياء وهلاك الكفار، وأن للكفار النار في الآخرة، وأنشد بعضهم:

يستوجب العفو الفتى إذا اعترف ∴ ثم انتهى عما أتاه واقترف

لقوله سبحانه في المعترف ∴ إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف[1]

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ أي قاتلوا كفار مكة حتى لا يكون شرك، وقيل: حتى لا تكون كافرة بغير عهد، كأن الفتنة إنما تكون بأن يترك الكفار بلا عهد، فإن الكافر بغير عهد يكون عزيزاً في نفسه يدعو الناس إلى دينه. ويجوز أن يكون المراد بالفتنة كل ما يؤدي إلى الفساد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ أي وتكون الطاعة كلها لله فيجتمع الناس على دين الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي فإن انتهوا من الشرك فإن الله يجازيهم جزاء البصير بأعمالهم ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ أي أعرضوا عن

(1) نسب البيتان إلى أحمد بن محمد الزبيري. (تفسير القرطبي: 7/ 401).

طاعة الله ﴿فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَىٰكُمۡۚ﴾ أي ناصركم ﴿نِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أي نعم الحافظ والولي ونعم النصير ينصركم عليهم.

قوله تعالى: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (41)﴾

قوله عز وجل: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ حتى الخيط والمخيط. قال ابن عباس: كان خمس الغنيمة[1] يقسم على عهد رسول الله ﷺ على خمسة أسهم[2]: سهم لله ورسوله واحد كان النبي ﷺ يعطي منه المحتاج والضعيف، ويجعل في عدة المسلمين من السلاح ونحوه، وسهم لذوي قرابة رسول الله ﷺ، وسهم ليتامى المسلمين عامة، وسهم للمساكين، وسهم لابن السبيل. ثم قسمه أبو بكر بعد وفاة النبي ﷺ على ثلاثة أسهم: لليتامى، والمساكين، وابن السبيل. وكذلك فعله عمر، وعثمان، وعلي رضي الله عنهم، وبهذا أخذ أبو حنيفة وأصحابه قالوا، لأن قوله: ﴿لِلَّهِ خُمُسَهُۥ﴾ لافتتاح الكلام باسمه تعالى على طريق التبرك لا لأن لله تعالى نصيباً من الخمس، فإن الدنيا والآخرة كلها له سبحانه. وسهم رسول الله ﷺ سقط بموته، لأن الأنبياء عليهم السلام لا يورثون. وسهم ذوي القربى كان يجعل إلى النبي ﷺ ليضعه فيمن شاء منهم. ألا ترى أنه أعطى بني هاشم، وبني عبد المطلب، وحرم بني نوفل، وبني عبد شمس مع مساواتهما بني عبد المطلب في القرب، لأن بني هاشم لم يفارقوه في جاهلية ولا إسلام. وإذا بطل هذان الاسمان بعد رسول الله ﷺ رجعنا إلى السهام الثلاثة التي ذكرت معهما فنقسم الخمسة على ثلاثة أسهم، ويدخل في استحقاقه فقراء بني هاشم دون أغنيائهم بدلاً عما حرموا من الصدقات، وأربعة أخماس الغنيمة للغانمين. واليتيم من كل جنس من الحيوان: الذي ماتت أمه إلا من بني آدم فإنه الذي مات أبوه. والمسكين: الذي أسكنه الضعف عن النهوض

---

(1) الغنيمة: هي مال الكفار إذا ظفر به المسلمون على وجه الغلبة والقهر.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 44.

لحاجته. وابن السبيل: المنقطع عن ماله. وقال بعضهم: يقسم الخمس الآن على أربعة أسهم فيفرد سهم من الخمس لفقراء قرابة النبي ﷺ. وقال الشافعي: يقسم الخمس الآن على خمسة أسهم: سهم الرسول ﷺ يصرف إلى الأهم فالأهم من مصالح المسلمين. ومن أصحابه من قال يصرف إلى الخليفة، وسهم ذوي قرابة النبي ﷺ لأغنيائهم وفقرائهم، وثلاثة أسهم لليتامى، والمساكين، وابن السبيل.

قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ اقبلوا ما أمرتم في الغنيمة ﴿إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ﴾ أي صدقتم بتوحيد الله ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ﴾ أي يوم بدر فرق بين الحق والباطل بنصر المؤمنين وكبت الكافرين مع ضعف المسلمين وقلتهم. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ أي جمع المؤمنين والكافرين ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من نصر المؤمنين وغير ذلك.

قوله تعالى:

﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿42﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي اذكروا يا أصحاب محمد إذ كنتم بالعدوة الدنيا، أي شفير الوادي الذي يلي المدينة. يقال لشفير الوادي: عُدوة وعِدوة. ﴿وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ﴾ يعني المشركين بالجانب الآخر من الوادي على شفيره الأبعد من المدينة، وهو الجانب الذي يلي مكة. وقوله تعالى: ﴿وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ أي والقافلة المقبلة من الشام التي كان أبو سفيان فيها كانت أسفل منهم بثلاثة أميال، كانوا نازلين أسفل الوادي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ أي إن الله جمعكم مع المشركين وأصحاب العير في ليلة واحدة وفي مكان واحد ﴿وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ﴾ للاجتماع هناك ﴿لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ﴾ بالعوائق التي تعوق عن ذلك. وبأنكم لو

كنتم تعلمون كثرة عدد المشركين وقلة عددكم لم تحضروا في ذلك المكان للقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لِّيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ أي ولكن قدر الله اجتماعكم في ذلك المكان ليقضي الله أمراً كائناً لا محالة من إعزاز الإسلام وإعلانه على سائر الأديان.

قوله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليموت من مات منهم بعد قيام الحجة عليهم، ويعيش من عاش بعد قيام الحجة عليهم ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ﴾ لمقاتلكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بضمائركم، يجازيكم على قدر أعمالكم. قرأ أهل مكة والبصرة: بالعدوة ـ بكسر العين، وقرأ الباقون بضمها[1]، وهما لغتان مشهورتان كالكسوة والكسوة، والرشوة والرشوة، وكذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ قرأ نافع والبزي وخلف: حيي ـ بياءين، مثل: خشي على الأصل، وقرأ الباقون بياء واحدة مشددة على الإدغام[2]. ومعنى ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ أي ليموت من مات عن بينة رآها وعبرة عاينها أو حجة قامت عليه، وكذلك حياة من يحيى لوعده ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[3].

قوله تعالى:

﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿43﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿44﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ قال ابن عباس: وذلك أن النبي ﷺ رأى العدو في المنام قليلاً، فقص رؤياه على أصحابه، فلما التقوا ببيداء قلل الله المشركين في أعين المؤمنين تصديقاً لرؤيا النبي ﷺ[4]. ﴿وَلَوْ

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 306.

(2) نفس المصدر.

(3) سورة الاسراء (17)، الآية: 15.

(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 35.

أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ أي لخفتم وتأخرتم عن الصف ولاختلفتم في أمر الحرب. والفشل: هو الضعف مع الوجل.

قوله تعالى: ﴿وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ التنازع: أن يحاول كل واحد من الاثنين أن ينزع صاحبه مما هو عليه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ﴾ أي سلمكم من ذلك ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي بما في قلوبكم علم أنكم لو علمتم كثرة عدد المشركين لرغبتم عن القتال.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ وذلك أن الله تعالى قلل المشركين في أعين المسلمين ليجتري المسلمون على قتالهم، وقلل المسلمين في أعين المشركين كيلا يستعد المشركون لحربهم كل الاستعداد. روي عن ابن مسعود أنه قال: قلت لرجل بجنبي: أتراهم سبعين[1] رجلا؟ قال: هم قريب من المائة. فلما أسرنا رجلاً منهم سألناه عن عددهم قال: كنا ألفا أو تسعمائة وخمسين[2].

وقوله تعالى: ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ قد تقدم تفسيره. والفائدة في إعادته أن المراد بالأول: إعلاء الإسلام على سائر الأديان، والمراد بالثاني: قتل المشركين وأسرهم يوم بدر، وكلاهما كان كائناً في علم الله.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿45﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿46﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿47﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ أي إذا لقيتم جماعة من الكفار فاثبتوا لقتالهم، واذكروا الله كثيراً

---

(1) في النسخة (س) تسعين.

(2) تفسير الطبري: 12/ 572 ـ تفسير القرطبي: 8/ 23.

في الحرب بالدعاء والاستغفار لكي تفلحوا بالظفر على الأعداء.

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ﴾ أي اطيعوا الله ورسوله في الثبات على القتال، ولا تختلفوا فيما بينكم في لقاء العدو والتقدم إلى قتالهم فتجبنوا عن عدوكم ﴿وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ قال قتادة: يعني ريح النصر التي يبعثها الله مع من ينصره[1]، كما قال عليه السلام: «**نصرت بالصبا**»[2]. وقيل معناه: وتذهب دولتكم وقوتكم. وقال مجاهد: ويذهب نصركم. وقال السدي: جلدكم وحدتكم.

وقوله تعالى: ﴿وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ أي اصبروا على قتال المشركين ولا تولوهم الأدبار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ﴾ أي قاتلوا لوجه الله، ولا تكونوا في خروجكم إلى قتال المشركين كالمشركين الذين خرجوا من ديارهم إلى قتال المسلمين بطراً: وهو الطغيان في النعمة ورياء الناس. والرياء هو إظهار الجميل مع إبطان القبح.

قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي مع بطرهم، فإنهم يمنعون الناس عن دين الله. قال ابن عباس: وذلك أن بعض المشركين قالوا لأبي جهل وأصحابه قبل وصولهم إلى بدر: ارجعوا إلى مكة فقد نجت العير: فقال: لا نرجع حتى نرد بدراً فننحر الجزور، ونشرب الخمور، وتغني القيان حتى يسمع العرب بمسيرنا. فنزلوا ببدر ومعهم القيان يضربن بالدفوف ويتغنين بهجاء المسلمين، فسقاهم الله كأس المنايا مكان الخمور، وناحت عليهم النوائح مكان القيان، فنهى الله المؤمنين أن يكونوا مثلهم، وأمرهم بإخلاص النية والصبر في نصرة دينه، ومؤازرة نبيه ﷺ.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 638.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 8/ 157، رقم: 4105، كتاب المغازي. الصبا ـ بفتح المهملة وتخفيف الموحدة ـ: الريح الشرقية.

الدبور: الريح الغربية.

قوله تعالى:

﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ ۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ ۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿48﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ أي واذكر إذ زين لهم الشيطان أعمالهم يوم بدر، وقال لا غالب لكم اليوم من أحد من الناس لمنعكم وكثرتكم، وإني دافع الشر عنكم. ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي لما توافقتا رجع الشيطان القهقرى على عقبيه هارباً خوفاً مما رأى وقال للمشركين: ﴿إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّنكُمْ﴾ إني أرى الملائكة تنزل من السماء وأنتم لا ترون. وكان يعرف الملائكة ويعرفونه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ﴾ أي أخافه أن يصيبني معكم بعذابه ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن استحقه. قال مقاتل: كذب عدو الله ما كان به من خوف من الله تعالى، فالله قد أنظره إلى الوقت المعلوم، ولكنه خذلهم عند الشدة. ويقال: ظن إبليس أن الوقت الذي أنظره الله إليه قد حضر. وعن ابن عباس: أن أهل مكة لما وجدوا العير أرادوا الرجوع، فتمثل لهم إبليس في صورة رجل يقال له سراقة بن مالك بن جعشم[1] من بني كنانة فقال: لا ترجعوا حتى تستأصلوهم فإنكم كثير وهم قليل، ولا غالب لكم اليوم من الناس، وإني معين لكم من بني كنانة، فلا تمرون على أحد من بني كنانة إلا سائر معكم فإنهم لا يخالفونني. فساروا وسار إبليس معهم ولم يخرج أحد من بني كنانة، فجعلوا يقولون: يا سراقة أين ما ضمنت لنا؟ فيقول: غروني حتى قدموا بدرا، فلما كان عند القتال رأى إبليس جبريل فنكص على عقبيه راجعاً، فقال الحارث بن هشام: يا سراقة أين تذهب؟ فقال: إني أرى ما لا ترون. فقال الحارث: وما يرى إلا جعاشش

---

(1) أبو سفيان سراقة بن مالك صحابي شاعر وقائف مشهور أسلم بعد غزوة الطائف وتوفى سنة أربع وعشرين هـ ـ الاستيعاب: 2: 581.

أهل يثرب. والجعشوش: الرجل القصير. فلما رأى الحارث إبليس منطلقاً أهوى به ليأخذه فدفعه إبليس فرمى به، ثم نكص على عقبيه وهو يقول: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾. فلما انهزم المشركون جعلوا يقولون: هزم الناس سراقة. فبلغ ذلك سراقة فقدم عليهم فقال: بلغني أنكم تقولون: إني هزمت الناس، والذي يحلف به ما بلغني ما تقولون ولا سمعت بمسيركم حتى بلغتني هزيمتكم. فجعلوا يقولون له: ما أتيتنا يوم كذا وكذا؟ وهو يقول: لا والذي يحلف به ما كان من ذا قليل ولا كثير. فلما أسلموا عرفوا أنه إنما كان من الشيطان فإن قيل: كيف يجوز أن يتمكن إبليس من أن يخلع صورة نفسه ويلبس صورة سراقة، ولو كان قادراً على أن يجعل نفسه في مثل صورة إنسان لكان قادراً على أن يجعل غيره إنساناً؟ قيل: إذا صحت هذه الرواية فالجواب أن الله خلق إبليس في صورة سراقة، والله تعالى قادر على خلق الإنسان في مثل صورة سراقة ابتداء، وكان قادراً على أن يصور إبليس في مثل صورة سراقة.

قوله تعالى:

﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ (49) وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ (50) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ (51)﴾

قوله عز وجل: ﴿إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ قال الحسن: الذين في قلوبهم مرض هم المشركون، وقيل: هم أناس كانوا قد تكلموا بكلمة الإيمان حين كان النبي ﷺ بمكة من دون علم منهم بأمر رسول الله ﷺ[1]. فيكون معنى قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي شك، وهم الذين لا حقيقة[2] لهم في الكفر ولا في الإسلام، ولم يكونوا أعداء للنبي ﷺ. وقوله تعالى: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ قال ابن عباس: لما نفر المشركون من مكة إلى

(1) تفسير الطبري: 14/ 13 ـ 14.

(2) في النسخة (ف): لا عزيمة.

بدر، ولم يخلفوا بمكة أحداً قد احتلم إلا خرجوا به، وأخرجوا معهم ناساً كانوا قد تكلموا بالإسلام بمكة، فلما التقوا ورأوا قلة المسلمين وكثرة المشركين ارتابوا ونافقوا وقالوا لأهل مكة: ﴿غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ﴾ يعنون المسلمين غرهم دينهم حتى خرجوا مع قلتهم إلى قتال المشركين مع كثرتهم. فقتل هؤلاء مع المشركين يومئذ، وضربت الملائكة وجوههم[1] وأدبارهم كما ذكر الله بعد هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي يثق بالله في جميع أموره ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ ينصره على عدوه وإن كثر عدوه، حكيم يضع الأمور مواضعها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ﴾ أي ولو ترى يا محمد حين تقبض الملائكة أرواح الكفار ببدر يضربون على وجوههم بالأعمدة وعلى أدبارهم، ويقولون لهم: ذوقوا بعد السيف في الدنيا عذاب الحريق في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ أي ذلك العذاب الذي عاينتموه بكفركم وجنايتكم. والجناية إذا أضيفت إلى الإنسان أكدت بذكر اليد في العادة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ أي اعلموا أن الله لا يعذب أحدا بجرم أحد، ولا يعذب أحداً بغير ذنب. وموضع «أن» النصب بنزع الخافض عطفاً على قوله: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ﴾ تقديره: وبأن الله[2]. وكان الحسن إذا قرأ هذه السورة قال: طوبى لجيش قائدهم رسول الله ﷺ، ومبارزهم أسد الله، وجهادهم طاعة الله، ومددهم ملائكة الله، وثوابهم رضوان الله[3].

قوله تعالى:

﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ (52) ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 46 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 641.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 191.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 46.

﴿يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿53﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿54﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي عادة هؤلاء في كفرهم كعادة آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي أتتهم بها الرسل، فعاقبهم الله بذنوبهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ في أخذ الأعداء، شديد العقاب لمن عصاه. والدأب في اللغة: العادة، يقال: فلان يدأب في كذا وكذا، أي يداوم عليه ويتعب نفسه فيه. وآل الرجل: الذين يرجعون إليه بأوكد الأسباب، ولهذا يقال لقرابة الرجل: آل الرجل ولا يقال لأصحابه آله. قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قال ابن عباس معناه: كفعل آل فرعون، وقال عطاء ومجاهد: كسننهم[1] وقيل: كمثالهم. والمعنى: أن أهل بدر من المشركين فعلوا كفعل آل فرعون من الكفر والتكذيب، ففعل الله بهم كما فعل بآل فرعون من الهلاك والعذاب.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ أي لم ينزل الله ذلك العقاب بهم لأن الله لم يكن مبدلاً نعمة عن قوم بنقمة حتى يغيروا ما بأنفسهم في الدين والنعم إلى أحوال لم يجز لهم أن يغيروا إليها، كما فعل أهل مكة بعد أن أطعمهم الله من جوع وآمنهم من خوف، وأرسل إليهم رسولاً منهم، وأنزل إليهم كتاباً بلسانهم، ثم إنهم غيروا هذه النعم ولم يشكروها ولا عرفوها من الله، فغير الله ما بهم وأهلكهم وعاقبهم ببدر، ويدخلهم النار في الآخرة. قال الكلبي: يعني بالآية أهل مكة، بعث اليهم محمداً ﷺ فغيروا نعمة الله، وتغييرها كفرها وترك شكرها. وقال السدي: نعمة الله يعني محمداً أنعم الله به على قريش فكذبوه وكفروا به، فنقله الله إلى الأنصار[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أي يسمع جميع المسموعات، عليم بمصالحهم.

قوله تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي عادتهم في التكذيب بآيات الله كعادة

---

(1) تفسير الطبري: 14/ 19 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 643.
(2) وكذا الطبري والبغوي.

آل فرعون ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم الماضية ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ التي جاءت بها رسلهم فأهلكناهم بذنوبهم وأهلكنا آل فرعون بالغرق، وكل هؤلاء كانوا ظالمين لأنفسهم مستحقين العقوبة بسوء أعمالهم. فإن قيل: لم كرر ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ قيل: المراد بالأول أن هؤلاء جازاهم الله بالأسر والقتل كما جوزي أولئك بالغرق والإهلاك، والمراد بالثاني: صنع هؤلاء في النعم التي أنعم الله بها عليهم كصنع آل فرعون فيما أعطاهم الله من الملك والعز في الدنيا، فلما غير كل فريق النعم غير الله سبحانه ما بهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ (58) وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي إن شر ما يدب على الأرض الذين جحدوا توحيد الله ونبوة رسله مصرين على الكفر فهم لا يؤمنون.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ﴾ نزلت في يهود بني قريظة: عاهدهم النبي ﷺ على أن لا يضروا به، ولا يعينوا عليه عدواً، فنقضوا العهد، وأعانوا أهل مكة بالسلاح على قتال النبي ﷺ ثم قالوا: نسينا وأخطأنا. ثم عاهدهم مرة أخرى، فركب كعب بن الأشرف إلى أهل مكة وواثقهم على حرب رسول الله ﷺ[1]. وقوله تعالى: ﴿عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ﴾ أي معهم.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ أي لا يخافون الله في نقض العهد.

قوله تعالى: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِى ٱلْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ معناه: فإما تصادفنهم في الحرب فافعل بهم فعلا من القتل والعقوبة والتنكيل

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 47 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 644.

تفرق بهم من وراءهم من أعدائك. والتشريد: التبديد والتفريق. ويقال: معنى شرد بهم: أي اسمع بهم ـ بلغة قريش. وقال ابن عباس: فشرد بهم: أي نكل بهم من وراءهم. وقال ابن جبير: انذر بهم من خلفهم. وقيل: اقتلهم قتلا يفرق عنك من وراءهم. وقيل: الحق فيهم القتل حتى يخافك غيرهم من أهل مكة وأهل اليمن. وقال القتيبي: أسمع بهم. وقال ابن مسعود: فشرذ ـ بالذال المعجمة، وهما واحد. وقال قطرب: التشريذ ـ بالذال [المعجمة]: التنكيل، وبالدال [المهملة]: التفريق[1].

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي لكي يعتبروا فلا ينقضوا العهد الذي بينك وبينهم مخافة أن يحل بهم مثل ما حل ببني قريظة.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ أي إذا خفت من قوم بينك وبينهم عهد خيانة في العهد من غدر بالمسلمين أو علمت أنهم يفعلون ذلك بالمسلمين خفية من غير أن يظهروا نقض العهد، فانبذ العهد إليهم على سواء منك ومنهم في العلم، فلا تبدأهم بالقتال من قبل أن تعلمهم إعلاماً بينا بأنك نقضت العهد. والمعنى: إما تعلمن يا محمد من قوم معاهدين لك نكث عهد ونقض عقد يظهر لك منهم من آثار الغدر والخيانة كما ظهر لك من بني قريظة، والنضير ﴿فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ﴾ أي فاطرح اليهم عهدهم على سواء، أي أخبرهم، وأعلمهم قبل حربك إياهم أنك فسخت العهد بينك وبينهم حتى تصير أنت وهم على سواء في العلم بأنك لهم محارب، فيأخذون للحرب أهبتها، وتبرأ من الغدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ أي لا يرضى عمل الذين يخونون بالبداية بالقتال من غير إعلام بنقض العهد.

قوله عز وجل: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ أي لا تظنن يا محمد أن من أفلت من الكفار من هذه الحرب قد سبق إلى الحياة،

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 31 ذكر معنى التشريد ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 191.

وقال آخرون: لا تحسبن يا محمد أن أعداءك من المشركين ربما يفوتونك بأن لا يظفرك الله تعالى بهم، بل الله يظهرك عليهم ويظفرك. قرأ أبو جعفر، وابن عامر وحمزة، وحفص بالياء[1] على معنى: لا يظنن هؤلاء المشركين أن من مات منهم فقد فات من الله عز وجل، وأن الله لا يبعثه يوم القيامة ولا يعاقبه. وقرأ أهل الشام: أنهم لا يعجزون بالفتح وتكون ـ لا صلة تقديره: ولا تحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يعجزون، أي لا يفوتون، وقيل معناه: لأنهم. وقرأ عامة القراء: إنهم ـ بالكسر على الابتداء[2].

قوله تعالى:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿60﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي أعدوا للكفار ما استطعتم من آلات الحرب. وعن ابن عباس، وعقبة بن عامر[3] قالا: قرأ رسول الله ﷺ على المنبر: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ ثم قال: «**ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي**[4]، **لهو المؤمن في الخلاء، وقوته عند اللقاء**»، ولما مات عقبة أوصى بتسعين قوساً مع كل قوس سهامها في سبيل الله. قال عقبة: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليدخل الثلاثة الجنة بسهم واحد: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والمهدى له، والرامي به**»[5]. وقال عليه

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 230.

(2) نفسه.

(3) أبو عمرو، عقبة بن عامر بن عبس الجهني: أسلم وهاجر، ثم شهد صفين مع معاوية، وأقام بعدها في مصر وتوفي بها في خلافة معاوية. الطبقات الكبرى: 7/ 345.

(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 64، فضل الرمي والحث عليه ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 7/ 190، رقم: 2497، باب الرمي.

(5) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 7/ 189، رقم: 2496، باب الرمي ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 940، رقم: 2811، باب الرمي في سبيل الله.

السلام: «**كل شيء يلهو به الرجل باطل إلا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته أهله فإنهن من الحق**»[1].

قوله عز وجل: ﴿وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ معناه: ارتبطوا أدهم الخيل لهم ولقتالهم، أي أعدوا لهم ذلك لتخويف عدو الله وعدوكم ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ أي من دون كفار العرب وأهل الكتاب لا تعلمونهم، أي لا تعرفونهم. قال ابن عباس: يعني كفار الجن. قال صلى الله عليه وسلم: «**لا يقرب صاحب فرس جن أبداً**». ويقال: إن الجن لا يدخل بيتاً فيه فرس، ولا سلاح. وقال: السدي: أراد به أهل فارس وقال الحسن: هم المنافقون، وقال الضحاك: هم الشياطين[2]. ولا يمنع أن يكون الكل مراد بالآية.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ أي ما تنفقوا من شيء في الجهاد يوف إليكم ثوابه ﴿وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقص شيء من حقكم.

قوله تعالى:

﴿۞ وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (61) وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ (62) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (63)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ معناه: فإن مال يهود بني قريظة إلى الصلح فمل إليه وصالحهم. وكان هذا قبل نزول براءة، ثم نسخ بقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾[3] وبقوله: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 7/ 189، رقم: 2496 ـ والنسائي في سننه: 6/ 185، تأديب الرجل فرسه.

(2) ذكر البغوي هذه الأقوال في: معالم التنزيل: 2/ 649.

(3) سورة التوبة، الآية: 5.

﴿بِٱللَّهِ﴾[1]. والسِلم والسَلم ـ بالكسر والفتح. وإنما قال: فاجنح لها، لأن السلم والمسالمة بمعنى واحد، فرد الكناية إلى المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي ثق بالله تعالى إن نقضوا العهد ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لمقالتكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما تفعلون.

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ﴾ معناه: إن يريد الذين يطلبون منك الصلح أن يخدعوك بإظهار الصلح لتكف عنهم إلى أن يتقووا ضدك، فإن الله كافيك في حربهم وقتالهم ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي قواك يوم بدر بنصره وقواك بالمؤمنين وهم الأوس والخزرج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي جمعهم على المودة والإيمان. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ أي ما قدرت على جمع قلوبهم على الألفة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ في سلطانه لا يقدر أحد على أن يغلبه ويمنعه عن مراده ﴿حَكِيمٌ﴾ يضع الأمور مواضعها.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ (64) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ (65) ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ (66)﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ أي كافيك الله ومن اتبعك من المؤمنين. وقيل: لما أسلم عمر رضي الله عنه نزل[2] ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وقال بعض المفسرين: موضع «من» خفض عطفاً على

(1) نفس السورة، الآية: 29.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 194 ـ البغوي، معالم التنزيل: 2/ 650.

الكاف في قوله: ﴿حَسْبَكَ﴾ أي حسبك وحسب من اتبعك الله. وقال بعضهم: موضعه رفع عطفاً على اسم الله، أي حسبك الله ومتبعوك من المؤمنين. قيل: إن هذه الآية قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ نزلت في البيداء في غزوة بدر قبل القتال[1].

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ﴾ أي رغبهم في القتال. والتحريض: الترغيب في الشيء بما تدعو إليه، نحو: وعد الثواب على القتال والتنفيل عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ هذا وعد من الله أن يقوي واحداً من المسلمين المتصبرين في الدين على عشرة من الكفار، ويقوي مائة صابرة محتسبة على ألف من الكفار.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك النصر من الله لكم على الكفار وخذلانهم بأنكم تفقهون أمر الله وتصدقون فيما وعد من الثواب والكفار لا يفقهون ذلك ولا يصدقون. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية كان رسول الله ﷺ يبعث المؤمنين على أن يقاتل الرجل منهم العشرة من الكفار، والمائة منهم الألف من الكفار كما أمرهم الله. فلما أمر الله المسلمين بقتال الكفار ببدر، وكان فرض القتال على المسلمين كما ذكر الله في هذه الآية شق ذلك على المسلمين، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا﴾ أي الآن هون الله عليكم القتال الذي افترضه عليكم، وسهل الأمر عليكم لتعرفوا فتشكروا، وعلم في الأزل أن في الواحد منكم ضعفاً عن قتال العشرة، والمائة عن قتال الألف. وقيل: علم أن فيكم ضعفاً في النصرة في أمر الدين[2]. وقرأ عاصم وحمزة وخلف: ضعفاً ـ بفتح الضاد، وقرأ الباقون بضمها، أي عجزا عن ما فرض عليكم. ومن قرأ: ضعفاً فمعناه: شيوخاً ضعفاً، وقرأ أبو جعفر: ضعفاء ـ بضم الضاد وفتح العين والمد وهمزة من غير تنوين على جمع ضعيف

(1) تفسير القرطبي: 8/ 43.
(2) تفسير الطبري: 14/ 52.

مثل شركاء[1].

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُواْ مِائَتَيْنِ﴾ أمر الله بأن الواحد يثبت للاثنين وضمن له النصر عليهما ﴿وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓاْ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي بأمره ﴿وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ أي معين لهم. قال ابن عباس: من فر من رجلين فقد فر، ومن فر من ثلاثة لم يفر، وهذا إذا كان للواحد المسلم من السلاح والقوة مثل ما لكل واحد من الرجلين الكافرين كان فاراً، فأما إذا لم يكن لم يثبت له حكم الفرار[2].

قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (67) لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (68) فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (69)﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي ما كان لنبي أن يكون له أسرى من المشركين فيفديهم أو يمن عليهم، ولكن السيف حتى يتمكن في الأرض من القتال فيقتل منهم قتلا ذريعاً ليرتدع من وراءهم. والإثخان في كل شيء: قوة الشيء وشدته. يقال: أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه، وكذلك أثخنته الجراح.

وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا﴾ خطاب للذين أسرعوا في أخذ الغنائم وشغلوا أنفسهم بذلك القتال، وذلك أن مما كان يوم بدر تعجل ناس من المسلمين فأصابوا من الغنائم. ومعناه: تريدون بالقتال المال. وسماه عرضاً لقلة لبثه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ أي يريد منكم العمل بما تستحقون به ثواب الآخرة ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ﴾ أي منيع في سلطانه. ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره وقضائه، فاعملوا ما أمركم الله به.

قوله عز وجل: ﴿لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

---

(1) ابن مجاهد، السبعة: 308 ـ 309 ـ ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 233.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 45.

أي لولا حكم من الله سبق في إباحة الغنائم لمسكم فيما استبحتم قبل الإثخان عذاب عظيم. وقيل: لولا كتاب من الله سبق في أهل بدر أن يغفر الله لهم ما تقدم من ذنوبهم وما تأخر. وقيل معناه: فلولا حكم الله في اللوح المحفوظ وفي القرآن أنه لا يعذب قوماً حتى يبين لهم ما يتقون لأصابتكم عقوبة عظيمة. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في هذه الآية: وذلك أنه لما قتل أصحاب رسول الله ﷺ سبعين، وأسروا سبعين، استشار النبي ﷺ أصحابه في أمر الأسرى، فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله هم قومك فإن تقتلهم يدخلوا النار، ولكن فادهم فيكون الذي تأخذه منهم قوة للمسلمين، ولعل الله يقلب قلوبهم. وقال عمر: يا رسول الله والله ما أعلم قوماً كانوا أشر لنبيهم منهم فاقتلهم[1]. فأخذ رسول الله ﷺ برأي أبي بكر، ثم ضرب لهما مثلاً فقال: مثل أبي بكر مثل ابراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[2]، ومثل عمر مثل نوح عليه السلام حيث قال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[3]. ثم ضرب رسول الله ﷺ الفداء على الأسارى. فلما كان من الغد أنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ إلى آخر الآيتين. قال عمر: فدخلت على رسول الله ﷺ وعنده أبو بكر يبكيان فقلت: ما يبكيكما؟ حتى إن وجدت بكاء لبكائكما بكيت معكما؟ فقال ﷺ: «**إنما أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذ الفداء**». ثم قرأ عليه السلام: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِۚ﴾ الآية[4].. وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: لما جيء بالأسارى يوم بدر قال ﷺ: «**ما تقولون في هؤلاء؟**» فقال أبو بكر: قومك وأهلك استبقهم لعل الله يتوب عليهم. وخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار. وقال عمر: يا رسول الله كذبوك وأخرجوك، قدمهم فاضرب أعناقهم، ومكن علياً من عقيل فيضرب

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 46.

(2) سورة ابراهيم (14)، الآية: 36.

(3) سورة نوح (71)، الآية: 26.

(4) الواحدي، أسباب النزول: 194.

عنقه، ومكني من فلان (نسيباً له) فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر. فسكت النبي ﷺ فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر. وقال ناس يأخذ بقول عمر. فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال:** ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1]، **ومثلك يا عمر مثل موسى قال:** ﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾»[2] ثم قال صلى الله عليه وسلم للأسارى: أنتم اليوم عالة فلا ينفلتن أحد إلا بفداء أو ضرب عنق. فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية[3].. قوله تعالى: ﴿لَّوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ أي لولا حكم الله في أنه تحل لهم الفدية التي أخذوها من الأسارى. وقيل معناه: لولا ما سبق لهذه الأمة من الرحمة إذا عملوا الخطايا ثم عرفوا ما عملوا وتابوا ورجعوا. وقوله تعالى: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ مخاطبة لهم لا لرسول الله ﷺ وجلة أصحابه، فإن أبا بكر كان مراده إعزاز الدين وهداية الأسارى، ولأن الله قال: ﴿لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ﴾ ولم يقل فيما عرضتم وأشرتم.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ الفاء في أول هذه الآية للجزاء. المعنى أحلت لكم الغنائم فكلوا. والطيب: المستلذ. ويوصف الحلال بذلك على التشبيه، فإن المستلذ ما لا يكون فيه كراهية في الطبع، وكذا الحلال ما لا يكون فيه كراهية في الدين. قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي اخشوه ولا تفعلوا شيئاً لم تؤمروا به ولم يرخص لكم فيه ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما فرط منكم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بكم إذ لم يعذبكم فيما فعلتم قبل الرخصة.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الْأَسْرَىٰ إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾﴾

---

(1) سورة المائدة (5)، الآية: 118.

(2) سورة يونس (10)، الآية: 88.

(3) الواحدي، في المصدر نفسه.

قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٧٠﴾ قال ابن عباس: وذلك أن النبي ﷺ وضع الفداء على كل واحد من الأسارى أربعين أوقية من ذهب، وجعل على عمه العباس[1] مائة أوقية، فقال العباس: أتجعل علي مائة أوقية وعلى عدوك سهيل بن عمرو[2] أربعين أوقية؟ قال: «**نعم، لقطعك الرحم، ولظلمك**». قال: تركتني والله أسأل قريشاً ما بقيت بيدي، فكيف تترك عمك يسأل الناس بكفه؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «**وأين الذهب الذي أعطيته أم الفضل[3] عند مخرجك فقلت: إن حدث بي حدث في وجهي هذا فهو لك، ولعبد الله، ولقثم[4]، وللفضل[5]، ولعبيد الله؟**»[6] قال: وما يدريك؟ قال: «**أخبرني الله عز وجل بذلك**»[7]. فقال: أشهد أنك صادق، وإني لم أعلم أنك

---

(1) أبو الفضل، العباس بن عبد المطلب: من أكابر قريش في الجاهلية والإسلام، كان محسناً إلى قومه، سديد الرأي واسع الفضل مولعاً بإعتاق العبيد كارهاً للرق، كان له سقاية الحج وعمارة المسجد الحرام، شهد فتح مكة وحنين. توفي سنة اثنتين وثلاثين.
الاستيعاب: 2/ 810 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 5.

(2) أبو جندل، سهيل بن عمرو القرشي العامري: خطيب قريش وأحد زعمائها، أسره المسلمون يوم بدر وافتدى فأقام على دينه إلى يوم الفتح فأسلم بمكة، ثم انتقل إلى المدينة. توفي سنة عشر.
الاستيعاب: 2/ 669 ـ الطبقات الكبرى: 5/ 453.

(3) أم الفضل، لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن: أسلمت بعد خديجة بنت خويلد، وكان الرسول ﷺ يزورها ويقيل في بيتها، هاجرت إلى المدينة وكانت تصوم الاثنين والخميس.
الطبقات الكبرى: 8/ 216.

(4) قثم بن العباس بن عبد المطلب: كان ورعاً فاضلاً، غزا خراسان، وتوفي بسمرقند.
الطبقات الكبرى: 7/ 260.

(5) الفضل بن العباس بن عبد المطلب، يكنى أبا محمد، وكان أسن ولد العباس، غزا مع رسول الله ﷺ مكة وحنينا وثبت معه يومئذ، وشهد حجة الوداع. توفي بناحية الأردن في طاعون عمواس سنة ثماني عشرة. الطبقات الكبرى: 7/ 280.

(6) النسخة (س) لم يرد فيها عبيد الله.
أبو محمد، عبيد الله بن العباس الهاشمي القرشي: كان أصغر من أخيه عبد الله بسنة، رأى النبي ﷺ ولم يرو عنه، واستعمله علي بن أبي طالب على اليمن، وكان سخياً جواداً. توفي بالمدينة سنة سبع وثمانين هجرية.
الطبقات الكبرى: 4/ 4 ـ أعلام الزركلي: 4/ 194.

(7) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 655.

رسول الله قط قبل اليوم، وإني دفعت إليها الذهب ولم يطلع عليه أحد إلا الله تعالى، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فأسلم وأمر ابن أخيه أن يسلم، فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: يا أيها النبي قل للعباس وعقيل[2] وغيرهم من الأسارى: إن يعلم الله في قلوبهم رغبة إلى الإيمان وإخلاصاً في النية يؤتكم خيراً مما أخذ منكم من الفدية. ويجوز أن يكون المعنى: يخلف عليكم في الدنيا. ويجوز أن يكون: ويجازيكم في الآخرة. وكان العباس أحد الثلاثة عشر الذين ضمنوا إطعام أهل بدر، فخرج معه بعشرين أوقية من ذهب ليطعم بها الناس ولم تبلغه نوبة الإطعام حتى أسر وأخذ وهي معه، فأخذوها منه، فلما وضع النبي ﷺ على العباس في الفداء مائة أوقية، قال: يا محمد أحسب لي بعشرين أوقية من فدائي. فأبى وقال له: أما شيء خرجت تستعين به علينا فلا نتركه لك. فلما أسلم العباس كان إذا قرأ هذه الآية قال: صدق الله ورسوله، قد أعطاني الله خيراً مما أخذ مني، أبدلني مكان العشرين أوقية التي أخذت مني عشرين مملوكاً، كل مملوك يضرب بعشرين ألفاً في التجارة، وأعطاني زمزم ما أحب أن لي بها جميع أموال أهل مكة، أنجزني الله أحد الوعدين، وأنا أرجو أن ينجز الوعد الثاني أنتظر المغفرة من ربي[3]. وعن العلاء بن الحضرمي[4] أنه بعث إلى رسول الله ﷺ من البحرين ثمانين ألفاً، فقال العباس: أعطني من هذا المال؟ فأعطاه رسول الله ﷺ ما أطاق حمله، فجعل العباس يقول وهو منطلق: أما إحدى الذي وعدنا الله فقد أنجزها فلا ندري ما يصنع بالأخرى، يعني: ﴿يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 196 ـ تفسير القرطبي: 8/ 52 ـ 53.

(2) أبو يزيد، عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب الهاشمي القرشي: أعلم قريش بأيامها ومآثرها وأنسابها، أسلم بعد الحديبية، وهاجر إلى المدينة، وشهد غزوة مؤتة. توفي سنة ستين هجرية. الاستيعاب: 3/ 1087 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 42 ـ تهذيب التهذيب: 7/ 254.

(3) تفسير الطبري: 14/ 73.

(4) العلاء بن عبد الله الحضرمي: صحابي من رجال الفتوح في صدر الإسلام، أصله من حضرموت وسكن مكة، ثم ولاه الرسول ﷺ البحرين سنة ثمان، وجعل له جباية الصدقة. توفي سنة إحدى وعشرين.
الاستيعاب: 3/ 1085 ـ تهذيب التهذيب: 8/ 178.

قوله عز وجل: ﴿وَإِن يُرِيدُواْ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ معناه: وإن يريد الذين أطلقتهم من الأسارى خيانتك بأن يعودوا حرباً لك وينصرون عدوك عليك فقد خانوا الله من قبل لمخالفة ما أخذ عليهم من العهود. وذلك أن النبي ﷺ كان عاهد الذين أطلقهم على أن لا يعينوا عليه، فخانوه وخالفوا قوله ﴿فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ أي فأمكنك منهم يوم بدر، وإن خانوك فسنمكنك منهم ثانياً ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بكل شيء ﴿حَكِيمٌ﴾ في كل ما يفعل.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (72) وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (73) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (74) وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ (75)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي إن الذين آمنوا بتوحيد الله وبمحمد ﷺ والقرآن، وهاجروا من مكة إلى المدينة، وجاهدوا العدو بأموالهم وأنفسهم في طاعة الله. ثم ذكر الله الأنصار فقال: والذين آووا النبي والمهاجرين معه، أعطوهم المأوى وأنزلوهم ديارهم. ﴿وَّنَصَرُوٓاْ﴾ أي أعانوهم بالسيف على الكفار، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي أنصار بعض في الدين والمواريث.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ﴾ أي والذين صدقوا من أهل مكة في ديارهم ولم يهاجروا إلى المدينة ﴿مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ أي ليس بينكم وبينهم ميراث حتى يهاجروا. وإطلاق لفظ الموالاة يقتضي التوارث في الجملة، وإن كان بعض أسباب الموالاة أوكد من بعض. قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآية قام الزبير بن العوام وأناس معه من المسلمين فقالوا: يا رسول الله كيف لا

يرثنا إخواننا وهم على ديننا من أجل أنهم لم يهاجروا فهل نعينهم على أمر إن استعانونا عليه؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ معناه: وإن قاتلهم الكفار ليردوهم عن الإسلام فانصروهم، إلا أن يقاتلوا قوماً بينكم وبينهم عهد فاستنصروكم عليهم فلا تقاتلوهم معهم، بل عليهم أن يكفوا عن طلب النصرة منكم عليهم، لأن أمان واحد من المسلمين يلزم كافتهم فيجب الإصلاح بينهم على غير وجه القتال[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ بأعمالكم يجازيكم عليها. قال ابن عباس: فمكثوا على هذا ما شاء الله أن يمكثوا، ثم نزل قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ أي أنصار بعض في الدين، وبعضهم أولياء بعض في الميراث، يعني أن الكافر لا يرث المؤمن الذي لم يهاجر، بل الكافر يرث من الكافر، والمؤمن يرث من المؤمن. فصارت هذه الآية ناسخة للتي قبلها.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ أي إن لا تفعلوا ما أمرتكم به ولم تورثوا الأعرابي الذي لم يهاجر من المهاجرين، ولم تجعلوا ولاية الكافر للكافر وولاية المؤمن للمؤمن ﴿تَكُن فِتْنَةٌ﴾ أي محنة بالميل إلى الضلالة وفساد كبير في الدين، فإن الكفار بعضهم أنصار بعض.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أي أولئك الذين حققوا إيمانهم بالهجرة وإقامة الجهاد في سبيل الله. وقيل معناه: أولئك الذين حقق الله إيمانهم بأن أثنى عليهم ومدحهم في كتابه.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ في الجنة بأن يطعمهم طعاماً يصير كالمسك رشحاً[2]، ولا يستحيل في أجوافهم نجوا[3].

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 49.

(2) روى مسلم من حديث جابر قال: قال ﷺ: «إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون ولا يبولون ولا يتغوطون ولا يمتخطون. قيل: فما بال الطعام؟ قال: جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس». (صحيح مسلم: 17/ 173).

(3) النجو: ما يخرج من البطن.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ﴾ معناه: والذين آمنوا من بعد المهاجرين السابقين، وهاجروا إلى المدينة وجاهدوا معكم الكفار. فأولئك منكم في الدين والنصرة.

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ أي الأقارب بعضهم أولى ببعض في الميراث من غيرهم هاجروا أو لم يهاجروا إذا كانوا مسلمين.

قوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون المراد بالكتاب القرآن، ويجوز أن يكون معناه: في اللوح المحفوظ، ويجوز أن يراد بالكتاب: الحكم، كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ﴾[1] أي حكم الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ أي عليم بكل ما فرض من المواريث وغير ذلك. قال قتادة: وذلك أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، فكانوا يتوارثون بالإسلام والهجرة، وكان الرجل يسلم ولا يهاجر، فكان لا يرث أخاه. فنسخ الله ذلك بقوله: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ وصارت الوراثة بالقرابة كما ذكر الله في سورة النساء[2]. وقال ﷺ: «**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية**»[3]. وعن أبي بن كعب قال: قال رسول الله ﷺ: «**من قرأ سورتي الأنفال والتوبة فأنا له شفيع وشهيد يوم القيامة أنه بريء من النفاق، وأعطى من الأجر بعدد كل منافق ومنافقة، ورفع له بهما عشر درجات**»[4].

---

(1) سورة المجادلة (58)، الآية: 21.

(2) تفسير الطبري: 14/ 82.

(3) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 6/ 78، رقم: 2783، فضل الجهاد والسير ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 13/ 8، باب المبايعة على الإسلام والجهاد.

(4) ذكره الزمخشري في الكشاف: 2: 170، والثعلبي في تفسيره ـ خ ـ.

سُورَةُ التَّوْبَةِ

وهي عشرة آلاف وسبعة وثمانون حرفاً، وألفان وأربعمائة وتسع وسبعون كلمة، ومائة وتسع وعشرون آية.

قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾ فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَـٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١﴾﴾ أي هذه براءة من الله، فتكون رفعاً على خبر الابتداء، ويجوز أن يكون براءة رفعاً بالابتداء وخبره: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم﴾. والبراءة: هي رفع العصمة. يقال: برىء فلان من فلان، وبرىء الله من المشركين. وإنما ذكر الله هذه البراءة من العهد، لأن المشركين كانوا ينقضون العهد قبل الأجل ويضمرون الغدر، فأمر الله نبذ العهد إليهم إما بخيانة مستورة ظهرت أمارتها منهم، وإما أن يكون شرط النبي ﷺ لنقضهم في العهد أن يقرهم ما أقرهم الله. وأما ترك البسملة في أول هذه السورة فقد روي أن عثمان بن عفان[1] سئل عن ذلك فقال: لأنها نزلت في آخر ما نزل من القرآن، وكان رسول الله ﷺ يأمر في أول كل سورة ببسم الله

---

(1) في النسخة (ف): أبي بن كعب.

الرحمن الرحيم ولم يأمر في سورة براءة بذلك، وضمت إلى الأنفال لشبهها بها. يعني أن أمر العهود مذكور في الأنفال، وهذه السورة نزلت بنقض العهود[1]. وسئل علي رضي الله عنه عن هذا فقال: لأن هذه السورة نزلت في السيف، وليس للسيف أمان، وبسم الله الرحمٰن الرحيم أمان، ولأن البسملة رحمة، والرحمة أمان، وهذه السورة نزلت بالسيف ولا أمان فيه[2].

قوله تعالى: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ أي سيروا في الأرض على المهل أقبلوا وأدبروا في الأرض آمنين إلى أن تمضي أربعة أشهر. وقيل: هو على الخطاب، أي قل لهم سيروا في الأرض مقبلين ومدبرين آمنين غير خائفين من قتل ولا أسر ولا نهب. يقال: إن قوله: ﴿فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بيان أن هذا السيح المذكور في أول هذه السورة إنما هو بعد أربعة أشهر، فإن عهد الكفار باق إلى آخر هذه المدة. قال الحسن: أمر الله نبيه ﷺ أن ينظر في عهود الكفار، فيقر من كان عهده أربعة أشهر على عهده إلى أن تمضي، ويحط من كان له عهد أكثر من أربعة أشهر إلى أربعة أشهر، ويرفع عهد من كان له عهد أقل من أربعة أشهر فيجعله أربعة[3]. واختلفوا في أول هذه الأربعة الأشهر، قال بعضهم: من عشر ذي القعدة إلى عشر من ربيع الأول. وروي في الخبر أن مكة افتتحت في سنة ثمان من الهجرة، وولى رسول الله عتاب بن أسيد الوقوف بالناس في الموسم، واجتمع في تلك السنة في الوقوف المسلمون والمشركون، فلما كانت سنة تسع ولى رسول الله ﷺ أبا بكر، وبعث معه عشر آيات من أول براءة أو تسع آيات، وأمره أن يقرأها على أهل مكة، وينبذ إلى كل ذي عهد عهده كما وصف الله تعالى، فلما خرج أبو بكر منطلقاً نحو مكة نزل جبريل عليه السلام فقال للنبي ﷺ: لا يبلغ عنك إلا رجل من أهل بيتك، فدعا عليا وأمره إلى مكة وقال له: «**كن أنت الذي تقرأ هذه الآيات على أهل مكة، وامر أبا بكر فليصل بالناس**». فسار حتى لحق أبا بكر رضي الله عنه في الطريق فأخبره بذلك فمضيا، وكان أبو

(1) تفسير القرطبي: 8/ 62.
(2) نفس المصدر.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 50.

بكر على الموسم، فلما كان يوم النحر واجتمع المشركون، قام علي كرم الله وجهه عند جمرة العقبة وقال: يا أيها الناس إني رسول رسول الله ﷺ إليكم. فقالوا: بماذا؟ فقرأ عليهم ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١﴾ إلى آخر الآيات التي نزلت[1]. وكان الحج في السنة التي قرأ علي كرم الله وجهه فيها هذه السورة في العاشر من ذي القعدة، ثم صار الحج في السنة الثانية في ذي الحجة، وكان السبب في تقديم الحج في سنة العهد ما كان يفعله بنو كنانة في النسيء - وهو التأخير. وذهب بعض المفسرين إلى أن الأربعة الأشهر المذكورة في هذه الآية هي: شوال وذو القعدة وذو الحجة والمحرم.

قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ﴾ أي غير فائتين عن الله بعد الأربعة الأشهر، فإنكم إن أجلتم هذه الأشهر فلن تفوتوا الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي معذب الكافرين في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار. والآخر: هو الإذلال على جهة الإهانة.

قوله تعالى: ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي وإعلام من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر وهو يوم النحر. كذا روي عن ابن عباس. وسمي يوم النحر يوم الحج الأكبر لأنه اتفقت فيه الأعياد على قول أهل الملل[2]. وعن النبي ﷺ أنه قال: «**يوم عرفة**». قال محمد بن قيس بن مخرمة: خطب رسول الله ﷺ عشية عرفة فقال: «**أما بعد فإن هذا يوم الحج الأكبر**»[3]. روي أن علياً كرم الله وجهه خرج يوم النحر على بلغة بيضاء للجبانة فجاءه رجل فأخذ بلجامه وسأله عن يوم الحج الأكبر فقال: هو يومك هذا، خل سبيلها[4]. وسئل عبد الله بن أوفى عن يوم الحج الأكبر فقال: سبحان الله هو يوم النحر تهرق فيه الدماء ويحلق فيه الشعر

(1) تفسير الطبري: 14/ 107 - 108.
(2) تفسير القرطبي 8/ 70.
(3) تفسير الطبري: 14/ 115.
(4) المصدر نفسه: 14/ 118 ورواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 484، رقم: 5084، تفسير سورة التوبة.

ويحل فيه المحرم[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ﴾ عطف على قوله: ﴿بَرَآءَةٌ﴾ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي أن الله بريء، ورسوله بريء من المشركين، تقديره: أن الله بريء ورسوله أيضاً بريء ومن قرأ: ورسوله ـ بالنصب فعلى معنى: وأن رسوله بريء[2].

وقوله تعالى: ﴿فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي إن تبتم من الشرك فهو خير لكم من الإقامة عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ معناه: وإن أعرضتم فاعلموا أنكم غير فائتين عن الله.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ تكرار للوعيد. وعن أبي هريرة: كنت مع علي رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ بالبراءة إلى مكة. فقيل لأبي هريرة: بماذا كنتم تنادون؟ قال: كنا نادي أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن، ولا يحجن هذا البيت بعد هذا العام مشرك ولا عريان، ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فإن أجله إلى أربعة أشهر، فإذا مضت أربعة أشهر فإن الله بريء من عهد المشركين ورسوله[3].

قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ﴾ استثناء من المشركين في قوله تعالى: ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾. وأراد بقوله: إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئاً: بني ضمرة، وهم حي من كنانة عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية عند البيت، وكان بقي لهم من عهدهم تسعة أشهر من بعد يوم النحر من السنة التي حج فيها أبو بكر رضي الله عنه، وكانوا لم ينقضوا شيئاً من عهودهم ولم يألوا عدوا على رسول الله ﷺ، فأمر

---

(1) تفسير الطبري: 14/ 118.

(2) عطف على اللفظ ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 203.

(3) رواه النسائي في سننه: 5/ 187 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود 2/ 264، رقم: 1946.

الله النبي ﷺ أن يفي لهم بعهدهم إلى آخر مدتهم[1].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي يرضي عمل الذين يتقون نقض العهد. قرأ عطاء[2]: ينقضوكم ـ بالضاد المعجمة[3] من نقض العهد.

قوله تعالى:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿5﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿6﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾ أي إذا مضت الأشهر التي حرم الله القتال بالعهد فيها، ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ﴾. ويقال: أراد بذلك الأشهر الحرم المعروفة وهي: رجب، وذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. كأنه قال: إذا انسلخ المحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم في الحل أو في الحرم ﴿وَخُذُوهُمْ﴾ أي أسروهم ﴿وَٱحْصُرُوهُمْ﴾ أي احبسوهم. ويقال: أراد بذلك أن يحال بينهم وبين البيت، أي امنعوهم دخول مكة.

وقوله تعالى: ﴿وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ أي اقعدوا لقتالهم على كل طريق يأخذون فيه إلى البيت أو إلى التجارة، وهذا أمر بتضييق السبل عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ معناه: إن تابوا عن الشرك، وقبلوا إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة فاطلقوهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف من شركهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم حين قبل توبتهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 71.

(2) أبو محمد عطاء بن يسار المدني: تابعي ثقة وثقه ابن معين، والنسائي، وغيرهما. روى عن ابن مسعود، وأبي هريرة، وابن عمر، وعائشة، وغيرهم، وعنه روى زيد بن أسلم، وأبو حنيفة، وغيرهما. توفي سنة ثلاث ومائة هجرية. الذهبي، ميزان الاعتدال: 3/ 77.

(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 8/ 132 ـ تفسير القرطبي: 8/ 71.

أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ معناه: وإن أحد من المشركين استأمنك ليسمع دعوتك واحتجاجك بالعدل فأمنه حتى يسمع القرآن، فإن أبى أن يسلم فاردده إلى موضع أمنه، ذلك الأمان لهم بأنهم قوم لا يعلمون أمر الله.

قوله تعالى:

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿7﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿8﴾ ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿9﴾ لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿10﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿11﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِۦٓ﴾ أي كيف يكون لهم عهد وهم يضمرون الغدر في عهودهم، أي لن يكون لهم عهد يجب الوفاء به ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ﴾ وهم بنو ضمرة ﴿فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ﴾ في وفاء العهد فلم ينقضوه كما نقض غيرهم ﴿فَٱسْتَقِيمُوا۟ لَهُمْ ۚ﴾ بوفاء أجلهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ لنقض العهد.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ﴾ أي كيف يكون لهم العهد. وقال الأخفش معناه: كيف لا تقتلوهم وهم إن يظهروا عليكم لا يحفظوا فيكم قرابة ولا عهداً. وقال قتادة: الإل: الحلف. وقال السدي: هو العهد، ولكنه كرر لما اختلف اللفظان وإن كان معناهما واحداً وقال مجاهد: الإل: هو الله عز وجل(1). ومنه: جبرائيل وميكائيل.. وأن معناهما: عبد الله. وعن أبي بكر أنه لما سمع كلام مسيلمة قال: هذا ليس هو من إل، أي لم يتكلم به الله(2). وقرأ عكرمة: إيلا ـ بالياء(3)، يعني الله عز وجل، مثل: جبرائيل وميكائيل.

---

(1) تفسير الطبري: 14: 146.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 56.

(3) المصدر نفسه.

قوله تعالى: ﴿يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي يتكلمون بالعهد بأفواههم وتأبى قلوبهم إلا نقض العهد ﴿وَأَكْثَرُهُمْ فَسِقُونَ﴾ أي متمردون في الكفر.

قوله تعالى: ﴿ٱشْتَرَوْا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ أي اختاروا على القرآن عرضاً يسيراً.

قوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓ﴾ أي منعوا الناس من طاعة الله فبئس العمل عملهم، وذلك أنهم نقضوا العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ بأكلة أطعمهم إياها أبو سفيان[1].

قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾. فإن قيل: لم أعاد قوله تعالى: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً﴾؟ قيل: ليس هذا بإعادة، لأن الأول: ورد في جميع الكفار الذين نقضوا العهد، والثاني: إنما ورد في طائفة من اليهود الذين كانوا ينقضون العهد. فإن هذه الطائفة منهم من اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، فإنهم كانوا يكتمون صفة رسول الله ﷺ بشيء من الأكل كانوا يأخذونه من سفلتهم، وكانوا يأخذون الرشا على الحكم بالباطل ويغيرون أحكام الله التي أنزلها على أنبيائهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ يعني في نقض العهد.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي فإن تابوا عن الكفر وقبلوا إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فهم إخوانكم في الإسلام، ونأتي بالآيات آية بعد آية لقوم يعلمون أمر الله وأحكامه.

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿12﴾ أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ أَتَخْشَوْنَهُمْ ۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿13﴾ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ

(1) تفسير القرطبي: 8/ 80.

﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿14﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿15﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ﴾ أي نقضوا الأيمان والحلف من بعد العهود التي عاهدتهم أن لا يقاتلوك، ولا يعينوا عليك، لا على حلفائك، وطعنوا في الإسلام، وعابوه، وذلك أنهم قالوا: ليس دين محمد بشيء ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ أي رؤساء الكفر ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ قال ابن عباس[1]: نزلت في أبي سفيان، والحارث بن هشام، وسهيل بن عمرو، وأبي جهل، وسائر رؤساء قريش الذين نقضوا العهد، وهم الذين هموا بإخراج الرسول[2]. وقال مجاهد: هم أهل فارس، والروم[3]. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ﴾ أي لا عهود لهم، جمع يمين. وقال قطرب: لا وفاء لهم بالعهد. وقرأ الحسن، وعطاء، وابن عامر: لا إيمان لهم ـ بكسر الهمزة[4]، أي لا تصديق لهم. وقال عطية: لا دين لهم، أي هم قوم كفار. وقيل معناه: لا أمان لهم فلا تؤمنوهم واقتلوهم حيث وجدتموهم. فيكون مصدر آمنته إيماناً.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾ أي ليرجى منهم الانتهاء عن الكفر ونقض العهد. وفي الآية بيان أن أهل العهد متى خالفوا شيئاً مما عاهدوهم عليه فقد نقضوا العهد، وأما إذا طعن واحد منهم في الإسلام فإن كان شرط في عهودهم أن لا يذكروا كتاب الله، ولا يذكروا محمداً ﷺ بما لا يجوز، ولا يفتنوا مسلماً عن دينه، ولا يقطعوا عليه طريقاً، ولا يعينوا أهل الحرب بدلالة على المسلمين، وأنهم إن فعلوا ذلك فقد برئت منهم ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ. ففعلوا شيئاً من هذه الأشياء حل دمهم وإن كان لم يشترط عليهم ذلك في عهودهم، فطعنوا في القرآن أو شتموا النبي ﷺ ففيه خلاف بين الفقهاء، قال أصحابنا: يعزرون، واستدلوا بما روى أنس بن مالك أن امرأة يهودية أتت النبي ﷺ بشاة مسمومة

---

(1) في النسخة (س): وعكرمة بن أبي جهل.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 198 ـ البغوي، معالم التنزيل: 3/ 14.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 53.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 235 ـ تفسير الثعلبي: 53.

فأكل منها، فجيء بها فقيل: ألا تقتلها؟ قال: «**لا**»[1]. وبحديث عائشة أن قوماً من اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا: السام عليك. ففهمت عائشة فقالت: وعليكم السام واللعنة. فقال النبي ﷺ: «**مهلاً يا عائشة فإن الله تعالى يحب الرفق في الأمر كله**». فقالت: يا رسول الله ألم تسمع ما قالوا؟ قال: «**بلى، قد قلت: وعليكم**»[2]. ولم يقتلهم النبي ﷺ بذلك. وذهب مالك إلى أن من شتم النبي ﷺ من اليهود والنصارى قتل إلا أن يسلم.

قوله عز وجل: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾

قال ابن عباس: وذلك أن قريشاً أعانوا بني الدئل بن بكر ـ وكانوا حلفاءهم ـ على خزاعة، وخزاعة حلفاء النبي ﷺ، فهزموا خزاعة، فجاء وفد خزاعة إلى رسول الله ﷺ فأخبروه بالقصة، وناشدوه حلفه فقال قائلهم:

يا رب إني ناشد محمداً ∴ حلف أبينا وأبيه الأتلدا[3]
كنت لنا أبا وكنا ولداً ∴ ثمت أسلمنا ولم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصرا أعتدا ∴ وادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجردا ∴ أبيض مثل الشمس ينمو صعدا
إن قريشا أخلفوك الموعدا ∴ ونقضوا ميثاقك المؤكدا
هم بيتونا بالوتير هجدا ∴ وقتلونا ركعا وسجدا

فقال ﷺ: «**لا نصرت إن لم أنصركم**»[4]. فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا

---

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 5/ 550، رقم 2717، كتاب الهبة.
(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 14/ 146.
(3) نسب هذا الرجز إلى عمرو بن سالم الخزاعي (سيرة ابن هشام: 4/ 494 ـ شرح نهج البلاغة: 17: 258). الأتلد: القديم. أعتد: حاضر من الشيء العتيد وهو الحاضر.
تجرد: شمر وتهيأ للحرب. الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة.
ورواية هذا الشعر هنا تخالف روايته في سيرة ابن هشام تقديماً، وتأخيراً، وزيادة، وحذفاً.
(4) سيرة ابن هشام: 4/ 395.

رسول الله أتنصرهم على قومنا؟ فقال: «**لا نصرت إن لم أنصرهم**». ثم أمر الناس أن يتجهزوا إلى فتح مكة، ففتحها الله على يديه وأحل رسول الله ﷺ القتال لخزاعة ولم يحله لأحد غيرهم، فذلك قوله تعالى: ﴿أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ﴾ أي نقضوا عهودهم، يعني قريشاً ﴿وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ﴾ من مكة حتى اجتمعوا على قتله في دار الندوة ﴿وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ أي هم الذين بدأوا بنقض العهد حين قاتلوا خزاعة: حلفاء رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ﴾ أي أتخافون أن ينالكم مكروه في قتالهم فتتركوا قتالهم؟ ﴿فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ﴾ أي فالله أحق أن تخافوه في ترككم قتالهم إن كنتم مصدقين بعقاب الله وثوابه.

قوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ أي قاتلوا أهل مكة يعذبهم الله بأيديكم بالسيف ﴿وَيُخۡزِهِمۡ﴾ أي ويذلهم ﴿وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ﴾ يعني بني خزاعة الذين قاتلوهم بنو بكر، ويذهب غيظ قلوب بني خزاعة، فشفى الله صدور بني خزاعة يوم فتح مكة وأذهب غيظ قلوبهم، أي كرهها ووجدها.

قوله تعالى: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ﴾ استئناف كلام، أي يتوب الله على من يشاء من أهل مكة فيهديه للإسلام ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بجميع الأشياء ﴿حَكِيمٌ﴾ في جميع أموره.

قوله تعالى:

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿16﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ﴾ معناه: أظننتم أيها المؤمنون أن تتركوا على الإقرار والتصديق فلا تؤمروا بالجهاد. قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ﴾ أي ولم يرد الله جهادكم حين تجاهدون ولم ير الله الذين لم يتخذوا منكم من الكفار بطانة يفشون إليهم سرهم وأمرهم. وكان

الله تعالى قد علم قبل أمرهم بالقتال من يقاتل ممن لا يقاتل، ولكنه يعلم ذلك عياناً، وأراد العلم الذي يجازي عليه وهو: علم المشاهدة. لأنه يجازيهم على عملهم لا على علمه فيهم. والوليجة: الدخيل في القوم من غيرهم، من ولج الشيء يلج ولوجاً: إذا دخل والخطاب في الآية للمؤمنين حين شق على بعضهم القتال وكرهوه. فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟﴾ فلا تؤمروا بالجهاد، ولا تمتحنوا به ليظهر الصادق من الكاذب، والمطيع من العاصي. قال قتادة: معنى وليجة: أي خيانة. وقال الضحاك: خديعة. وقال ابن الأنباري: الوليجة الدخيلة. وقال عطاء: أولياء. وقال الحسن: كفر ونفاق. وقيل وليجة الرجل: من يختص بدخلة أمره دون الناس. يقال: هو وليجتي للواحد والجمع[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي عالم بأعمالكم. وفي هذا تهديد للمنافقين، وعظة للمخلصين.

قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿17﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿18﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: لما أسر العباس يوم بدر، أقبل عليه المسلمون يعيرونه بالكفر وقطيعة الرحم، وعون المشركين على رسول الله ﷺ، وأغلظ علي رضي الله عنه القول له، فقال العباس: مالكم تذكرون مساوينا ولا تذكرون محاسننا؟ فقال علي رضي الله عنه: ألكم محاسن؟ قال: نعم، إن كنتم تجاهدون الأعداء مع رسول الله ﷺ فنحن نعمر المسجد الحرام، ونحجب الكعبة، ونسقي الحاج، ونفك الأسير، فنحن

---

(1) تفسير الطبري: 14/ 164 ـ الفراء، معاني القرآن: 1/ 426 ـ تفسير القرطبي: 8/ 88.

أفضل منكم أجراً. فأنزل الله هذه الآية ردا على العباس[1]، ومعناها: ما كان للمشركين أن يقوموا بعمارة المساجد، وأن المساجد لله تعالى، والعمارة لله على وجهين: تذكر ويراد بها البناء وتجديد ما انهدم منها، وتذكر ويراد بها الزيارة ومن ذلك العمرة، ومعناها: زيارة البيت الحرام، فانتظمت الآية. نهى المشركين عن بناء المساجد، وعن عمارتها بالطاعة فإنهم إنما يعمرونها بعبادة الأوثان ومعصية الله. ومن قرأ: مسجد الله ـ على التوحيد أراد به المسجد الحرام خاصة، وهي قراءة ابن كثير، وأبي عمرو، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقراءة ابن عباس، وقرأ الباقون: مساجد ـ بالجمع[2]. وإنما قال مساجد، لأنه قبلة المساجد كلها. وقيل لعكرمة: لم تقرأ مساجد وإنما هو مسجد واحد؟ فقال: إن الصفا والمروة من شعائر الله.

قوله تعالى: ﴿شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ﴾ نصب شاهدين على الحال على معنى ما كانت لهم عمارة المساجد في حال إقرارهم بالكفر، وهم كانوا لا يقولون: نحن كفار، ولكن كان كلامهم يدل على كفرهم، كما يقال للرجل: كلامك يشهد أنك ظالم، وهو قول الحسن. وقال السدي: شهادتهم على أنفسهم بالكفر: أن اليهودي لو قيل له: ما أنت؟ قال: يهودي. ويقول النصراني: هو نصراني، ويقول المجوسي: هو مجوسي. وقيل شهادتهم على أنفسهم بالكفر: سجودهم للأصنام، وإقرارهم أنها مخلوقة[3].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ معناه: أن الكفر أذهب ثواب أعمالهم التي هي من جنس طاعة المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ ظاهر المراد. ثم بين الله تعالى من يكون أولى بعمارة المسجد الحرام، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ معناه:

(1) الواحدي، أسباب النزول: 198.
(2) ابن مجاهد، السبعة: 313 ـ تفسير القرطبي: 8/ 89.
(3) تفسير القرطبي: 8/ 89/ 90.

إنما يعمر مساجد الله بطاعة الله من كان بهذه الصفة. قوله تعالى: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني أقام الصلاة المفروضة، وآتى الزكاة الواجبة في ماله. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي ولم يخف من غير الله ولم يرج إلا ثوابه. وكلمة «عسى» من الله واجبة، والفائدة في ذكرها في آخر هذه الآية ليكون الإنسان على حذر من فضل ما يحبط ثواب عمله.

قوله تعالى:

﴿۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ (19) ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ (20) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (21) خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ (22)﴾

قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ﴾ روي عن ابن عباس أنه قال: قال العباس: لئن كنتم سبقتمونا بالإسلام، والهجرة، والجهاد، لقد كنا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاج. فأنزل الله هذه الآية[1]، يعني أن ذلك كان منكم في الشرك، ولا أقبل ما كان في الشرك وروي أن المشركين قالوا: عمارة المسجد الحرام وقيام على السقاية خير ممن آمن وجاهد. وكانوا يفتخرون بالحرم ويستكبرون به من أجل أنهم أهله وعماره فأنزل الله هذه الآية وأخبرهم أن عمارتهم المسجد الحرام، وقيامهم على السقاية لا تنفعهم عند الله مع الشرك بالله. وقال الحسن: نزلت هذه الآية في علي والعباس وطلحة بن شيبة من بني عبد الدار، وذلك أنهم افتخروا، فقال طلحة: أنا صاحب البيت بيدي مفتاحه، وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال علي رضي الله عنه: أنا صاحب الجهاد. فأنزل الله هذه الآية[2]: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَاجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ أي أجعلتم صاحب سقاية الحاج، وصاحب عمارة المسجد

(1) الواحدي: أسباب النزول: 199 ـ تفسير الطبري: 14/ 170.
(2) نفس المرجع: 14/ 171.

الحرام كإيمان بالله واليوم الآخر، وجهاد في سبيل الله لا يستوون عند الله. وقيل معناه: أجعلتم ساقي الحاج وعامر المسجد الحرام. جعل السقاية بمعنى الساقي، والعمارة بمعنى العامر، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[1] أي للمتقين. وقرأ عبد الله بن الزبير وأبي بن كعب: أجعلتم سقاة الحاج، وعمرة المسجد الحرام[2] ـ على جمع الساقي والعامر ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا يرشدهم إلى الحجة ما داموا مصرين على كفرهم، ولا يرشدهم إلى الجنة والثواب.

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ معناه: الذين صدقوا بتوحيد الله وهاجروا من أوطانهم إلى رسول الله، وجاهدوا العدو في طاعة الله أعظم درجة عند الله من الذين افتخروا بعمارة المسجد وسقاية الحاج وغيرهم. وإنما قال: أعظم، وإن لم يكن للكفار درجة عند الله لأنهم كانوا يعتقدون أن لهم درجة عند الله، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿24﴾﴾[3].

وقوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ معناه: أن المهاجرين هم الظافرون بأمانتهم من الخير، الناجون من النار.

قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ أي يبشرهم ربهم في الدنيا على ألسنة الرسل بنجاة من العذاب في الآخرة ورضوان الله عنهم، وبشرهم بجنات لهم فيها نعيم دائم لا يزول عنهم.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ أي دائمين فيها أبدا مع كون النعيم مقيم لهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ أي ثواب كثير.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ

---

(1) سورة طه (20)، الآية: 132.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 54 ـ المحرر الوجيز: 8/ 148.

(3) سورة الفرقان (25)، الآية: 24.

عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿23﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿24﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿23﴾﴾ نزلت في المهاجرين، ومعناه: لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم الذين بمكة أولياء تنتصرون بهم وتنصرونهم إن اختاروا الكفر على الإيمان ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. إنما جعلهم ظالمين بموالاة الكفار، لأن الراضي بالكفر يكون كافراً. عن الضحاك: لما أمر الله المؤمنين بالهجرة وكان قبل فتح مكة من آمن ولم يهاجر لم يقبل الله إيمانه إلا بمهاجرة الآباء والأقرباء، أي بمجانبتهم إذا كانوا كفاراً، فقال المسلمون: يا رسول الله إن نحن اعتزلنا من خالفنا في الدين انقطع آباؤنا، وعشائرنا، وتذهب تجارتنا وتخرب ديارنا. فأنزل الله هذه الآية[1]. وقال الكلبي: لما أمر الله النبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة جعل الرجل يقول لأخيه وأبيه وامرأته وقرابته: إنا قد أمرنا بالهجرة إلى المدينة فاخرجوا معنا إليها. فمنهم من يعجبه ذلك فيسارع إليها معهم، ومنهم من يأبى أن يهاجر، فيقول الرجل لهم: والله لا أنفعكم بشيء، ولا أعطيكم، ولا أنفق عليكم، ومنهم من تتعلق به زوجته وولده وعياله فيقولون له: ننشدك الله أن لا تضيعنا وتجلس وتترك الهجرة. فأنزل الله هذه الآية[2]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ﴾ أي أصدقاء تفشون إليهم سركم وتأثرون المقام معهم على الهجرة والجهاد ﴿إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ﴾ فيطلعهم على عورة الإسلام وأهله، ويؤثر المكث معهم على الهجرة إلى دار الإسلام ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أي العاصون الواضعون الولاية في غير موضعها.

---

(1) تفسير الثعلبي. ورقة: 54. ذكر قول الضحاك.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 200.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾ أي قل يا محمد للذين تركوا الهجرة إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم ونساؤكم وقرابتكم، وأموال اكتسبتموها بمكة وصنتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا﴾ أي عدم نفاقها، إذا شغلتكم بضاعة ومنازل تعجبكم الإقامة بها بمكة أحب إليكم من طاعة الله وطاعة رسوله بالهجرة إلى المدينة، وأحب إليكم من الجهاد في طاعة الله ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ أي فانتظروا حتى يأتي الله بفتح مكة. ويقال: حتى يأتي الله بعذاب عاجل ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يرشد الخارجين عن طاعته إلى معصيته، ولا يهديهم إلى جنته وثوابه.

قوله تعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ (25) ثُمَّ أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ (26)﴾

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا﴾ وذلك أن رسول الله ﷺ خرج من مكة بعدما افتتحها، وكان افتتحها في بقية أيام من رمضان[1]، فمكث بها حتى دخل شوال، فخرج منها متوجهاً إلى حنين[2]، وبعث رجلاً من بني سليم عينا له يقال له عبد الله بن أبي حدرد[3]، فأتى حنيناً، فكان بينهم يستمع أخبارهم، فسمع مالك بن عوف[4] يقول لأصحابه: أنتم اليوم أربعة آلاف رجل، فإذا لقيتم العدو فاحملوا

---

(1) سنة ثمان من الهجرة.

(2) واد قريب من الطائف، بينه وبين مكة بضعة عشر ميلاً من جهة عرفات.

(3) أبو محمد، عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي: صحابي شجاع، أمره الرسول ﷺ على سراياه واحدة بعد أخرى، شهد الحديبية وخيبر وما بعدهما من المشاهد. روى عنه ابن القعقاع توفي سنة إحدى وسبعين هجرية.
الاستيعاب: 3/ 887 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 309.

(4) مالك بن عوف بن سعد بن ربيعة النضري، انهزم يوم حنين كافراً ثم لحق بالرسول ﷺ وأسلم فأعطاه أهله وماله وأعطاه مائة من الإبل، كما أعطى سائر المؤلفة قلوبهم.

عليهم حملة رجل واحد، فوالله لا تضربون بأربعة آلاف سيف شيئاً إلا أفرج لكم. وكان مالك بن عوف على هوازن، وكنانة بن عبد ياليل[1] على ثقيف، فأقبل ابن ابي حدرد حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره بمقالتهم[2]، فخرج رسول الله ﷺ متوجاً إليهم في عشرة آلاف رجل. كذا قال الكلبي. وقال مقاتل: كانوا أحد عشر ألفاً وخمسمائة. وقال قتادة: خرج رسول الله ﷺ إلى حنين لقتال هوازن وثقيف في اثني عشر ألفاً: عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وألفان من الطلقاء[3]. فقال رجل من المسلمين يقال له سلمة بن سلامة[4]: والله يا رسول الله لن نغلب اليوم من قلة. فساء رسول الله ﷺ، وابتلى الله المسلمين بكلمته، فلما التقوا حمل العدو عليهم حملة رجل واحد فلم يقوموا له حلبة شاة إلا انكشفوا وتبعهم القوم في أدبارهم، وكان رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وأبو سفيان[5] يقود به، والعباس آخذ بالتفر، وحول رسول الله ﷺ يومئذ نحو عشرة من المسلمين[6]. وانهزم سائر الناس عنه، فجعل النبي ﷺ يركض بغلته نحو الكفار لا يألوا، وكانت بغلته شهباء وهو ينادي: «**يا معشر المهاجرين إلي، ويا معشر الأنصار إلي، أين أصحاب الصفة؟ أين أصحاب سورة البقرة؟**» وكان

الاستيعاب: 3/ 1356.

(1) في تفسير الطبري: 14/ 180: «وعلى ثقيف عبد ياليل بن عمر الثقفي». كناية عن عبد ياليل بن عمرو بن عمير الثقفي، كان سيداً في ثقيف وأسلم مع وفدها.
الطبقات الكبرى: 6/ 47

(2) السيرة النبوية، لابن هشام: 4/ 439.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 55 ـ وسيرة ابن هشام: 4/ 439.

(4) أبو عوف، سلمة بن سلامة بن وقش بن عبد الأشهل: شهد العقبة الأولى والأخيرة مع السبعين، كما شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وتوفي سنة خمس وأربعين.
الطبقات الكبرى: 3/ 335.

(5) أبو سفيان، المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب بن هشام، كان أخا الرسول ﷺ من الرضاعة، أسلم عام الفتح، وشهد حنينا، والطائف. توفي بالمدينة سنة عشرين.
الطبقات الكبرى: 4/ 36.

(6) قال القرطبي في تفسيره: 8/ 98 وقال العباس بن عبد المطلب:
نصرنا رسول الله في الحرب تسعة   وقد فر من قد فر عنه وأقشعوا
وعاشرنا لاقى الحمام بنفسه   بما مسه في الله لا يتوجع

العباس ينادي: يا معشر المهاجرين أين الذين بايعوا تحت الشجرة؟ يا معشر الذين آووا ونصروا، هلموا فإن هذا رسول الله ﷺ. وكان العباس رجلاً صيتاً جهوري الصوت، يروى من شدة صوته أنه أغير يوماً على مكة فنادى: واصحباه. فأسقطت كل حامل سمعت صوته. فلما صاح بالمسلمين عطفوا حين سمعوا صوته عطفة البقر على أولادها وقالوا: لبيك لبيك. وجاءوا عنقاً واحداً لنصرة دين الله، وأقبل المشركون ليطفئوا نور الله، فأنزل الله من السماء جنوداً لم يروها، وعذب الذين كفروا وأظهر المسلمين عليهم، وحمي الوطيس، وكان ﷺ على بغلته يتطاول إلى قتالهم، ثم أخذ كفا من الحصاة فرماهم به وقال: «**شاهت الوجوه، انهزموا ورب الكعبة، انهزموا ورب الكعبة**». فوالله ما زال أمرهم مدبراً، وحدهم كليلاً، وهرب أمير جيشهم مالك بن عوف. وعن [أبي اسحاق السبيعي[1]: قيل] للبراء[2]: هل كان رسول الله ﷺ حين ولى المسلمون معهم مولياً؟ قال: لا، والذي لا إله إلا هو ما ولى رسول الله ﷺ دبره قط، ولقد رأيته على بغلته البيضاء يركض نحو الكفار وهو يقول:

أنا النبي لا كذب ∴ أنا ابن عبد المطلب

ثم قال للعباس: ناد: يا معشر الأنصار، يا معشر المهاجرين. فعطف المسلمون إليه مسرعين، وأنزل الله جنده ونصر عبده، وهزم المشركين، ونصر المسلمين. قال سعيد بن جبير: أمد الله نبيه عليه السلام بخمسة آلاف ملك. وقال الحسن ومجاهد: كانوا ثمانية آلاف. وقال عطاء: كانوا ستة عشر ألفاً[3]. وقال سعيد بن

---

(1) ما بين المعقوفين ساقط من النسخة (س).
أبو إسحاق، عمرو بن عبد الله بن علي بن أحمد السبيعي الكوفي: كان إماماً كبيراً، رأى من الصحابة: علي، وابن عباس، وابن عمر، وغيرهم، وأخذ القراءة عن عاصم بن ضمرة، والحارث الهمداني، وغيرهما، وعنه أخذ حمزة الزيات، وغيره. توفي سنة اثنتين وثلاثين ومائة هجرية.
الطبقات الكبرى: 6/ 311 ـ تذكرة الحفاظ: 1/ 114 ـ غاية النهاية: 1/ 602.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 8/ 344، رقم: 4315، كتاب المغازي ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 12/ 117، غزوة حنين.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 55.

جبير: حدثنا رجل كان في المشركين يوم حنين قال: لما التقينا نحن أصحاب محمد لم يقفوا لنا حلب شاة[1]، فلما كشفناهم جعلنا نسوقهم حتى انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء ـ يعني محمداً ﷺ ـ تلقانا رجال بيض الثياب حسان الوجوه فقالوا لنا: شاهت الوجوه ارجعوا. فرجعنا، وركبوا أكتافنا فكانت إياها ـ يعني الملائكة[2] ـ وروي أن الملائكة قاتلت يومئذ، حتى إن رجلاً من بني نصر ابن معاوية قال للمؤمنين وهو في أيديهم: أين الخيل البلق، والرجال عليهم الثياب البيض، ما كنا نراكم فيهم إلا كهيئة الشامة، وما كان قتلنا إلا بأيديهم؟ فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ فقال: «**تلك الملائكة**». فلما هرب أمير المشركين مالك بن عوف انهزم المشركون، وولوا مدبرين، انطلق المسلمون حتى أتوا أوطاس[3] وبها عيال المشركين وأموالهم، وبعث رسول الله ﷺ على المسلمين رجلاً من الأشعريين أمره عليهم يقال له أبو عامر[4]، فسار بهم إلى أوطاس فقاتل أهلها حتى هزمهم الله، وسبى المسلمون عيال المشركين، وهرب مالك بن عوف حتى أتى الطائف وأخذ ماله وأهله فيمن أخذ، وقتل أبو عامر رضي الله عنه ثم أتى رسول الله ﷺ الطائف فحاصرهم بقية ذلك الشهر، فلما دخل ذو القعدة، وهو شهر حرام لا يحل فيه القتال، رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة[5] فأحرم منها بعمرة، وقسم بها السبي والمال وغنائم حنين وأوطاس، وتألف أناساً منهم: أبو سفيان بن حرب، وسهيل بن عمرو، والأقرع بن حابس[6]، فأعطاهم وجعل يعطي الرجل الخمسين والمائة من الإبل، فقالت طائفة من الأنصار: أمن الرجل وآثر قومه، يا للعجب إن أسيافنا تقطر من دمائهم وغنائمنا ترد عليهم فبلغ ذلك

---

(1) «لم يقفوا لنا حلب شاة» يعني إلا قدر ما تحلب شاة، كناية عن قلة الزمن.

(2) الطبري في تفسيره: 14 : 186.

(3) أوطاس: واد في ديار هوازن.

(4) أبو عامر، عبيد بن سليم الأشعري: شهد فتح مكة وحنين، وبعثه النبي ﷺ في أثر من توجه إلى أوطاس من هوازن، واستشهد ذلك اليوم. الطبقات الكبرى: 4/ 264.

(5) الجعرانة: بكسر الجيم والعين المهملة، وتشديد الراء، وهي بين مكة والطائف، وإلى مكة أقرب.

(6) أبو عيينة، الأقرع بن حابس التميمي: صحابي من تميم، أسلم مع وفدها، وشهد فتح مكة وحنينا والطائف، وكان من المؤلفة قلوبهم. توفي سنة إحدى وثلاثين هجرية.
الإصابة: 1/ 58 ـ أسد الغابة: 1/ 128 ـ الاستيعاب: 1/ 103.

النبي ﷺ فجمعهم، وقال: «**يا معشر الأنصار ما هذا الذي بلغني عنكم؟**» فقالوا: هو الذي بلغك. وكانوا لا يكذبون. فقال لهم: «**ألم تكونوا ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم أذلة فأعزكم الله بي؟ وكنتم، وكنتم**».. فقال سعد بن عبادة: ائذن لي أتكلم يا رسول الله. قال: «**تكلم**». [قال:] أما قولك كنتم ضلالاً فهداكم الله بي نحن كنا كذلك، وأما قولك كنتم أذلة فأعزكم الله بي فقد علمت العرب أنه ما كان حي من أحياء العرب أمنع لما وراء ظهورهم منا. فقال عمر: يا سعد أتدري من تكلم؟ قال: نعم يا عمر أكلم رسول الله ﷺ. فقال صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لو سلكت الأنصار وادياً، وسلك الناس وادياً لسلكت وادي الأنصار الأنصار كرشي وعيبتي**[1]**، فأقبل من محسنهم، وأتجاوز عن مسيئهم**». ثم قال: «**يا معشر الأنصار أما ترضون أن ينقلب الناس بالشاء والإبل وتنقلبون برسول الله ﷺ إلى بيوتكم؟**» قالوا: بلى رضينا يا رسول الله، والله ما قلنا ذلك إلا محبة لله ولرسوله، فقال صلى الله عليه وسلم: «**إن الله ورسوله يصدقانكم ويعذرانكم**»[2]. فلما قدم النبي ﷺ المدينة قام خطيباً فقال: «**أما إن خطيب الأنصار لو قال كنت طريداً فآمنّاك، وكنت خائفاً فآمنك، وكنت مخذولاً فنصرناك، وكنت، وكنت لكان قد صدق**». فبكت الأنصار وقالت: بل الله ورسوله أعظم منا علينا. وذكر أن ضئر النبي ﷺ أو التي أرضعته من بني سعد أتته يوم حنين تسأله سبايا حنين، فقال ﷺ: «**إني لا أملكهم وإنما أملك نصيبي منهم**»، ولكن ائتني غداً والناس عندي، فإذا أعطيتك حصتي أعطاك الناس. فجاءت من الغد فبسط لها ثوبه فقعدت عليه، وسألته ذلك فأعطاها نصيبه، فلما رأى ذلك الناس أعطوها أنصباءهم[3]. قال الزهري، وابن المسيب: إنهم أصابوا يومئذ ستة آلاف سبي وكان رسول الله ﷺ قد أمر منادياً فنادى يوم أوطاس: ألا

---

(1) الكرش: وعاء الطيب. والعيبة: وعاء من أدم يكون فيه المتاع والثياب. والمعنى: الأنصار خاصتي وموضع سري، أثق بهم، وأعتمد عليهم، وهم أنفس ما أحرز.

(2) تفسير الطبري: 14/ 181 ـ رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 8/ 369، رقم: 4330، كتاب المغازي.

(3) تفسير الطبري: 14/ 182.

لا توطأ الحبالى حتى يضعن، ولا الحيالى حتى يستبرئن بحيضة[1]. ثم إن مالك بن عوف قال لأصحابه: هل لكم أن تصيبوا من محمد مالاً؟ قالوا: نعم. فأرسل إلى النبي ﷺ: إني أريد أن أسلم فما تعطيني؟ قال: «**أعطيك مائة من الإبل ورعاتها**». فجاءه فأسلم، وأقام يوماً أو يومين، فلما رأى المسلمون، ورقتهم، وزهدهم واجتهادهم رق لذلك، فقال له النبي ﷺ: يا ابن عوف ألا نفي لك بما وعدناك؟ قال: يا رسول الله أمثلي يأخذ على الإسلام شيئاً؟ ثم أسلم أهل الطائف[2]. وكان مالك بن عوف بعد ذلك ممن افتتح عامة الشام.

قوله تعالى: ﴿فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ﴾ أي لقد أعانكم الله على أعدائكم في مواطن كثيرة من قتال بدر، وحرب بني قريظة، والنضير، وخيبر، وفتح مكة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ أي وأعانكم يوم حنين. وحنين: اسم واد بين مكة والطائف. وأضيف اليوم إلى حنين لوقوع الحرب يومئذ بها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾ أي إذ سرتكم كثرتكم. والإعجاب هو السرور بالتعجب. ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾ ولا دفعت عنكم سوءاً.

وقوله تعالى: ﴿وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ أي ضاقت عليكم الأرض مع سعتها من خوف العدو فلم تجدوا موضعاً للفرار إليه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ أي أعرضتم منهزمين لا تلوون على أحد. والإدبار: الذهاب إلى الخلف.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ﴾ أي أنزل الله أمنة ورحمة على رسوله ﴿وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ حتى عادوا فظفروا والسكينة في اللغة: اسم لما يسكن إليه القلب. وقال الحسن: أراد بالسكينة: الوقار.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 56.

(2) المصدر نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ أي أنزل من السماء ملائكة لنصرتك لم تروها بأعينكم.

قوله تعالى: ﴿وَعَذَّبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني بالقتل والأسر ﴿وَذَٰلِكَ﴾ العقاب ﴿جَزَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾ أي ثم يتوب الله من بعد الهزيمة على من يشاء منهم من كان أهلاً لذلك ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لما كان منهم في الشرك إذا تابوا ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم في الإسلام.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿28﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ معناه: إنما المشركون قذر، وقيل: خبث. والنجس مصدر قائم مقام الاسم لا يثنى ولا يجمع يقال: رجل نجس، وامرأة نجس، ورجال ونساء نجس، ولا يؤنث ولا يجمع. فلهذا لم يقل: إنما المشركون أنجاس. وسمي المشرك نجساً لأن شركه يجري مجرى العذرة في أنه يجب تجنبه كما تتجنب النجاسات، أي يجب التبرىء من المشركين وقطع مودتهم. والنجاسة على ضربين: نجاسة الأعيان ونجاسة الذنوب. وكان الحسن يقول: لا تصافحوا المشركين، فمن صافحهم فليتوضأ. وقال قتادة: سماهم الله نجساً لأنهم يجنبون ولا يغتسلون، ويحدثون ولا يتوضأون، فمنعوا من دخول المساجد، لأن الجنب لا يدخل المسجد[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ أي لا ينبغي لهم أن يقربوه للحج والطواف بعد هذا العام، وهو العام الذي حج فيه أبو بكر

---

(1) ذكر القرطبي هذه الأقوال في تفسيره: 8/ 103.

رضي الله عنه، ونادى علي فيه ببراءة، وهو سنة تسع من الهجرة، ثم حج رسول الله ﷺ في العام الثاني حجة الوداع في سنة عشر من الهجرة. وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ بيان أن المراد بالآية إبعاد المشركين عن المسجد الحرام كما روي عن علي رضي الله عنه أنه كان ينادي فيهم في ذلك العام: ألا لا يطوفن بهذا البيت بعد هذا العام مشرك، ولا عريان. قال ابن عباس: فقال أناس من تجار بكر بن وائل، وغيرهم من المشركين بعد قراءة علي رضي الله عنه هذه الآية: ستعلمون يا أهل مكة إذا فعلتم هذا ماذا تلقون من الشدة، من أين تأكلون؟ أما والله لتقطعن سبلكم، ولا يحمل إليكم شيئاً. فوقع ذلك في نفس أهل مكة، وشق عليهم، وألقى الشيطان في قلوب المسلمين الحزن، وقال لهم: من أين تعيشون؟ وقد نفي المشركون، وانقطعت عليكم الميرة. فقال المسلمون: يا رسول الله قد كنا نصيب من تجارتهم، فالآن تنقطع عنا الأسواق، والتجارة، ويذهب عنا الذي كنا نصيبه منها. فأنزل الله عز وجل[1]: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ﴾ معناه: فإن خفتم فقرا من إبعاد المشركين فسوف يغنيكم الله من فضله بغيرهم. فأخصبت تباله، وجرش[2]، فحملوا إلى مكة الطعام، والإدام، وأغنى الله أهل مكة عن تجارة بني بكر. وروي أن أهل جدة وصنعاء من أهل اليمن أسلموا، وحملوا إلى مكة الطعام في البحر والبر. والعيلة: الفقر، والفاقة. يقال: عال الرجل يعيل عيلة. قال الشاعر:

وما يدري الفقير متى غناه ∴ وما يدري الغني متى يعيل[3]

أي يفتقر. وفي مصحف عبد الله: وإن خفتم عائلة[4] فسوف يغنيكم الله.

وقوله تعالى: ﴿إِن شَآءَ﴾ استثناء فيما علم الله أنه سيكون لئلا يترك العباد الاستثناء في أمورهم ولترفع الآمال إلى الله في طلب الغنى منه.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 56.
(2) تباله: بلد اليمن. وجرش ـ كزفر ـ: من مخاليف اليمن.
(3) نسب إلى أحيحة بن الحلاج ـ تقدم تخريجه.
(4) تفسير القرطبي: 8/ 107.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بخلقه وما يصلحهم ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم في أمره.

قوله تعالى:

﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿29﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿30﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿31﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ الآية.. معناه: قاتلوا اليهود والنصارى الذين لا يؤمنون بآيات الله التي أنزلها على نبيه عليه السلام. وقيل معناه: لا يؤمنون بالله، أي كانوا يصفون الله سبحانه بصفة لا تليق به، لأن اليهود مثنية، والنصارى مثلثة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي لا يحرمون الخمر والخنزير ونحو ذلك مما لم يقروا بتحريمه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ﴾ أي لا يعتقدون دين الإسلام، ولا يخضعون لله بالتوحيد. وقيل: معنى دين الحق أي دين الله، لأن الله هو الحق.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ يعني اليهود والنصارى ﴿حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ﴾ أي حتى تؤخذ الجزية من أيديهم وهم قيام أذلاء، والآخذ جالس. ويقال: أراد باليد القهر، كأنه قال: عن قهر من المسلمين عليهم، واعتراف منهم للمسلمين بأن أيدي المسلمين فوق أيديهم، كما يقال: اليد في هذا الأمر لفلان، ويراد به نفاذ أمره. ويحتمل أن يكون المعنى باليد إنعام المسلمين عليهم بقبول الجزية منهم. ويقال: أراد باليد القوة على معنى أنه ليس على الفقير غير المتمول جزية. وأما طعن الملحدة كيف يجوز إقرار الكفار على

كفرهم بأداء الجزية بدلاً عن الاسلام؟ فالجواب: أنه لا يجوز أن يكون أخذ الجزية منهم رضى بكفرهم، وإنما الجزية عقوبة لهم على إقامتهم على الكفر، وإذا جاز إمهالهم بغير الجزية للاستدعاء إلى الإيمان كان إمهالهم بالجزية أولى. وقال أبو عبيدة: يقال لكل من أعطى شيئاً كرهاً من غير طيب نفس منه: أعطاه عن يد[1]. وقال ابن عباس: هو أن يعطوها بأيديهم يمشون بها كارهين، ولا يجيئون بها ركبانا ولا يرسلون بها[2].

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ أي ذليلون مقهورون. وقال عكرمة معنى الصغار هو: أن تأخذها وهو قائم وأنت جالس[3]. وقال الكلبي: هو أنه إذا أعطى الجزية صفع في قفاه[4]. وقيل: هو أنه لا تقبل فيها رسالة ولا وكالة. وتؤخذ الجزية أيضاً من الصابئين والسامري، لأن سبيلهم في أهل الكتاب سبيل أهل البدع فينا. وتؤخذ الجزية أيضاً من المجوس، لأنه قد قيل: إنهم كانوا أهل كتاب فرفع كتابهم. وعن سعيد بن المسيب أن رسول الله ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وأخذها عمر بن الخطاب من مجوس أهل السواد. روي أن عمر رضي الله عنه قال: لا أدري كيف أصنع بالمجوس؟ فقال له عبد الرحمن بن عوف: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**سنوا بهم سنة أهل الكتاب غير ناكحي نسائهم ولا آكلي ذبائحهم**»[5].

قوله عز وجل: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ الآية.. أي قالت اليهود حين قرأ عليهم عزير التوراة عن ظهر قلبه: إن الله لم يجعل التوراة في قلب أحد إلا وهو ابنه. وعن ابن عباس أن جماعة من اليهود منهم النعمان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف أتوا رسول الله ﷺ فقالوا له: كيف نتبعك

(1) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 256.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 115.
(3) تفسير الطبري: 14/ 200.
(4) تفسير الثعلبي، ورقة: 57.
(5) تفسير القرطبي: 8/ 115.

وقد تركت قبلتنا ولا تزعم أن عزير ابن الله؟ فأنزل الله هذه الآية[1]. قرأ عاصم والكسائي ويعقوب: وقالت اليهود عزير ابن الله ـ بالتنوين، وقرأ الباقون بغير تنوين[2]. فمن نون قال: لأنه اسم خفيف فوجهه أن يصرف وإن كان أعجمياً مثل: نوح، وهود، ولوط. قال أبو حاتم والمبرد: والاختيار التنوين، لأنه ليس بصفة والكلام ناقص، وابن في موضع الخبر وليس بنعت، وإنما يحذف التنوين في النعت، ومن ترك التنوين قال: لأنه اسم أعجمي. وقال الزجاج: يجوز أن يكون الخبر محذوفاً تقديره: عزير بن الله معبود، على أن يكون ابن نعتا لعزير[3].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ﴾ هذا قول نصارى نجران.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ﴾ أي معناه: أنهم لا يتجاوزون في هذا القول عن العبارة إلى المعنى، إذ لا برهان لهم لأنهم يعترفون أن الله لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له ولداً؟

قوله تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ﴾ أي يشابهون في قولهم ذلك قول أهل مكة حين قالوا: اللات والعزى ومناة. وقيل: أراد يشابهون قول الكفار الذين يقولون: الملائكة بنات الله. قرأ عاصم: يضاهئون ـ بالهمزة، والعامة بغير الهمز[4]. يقال: ضاهيته وضاهأته بمعنى واحد. وقال قتادة والسدي: ضاهت النصارى قول اليهود من قبل، فقالت النصارى المسيح ابن الله، كما قالت اليهود عزير ابن الله. قوله تعالى: ﴿يُضَـٰهِـُٔونَ﴾ أي يشابهون. يقال: امرأة ضهياء: إذا شابهت الرجل في أنها لا ثدي لها ولا تحيض.

قوله تعالى: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي لعنهم الله. كذا قال ابن عباس: وقال ابن جريج معناه: ﴿قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ أي أنى يكذبون ويصرفون عن

(1) تفسير الطبري: 14/ 200.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 240.
(3) الزجاج، معاني القرآن: 2/ 442.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 246.

الحق بعد قيام الأدلة عليه[1].

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وعبادهم أربابا، أي أطاعوهم في معاصي الله، فجعل الله طاعتهم عبادتهم، لأنهم اتبعوهم وتركوا أوامر الله ونواهيه في كتبهم. قال الضحاك: الأحبار: العلماء، واحدهم حبر وحبر - بكسر الحاء وفتحها، والكسر أفصح[2]. والرهبان من النصارى: أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم. قوله تعالى: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي سادة من دون الله يطيعوهم في معاصي الله. وأما تسمية العالم حبر فلكثرة كتابة الحبر. وقيل: لتحبيره المعاني بالبيان الحسن. وأما الراهب: فهو الخاشع لله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ أي واتخذوا المسيح إلهاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ أي لم يؤمروا في جميع الكتب، وعلى ألسنة الرسل إلا بعبادة إله واحد.

وقوله تعالى: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزيهاً لله عن الشرك وما لا يليق به.

قوله تعالى:

﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ (32) هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ (33)﴾

قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ أي يريدون أن يردوا القرآن ودلائل الإسلام بالتكذيب بألسنتهم. وقال الضحاك: يريد اليهود والنصارى أن يهلك محمداً وأصحابه، ولا يعبد الله بالإسلام[3]. ﴿وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ﴾ أي يعلي دينه وكلمته، ويظهر الإسلام وأهله على أهل كل دين وإن كره الكافرون ذلك.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 37.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 8/ 166.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 59.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ أي هو الذي بعث محمداً ﷺ بالقرآن ودين الإسلام ليظهره على سائر الأديان بالحجة والغلبة. واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ﴾: قال ابن عباس: الهاء عائدة على رسول الله ﷺ، يعني: ليعلمه بشرائع الدين كلها، فيظهره عليها حتى لا يخفى عليه شيء منها، وقال آخرون: الهاء راجعة إلى ﴿دِينَ ٱلْحَقِّ﴾[1].

قوله تعالى:

﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿34﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿35﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ معناه: يأيها الذين آمنوا بمحمد ﷺ والقرآن إن كثيراً من الأحبار، وهم من ولد هارون. وقوله تعالى: ﴿وَٱلرُّهْبَانِ﴾ وهم أصحاب الصوامع، وهم دون الأحبار في العلم. وقوله تعالى: ﴿لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ أراد به أخذ الرشا على الحكم وما كان لهم من الهدايا من سفلتهم على كتمان بعث النبي ﷺ وصفته. وهكذا روي عن ابن عباس[2]. وقال السدي: الأحبار علماء اليهود، والرهبان: أصحاب الصوامع من النصارى. وأما تخصيص الأكل في الآية فلأن معظم المقصود من التمليك الأكل، فوضع الأكل موضع الملك.

قوله تعالى: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي يصرفون الناس عن دين الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة 59.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 200.

﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي يجمعونها ويضعون بعضها فوق بعض ولا ينفقون الكنوز في طاعة الله. وقيل معناه: ولا ينفقون الفضة. وحذف الذهب، لأن في بيان أحدهما حكم الآخر كما قال تعالى ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا﴾[1]. والدليل على ذلك أن الكناية راجعة إلى الذهب والفضة جميعاً أنها لو رجعت إلى أحدهما لبقي الآخر عارياً عن الجواب، فيصير كلاماً منقطعاً لا معنى له. وتقدير الآية: لا ينفقوا منهما، أي لا يؤدوا زكاتهما ولا يخرجون حق الله منهما. إلا أنه حذف «من» وأراد إثباتها بدليل أنه تعالى قال في آية أخرى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً﴾[2]، وقال صلى الله عليه وسلم: «**في مائتي درهم خمسة دراهم، وفي عشرين مثقالاً من الذهب نصف مثقال**»[3]. ولو كان الواجب إنفاق جميع المال لم يكن لهذا التقدير وجه. وسمي الذهب ذهباً: لأنه يذهب ولا يبقى، وسميت فضة، أي تنفض بمعنى تتفرق ولا تبقى، وحسبك بالاسمين دلالة على فنائهما وأنه لا بقاء لهما. قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وضع الوعيد لهم بالعذاب موضع البشارة بالنعيم لغيرهم. وعن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: ما أديت زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين، وكل مال لم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهراً[4].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾ أي يوم يوقد على الكنوز في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم عقوبة لهم. قال ابن مسعود: لا يوضع دينار ولا درهم على دينار ولا درهم، ولكن توسع جلودهم لذلك فلا يمس دينار ديناراً ولا درهم درهماً[5].

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ أي يقال لهم: هذا ما جمعتم من الدنيا فذوقوا عقوبة ما كنتم تجمعون. وسئل أبو بكر الوراق لم خصت الجباه

---

(1) سورة الجمعة (62)، الآية: 11.
(2) سورة التوبة (9)، الآية: 103.
(3) رواه الدارقطني في سننه: 2/ 93.
(4) رواه المنذري في: الترغيب والترهيب: 2/ 101، رقم: 1080.
(5) ذكره الهيثمي في: مجمع الزوائد: 7/ 29 ـ 30.

والجنوب والظهور بالكي؟ قال: لأن الغني صاحب الكنز إذا رأى الفقير أعرض، وإذا ضمه وإياه مجلس ازورَّ عليه، وولاه ظهره[1]. وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنه قال: لما نزلت هذه الآية قال الصحابة: فأي المال نتخذ؟ فقال عمر: أنا أسأل رسول الله ﷺ. فسأله فقال عليه السلام: «**لساناً ذاكراً، وقلبا شاكراً، وبدنا صابراً، وزوجة تعينك على إيمانك**»[2]. وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما من صاحب كنز لا يؤدي زكاته إلا حمى عليه في نار جهنم فيجعل صفائح فيكوى بها جبينه وجنباه. حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى لجنة وإما إلى النار، وما من صاحب إبل لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر**[3] **تسير عليه كلما مضى عليه أخراها رد عليه أولاها حتى يحكم الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار. وما من صاحب غنم لا يؤدي زكاتها إلا بطح لها بقاع قرقر تطؤه بأظلافها، وتنطحه بقرونها ليس فيها عقصاء ولا جلحاء، كلما مضى عليه آخرها رد عليه أولها حتى يقضي الله بين عباده في يوم كان مقداره خمسين الف سنة مما تعدون، ثم يرى سبيله إما إلى الجنة وإما إلى النار**»[4].

قوله تعالى:

﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ

---

(1) ذكره الثعلبي في تفسيره، ورقة: 60.

(2) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 5/ 81، رقم 1648، باب في حقوق المال ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 596، رقم 1856، باب أفضل النساء.

(3) بطح ـ بالبناء للمجهول ـ: ألقي على وجهه.
القاع: الأرض المستوية الفسيحة.
قرقر: الأرض البارزة الملساء.
(ابن الأثير، النهاية، باب: قرقر).

(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 7/ 64، إثم مانع الزكاة ـ البغوي في سننه: 5/ 480، رقم: 1562، باب وعيد مانع الزكاة.

﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ (36)
إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا
لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا
يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ (37)﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معناه: إن عدد الشهور التي تتعلق بها الأحكام من الحج والعمرة والزكاة والأعياد وغيرها ﴿ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ على منازل القمر، تارة يكون الحج والصوم في الشتاء، وتارة في الصيف على اعتبار الأهلة. قوله تعالى: ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ يعني اللوح المحفوظ. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وإنما قال ذلك لأن الله تعالى أجرى الشمس والقمر في السموات يوم خلق السموات والأرض.

قوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ واحد فرد وهو رجب، وثلاثة سرد متتابعة وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم. سماها حرماً لعظم انتهاك حرمتها كما خص الحرم بمثل ذلك، وكانت العرب تعظمها وتحرم القتال فيها، حتى إن الرجل لو لقي قاتل أبيه أو أخيه فيها لم يهجه.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ أي في الأشهر الحرم في العمل بالمعصية وترك الطاعة. وقيل: باستحلال القتل والغارة. وقيل معناه: لا تجعلوا حلالها حراماً، ولا حرامها حلالا، والذنب والظلم فيهن أعظم من الظلم فيما سواهن. ويقال معناه: فلا تظلموا في الاثني عشر شهراً أنفسكم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ أي الحساب المستقيم.

قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ يجوز أن تكون الكافة راجعة إلى المسلمين، أي قاتلوا جميعاً المشركين، ويجوز أن تكون راجعة إلى المشركين، أي قاتلوا المشركين جميعاً.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ أي كما يقاتلونكم جميعاً

وقوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي معهم بالنصرة. واختلف

العلماء في حرمة القتال في الأشهر الحرم، فقال بعضهم: لا يجوز القتال فيها ولا الغارة، لأن الله تعالى سماها حراماً فيكون قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً﴾ دليل على جواز القتال فيها على وجه الدفع. وذهب أبو حنيفة، وأصحابه إلى أن القتال فيها جائز، وأن المراد بقوله تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ تعظيم انتهاك الظلم، والفساد فيها، وتعظيم ثواب الطاعة التي تفعل فيها. وقوله: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ يدل على أن الله أخرج هذه الأشهر الحرم من أن يكون محرماً في باب الجهاد لئلا يقدر أحد أن الجهاد داخل تحت قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾ وكان الله تعالى ميز الجهاد من الظلم الذي هو إقدام على النفوس والأموال. وقوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾ منصوب على الحال. قال قتادة وعطاء[1]: كان الجهاد كبيراً في الأشهر الحرم، ثم نسخ وأحل فيها بقوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ يعني فيهن وفي غيرهن. وقال الزهري: كان رسول الله ﷺ: يحرم القتال في الأشهر الحرم بما أنزل الله من تحريم ذلك حتى نزلت براءة وأحل قتال المشركين. وقال سفيان الثوري لما سئل عن القتال في الأشهر الحرم فقال: لا بأس بالقتال فيهن وفي غيرهن، لأن النبي ﷺ غزا هوازن بحنين، وثقيف بالطائف فحاصرهم في شوال وبعض ذي القعدة، فدل على أن حرمة القتال فيها منسوخ[2].

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾ أي إنما تأخير الشهر الحرام من المحرم إلى صفر واستباحة المحرم زيادة في الكفر، فغلط وخطأ بالنسأ سائر الكفار. ومن قرأ: يضل ـ بفتح الياء فمعناه: هم يضلون بأنفسهم، يحلون المحرم عاماً فيقاتلون فيه، ويحرمون صفر مكان المحرم، ويحرمون المحرم عاماً فلا يقاتلون فيه، ثم

(1) عطاء بن مسلم بن ميسرة الخراساني: مفسر، كان يغزو ويكثر من التهجد في الليل. من مؤلفاته: «التفسير» و«الناسخ والمنسوخ» توفي سنة خمس وثلاثين ومائة هجرية.
الطبقات الكبرى: 7/ 261، الداودي، طبقات المفسرين: 1/ 379 ـ شذرات الذهب: 1/ 192.

(2) ذكر هذه الأقوال: الثعلبي في تفسيره: ورقة: 61 ـ وكذا القرطبي في تفسيره: 8/ 134 ـ والبغوي في معالم التنزيل: 3/ 45.

يقاتلون في صفر ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾ أي ليوافقوا في العدد أربعة أشهر، وكانوا يقولون: هذه أربعة بمنزلة أربعة. والمواطأة: الموافقة. وأصل النسيء: التأخير، ومنه بيع النسيئة، ومنه أنسأ الله في أجل فلان، ومنه المنسأة وهي العصا يزجر بها ويؤخر. قرأ قتادة ومجاهد وأبو عمرو ونافع غير ورش وعاصم وحمزة والكسائي وخلف وابن عامر: النسيء - بالمد والهمز، وهو مصدر كالسعير والحريق ونحوهما، ويجوز أن يكون مفعولاً مصروفاً إلى فعيل مثل: الجريح والقتيل والصريع، تقديره: إنما الشهر المؤخر. وقرأ أبو جعفر وورش: النسيّ - بالتشديد من غير همز، وروى ذلك عن ابن كثير على معنى المنسي أي المتروك[1]. قال الله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْۚ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وأبو بكر - بفتح الياء، وكسر الضاد لأنهم هم الضالون، لقوله تعالى: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا﴾. وقرأ الحسن، وقتادة، ومجاهد، ويعقوب - بضم الياء وكسر الضاد، أي يضل به الذين كفروا الناس المعتدين عليهم. وقرأ أهل الكوفة إلا أبا بكر بضم الياء وفتح الضاد[3]، وهي قراءة ابن مسعود لقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ﴾، وقوله: ﴿يُحِلُّونَهُۥ عَامًا﴾ أي يحلون النسيء. وقوله تعالى: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ﴾ ليوافقوا، وقيل: ليشبهوا.

قوله تعالى: ﴿فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ﴾ أي يحلوا ما حرم الله من الغارة والقتل في الشهر الحرام. وإنما كان يفعل هذا بنو كنانة، وربما كانوا يؤخرون رجباً ويبدلونه صفراً لتكون الشهور متوالية.

وقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْۗ﴾ أي حسن في قلوبهم قبح أعمالهم من تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله. قال الحسن: زينتها لهم أنفسهم والشياطين ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي لا يوفقهم مجازاة لكفرهم.

---

(1) ذكر هذه القراءات: ابن خالويه في إعراب القراءات السبع: 1/147 - وكذا الثعلبي في تفسيره، ورقة: 62.

(2) سورة التوبة (9)، الآية: 67.

(3) ذكر هذه القراءات: المصدران المذكوران.

وقيل: لا يهديهم إلى الجنة والثواب. قال ابن عباس: كان الناسىء رجلاً من كنانة يقال له: نعيم بن ثعلبة بن عوف، وكان يكون على الناس بالموسم، وإذا همَّ الناس بالصدر، وفرغوا من حجهم، قام فخطب الناس، وقال: ألا إن آلهتكم حرمت عليكم صفر العام. فيحرمون فيه الدماء والأموال، ويستحلونها في المحرم فإذا كان من قابل نادى ألا إن آلهتكم حرمت عليكم المحرم العام فيحرمون فيه الدماء والأموال ويستحلون صفر ليغيروا فيه. وفي بعض الروايات أنه يقول قبل هذا النداء: يا أيها الناس أنا الذي لا أعاب ولا أحاب[1] ولا مرد لما قضيت. فيقول له المشركون: لبيك ربنا. ثم يسألونه أن ينسئهم شهراً فيقول: ألا إن صفر العام حلال ـ يريد به المحرم ـ. وربما يقول حرام فيحرمونه فيسمون المحرم صفر، وكانوا إذا قال الناسىء في المحرم حلال عقدوا الأوتار، وشدوا الأزجة، وأعملوا السيوف، وأغاروا على الناس. وإذا قال حرام: حلو الأوتار، ونزعوا الأزجة، وأغمدوا السيوف[2].

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿38﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿39﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وذلك أن النبي ﷺ أقام بالمدينة بعد مرجعه من الطائف، ثم أمره الله بالجهاد لفرق الروم، وأمره بالخروج إلى غزوة تبوك[3]، وذلك في زمان في عسرة من الناس، وشدة من الحر حين طابت ثمار أهل المدينة، فأمرهم النبي ﷺ بالخروج للجهاد، فكانوا يتثاقلون عن الخروج ويحبون الظلال والثمار،

---

(1) أحاب ـ بالحاء المهملة: من الحوب، أي الإثم، ومعناه: لا أنسب إلى الإثم.
(2) سيرة ابن هشام: 1/ 44 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 62.
(3) في رجب سنة تسع من الهجرة. (سيرة ابن هشام: 4/ 515)

فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: مالكم إذا قيل لكم اخرجوا إلى جهاد المشركين تثاقلتم إلى الأرض وتكاسلتم واطمأننتم إلى أوطانكم؟ أرضيتم بالحياة الدنيا؟ استفهام بمعنى الإنكار، أي اخترتم عمل الدنيا على عمل الآخرة، واخترتم الحياة في الدنيا على الحياة في الآخرة ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي ما منفعة الدنيا في الآخرة وفيما يتمتع به أولياء الله في الجنة إلا يسير، لأن الدنيا تضمحل ويفنى أهلها، والآخرة دار القرار.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي إن لا تخرجوا مع نبيكم في الجهاد نعذبكم عذاب الاستئصال ونستبدل قوماً غيركم أطوع منكم ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ أي لا تنقصوا من ملكه شيئاً بقعودكم عن الجهاد، والله على كل شيء من العذاب والإبدال وغير ذلك قادر.

قوله تعالى:

﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (40) ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (41) لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (42)﴾

قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ وذلك أن كفار مكة لما أرادوا قتل النبي ﷺ، أخبره جبريل بذلك وأمره بالخروج. قال صلى الله عليه وسلم لعلي كرم الله وجهه: «**نم مكاني على الفراش**»، وخرج إلى أبي بكر رضي الله عنه، فخرجا إلى غار جبل ثور: وهو جبل بأسفل مكة، ومشى رسول الله ﷺ على أطراف أصابعه حتى حفيت، فلما

(1) الواحدي، أسباب النزول: 201.

رآه أبو بكر حمله على عاتقه وجعل يشتد به حتى أتى إلى فم الغار، وكان الغار معروفاً بالهوام. فلما أراد رسول الله ﷺ دخول الغار قال له أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى استبرىء الغار. فدخل واستبرأه وجعل يسد الجحر بثيابه خشية أن يخرج منها شيء يؤذي رسول الله ﷺ، فبقي جحران فوضع عقبه عليهما ثم قال: انزل يا رسول الله. فنزل، فكانا في الغار ليلتهما، ودخل الكفار على علي رضي الله عنه فقالوا له: يا علي أين محمد؟ فقال: لا أدري أين ذهب. فطلبوه من الغد واستأجروا رجلاً يقال له كرز بن علقمة الخزاعي[1]. فقفى لهم الأثر حتى أتى بهم إلى جبل ثور فقال: يتهيأ إلي هذا وهذا أثره، فما أدري أين أخذ يميناً، أو شمالاً، أو صعد الجبل. فصعدوا الجبل يطلبونه، وأعمى الله عليهم مكانه فلم يهتدوا اليه، فقام رجل منهم يبول مستقبلاً رسول الله ﷺ، وأبا بكر بعورته، فقال أبو بكر: يا رسول الله ما أراه إلا وأبصرنا. فقال عليه السلام: **«لو أبصرنا ما استقبلنا بعورته»**. وأقبل شبان قريش من كل بطن معهم عصيهم وقسيهم حتى أتوا باب الغار، وكان ﷺ مر على يمامة وهي سحرة صغيرة ضعيفة، فأمر أبا بكر بأخذها معه، فلما صار إلى باب الغار أمره أن يجعلها على باب الغار، وألهم الله العنكبوت فنسجت حتى سترت وجه النبي ﷺ وصاحبه، وبعث الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا حتى وقفتا على باب الغار بين العنكبوت وبين الشجرة، فلما رأى المشركون الشجرة والحمامة ونسج العنكبوت علموا أن ليس في الغار أحد، وكان أبو بكر يقول: يا رسول الله قد أوتينا وما أنا إلا رجل واحد، فإن قتلت أنت تهلك هذه الأمة فلا يعبد الله بعد هذا اليوم. فقال: **«لا تحزن يا أبا بكر إن الله معنا»**. ثم نزل المشركون من الجبل ولم يقدروا على رسول الله ﷺ، فمكث رسول الله ﷺ بالغار ثلاثة أيام ولياليهن وكان عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما يأتيهما بأخبار أهل مكة، فلما أمنا الطلب، وكان رسول الله ﷺ أمر بالهجرة إلى المدينة، استأجر رجلاً يقال له: عبد الله بن أريقط يهديهم الطريق إلى المدينة، فخرج بهما إلى المدينة، فسمع سراقة بن مالك بن جعشم الكناني

---

(1) كرز بن علقمة بن هلال الخزاعي: أسلم يوم فتح مكة، وعمر طويلاً ابن سعد: الطبقات الكبرى: 6/ 12.

بخروجه إلى المدينة، فلبس لأمته وركب فرسه يتبع آثارهم حتى أدرك رسول الله ﷺ فبينه وبين رسول الله ﷺ فرسخ، فدعا عليه فغاصت قوائم فرسه فقال: يا محمد ادع الله لي أن يطلق على فرسي فأرد عنك من أرى من الناس. فقال عليه السلام: «**اللهم إن كان صادقاً فأطلق فرسه**». فرجع سراقة وقدم أبو بكر رضي الله عنه مع النبي ﷺ حتى أتيا المدينة[1]. هكذا روي، وفي هذا قصة طويلة. ومعنى الآية: إلا تنصروا محمداً ﷺ في الخروج معه إلى تبوك فالله ينصره كما نصره إذ أخرجه الكفار من مكة، وهو ثاني اثنين، أي لم يكن معهما غيرهما. وقوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ نصب على الحال أي وهو أحد اثنين.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ﴾ أراد به غار ثور حين خرجا إليه والغار: الثقب الذي يكون في الجبل.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ معناه: إذ يقول رسول الله ﷺ لصاحبه أبي بكر رضي الله عنه: لا تحزن على قتلي وذهاب الإسلام، إن الله يحفظنا، ويدفع شر المشركين عنا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ﴾ أي أنزل طمأنينته على رسوله حتى سكن، واطمأن. ويقال: أنزل سكينته على صاحبه أبي بكر، فإن النبي ﷺ كان ساكناً[2].

قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ معناه: وأعان محمداً ﷺ وقواه يوم بدر، والأحزاب، وحنين بجنود لم تعاينوها وهم الملائكة.

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ﴾ أي جعل كلمة الشرك مغلوبة مذمومة، وجعل أهلها أذلة أسفلين.

قوله تعالى: ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ أي جعل كلمة التوحيد هي الكلمة العالية الممدوحة. ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي منيع بالنقمة ممن عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما حكم به من أمره.

---

(1) سيرة ابن هشام: 2/ 484 وما بعدها.

(2) النحاس، إعراب القرآن: 2/ 215.

قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا﴾ أي انفروا إلى الجهاد في سبيل الله شباباً وشيوخاً. وقيل: موسرين ومعسرين. وقيل: مشاغيل وغير مشاغيل. وقيل: نشاطاً وغير نشاط، أي خفت عليكم الحركة أو ثقلت.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ أي وجاهدوا العدو بأموالكم وأنفسكم في طاعة الله، ذلكم الجهاد خير لكم من القعود عنه ﴿إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ أن الله صادق في وعده ووعيده.

قوله عز وجل: ﴿لَوۡ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ﴾ اسم مكان مضمر تقديره: لو كان المدعو إليه عرضاً قريباً، أي غنيمة وسفراً سهلا لاتبعوك، أي لو علموا أنهم سيصيببون مغنماً لخرجوا معك. نزل هذا فيمن تخلف عن غزوة تبوك من المنافقين[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ﴾ أي لكن بعدت عليهم المسافة إلى الشام، وسيحلفون بالله في اعتذارهم إليكم: لو كان لنا سعة في الزاد والمال لخرجنا معكم في غزاتكم ﴿يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ بالأيمان الكاذبة والقعود عن الجهاد، والله يعلم أن لهم سعة في المال والزاد، وإنهم لكاذبون في هذا الاعتذار. وقيل: معنى قوله تعالى: ﴿وَسَفَرًا قَاصِدًا﴾ أي موضعاً قريباً.

قوله تعالى:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿43﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿44﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿45﴾﴾

قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ أي تجاوز الله عنك يا محمد لم أذنت لهم في القعود عن الجهاد حتى يظهر لك الذين صدقوا في الاعتذار وتعلم الكاذبين في عذرهم. قدم الله العفو على العقاب حتى يسكن قلبه ﷺ، ثم

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 202

قال بعد العفو: لم أذنت لهم؟ وقيل: لو أن الله أخبره بالذنب قبل أن يخبره بالعفو لكان يخاف على النبي ﷺ من هيبة قوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي لا يستأذنك المؤمنون في القعود عن الجهاد. وقوله تعالى: ﴿أَن يُجَـٰهِدُوا۟﴾ معناه: أن لا يجاهدوا ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ﴾ أي عالم بالمخلصين المطيعين فيميزهم عن المنافقين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ﴾ أي إنما يستأذنك في القعود عن الجهاد الذين لا يصدقون بالله وبيوم البعث ﴿وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي شكت واضطربت فهم في شكهم يتحيرون. والريب: الشك مع اضطراب القلب.

قوله تعالى:

﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ (46) لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ (47) لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَـٰرِهُونَ (48)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً﴾ أي لو أراد الله لهم الخروج معك إلى العدو لأوجد له أهبة ﴿وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ﴾ أي لكن لم يرد الله خروجهم معك، لأنهم لو خرجوا لكان نفع خروجهم على وجه الإضرار بالمسلمين وذلك كفر ومعصية.

وقوله تعالى: ﴿فَثَبَّطَهُمْ﴾ أي حبسهم يقال: ثبطه عن الأمر إذا حبسه عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ﴾ أي اقعدوا مع النساء والصبيان. ويجوز أن يكون القائل لهم النبي ﷺ بأمر الله، ويجوز أن يكون قد

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 8/ 191.

قال بعضهم لبعض. وقيل: قال لهم الشيطان ووسوس لهم، ثم بين الله أن لا منفعة للمسلمين في خروجهم، بل عليهم مضرة لهم، فقال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا﴾ أي لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا شراً وفساداً.

قوله تعالى: ﴿وَلَأَوْضَعُواْ﴾ أي ولأسرعوا فيما بينكم ﴿يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ﴾ أي يطلبون لهم فساد الرأي وعيوب المسلمين. ويقال: لشادوا فيكم بالنميمة. والإيضاع: الإسراع في السير. يقال: أوضع البعير إيضاعاً.

قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ أي وفيكم قائلون بينهم بما يسمعون منكم. ويقال: في عسكركم عيون لهم ينقلون إليهم ما يسمعون منكم ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجازيهم على سوء أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ﴾ أي لقد طلب هؤلاء المنافقون صد أصحابك عن الدين وردهم إلى الكفر، وتحويل الناس عنك قبل هذا اليوم كفعل عبد الله بن أبي يوم أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ﴾ أي احتالوا فيك وفي إبطال دينك بالتحويل عنك وتشتيت أمرك وكلمتك من قبل غزوة تبوك، فقلبوا لك الأمور ظهرا لبطن حتى جاء الحق، أي جاء الإسلام وأظهره الله على سائر الأديان ﴿وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ لذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أي دين الله

قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿49﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٞ تَسُؤْهُمْۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿50﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿51﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٖ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَاۖ فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿52﴾ قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهٗا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْۖ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمٗا فَٰسِقِينَ ﴿53﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ نزلت في جد بن قيس من المنافقين، دعاه النبي ﷺ إلى الخروج إلى العدو وحرضه على الجهاد، فقال له: يا جد بن قيس: هل لك في جلاد بنى الأصفر تتخذ منهم سراري ووصفاء[1]. يعني الروم. وكان الأصفر رجلاً من الحبشة ملك الروم وغلب على ناحية منها، فتزوجت الحبشة في الروم فولد لهم بنات أخذن من بياض الروم وسواد الحبشة، فكن صفرا لعسا لم ير مثلهن. فقال جد بن قيس: ائذن لي يا رسول الله أن أقيم ولا تفتني ببنات الأصفر فقد عرف قومي عجبي بالنساء، وإني أرى المرأة تعجبني فلا أملك نفسي حتى أضع يدي على المحرم. فلما سمع النبي ﷺ قوله أعرض عنه، وقال: أذنت لك. وقوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي ائذن لي في التخلف ولا تفتني ببنات الأصفر[2]. قال قتادة معناه: ولا توقعني. ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي ألا في الإثم والشرك وقعوا بنفاقهم ومخالفتهم أمرك في ترك الجهاد ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي إنهم يدخلون جنهم لا محالة، لأن الشيء إذا كان محيطاً بالإنسان فإنه لا يفوته. وروي أن النبي ﷺ قال: «**من سيدكم يا بني مسلمة؟**» فقالوا: جد بن قيس غير أنه بخيل، فقال صلى الله عليه وسلم: «**وأي داء أدوأ من البخل، بل سيدكم الفتى الأبيض الجعد بشر بن البراء بن معرور**»[3]. فقال فيه حسان بن ثابت:

وقال رسول الله والحق لاحق ∴ بمن قال منا من تعدون سيدا

فقلنا له جد بن قيس على الذي ∴ ببخله فينا وإن كان أنكدا

فقال وأي الدّاء أدوأ من الذي ∴ رميتم به جدا وعالى بها يدا

وسوّد بشر بن البراء بجوده ∴ وحق لبشر ذي الندا أن يسوَّدا

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 202 ـ المحرر الوجيز: 8/ 197.

(2) تفسير الطبري: 14/ 187.

(3) بشر بن البراء بن معرور: كان من الرماة المعدودين من الصحابة شهد العقبة وبدرا وأحدا والخندق والحديبية وخيبر، وأكل مع الرسول ﷺ من الشاة المسمومة التي أهدتها له يهودية خيبر، قيل إن بشر مات متأثراً بذلك.
الاستيعاب: 1/ 80 ـ أسد الغابة: 1/ 86 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 570.

إذا ما أتاه الوفد أنهب ماله .·. وقال خذوه إنه عائد غداً[1]

قوله عز وجل: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ أي إن تصبك يا محمد حسنة من فتح أو غنيمة تسؤهم تلك الحسنة وتحرقهم، يعني المنافقين، ﴿وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ﴾ أي قتل وهزيمة ونكبة ﴿يَقُولُواْ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ أي أخذنا حذرنا بالتخلف عنهم من قبل هذه المصيبة، ويتولوا عنك وهم معجبون بما أصابك من الشدة.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي قل يا محمد للمنافقين: لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا في اللوح المحفوظ، وقضاه علينا. قال الحسن معناه: إنا لسنا مرتابين منه ما يصيبنا من خير أو شر فهو مكتوب في اللوح المحفوظ[2]. ويقال معناه: قل لن يصيبنا في عاقبة الأمر إلا ما كتب الله لنا من الفتح والنصرة على الكفار، فإن أصابتنا الهزيمة في الحال فإن أمور العباد لا تجري إلا على تدبير قد أحكم وأبرم قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰنَا﴾ أي ولينا يحفظنا وينصرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ التوكل على الله تفويض الأمر إليه مع الثقة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوٓاْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ﴾ أي هل تنتظرون بنا إلا النصر على الكفار والظفر بهم أو القتل على وجه الشهادة في الدنيا مع ثواب الآخرة، ونحن ننتظر بكم أحد الشرين: إما أن يصيبكم الله بعذاب الاستئصال من عنده أو ينصرنا عليكم فنقتلكم بأسيافنا، فانتظروا بنا ما قلنا كي ننتظر نحن بكم عذاب الاستئصال أو النصرة عليكم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ﴾ معناه: إن أنفقتم

---

(1) هذه الأبيات من البحر الطويل.
(السيرة النبوية: 2/ 461 ـ شرح نهج البلاغة: 9/ 113).
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 64.

في الجهاد طائعين من قبل أنفسكم أو مكرهين مخافة القتل، لن يتقبل منكم بما أسررتم من الكفر والنفاق. وقد يذكر لفظ الأمر ويراد به الشرط والجزاء، كما قال الشاعر[1]:

أسيئي بنا أو أحسني لا ملومة ∴ لدينا ولا مقلية إن تقلّتِ[2]

معناه: إن أحسنت بنا أو أسأت فأنت غير ملومة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ تعليل لنفي قبول نفقتهم، لأن النفاق محبط الطاعة ويمنع من استحقاق الثواب.

قوله تعالى:

﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ (54) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ (55) وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ﴾ أي ما منعهم عن إيجاب الثواب لهم على نفقاتهم إلا كفرهم بالله وبرسوله. ومعنى قوله: ﴿نَفَقَٰتُهُمْ﴾ أي صدقاتهم. قرأ حمزة والكسائي وخلف: يقبل ـ بالياء لتقديم الفعل، وقرأ الباقون بالتاء[3]. ١٨١.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ﴾ أي متثاقلون لأنهم لا يرجون بأدائها ثواباً ولا يخافون بتركها عقاباً. والمعنى: إنهم يصلون مراءات الناس

(1) كثير عزة. تقدمت ترجمته.

(2) من البحر الطويل: من تائية كثير التي يتغزل فيها بمحبوبته.
(ديوانه: 101 ـ أمالي ابن الشجري: 1/ 49 ـ أمالي القالي: 2/ 107 ـ المفضليات: 12 ـ اللسان: سوأ). والمعنى: إن أسأت أو أحسنت فنحن على ما تعرفين.

(3) ابن مجاهد، كتاب السبعة: 314 ـ 315.

﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾ أي وينفقون في الزكاة وغيرها لأجل التستر بالإسلام لا لابتغاء ثواب الله. والكسالى: جمع كسلان، كما يقال: سكارى وسكران.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ﴾ أي لا تعجبك يا محمد كثرة أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. قال الحسن: لا تسرك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليشدد عليهم في التكليف بأن يأمرهم بالإنفاق في الزكاة والغزو وما شاكل ذلك من المكاره التي تشق عليهم، لأنهم لا يرجون بذلك ثواباً في الآخرة ويكونون معذبين بالإنفاق إذ كانوا ينفقون على كره منهم. وقيل: أراد بقوله: ﴿لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ما ينالهم من المصائب في أموالهم لا يكون كفارة لذنوبهم.

قوله تعالى: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ﴾ أي تخرج أنفسهم على الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي في حال كونهم كافرين.

والزهق: خروج الشيء بالصعوبة، وأصله الهلاك.

قوله تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ معناه: أن هؤلاء المنافقين يحلفون للمؤمنين إنهم على دينهم. يقول الله تعالى: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمْ﴾ أي ليسوا على دينكم ﴿وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ أي يخافون من المسلمين، فأظهروا الإسلام، وأسروا النفاق.

قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ معناه: لو يجدون حرزاً يلجؤون إليه ويتحصنون فيه، أو غيراناً في الجبال، أو سربا في الأرض، أو قوماً يمكنهم الدخول فيما بينهم يحفظونهم عنكم لصبوا إليهم ﴿وَهُمْ يَجْمَحُونَ﴾ أي يستبقون ويسرعون إسراعاً لا يرد وجوههم شيء. يقال: فرس جموح: إذا ذهب في عدوه لم يرده اللجام. وقال عطاء في معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا﴾ أي مهرباً. وقال ابن كيسان: قوماً يأمنون فيهم. وقرأ عبد الرحمن بن عوف: أو مغارات ـ بضم الميم[1].

قوله تعالى: ﴿أَوْ مُدَّخَلًا﴾. قال الكلبي: نفقاً كنفق اليربوع. وقيل معناه:

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 65.

موضع دخول يدخلون فيه[1]. وقرأ الحسن: مدخلاً ـ بفتح الميم وتخفيف الدال، وقرأ أبي: مندخلاً ـ بإثبات النون[2]. وقوله تعالى: ﴿لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ﴾ قرأ الأشهب العقيلي: لوالوا إليه ـ بألف من الموالاة، أي تابعوا وسارعوا[3].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿58﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُواْ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿59﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أي ومن المنافقين من يعيبك في الصدقات، فإن أعطوا من الصدقة مقدار مرادهم رضوا بالقسمة، وإن لم يعطوا منها لا يرضون بالقسمة. نزلت هذه الآية: في أبي الخواصر وغيره من اللمازين من المنافقين، كما روي أن النبي ﷺ كان يقسم الصدقات، فقال أبو الخواصر: ما ترون صاحبكم يقسم صدقاتكم في رعاة الغنم. فقال ﷺ: «**لا أبا لك أما كان موسى عليه السلام راعياً، أما كان داود عليه السلام راعياً؟**» فذهب أبو الخواصر، فقال ﷺ: «**احذروا هذا وأصحابه**». فأنزل الله هذه الآية[4]. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقسم قسماً، إذ جاءه ذي الخويصرة التميمي[5] فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: «**ويلك من يعدل إذا لم أعدل؟**» فقال عمر رضي الله عنه: ائذن لي يا رسول الله أن أضرب عنقه. فقال: «**عه فإن له أصحاباً يحتقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية**»[6] قرأ الحسن ويعقوب:

---

(1) المصدر نفسه

(2) تفسير القرطبي: 8/ 165.

(3) الثعلبي في المصدر السابق.

(4) الواحدي، أسباب النزول: 204.

(5) في النسخة (س): ابن ذي الخويصرة.

(6) مرق السهم من الرمية: يخرج من الجانب الآخر خروجاً سريعاً.
والرمية المرمية: يعني الصيد.
رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 7/ 159 ـ الواحدي، أسباب النزول: 203 ـ تفسير الطبري: 14/ 302.

يلمزك ـ بضم الميم، وقرأ الأعمش: يلمزك ـ بضم الياء وتشديد الميم. يقال: لمزه وهمزه: إذا عابه، ورجل همزة لمزة. وقال عطاء: يعني يلمزك، أي يغتابك.

قوله تعالى: ﴿إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ قرأ إياد بن لقيط: إذا هم ساخطون[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ أي لو رضوا ما رزقهم الله وما يعطيهم رسوله من العطية والصدقة ﴿وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ﴾ أي كافينا سيعطينا الله من رزقه، وسيعطينا رسوله مما يكون عنده من السعة والفضل، وقالوا: ﴿إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ فيما عنده من الثواب لكان خيراً لهم وأعود عليهم. إلا أنه حذف الجواب، لأن الحذف للجواب في مثل هذا الموضع أبلغ من الإثبات، لأنك إذا حذفت الجواب ذهبت النفس كل مذهب.

قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿60﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ قال ابن عباس والحسن وجابر وابن زيد والزهري ومجاهد: الفقير: المتعفف الذي لا يسأل الناس، والمسكين: الذي يسأل[2]. ومعنى الآية: إنما الصدقات لهؤلاء المذكورين. قال ابن عباس: الفقراء هم أصحاب الصفة: صفة مسجد رسول الله ﷺ، كانوا نحوا من أربعمائة رجل لم يكن لهم منازل بالمدينة ولا عشائر، فأووا إلى صفة مسجد رسول الله ﷺ يلتمسون الرزق بالنهار ويأوون إليه بالليل، فمن كان عنده فضل من المسلمين أتاهم به إذا مسوا. قال: والمساكين هم الطوافون الذين يسألون الناس، فعلى هذا المسكين أفقر من الفقير[3]، ومن الدليل

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 65.
(2) تفسير الطبري: 14/ 305 ـ 306.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 66.

على ذلك أن الله تعالى قال: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ثم قال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ﴾. ومعلوم أن الجاهل بحال الفقير لا يحسبه غنياً إلا وله ظاهر جميل، وبزة حسنة. وقال تعالى: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾[1]. وقيل في التفسير: الذي قد لصق بطنه بالتراب وهو جائع عارٍ ليس بينه وبين التراب شيء يقيه. وقال أبو العباس ثعلب: يحكي عن بعض أهل اللغة أنه قال: قلت لأعرابي: أفقير أنت؟ قال: لا، بل مسكين. وأنشد الأعرابي:

أما الفقير الذي كانت حلوبته ∴ وفق العيال فلم يترك له سبد[2]

فسماه فقيراً مع وجود الحلوبة. وقال محمد بن مسلمة: الفقير الذي لا ملك له. قال: وكل محتاج إلى شيء فهو مفتقر إليه. واحتج من قال إن الفقير أفقر من المسكين بقوله تعالى: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ فأضاف السفينة إليهم، وهذا لا دلالة فيه لأنه روي أنهم كانوا فيها أجراء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا﴾ يعني السعاة الذين يجبون الصدقة ويتولون قبضها من أهلها، يعطوا منها سواء كانوا أغنياء أو فقراء. واختلفوا في قدر ما يعطون فقال الضحاك: يعطون الثمن من الصدقة. وقال مجاهد: يأكل العمال من السهم الثامن. وقال عبد الله بن عمرو بن العاص[3]: يعطون على قدر عمالتهم. وقال الأعمش: يعطون بقدر أجور أمثالهم وإن كان أكثر من الثمن[4] وقال مالك

---

(1) سورة البلد (90)، الآية: 16.

(2) نسب هذا البيت إلى الراعي النميري (تقدمت ترجمته) ومعناه: أن حلوبته وفق عياله، أي لها لبن قدر كفايتهم لا فضل فيه.
والسبد: الوبر. والعرب تقول: ما له سبد ولا لبد، أي ما له ذو وبر ولا صوف متلبد. ويكنى بهما عن الإبل والغنم. وهو من البحر البسيط. (ابن منظور، اللسان.. سكن ـ الزمخشري، أساس البلاغة: وفق).

(3) أبو محمد، عبد الله بن عمرو بن العاص: صحابي من النساك، كان يكتب فكثرت روايته للسنة. توفي سنة خمس وستين.
الاستيعاب: 3/ 956 ـ الطبقات الكبرى: 4/ 461.

(4) ذكر الثعلبي هذه الأقوال في تفسيره، ورقة: 66.

وأهل العراق: إنما ذلك إلى الإمام واجتهاده يعطيهم الإمام قدر ما يرى. وعن ابن عمر رضي الله عنه: يعطون بقدر عملهم. وعند الشافعي: يعطون ثمن الصدقات[1].

وقوله تعالى: ﴿وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ هو قوم كان يعطيهم النبي ﷺ يتألفهم على الإسلام، وكانوا رؤساء في كل قبيلة، منهم: أبو سفيان بن حرب من بني أمية، والأقرع بن حابس، وعيينة بن حصن الفزاري وغيرهما من بني عامر بن لؤي، والحارث بن هشام المخزومي، وسهيل بن عمرو الجمحي من بني أسد، والعباس ابن مرداس من بني سليم. فلما توفي رسول الله ﷺ جاء المؤلفة قلوبهم إلى أبي بكر رضي الله عنه فطلبوا منه سهمهم فأمرهم أن يكتبوا كتاباً، فجاءوا بالكتاب إلى عمر رضي الله عنه ليشهد، فقال عمر: إيش هذا؟ قالوا: سهمنا. فقال عمر رضي الله عنه: ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾[2] إن الإسلام أجل أن يرشى عليه. ثم أخذ عمر كتابهم ومزقه وقال: إنما كان النبي ﷺ يعطيكم يتألفكم على الإسلام، فأما اليوم فقد أعز الله الإسلام، فإن ثبتم على الإسلام وإلا فبيننا وبينكم السيف. فرجعوا إلى أبي بكر وقالوا: أنت الخليفة أم هو؟ فقال: هو إن شاء الله. فبطل سهمهم[3].

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ معناه عند أكثر الناس في فكاك الرقاب وهم المكاتبون. وذهب مالك إلى أنهم رقاب يبتاعون من الزكاة فيعتقون فيكون ولاهم لجميع المسلمين دون المعتقين. قال: ولا يعطى المكاتب من الزكاة ولا من الكفارات شيئاً، وقد روي أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ قال: علمني عملاً يدخلني الجنة. قال: «**فك الرقبة وأعتق النسمة**». قال: أو ليستا سواء؟ فقال: «**لا، فك الرقبة أن تعين في عتقها**»[4]. فاقتضي قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ المعونة في العتق.

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 177.

(2) سورة الكهف (18)، الآية: 29.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 66.

(4) رواه البخاري في الأدب المفرد: 1/ 150، رقم: 69 - والبيهقي في شعب الإيمان: 4/ 65، رقم: 4335، باب العتق.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْغَـٰرِمِينَ﴾ المدينين الذين لا يكون لهم فضل نصاب على الدين، لأن المال وإن كان في أيديهم فهو مستحق بدينهم، قال مجاهد والزهري: إنما تحل الصدقة للمديون إذا كان الدين قد لحقه بغير إسراف ولا معصية. وقال قتادة: الغارمون: قوم لحقتهم ديون من غير تبذير ولا فساد. وعن مجاهد أن الغارم من احترق بيته أو ذهب السيل بماله أو أدان على عياله[1].

وقوله تعالى: ﴿وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أراد به المجاهدين إذا انقطعوا عن زادهم وراحلتهم. وقال أبو يوسف: هم الفقراء الغزاة وأما إذا كان الغازي غنياً اختلفوا فيه، فقال أبو حنيفة وأبو يوسف ومحمد: لا يعطى الغازي الغني[2]، وقال الشافعي ومالك: يعطى الغازي الغني[3]، وحجتهما قوله عليه السلام: «**لا تحل الصدقة لغني إلا لخمسة: رجل عمل عليها، ورجل اشتراها بماله، ورجل كان له جار مسكين فتصدق على المسكين فأهدى إلى جاره، وفي سبيل الله، وابن السبيل**»[4]. قوله تعالى: ﴿وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المسافر المنقطع عن ماله سمي بذلك لملازمته السبيل كما يقال ابن الغني وابن الفقير ـ قال مجاهد: لابن السبيل حق في الزكاة وإن كان غنياً، وقال قتادة: ابن السبيل هو الضيف.

قوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي فرض الله هذه الأشياء فريضة. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بمصالح عباده ﴿حَكِيمٌ﴾ في أفعاله. والغرض في ذكر الأصناف في هذه الآية بيان أنه لا يجوز إخراج الصدقة منهم إلى غيرهم، لأن الحاجة في جميع الأصناف المذكورين في هذه الآية موجودة، ولأن من عليه الزكاة إذا حمل الزكاة بنفسه إلى الإمام لم يكن لأحد من العمال في ذلك نصيب. وقال الشافعي: تقسم الصدقة على الأصناف الثمانية كما هو مذكور في الآية، إلا أن يفقد صنف فيقسم على الباقين. وقيل: يقسم على أصله على سبعة أصناف، لأن المؤلفة قد

---

(1) تفسير الطبري: 14/ 318.

(2) الكاساني، بدائع الصنائع: 2/ 45 ـ الجصاص، أحكام القرآن: 3/ 127.

(3) الشافعي، الأم: 2/ 79 ـ تفسير القرطبي: 8/ 186.

(4) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 5/ 44، رقم: 1619 ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 590، رقم: 1841.

سقطوا. قال: ويعطى كل سهم من السهام الثمانية ثلاثة من أهل كل صنف، فإن أعطى اثنين ضمن ثلث سهم. واختلف العلماء في المقدار الذي إذا ملكه الرجل دخل في حد الغنى وخرج من حد الفقر. قال بعضهم: إذا كان عند أهله قوت يومهم، واستدلوا بقوله ﷺ: «**من سأل الناس عن ظهر غنى فإنما يستكثر من جمر جهنم**». قيل: يا رسول الله وما ظهر الغنى؟ قال: «**أن يعلم عند أهله ما يعشيهم ويغديهم**»(1). وقال بعضهم: إذا ملك أربعين درهماً أو عدلها من الذهب. واستدلوا بما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «**من سأل منكم وعنده أوقية أو عدلها من الذهب فقد سأل إلحافاً**»(2). وكانت الأوقية يومئذ أربعين درهماً. وقال بعضهم: إذا ملك خمسون درهماً أو عدلها من الذهب، لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لا يسأل عبد مسألة وله ما يغنيه إلا جاء يوم القيامة وفي وجهه كدوح وخدوش**». قيل: يا رسول الله وما غناه؟ قال: «**خمسون درهماً أو عدلها من الذهب**»(3). والصحيح أن من ملك مائتي درهم أو عدلها من عرض أو غيره فاضلاً عما يحتاج إليه من مسكن وخادم وأثاث وفرس لم تحل له الصدقة، لقوله ﷺ: «**أمرت أن آخذ الصدقة من أغنيائكم وأردها في فقرائكم**»(4). فجعل الناس فريقين. ولا خلاف أن الذي يملك مائتي درهم يكون غنياً، فوجب أن لا يكون داخلاً في الفقراء، ولو كان الاعتبار بالضرورة لكان الذي له غداء دون العشاء أو عشاء دون غداء لا تحل له الصدقة. وقد روي أن النبي ﷺ قال: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»(5). والفرس في أكثر الأحوال يساوي أكثر من أربعين درهماً.

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ

---

(1) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 5/ 34، رقم: 1613 ـ والدارقطني في سننه: 2/ 121.

(2) نفس المرجع: 2/ 122.

(3) رواه الترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 3/ 313، رقم 645 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 5/ 30، رقم 1610.

(4) رواه النسائي في سننه: 5/ 5، كتاب الزكاة.

(5) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 5/ 83، رقم: 1649، باب حق السائل.

لَكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿61﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿62﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿63﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن جماعة من المنافقين، منهم: الجلاس بن سويد كانوا يؤذون النبي ﷺ ويقولون فيه ما لا يجوز، فقال بعضهم: لا تفعلوا فإنا نخاف أن يبلغه الخبر. فقال الجلاس: بل نقول ما شئنا ثم نأتيه فيصدقنا فيما نقول، فإن محمداً أذن سامعة. فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: ومن هؤلاء المنافقين من يؤذي النبي ويقولون: هو صاحب أذن يصغي إلى كل أحد، ويقبل كل ما قيل له.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ﴾ أي قل لهم: هو مستمع خير لا مستمع شر. وقيل معناه: هو يسمع إلى ما هو خير لكم وهو الوحي. وقرأ الحسن: هو أذن خير لكم ـ بالتنوين والضم[2]، معناه: إن كان محمد كما قلتم أذن فهو خير لكم يقبل عذركم. وقرأ نافع: قل أذن ـ بسكون الذال[3]، وهو لغة في الأذن.

قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدق بما أنزل الله عليه، ولإيمانه بالله لا يعمل إلا بالحق ﴿وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي يصدق المؤمنين فيما يخبرونه. واختلفوا في اللام التي في: للمؤمنين، قال بعضهم: هي زائدة كما في قوله تعالى: ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[4] معناه ردفكم، وقال بعضهم: إنما ذكر الله اللام للفرق بين التصديق والإيمان، فإنه إذا قيل: ويؤمن للمؤمنين لم يعقل عنه غير التصديق كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[5] أي بمصدق وقوله تعالى:

(1) الواحدي: أسباب النزول: 204 ـ البغوي: معالم التنزيل: 3/ 73.
(2) ذكر القرطبي قراءة الحسن في تفسيره: 8/ 192.
(3) ذكر ابن مجاهد قراءة نافع في كتاب السبعة: 315.
(4) سورة النمل (27)، الآية: 72.
(5) سورة يوسف (12)، الآية: 17.

﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ﴾[1] أي لن نصدقكم.

قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ قرأ الحسن والأعمش وحمزة: ورحمة ـ بالخفض، على معنى أذن خير، وأذن رحمة، وقرأ الباقون: رحمة ـ بالرفع، بمعنى هو رحمة[2]. جعل الله النبي ﷺ رحمة لهم، لأنهم إنما نالوا الإيمان بدعائه وهدايته.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وعيد من الله لهؤلاء المنافقين على مقالتهم تلك. قال ابن عباس: فلما نزلت هذه الآية جاءوا إلى النبي ﷺ يحلفون أنهم لم يقولوا، فأنزل الله هذه الآية[3].

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ ولم يقل: يرضوهما لأنه يكره الجمع بين ذكر اسم الله وذكر اسم رسوله في كناية واحدة، كما روي أن رجلاً قام خطيباً عند النبي ﷺ فقال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى. فقال عليه السلام: «**بئس الخطيب أنت، هلا قلت: ومن يعص الله ورسوله**»[4]. وقال ﷺ: «**لا تقولوا: ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان**»[5]. فلما كره الجمع بين الله، وبين غيره في الذكر تعظيماً لله، رد الضمير في قوله: ﴿يُرْضُوهُ﴾ إلى الواحد، لأن رضى الله منتظم رضى رسوله.

وقوله تعالى: ﴿إِن كَانُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كانوا مصدقين بقلوبهم غير منافقين كما يدعون. فطلبهم رضى الله أولى من طلبهم رضاكم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 94.
(2) ابن مجاهد، السبعة: 315 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 68.
(3) الواحدي، أسباب النزول: 204.
(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 6/ 159، صلاة الجمعة وخطبتها ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 326، رقم: 4960 ـ والنسائي في سننه: 6/ 74، ما يكره من الخطبة.
(5) رواه أبو داود في سننه: عون المعبود: 13/ 326، رقم: 4959.

﴿خَٰلِدًا فِيهَاۚ﴾ معناه: ألم يخبرهم الرسول ﷺ أنه من يخالف الله ورسوله في الدين فيجعل نفسه في حد والله ورسوله في حد فله نار جهنم، ودخلت أن مؤكدة، وفي إعادة «أن» الأولى لأنه لما طال الكلام كانت إعادتها أوكد. ومن قرأ: فإن ـ بالكسر، فهو على الاستئناف[1].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلۡخِزۡيُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ أي ذلك الهوان الشديد الدائم.

قوله تعالى:

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ﴿64﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿65﴾ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ﴿66﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ﴾ أكثر المفسرين على أن هذا إخبار عن المنافقين أنهم يحذرون أن الله ينزل سورة تخبر عما في قلوبهم من النفاق والشرك، فإن بعض المنافقين كانوا يعلمون بنبوة النبي ﷺ، ولكنهم كانوا يكفرون عند أهل الشرك عناداً وحسداً، وبعضهم كانوا عند أنفسهم شاكين غير مستبصرين، وكانوا يخافون إذا أذنبوا ذنباً أن ينزل على النبي ﷺ من القرآن ما يكشف عن نفاقهم. وفي الآية ما يدل على هذا وهو قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ أي يظهر ما يخافون من ظهور النفاق. وعن هذا سميت السورة: سورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين، وتسمى أيضاً: الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين.

وقوله: ﴿قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ﴾ تهديد وإن كان لفظه لفظ الأمر، كما في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾[2]. وذهب الزجاج إلى أن قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ﴾ لفظه إخبار ومعناه الأمر[3]، كأنه قال: ليحذر، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ

(1) تفسير القرطبي: 8/ 194 ـ 195، فقد ذكر هذه القراءة مفصلة.
(2) سورة فصلت (41)، الآية: 40.
(3) الزجاج، معاني القرآن: 2/ 459.

﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ وذلك أن النبي ﷺ بينما هو في مسيره راجع من غزوة تبوك وثلاثة نفر يسيرون بين يديه، فجعل رجلان يستهزءان بالنبي ﷺ ويقولان: إن محمداً قال نزل في إخواننا الذين تخلفوا كذا وكذا، والثالث يضحك مما يقولون ولا يتكلم بشيء، فنزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ وأخبره بما يقولون، فدعا عليه السلام عماراً[2] وقال: «**إنهم يتحدثون بكذا وكذا، ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب، انطلق إليهم واسألهم عما يتحدثون، وقل لهم: احترقتم أحرقكم الله**». ففعل ذلك عماراً، فجاءوا إلى النبي ﷺ يعتذرون ويقولون: كنا نخوض ونلعب فيما يخوض فيه الركب إذا ساروا. فأنزل الله هاتين الآيتين[3]. وعن الحسن وقتادة أنهم قالوا في طريق غزوة تبوك: أيطمع هذا الرجل أن يفتح له قصور الشام: هيهات ما أبعد ذلك فأطلع الله نبيه على ذلك.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ فيه ألف استفهام، ومعناه التنبيه لهم على ما يفعلونه.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾ أي لا تعتذروا عن مقالتكم قد كفرتم بعد إيمانكم، أي قد أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فإنهم قط لم يكونوا مؤمنين ولكن كانوا منافقين.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾ فيه قراءتان: أحدهما: الضم على ما لم يسم فاعله، والثانية: إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة ـ بفتح النون[4]. قال ابن عباس معناه: إن يعف عن الرجل الذي لم يتكلم بشيء ولكنه كان يضحك، وهو مخشي بن حمير[5]، يعذب الرجلان اللذان كانا

---

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 228.

(2) عمار بن ياسر تقدمت ترجمته.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 205 ـ تفسير القرطبي: 8/ 196

(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 251.

(5) مخشي بن حمير: تاب توبة نصوحا، واستشهد يوم اليمامة. السيرة النبوية، لابن هشام: 4/ 525.

يتكلمان بالهزء ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي كانوا كافرين في السر. وكل معصية جرم. إلا أنه أراد بالجرم هنا الكفر.

قوله تعالى:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (68)﴾

قوله تعالى: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ﴾ أي بعضهم مضاف إلى بعض لاجتماعهم على الشرك والاستهزاء بالمسلمين كما يقال: أنا ابن فلان، وفلان مني، أي أمرنا واحد وكلمتنا واحدة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ أي بالكفر والمعاصي ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ أي عن الإيمان والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ قال الحسن ومجاهد: أي يمسكونها عن النفقة في الجهاد، وقيل: عن الزكوات المفروضة. وقال قتادة: عن الخيرات كلها[1].

وقوله تعالى: ﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ أي تركوا أمر الله وأعرضوا عنه حتى صار كالمنسي عندهم بإعراضهم عنه، فتركهم الله من رحمته حتى صاروا كالمنسيين عنده، وإن كان النسيان مما لا يجوز على الله تعالى إلا أنه تعالى قال: ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ لمزاوجة الكلام كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي هم المتمردون في

---

(1) تفسير الطبري: 14/ 338.
(2) سورة البقرة (2)، الآية: 194.
(3) سورة الشورى (42)، الآية: 40.

الكفر. والفسق في كل شيء: هو التمرد فيه، وإن كان النفاق أعظم من الفسق.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ في الآية جمع بين المنافقين وبين الكفار في التسمية، وإن كان المنافقون هم الكفار، لتكون الآية دالة على أن المنافقين يلحقهم الوعيد من جهتين: هما جهة الكفر والنفاق. وجهنم من أسماء النار، تقول العرب للبئر البعيدة القعر جهنام. فيجوز أن تكون جهنم مأخوذة من هذا اللفظ لبعد قعرها.

قوله تعالى: ﴿هِىَ حَسْبُهُمْۚ﴾ أي هي كفايتهم على ذنوبهم لأن فيها جزاء أعمالهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ أي أبعدهم الله عن الثواب في الدنيا وعن الثواب والرحمة في الآخرة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ أي عذاب دائم.

قوله تعالى:

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ (69)﴾.

قوله عز وجل: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ أي وعد الله أهل زمانكم على الكفر والنفاق نار جهنم، كما وعد الذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة في الدين وأكثر أموالاً وأولاداً فانتفعوا بنصيبهم وحظهم في الدنيا، ولم ينفعهم ذلك حين نزل بهم عذاب الله فكذلك، أنتم. والخلاق: هو النصيب من الخير.

وقوله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ﴾ أي فاستمتعتم أنتم بنصيبكم من الدنيا وجهنم فيها كما استمتع الذين من قبلكم.

وقوله تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓاْۚ﴾ أي خضتم في الكفر والاستهزاء بالمؤمنين كما خاض الأولون.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ أي أهل هذه الصفة حبطت

أعمالهم التي عملوها على جهة البر مثل الإنفاق في وجوه الخير. وقيل: صلة الرحم حبطت في الدنيا حتى لا يستحقوا بها الإكرام والتعظيم في الدنيا، وحبطت في الآخرة حتى لا يستحقوا بها الثواب في الآخرة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ أي هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة. والخسران هو: ذهاب رأس المال من دون أن يربح عليه.

قوله تعالى:

﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ ۖ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (70) وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (71) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (72)﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ﴾ معناه: ألم يأت المنافقين والكفار خبر من قبلهم كيف أهلكهم الله عز وجل وحين تمردوا في الكفر واستهزءوا بالمسلمين[1]، وهم قوم نوح أهلكهم الله بالغرق، وعاد قوم هود أهلكهم الله بالريح، وثمود أهلكهم الله بالصيحة والرجفة وهم قوم صالح، وقوم إبراهيم أهلكهم الله نمروذ منهم بالبعوضة وسائر قومه بالهدم، وأصحاب مدين قوم شعيب أهلكهم الله بالصيحة وعذاب الظلة، ومدين هو مدين بن إبراهيم نسبت القرية إليه[2].

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَاتِ﴾ أي المنقلبات وهي قريات قوم لوط أهلكهم الله بالخسف وقلب مدائنهم عليهم. ويقال: أراد بالمؤتفكات: كل من انقلب أمرهم عليهم من الخير إلى الشر. يقال للهالك: انقلبت عليه الدنيا.

(1) في النسخة (ف): بالمؤمنين.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 69.

وقوله تعالى: ﴿أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالحجج والبراهين ﴿فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ أي لما كذبوا الرسل وكفروا بالآيات أهلكهم الله ولم يكن ذلك ظلماً منه لأنهم استحقوا ذلك بعملهم فكانوا هم الظالمين لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ أي بعضهم أنصار بعض ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أي بالتوحيد واتباع محمد ﷺ وشرائعه، وينهون عن ما لا يعرف في شريعة ولا سنة، ويقيمون الصلوات الخمس بشرائطها، ويؤدون الزكاة الواجبة في أموالهم، ويطيعون الله في الفرائض، ورسوله في السنن ﴿أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ﴾ أي ينعم عليهم في الآخرة. والرحمة: هي النعمة على المحتاج. وعن بعض أهل الإشارة: سيرحمهم الله في خمسة مواضع: عند الموت وسكراته، وفي القبر وظلماته، وعند قراءة الكتاب وحسراته، وعند الميزان ونداماته، وعند الوقوف بين يدي الله وسؤالاته.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ أي غالب في ملكه وسلطانه، تجري أفعاله على ما توحيه الحكمة.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي بساتين تجري من تحت شجرها وغرفها أنهار الماء والعسل والخمر واللبن ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي مقيمين دائمين فيها.

قوله تعالى: ﴿وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي ومنازل طاهرة عامرة يطيب بها العيش. قال الحسن: هي مساكن بناها الله من اللؤلؤ واليواقيت الأحمر والزبرجد الأخضر[1]. وقوله تعالى: ﴿فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ﴾ أي في بساتين إقامة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: جنات عدن في وسط الجنة، والجنان حولها محدقة بها، وهي مغطاة منذ خلقها الله تعالى حتى ينزلها أهلها النبيون والصديقون والشهداء والصالحون[2]. وعن مجاهد قال: قال عمر رضي الله عنه وهو على المنبر: هل تدرون ما جنات عدن؟ قصور في الجنة من ذهب، لكل قصر

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 69.

(2) تفسير القرطبي: 8/ 204.

خمسمائة ألف باب، على كل باب خمس وعشرون ألفاً من الحور العين لا يدخلها إلا نبي، وهنيئاً لصاحب هذا القبر ـ وأشار إلى قبر رسول الله ﷺ ـ أو صديق وهنيئاً لأبي بكر أو شهيد وأنا لعمر الشهادة.

قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي رضى الرب عنهم أكبر وأعظم من هذا النعيم كله، لأنهم إنما نالوا ذلك كله برضوان الله تعالى. والرضوان: إرادة الخير والثواب.

وقوله عز وجل: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي ذلك الذي ذكرت هو الحياة الوافرة نجوا من النار وظفروا بالجنة. وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ أي سرورهم في الآخرة برضوان الله عنهم يكون أكبر من سرورهم بهذا النعيم كله، وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إذا أنزل الله أهل الجنة منازلهم قال: ألا أعطيكم ما هو أكبر من هذا كله. فيقولون: بلى يا رب، وما أكبر من ذلك؟ فيقول الله: أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبداً**»[1].

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (73) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ۚ وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِن فَضْلِهِ ۚ فَإِن يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ ۖ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (74)﴾

قوله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾ أي جاهد الكفار بالسيف والمنافقين باللسان، واغلظ على الفريقين جميعاً، ومصيرهم في الآخرة جهنم وبئس الموضع الذي يصيرون إليه. وقال الحسن معناه: جاهد الكفار بالقتال والمنافقين بالحدود، فإنهم كثير التعاطي للأسباب الموجبة للحدود[2].

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 13/ 234، رقم: 6549، كتاب الرقاق ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 168.
(2) تفسير الطبري: 14/ 359.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ﴾ قال ابن عباس: نزلت في عبد الله بن أبي، والجلاس بن سويد، وعامر بن النعمان وغيرهم، كانوا خمسة عشر رجلاً، خطب رسول الله ﷺ ذات يوم بتبوك وسماهم: رجساً. فقال الجلاس: لئن كان ما يقول محمد حقاً على إخواننا فنحن شر من الحمير. فسمعه عامر بن قيس[1] فقال: أجل والله إن محمداً لصادق ولأنتم شر من الحمير. فلما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة أخبره عامر بن قيس بما قال الجلاس، فقال الجلاس: يكذب علي يا رسول الله. فأمرهما رسول الله ﷺ يحلفان على المنبر، فحلفا جميعاً، فرفع عامر بن قيس يديه إلى السماء فقال: اللهم أنزل على نبيك وبين الصادق. فقال ﷺ: «**آمين**». فأنزل الله تعالى هذه الآية[2]، ومعناها: يحلف المنافقون بالله ما تكلموا بكلمة الكفر، ولقد تكلموا بها، وأظهروا الكفر بعد إظهارهم الإسلام. وقيل: كفروا بقولهم ذلك بعدما كانوا أسلموا على زعمهم.

قوله تعالى: ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ أي قصدوا ما لم يصلوا إلى ذلك. والهم بالشيء في اللغة: مقاربته دون الوقوع فيه. قيل: إنهم كانوا هموا بقتل الذي أنكر عليهم قولهم. وقيل معنى الآية: أن رسول الله ﷺ خرج إلى غزوة بني المصطلق[3] وقد جمعوا له ليقتلوه، فالتقوا على ماء لهم، فهزمهم الله وسبى رسول الله ﷺ أبناءهم ونساءهم ورجع، فلما نزل منزلاً في الطريق اختصم رجل[4] من أصحاب عبد الله بن أبي ورجل من المخلصين غفاري يقال له جهجاه[5]، فلطم الغفاري صاحب عبد الله بن أبي، فغضب عبد الله وقال: ما

---

(1) أبو بردة، عامر بن عبد الله بن أبي موسى الأشعري بن قيس، تولى قضاء الكوفة، وتوفي في سنة ثلاث ومائة.
الطبقات الكبرى: 6/ 277.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 205 ـ تفسير القرطبي: 8/ 206.

(3) في شعبان سنة خمس من الهجرة.

(4) هو سنان بن صخر الجهني حليفاً في بني سالم من الأنصار.
الطبقات الكبرى: 4/ 260.

(5) جهجاه بن مسعود: أجير لعمر بن الخطاب.

صحبنا محمدا إلا لنلطم. ثم نظر إلى أصحابه وقال: والله لقد أمرتكم أن تكفوا طعامكم عن هذا الرجل ومن معه حتى ينهزموا فلم تفعلوا، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فقال له الغفاري: أتقول مثل هذا؟ والله لئن شئت لألطمنك. فقال عبد الله: سمن كلبك يأكلك. فقال زيد بن أرقم وكان غلاماً حديث السن: يا عدو الله وعدو رسوله أتقول هذا؟ والله لأبلغن رسول الله ما قلت. ثم انطلق إلى النبي ﷺ وأعلمه[1]، وعنده عمر رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله مر عباد بن بشر فليقتله. فقال: «**يا عمر إذن يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه**». فبلغ عبد الله بن أبي ما قال زيد بن أرقم، فمشى إلى رسول الله ﷺ ومعه أشراف الأنصار يصدقونه، ويكذبون زيداً، ويقولون: نخشى أن يكون زيداً قد وهم. وكان ابن أبي يحلف بالله ما قال ذلك، فقال أسيد بن حضير: يا رسول الله ارفق بعبد الله فوالله لقد جاء الله بك وإن قومه ليتوجونه، فهو يرى أنك سلبته ملكاً عظيماً. فسار رسول الله ﷺ يومه ذلك حتى أمسى وليلته حتى أصبح، ونزل على رسول الله ﷺ في قول ابن أبي ﴿وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟﴾ ونزل ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ معناه: وما طعنوا على النبي ﷺ وأصحابه إلا بأن أغناهم الله من فضله وأغناهم رسوله، وذلك أن رسول الله ﷺ قدم إلى المدينة وكان أهلها في شدة من العيش: لا يركبون الخيل ولا يحرزون الغنيمة، فلما قدم النبي ﷺ المدينة استغنوا.

قوله تعالى: ﴿فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي إن يتوبوا من النفاق يك خيراً لهم في الدنيا والآخرة، وإن يعرضوا عن التوبة يعذبهم الله في الدنيا بالقتل، ويقال: بإظهار حالهم، وفي الآخرة بالنار، ومالهم في الأرض من حافظ ولا دافع يدفع عنهم عذاب الله. قال ابن عباس: فلما نزلت هذه الآية قام الجلاس ابن سويد وقال: يا رسول الله أسمع الله قد عرض عليّ التوبة. صدق عامر بن

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 120 ـ سيرة ابن هشام 3/ 289 وما بعدها.
(2) سورة المنافقون (63)، الآية: 8.

قيس فيما قال لك، وأنا أستغفر الله عز وجل وأتوب إليه. فقبل منه صلى الله عليه وسلم، ثم تاب وحسنت توبته[1].

قوله تعالى:

﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿75﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴿76﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ بِمَآ أَخْلَفُوا۟ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿77﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿78﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿۞ وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿75﴾﴾. قال ابن عباس: ومن المنافقين من عاهد الله ـ وهو ثعلبة بن حاطب[2]: كان له مال بالشام فأبطأ عليه فجهد لذلك جهدا شديداً، فحلف بالله لئن آتانا من فضله، يعني المال الذي له بالشام لنصدقن منه ولنصل منه الرحم ولنؤدين منه حق الله ولنكونن من المقيمين لفرائض الله، فآتاه الله المال الذي كان له بالشام، فبخل بما وعد ولم يفعل ما عاهد الله عليه. وعن أبي أمامة الباهلي أن ثعلبة بن حاطب جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً: فقال: «**ويحك يا ثعلبة قليل تؤدي شكره خير من كثير لا تطيقه**». ثم رجع إلى النبي ﷺ فقال: ادع الله أن يرزقني مالاً. فقال: «**ويحك يا ثعلبة أما ترضى أن يكون لك مثل رسول الله ﷺ، لو سألت الله أن تسير معي الجبال ذهباً وفضة لسارت.**» فقال: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالاً، فوالله لئن أتاني الله مالاً لأوتين كل ذي حق حقه. فقال ﷺ: «**اللّهم ارزق ثعلبة مالاً**»، ثلاث مرات. فاتخذ غنماً فنمت حتى ضاقت بها أزقة المدينة فتنحى بها، وكان يشهد الصلوات مع رسول الله ﷺ ثم يخرج إليها، ثم نمت حتى تعذرت عليها

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 208.

(2) ثعلبة بن حاطب الأنصاري: آخى رسول الله ﷺ بينه وبين معتب بن حمراء، وشهد بدرا وأحدا.

الطبقات الكبرى: 3/ 335 ـ أسد الغابة: 1/ 237.

مراعي المدينة فتنحى بها، وكان يشهد الجمع مع رسول الله ﷺ ثم يخرج إليها، ثم نمت فترك الجمع والجماعات. فلما نزل قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾[1] استعمل النبي ﷺ رجلين على الصدقات رجلا من الأنصار ورجلاً من بني سليم، وكتب إليهما الصدقة وأسنانها، وأمرهما أن يأخذاها من الناس، فأتيا ثعلبة فقال لهما: خذا من الناس فإذا فرغتما فمرا علي، ففعلا فقال: ما هذه إلا أخت الجزية. فانطلقا إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله هذه الآية، فركب ابن عمر راحلته ومضى إلى ثعلبة وقال: ويحك يا ثعلبة هلكت قد أنزل الله فيك كذا وكذا. فأقبل ثعلبة يبكي ويحثو التراب على رأسه ويقول: يا رسول الله هذه صدقتي. فلم يقبل النبي ﷺ صدقته حتى قبض، ثم أتى إلى أبي بكر رضي الله عنه فلم يقبل صدقته، ثم أتى إلى عمر رضي الله عنه فلم يقبل صدقته، فمات في خلافة عثمان رضي الله عنه، ولم يقبل منه عثمان صدقته[2].

قوله عز وجل: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ أي فأعقبهم بخلهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم جزاء البخل، وقيل معناه: فجزاهم ببخلهم نفاقاً في قلوبهم مما أخلفوا الله أي بإخلافهم لما وعدوا من التصدق وكذبهم فيما قالوا. وقال الحسن معناه: أورثهم الله النفاق في قلوبهم بأن حرمهم التوبة كما حرم إبليس أن لا يتوب لأن الله تعالى سلب عنه قدرة التوبة.

قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ﴾ معناه على قول الحسن وقتادة: إلى يوم يلقون الله، أي يلقون اليوم الذي لا يملك فيه الحكم والضرر والنفع إلا الله. وفي هذه الآية دلالة أن من نذر نذراً فيه قربة، نحو أن يقول: إن رزقني الله ألف درهم فعلي أن أتصدق بخمسمائة لزمه الوفاء به، وفيها دلالة جواز تعليق النذر بالشرط، نحو أن يقول: إن قدم فلان فلله علي صيام أو صدقة، وإن ملكت عبداً أو هذا العبد فعلي أن أعتقه. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ثلاث من كن**

---

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 103.

(2) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 21 ـ والسيوطي في الدر المنثور: 3/ 260 ـ وابن الأثير في أسد الغابة: 1/ 237.
الواحدي، أسباب النزول: 206 وما بعدها.

فيه فهو منافق وإن صلى وصام: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر»[1].

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿78﴾﴾ أي ألم يعلم المنافقون أن الله يعلم ما يسرون من الكفر وما يتناجون فيه فيما بينهم، وأن الله عالم بكل شيء خفي على العباد. وهذا استفهام بمعنى التوبيخ.

قوله تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿79﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن النبي ﷺ خطب ذات يوم حين أراد الخروج إلى غزوة تبوك يحث الناس على الصدقة وقال: «**اجمعوا صدقاتكم**». فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف درهم إلى رسول الله ﷺ، فقال له: «**أكثرت هل تركت لأهلك شيئاً؟**» قال: يا رسول الله كان لي ثمانية آلاف فأمسكت أربعة آلاف لنفسي وعيالي وهذه أربعة أقرضها ربي. فقال ﷺ: «**بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت**». فبارك الله له حتى بلغ ماله حين مات، وطلق إحدى نسائه في مرضه، وصالحوها عن نصف ثمنها على ثمانين ألف دينار[2]. وجاء عمر رضي الله عنه بنحو من ذلك، وجاء عثمان رضي الله عنها بصدقة، وجاء عاصم بن عدي[3] بسبعين وسقاً من تمر، وجاء أبو عقيل[4]

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 46، بيان خصال المنافق ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 4/ 320، رقم: 5253.

(2) تفسير الطبري: 4/ 383.

(3) أبو بكر، عاصم بن عدي بن العجلان: شهد أحدا والخندق وبقية المشاهد، وبعثه النبي ﷺ مع من حرق مسجد الضرار. توفي سنة خمس وأربعين هجرية.
الاستيعاب: 2/ 781 ـ أسد الغابة: 3/ 75، الطبقات الكبرى: 3/ 354.

(4) أبو عقيل، عبد الرحمن الأراشي الأنيقي: شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع النبي عليه السلام، واستشهد يوم اليمامة سنة اثنتي عشرة هجرية.
أسد الغابة: 1/ 366 ـ الطبقات الكبرى: 3/ 361 ـ سيرة ابن هشام: 1: 690.

بصاع من تمر وقال: يا رسول الله بت ليلتي كلها أجر بالجرير حتى نلت صاعين، أما أحدهما فأمسكته لعيالي، وأما الآخر فأقرضته ربي. فأمره النبي ﷺ أن ينثره في الصدقة. فطعن فيهم المنافقون وقالوا: والله ما جاء هؤلاء بصدقتهم إلا رياء وسمعة، وقالوا في أبي عقيل إنه جاء ليذكر بنفقته ويعطى من الصدقة أكثر مما جاء به، وإن الله لغني عن صاع أبي عقيل. فأنزل الله هذه الآية[1]، ومعناها: الذين يعيبون المتطوعين من المؤمنين في الصدقات، وهم المنافقون عابوا عمر وعثمان، وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ أي يعيبون على الذين لا يجدون إلا جهدهم، أي طاقتهم من الصدقة عابوا المكثر بالرياء، والمقل بالإقلال. والجُهد والجَهد ـ بالضم والنصب، لغتان بمعنى واحد، ويقال: الجهد ـ بالنصب: المشقة، والجهد ـ بالضم: الطاقة، وقيل: الجهد في العمل والجهد في القوة. قرأ عطاء والأعرج: جهدهم ـ بالنصب[2]، وهما لغتان مثل: الوجد والوجد، فالضم لغة أهل الحجاز، والفتح لغة أهل نجد.

قوله تعالى: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ﴾ أي يستهزءون بهم ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾ أي يجازيهم جزاء سخريتهم ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وجيع.

قوله تعالى:

﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿80﴾ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿81﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿82﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴿83﴾﴾

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 7/ 105 ـ الواحدي، أسباب النزول: 208.

(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 72.

قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ وذلك أنه لما نزلت هذه الآية التي قبل هذه، أتى المنافقون إلى رسول الله ﷺ وقالوا: يا رسول الله استغفر لنا. فكان عليه السلام يستغفر لقوم منهم على ظاهر إسلامهم من غير علم منه بنياتهم، وكان إذا مات أحدهم يسألون رسول الله ﷺ الدعاء والاستغفار لميتهم، فكان يستغفر لهم على أنهم مسلمون. فأعلمه الله بأنهم منافقون، وأخبر أن استغفار النبي ﷺ لا ينفعهم، فذلك قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ وهذا لفظه الأمر ومعناه الخبر، أي إن شئت استغفرت لهم وإن شئت لا تستغفر، فإنك إن استغفرت لهم سبعين مرة لن يغفر الله لهم.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ فيه بيان العلة التي لأجلها لا ينفعهم استغفار الرسول ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ أي لا يوفقهم ولا يرشدهم إلى جنته وثوابه وكرامته. وأما تخصيص السبعين مرة بالذكر فهو لتأكيد نفي المغفرة، هذا لأن الشيء إذا بولغ في وصفه أكد بالسبع والسبعين، وهذا كما يقول القائل: لو سألتني حاجتك سبعين مرة لم أقضها. لا يريد أنه إذا زاد على السبعين قضى حاجته. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «**لو علمت أني لو زدت على السبعين لغفر لهم لزدت عليها**»[1].

قوله تعالى: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي فرح المخلفون عن غزوة تبوك بقعودهم عن الجهاد بعد النبي ﷺ، وقيل: بقعودهم لمخالفة رسول الله ﷺ. وقرأ عمرو بن ميمون: خلف[2] رسول الله ﷺ. والمخلف: ما يتركه الإنسان، والمتخلف: الذي تأخر بنفسه. والخلاف قد يكون بمعنى المخالفة، وقد يكون بمعنى خلف كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ

(1) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 3/ 594، رقم: 1366 ـ والترمذي في سننه: تحفة الأحوذي: 8/ 495، رقم: 5095، تفسير سورة التوبة.
(2) ذكر الثعلبي هذه القراءة في تفسيره، ورقة: 72.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾[1]. ويقرأ: خلافك، على المعنيين.

قوله تعالى: ﴿وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ أي وكرهوا أن يقاتلوا المشركين مع رسول الله ﷺ بأموالهم وأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِى ٱلْحَرِّ﴾ أي قال بعضهم لبعض: لا تخرجوا فإن الحر شديد والسفر بعيد. وكانوا يدعون إلى غزوة تبوك وقت نضج الرطب، وهو أشد ما يكون من الحر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ أي قل لهم: نار جهنم التي استحقيتموها بترك الخروج إلى الجهاد أشد حراً من هذا الحر.

قوله تعالى: ﴿لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ أوامر الله ووعده ووعيده.

قوله تعالى: ﴿فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿82﴾﴾ أي فليضحكوا قليلاً في الدنيا لأن ذلك لا يبقى، وليبكوا كثيراً في الآخرة في النار. وهذا لفظ أمر ومعناه الخبر، وقيل تقديره: فليضحكوا قليلاً فسيبكون كثيراً. قال أبو موسى الأشعري: إن أهل النار ليبكون الدموع في النار حتى لو أجريت السفن في دموعهم لجرت، ثم إنهم ليبكون الدم بعد الدموع[2]. وقال ابن عباس: إن أهل النفاق ليبكون في النار عمر الدنيا فلا يرقأ لهم دمع ولا يكتحلون بنوم[3]. وقال ﷺ: «**يرسل الله البكاء على أهل النار فيبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود**». وقال ﷺ: «**لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً**»[4].

قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِىَ عَدُوًّا﴾ معناه: إن رجعك الله من تبوك إلى طائفة

---

(1) سورة الإسراء (17)، الآية: 76.

(2) قول أبي موسى الأشعري في تفسير الثعلبي، ورقة: 72.

(3) المصدر نفسه.

(4) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 13/115، رقم: 6485، كتاب الرقاق ـ وابن ماجه في سننه: 2:1402، رقم: 4191، باب الحزن والبكاء.

من المنافقين بالمدينة فاستأذنوك للخروج معك إلى غزوة أخرى، فقل لن تخرجوا معي أبداً إلى الجهاد، ولن تقاتلوا معي عدواً ﴿إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي في غزوة تبوك ﴿فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ أي مع النساء، والصبيان. هذا قول الحسن. والخالف: هو الذي يبقى بعد الشاخص. وقيل: هو الذي يبقى لنقص يكون فيه. وعن ابن عباس: إن معنى الخالفين: المتخلفين بغير عذر[1]. وقيل: إن هذا مأخوذ من قولهم: خلف اللبن: إذا فسد. والخالف: الفاسد. وقيل: الخالفون: خساس الناس وأدناهم. ويقال: فلان خالفة أهله: إذا كان دونهم. وقيل مع الخالفين، أي مع أهل الفساد، من قولهم: لبن خالف: أي فاسد، وخلف اللبن خلوفاً: إذا حمض من طول وضعه في السقاء. وخلف فم الصائم: إذا تغيرت رائحته. وقرأ مالك بن دينار: مع الخلفين ـ بغير ألف[2]. وقال الفراء: يقال: عبد خالف، وصاحب خالف: إذا كان مخالفاً.

قوله تعالى:

﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿84﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿85﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿86﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿87﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ أي لا تصل على أحد مات من المنافقين أبداً، ولا تقم على قبر أحد منهم لتدفنه فتدعو له ﴿إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟﴾ أي جحدوا بالله ورسوله بقلوبهم وماتوا على الكفر والنفاق. قال ابن عباس: لما مرض عبد الله بن أبي بن سلول بعث إلى رسول الله ﷺ ليأتيه، فلما دخل عليه طلب منه أن يصلي عليه إذا مات، وأن يقوم على قبره، وأن يكفنه في قميصه الذي يلي جلده. فقبل منه النبي ﷺ. فلما مات عبد الله

---

(1) ذكر القرطبي في تفسيره: 8/ 217/ 218 قولي الحسن وابن عباس.

(2) ذكر الثعلبي في تفسيره، ورقة: 73 قراءة مالك بن دينار.

انطلق ابنه إلى رسول الله ﷺ، ودعاه إلى جنازة أبيه، فقال له رسول الله ﷺ: «**ما اسمك؟**» قال: الحباب بن عبد الله. فقال ﷺ: «**أنت عبد الله بن عبد الله**[1]، **إن الحباب هو الشيطان**». ثم انطلق رسول الله ﷺ معه، فلما قام ﷺ ليصلي عليه قال له عمر رضي الله عنه: يا رسول الله أتصلي على عدو الله القائل يوم كذا وكذا؟ فقال: دعني يا عمر. فعاد عمر لمقالته. فقال: دعني يا عمر. فعاد عمر لمقالته الثالثة، فقال: إني قد خيرت في ذلك، ولو علمت أني إذا استغفرت له أكثر من سبعين مرة غفر له لفعلت. وقال: تأخر عني يا عمر. قال عمر فعجبت من جرأتي على رسول الله ﷺ. فأنزل الله عز وجل[2]: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ يعني بعدما صليت على عبد الله بن أبي. وروي أن عبد الله بن أبي لما حضرته الوفاة بعث إلى النبي ﷺ يسأله أحد ثوبيه يكفن فيه، فبعث له بأحدهما، فقال: ما أريد إلا الذي يلي جلدك من ثيابك. فوجه إليه بذلك، فقيل له في ذلك، فقال ﷺ: «**إن قميصي لن يغني عنه شيئاً، وعسى أن يسلم بسبب هذا القميص خلق كثير**»[3]. فأسلم ألف من الخزرج لما رأوه يطلب الاستسقاء بثوب رسول الله ﷺ[4].

قال أبو بكر الحداد:

قال ابن عباس: الله أعلم أي صلاة كانت تلك، وما خادع رسول الله ﷺ إنساناً قط. وقال مقاتل: إن النبي ﷺ أراد أن يصلي على عبد الله بن أبي حين جاء إليه ابنه، فقال: أنشدك بالله أن لا تشمت بي الأعداء. وكان ابنه مؤمناً حقاً، فأنزل الله هذه الآية، فانصرف رسول الله ﷺ ولم يصل عليه. وعن رسول الله ﷺ

---

(1) عبد الله بن عبد الله بن أبي بن مالك: أسلم وحسن إسلامه، وشهد بدرا، وأحدا، والخندق والمشاهد كلها مع النبي ﷺ. توفي سنة اثنتى عشرة هجرية.
الطبقات الكبرى: 3/ 408 ـ سيرة ابن هشام: 1/ 693.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 209 ـ رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 3/ 594، رقم: 1366، كتاب الجنائز ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 121.

(3) تفسير الثعلبي: 73 ـ تفسير الطبري: 14/ 409.

(4) تفسير القرطبي: 8/ 321.

أنه أراد أن يصلي عليه، فأخذ جبريل بثوبه فقال: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي ماتوا على الكفر والنفاق. فلما نزلت هذه الآية ما صلى رسول الله ﷺ بعدها على منافق ولا قام على قبره حتى قبض. وكلم رسول الله ﷺ فيما فعل بعبد الله بن أبي؟ فقال: «**وما يغني عنه قميصي وصلاتي من الله، والله إني كنت أرجو أن يسلم به ألف من قومه**»[2].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا﴾ أي لا تعجبك كثرة أموالهم وأولادهم في الدنيا إنما يريد الله أن يعذبهم بها، ويخرج أرواحهم بصعوبة ﴿وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ هذا على التقديم والتأخير في الآية كما تقدم ذكره. فأما التأويل على نظم الآية فمعناه: إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا بالتشديد عليهم في التكليف بالإنفاق، والأمر بالجهاد. فإن قيل: لم أعاد قوله: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْۚ﴾؟ قيل: فيه قولان: أحدهما: الشدة والتحذير عن الاغترار بالأموال والأولاد، والثاني: أنه أراد بالأول قوماً من المنافقين، وأراد بالثاني قوماً آخرين منهم، كما يقال: لا تعجبك أموال زيد وأولاده، ولا تعجبك أموال عمرو وأولاده.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ﴾ أي إذا أنزلت من القرآن قطعة مشتملة على آيات أحاطت بها ﴿أَنْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ﴾ أي صدقوه ودوموا على الإيمان، وجاهدوا الكفار مع رسول الله ﷺ استأذنك في القعود عن الجهاد ذوو السعة والغنى منهم وقالوا: دعنا وأذن لنا نكن مع القاعدين عن الجهاد. والطول في الحقيقة: هو الفضل الذي يتمكن به من مطاولة الأعداء.

قوله تعالى: ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ﴾ أي رضي[3] المنافقون بأن

(1) تفسير القرطبي: 8/ 218.
(2) المصدر نفسه.
(3) في النسخة (ف): رضوا.

يكونوا في تخلفهم عن الجهاد مع النساء المتخلفات في الحي بعد غزوة أزواجهن.

قوله تعالى: ﴿وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ معنى الطبع في اللغة: جعل الشيء كالطابع نحو طبع الدينار والدرهم. ويجوز أن يكون الطبع على القلب علامة يقفل الله بها قلب الكافر المعاند ليعلم من يطلع عليها من الملائكة أنه لا يجتهد في طلب الحق، فهم لا يفقهون أوامر الله ونواهيه.

قوله تعالى:

﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ (88) أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ (89)﴾

قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ أي لكن الرسول محمد ﷺ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ وهم أهل اليقين من أصحابه ﴿جَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ﴾ على ضد ما فعله المنافقون.

قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ﴾ يجوز أن يكون معناه: أولئك لهم الحسنات المقبولات، فإن الخيرات منافع تسكن النفس إليها، ويجوز أن يكون معناه: الزوجات الحسان في الجنة كما قال تعالى: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي الظافرون بالمراد. واحد الخيرات خيرة، وهي الفاضلة في كل شيء.

قوله تعالى: ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي أعد الله لهم في الجنة بساتين تجري من تحت شجرها ومساكنها الأنهار.

وقوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ﴾ أي مقيمين دائمين فيها لا يموتون ولا يخرجون منها ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي هو النجاة الوافرة، فازوا بالجنة ونعيمها، ونجوا من النار وجحيمها.

---

(1) سورة الرحمن (55)، الآية: 70.

قوله تعالى:

﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (90) لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (91) وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ (92)﴾

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ﴾ قرأ ابن عباس والضحاك ومجاهد: المعذرون ـ بالتخفيف[1]، وهم الذين اعتذروا، أي جاءوا بالعذر وأمرهم رسول الله ﷺ بالتخلف لعذرهم وهم من المخلفين. وقيل: المعذرون ـ بالتخفيف: المجتهدون المبالغون في العذر، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: «**لعن الله المعذرين**» ـ بالتشديد، يعني الذين يعتلون في التخلف بلا علة يوهمون أن لهم عذراً ولا عذر لهم. والتعذير: التقصير في الشيء مع طلب العذر. وأما القراءة المشهورة: المعذرون ـ بالتشديد، فمعناها ما تقدم، يعني: المقصرين. قال الفراء أصله: المعتذرون، فأدغمت التاء في الذال ونقلت حركة التاء إلى العين[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ قراءة العامة: كذبوا ـ مخففاً، يعني المنافقين قعدت طائفة منهم من دون أن تعتذر. وقرأ أبي والحسن: كذبوا ـ بالتشديد[3].

وقوله تعالى: ﴿سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يجوز أن تكون الفائدة في دخول من: بيان أن منهم من يسلم ومنهم من يموت على كفره ونفاقه.

---

(1) ذكر القرطبي هذه القراءات في تفسيره: 8/ 224.
الفراء، معاني القرآن: 1/ 448.
(2) المصدر نفسه.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 73 ذكر هذه القراءات.

قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ﴾ أي ليس على الزمنى والشيوخ الكبار، ولا على المرضى الذين لا يقدرون على الخروج إلى الجهاد، ولا على الذين لا تكون عندهم نفقة ينفقونها في الجهاد وهم الفقراء ليس عليهم مأثم في القعود عن ذلك إذا كان قعودهم على وجه النصح لله ورسوله، وهو أن يسعوا في صلاح ذات البين وما يرجع إلى الحث على الجهاد، ولا يكون قعودهم للتخريب على المسلمين وإفساد شيء من أمرهم. والنصح: إخراج الغش عن العمل.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍۚ﴾ أي ما على المطيعين الموحدين من سبيل في العقاب ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ إذ رخص لهم في القعود بالعذر.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ أي ليس على الذين إذا ما أتوك لتحملهم إلى الجهاد بالنفقة قلت لا أجد ما أحملكم عليه فهؤلاء ليس عليهم حرج في القعود عن الجهاد. قال ابن عباس: نزلت في سالم بن عمير[1]، وعبد الرحمن بن كعب[2]، وعمرو بن الحضرمي، وعبد الله بن كعب[3] وعبد الله بن مغفل، ومعقل بن يسار، وصخر ابن سلمة الذي كان وقع على امرأته في رمضان، فأمره النبي ﷺ أن يكفِّر، ونفر من بني مزينة من أهل الحاجة أتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا نبي الله إن الله قد ندبنا للخروج معك فاحملنا لنغزو معك. ولم يكن عند رسول الله ﷺ ما يحملهم عليه فقال لهم: «**لا أجد ما أحملكم عليه**». فتولوا وهم يبكون[4]. فذلك

---

(1) سالم بن عمير بن ثابت: شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها، وبقي إلى خلافة معاوية. الطبقات الكبرى: 3/ 365.

(2) أبو الخطاب، عبد الرحمن بن كعب بن مالك. توفي في خلافة سليمان بن عبد الملك. الطبقات الكبرى: 5/ 209.

(3) أبو الحارث، عبد الله بن كعب: شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها، توفي في خلافة عثمان. الطبقات الكبرى: 3/ 392.

(4) الواحدي، أسباب النزول: 210 ـ تفسير الطبري: 14/ 421.

قوله تعالى: ﴿تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ وقال الحسن: نزلت في أبي موسى الأشعري وجماعة من الأشعريين[1].

قوله تعالى:

﴿۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿93﴾ يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ قُل لَّا تَعۡتَذِرُواْ لَن نُّؤۡمِنَ لَكُمۡ قَدۡ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنۡ أَخۡبَارِكُمۡۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿94﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ وَهُمۡ أَغۡنِيَآءُۚ﴾ معناه: إنما السبيل في العقاب على الذين يستأذنوك في القعود عنك وهم أغنياء ﴿رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلۡخَوَالِفِ﴾ أي مع النساء ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ مجازاة لهم على فعلهم ﴿فَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ أوامر الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿يَعۡتَذِرُونَ إِلَيۡكُمۡ إِذَا رَجَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡۚ﴾ أي يعتذر المنافقون إليكم إذا انصرفتم إليهم من هذا الحرب في قعودهم عن الجهاد، قل لا تعتذروا إلى بصير بكم وهو الله تعالى لن نصدقكم، قد أخبرنا الله من أسراركم أنه ليس لكم عذر، وسيظهر الله عملكم ورسوله، ثم تردون في الآخرة إلى عالم بما غاب عن العباد وما علمه العباد فيخبركم بما كنتم تعملون من الخير والشر.

قوله تعالى:

﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿95﴾ يَحۡلِفُونَ لَكُمۡ لِتَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡۖ فَإِن تَرۡضَوۡاْ عَنۡهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرۡضَىٰ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿96﴾﴾

قوله تعالى: ﴿سَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ إِذَا ٱنقَلَبۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ لِتُعۡرِضُواْ عَنۡهُمۡۖ﴾ أي سيحلف المنافقون بالله فيما يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم لتعرضوا عنهم فلا تعاقبوهم، فأعرضوا عنهم على جهة الهوان لهم ﴿إِنَّهُمۡ رِجۡسٞۖ﴾ أي هم كالنتن

(1) تفسير القرطبي: 8/ 228 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 8/ 252.

الذي يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوهم، ومصيرهم جهنم جزاء لهم على فعلهم.

قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾ أي يحلفون لكم في الاعتذار لترضوا عنهم أنتم من دون أن يطلبوا رضى الله، فإن أنت رضيت يا محمد والمؤمنون بحلفهم الكاذب، فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين، أي الخارجين عن طاعة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (97) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (98) وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ ۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (99)﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾ أراد بالأعراب: أسد وغطفان بين الله أنهم في كفرهم ونفاقهم أشد من منافقي أهل المدينة[1]. وقيل معناه: أهل البدو أشد كفراً ونفاقاً من أهل الحضر.

قوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ أي وأحرى وأولى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله لأنهم أبعد من سماع التنزيل وإنذار الرسول ﷺ. ولهذا قيل: إن من بعد عن الأمصار ونأى من حضرة العلماء كان أجهل بالأحكام والسنن ممن جالسهم وسمع منهم. ولهذا كره إمامة الأعرابي في الصلاة[2].

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ معناه: ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً في الجهاد يحتسبه غرماً ولا يحتسب فيه الأجر ولا يرجو الثواب، إنه إنما ينفق خوفاً أو رياء، وينتظر بكم الموت والهلاك. ودوائر الزمان: صروفه، يعني أنهم ينتظرون أن ينقلب الزمان

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 210.

(2) تفسير القرطبي: 8/ 232.

عليكم بموت رسول الله ﷺ وظهور المشركين.

قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ أي عاقبة السوء والهلاك، فإن ما ينتظرون بكم ينزل بهم. والسوء - بالفتح - المصدر وبالضم الاسم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ ظاهر المراد.

قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ معناه: ومن الأعراب من يصدق بالله واليوم الآخر في السر والعلانية. قيل: إن المراد بهذه الآية: أسلم وغفار. قوله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي يتخذ نفقته في الجهاد تقرباً إلى الله في طلب المنزلة عنده بالثواب. وقوله تعالى: ﴿وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي يطلب بذلك دعاء الرسول ﷺ بالمغفرة وصلاح الدنيا والآخرة كما يطلب المنزلة عند الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ هذه كلمة تنبيه، أي سيقربهم الله بهذا الإنفاق إذا فعلوا.

قوله تعالى: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦٓ﴾ أي في جنته وثوابه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لذنوب العباد ﴿رَّحِيمٌ﴾ لمن تاب وأطاع.

قوله تعالى:

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿100﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ أراد بالسابقين الذين سبقوا إلى الإيمان وهم الذين صلوا إلى القبلتين وشهدوا بدرا. وقال الشعبي: هم الذين بايعوا بيعة الرضوان بالحديبية[1]. وقيل: هم الذين أنفقوا قبل الهجرة كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾[2] وإنما مدح

(1) تفسير الطبري: 14/ 435.
(2) سورة الحديد (57)، الآية: 10.

السابقين لأن السابق إمام للتالي. وقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَنصَارِ﴾ عطف على المهاجرين. وقرأ بعضهم: والأنصار ـ بالرفع، عطفاً على السابقين. وعن عمر رضي الله عنه أنه كان يقرأ: والأنصار الذين اتبعوهم بإحسان ـ بغير واو. وسمع رجلاً يقرأ: والذين اتبعوهم ـ بالواو، فقال: من أقرأك هذه الآية؟ قال: أبي بن كعب. قال: لا تفارقني حتى أذهب بك إليه. فلما آتاه قال له: يا أبي أقرأته هذه الآية؟ قال: نعم، قال عمر: كنت أظن أنا ارتفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا. فقال أبي: تصديق هذه الآية[1] أول سورة الجمعة: ﴿وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟ بِهِمْ﴾[2] وأوسط سورة الحشر: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿بِإِحْسَٰنٍ﴾ الإحسان: هو الفعل الحسن.

وقوله تعالى: ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ أي رضي الله عنهم بإحسانهم، ورضوا عنه بالثواب والكرامة.

قوله تعالى: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ القراء يقرؤون: تحتها ـ في هذا الموضع من غير «من» إلا ابن كثير فإنه يقرأ: من تحتها[4].

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿101﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿102﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ﴾ أي ومن حول مدينتكم من الأعراب منافقون. قيل: إنهم مزينة وجهينة[5].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ﴾ أي ومن أهل مدينتكم منافقون ﴿مَرَدُوا۟

(1) تفسير الطبري: 14/ 437 ـ تفسير القرطبي: 8/ 238.
(2) سورة الجمعة (62)، الآية: 3.
(3) سورة الحشر(59)، الآية: 10.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 252.
(5) الواحدي، أسباب النزول: 211 عن الكلبي ـ البغوي، معالم التنزيل: 3/ 100.

﴿عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾ أي عتوا وثبتوا على النفاق لا تعلمهم يا محمد بأعيانهم نحن نعلمهم ونعلم نفاقهم ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ أراد بالعذاب الأول الفضيحة والإخراج من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر. روي أن النبي ﷺ قام خطيباً يوم الجمعة فقال: «**يا فلان اخرج فإنك منافق، يا فلان اخرج فإنك منافق**». فأخبرهم بأسمائهم. وكان عمر رضي الله عنه لم يشهد الجمعة لحاجة له، فلقيهم وهم يخرجون من المسجد، فاختبأ منهم استحياء لأنه لم يشهد الجمعة، وظن أن الناس قد انصرفوا، واختبأوا هم عن عمر رضي الله عنه وظنوا أنه قد علم بأمرهم، فدخل عمر المسجد فإذا هو بالناس لم يصلوا، فقال له رجل: يا عمر قد فضح الله المنافقين[1]. وقال الحسن: أراد بالعذاب الأول السبي، والقتل، والثاني عذاب القبر[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ﴾ أراد به عذاب جهنم

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ أي ومن أهل المدينة قوم آخرون أقروا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً بعمل سيء، أي تخلفوا عن الغزو ثم تابوا، ويقال: خرجوا إلى الجهاد مرة وتخلفوا مرة، فجمعوا بين العمل الصالح، والعمل السيء، كما يقال: خلط الدنانير والدراهم، أي جمعها، وخلط الماء واللبن، أي أحدهما بالآخر.

وقوله تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي يتجاوز عنهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لما سلف من ذنوبهم ﴿رَّحِيمٌ﴾ بهم إذ قبل توبتهم وإنما ذكر لفظ «عسى» ليكون الإنسان بين الطمع والإشفاق، فيكون أبعد من الإنكار والإهمال. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أبي لبابة بن عبد المنذر[3]، وأوس بن ثعلبة، ووديعة ابن حرام وغيرهم.. كانوا عشرة أنفس تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما بلغهم ما

---

(1) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: 7/ 33 وقال: رواه الطبراني في الأوسط، وفيه: الحسين بن عمرو بن محمد العنقري، وهو ضعيف.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 241.
(3) في النسخة (ف): ابن المنذر.

أنزل الله في المتخلفين ندموا على صنيعهم، فربط سبعة منهم أنفسهم على سواري المسجد، وأقسموا أن لا يحلوا أنفسهم حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يحلهم، وكانوا لا يخرجون إلا لحاجة لا بد لهم منها، وكانوا على ذلك حتى قدم صلى الله عليه وسلم المدينة فأخبر بأمرهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «**وأنا لا أحلهم حتى أومر بهم**»، فنزلت هذه الآية، فعرف النبي ﷺ أن عسى من الله واجب، وأمر بحلهم، وانطلقوا إليه وقالوا: هذه أموالنا التي خلفتنا عنك فخذها فتصدق بها عنا. فقال ﷺ: «**ما أمرت فيها بشيء**»[1]. فأنزل الله تعالى:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿103﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿104﴾﴾

قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ ظاهر الآية يقتضي رجوع الكناية في قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ إلى المذكورين، قيل هم الذين اعترفوا بذنوبهم إلا أن كل حكم حكم الله ورسوله في شخص من عباده فذلك الحكم لازم في سائر الأشخاص إلا ما قام دليل التخصيص به. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ ابتداء ذكر لجميع المسلمين لدلالة الحال على ذلك وإن لم يتقدم ذكر للمسلمين كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾[2] يعني القرآن. ومعنى الآية: تطهرهم من الذنوب، ﴿وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي تصلح أعمالهم بها، وقيل معناه: تطهرهم أنت بها من دنس الذنوب.

قوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ أي استغفر لهم وادع لهم ﴿إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ أي إن دعاءك واستغفارك طمأنينة لهم في أن الله قبل توبتهم، والله سميع لمقالتهم عليم بنياتهم وثوابهم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 211 ـ تفسير القرطبي: 8/ 242.

(2) سورة القدر (97)، الآية الأولى.

استفهام بمعنى التنبيه. وقبول التوبة: إيجاب الثواب عليها. قوله تعالى: ﴿وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ أراد به أخذ النبي ﷺ والأئمة بعده، لأن أخذهم لا يكون إلا بأمر الله، وكأن الله تعالى هو الآخذ، وأن الله هو التوّاب أي المتجاوز عمن تاب، الرحيم بمن مات على التوبة.

قوله تعالى:

﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿105﴾ وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿106﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ﴾ أي اعملوا عمل من يعلم أن الله يرى عمله ويجازيه عليه ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ﴾ معناه: ومن أهل المدينة قوم آخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم بتخلفهم عن الجهاد وإما يتجاوز عنهم بتوبتهم عن الذنوب، والله عليم بهم حكيم يحكم في أمرهم ما يشاء. و«إما» في الكلام لوقوع أحد الشيئين، والله تعالى عالم بما يصير إليه أمرهم. إلا أن هؤلاء العباد خوطبوا بما يتفاهمون فيما بينهم. المعنى: ليكن أمرهم عندكم على هذا، أي على الخوف. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الثلاثة الذين خلفوا[1]، وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وهم من الأنصار تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك. قال كعب: أنا أقوم أهل المدينة حملاً، فمتى شئت لحقت برسول الله ﷺ. وأقام حتى مضت ثلاثة أيام ثم أيس أن يلحقهم وندم على صنيعه، وأقام صاحباه معه وندما، ولكن لم يفعلوا ما فعله أبو لبابة، وأوس، ووديعة تفقدهم رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية، ونهى الناس أن يجالسوهم أو يؤاكلوهم أو يشاربوهم، وأرسل إليهم:

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 211 ـ تفسير القرطبي: 8/ 252.

أن اعتزلوا نساءكم وأرسلوهن إلى أهاليهن. فجاءت امرأة هلال فقالت: إن هلالا شيخ كبير وإن لم آته بطعام هلك. فقال عليه السلام: «**إئته وإياك أن يقربك**». قال كعب: فمررت على أبي قتادة فسلمت عليه فلم يرد علي السلام، وكلمته فأبى أن يكلمني، فاستغربت فقلت: أما والله إنك لتعلم أني أحب الله ورسوله. قال: الله ورسوله أعلم. فمضى على هذا خمسون يوماً، فلما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت أنزل الله توبتهم بقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[1].

قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿107﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿108﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿109﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿110﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن اثني عشر رجلاً من المنافقين من بني عمرو بن عوف قالوا فيما بينهم: تعالوا نبني مسجداً يكون متحدثنا، ومجمع رأينا. فانطلقوا إلى رسول الله ﷺ واستأذنوه أن يبنوا مسجداً لذوي العلة، والليلة المطيرة. فأذن لهم فبنوا مسجداً، وكان يؤمهم في ذلك المسجد مجمع بن جارية[2]، وكان قارئاً للقرآن، فأنزل الله هذه الآية[3]،

---

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 117/ 118.

(2) مجمع بن جارية بن عامر العطاف الأنصاري الصحابي: أحد الذين جمعوا القرآن على عهد النبي ﷺ. توفي في المدينة في خلافة معاوية.
الطبقات الكبرى: 6/ 121 ـ غاية النهاية: 2/ 42.

(3) الواحدي، أسباب النزول: 212 ـ تفسير القرطبي: 8/ 253.

ومعناها: والذين اتخذوا مسجد الضرار والكفر والتفريق بين المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ أي وانتظاراً لمن حارب الله: وهو أبو عامر الراهب[1] كان حارب النبي ﷺ قبل بناء هذا المسجد، ومضى إلى هرقل ملك الروم ليستعين به على النبي ﷺ وأصحابه، فسماه رسول الله ﷺ فاسقاً وقال: «**لا تسموه الراهب**». ودعا عليه رسول الله ﷺ فمات كافراً بقنسرين: موضع بالشام.

قوله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ﴾ معناه: وليحلف المنافقون إنا لم نرد ببناء هذا المسجد إلا الخير. يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ ما بنوه للخير. روي أن النبي ﷺ لما قدم المدينة مهاجراً، أقبل إليه أبو عامر هذا المذكور قال له: ما هذا الذي جئت به؟ قال: «**جئت بالحنيفية دين إبراهيم عليه السلام**». قال أبو عامر: وأنا عليها. فقال ﷺ: «**فإنك لست عليها**». قال: بلى، ولكنك أدخلت في الحنيفية ما ليس منها. فقال ﷺ: «**ما فعلت ذلك ولكن جئت بها بيضاء نقية**». فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً غريباً. فقال ﷺ: «**آمين**». وسماه: أبا عامر الفاسق. فلم يزل أبو عامر كذلك إلى أن انهزمت[2] هوزان فخرج هارباً إلى الشام، وأرسل إلى المنافقين أن استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح، وابنوا لي مسجداً، فإني ذاهب إلى قيصر ملك الروم وآت بجند من الروم وأخرج محمداً وأصحابه. فبنوا له مسجداً إلى جنب مسجد قباء، وكان الذين بنوه اثنى عشر رجلاً، فلما فرغوا منه أتوا رسول الله ﷺ وهو متجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذوي العلة، والحاجة والليلة المطيرة، والليلة الشاتية، وإنا نحب أن تأتيه فتصلي لنا فيه وتدعو لنا بالبركة. قال ﷺ: «**إني على جناح سفر فيه حال شغل، ولو قدمنا لأتيناكم فصلينا فيه**». فلما رجع رسول الله ﷺ من تبوك أتوه فسألوه إتيان مسجدهم،

---

(1) أبو عامر، عمرو بن صيفي الراهب الأوسي، كان يذكر البعث ودين الحنيفية، ويعرف بالراهب. ولما ظهر الإسلام حسد النبي ﷺ وعانده وخرج إلى مكة، وتوفي سنة تسع هجرية. سيرة ابن هشام: 2/ 423 ـ أعلام الزركلي: 5/ 79.

(2) في غزوة حنين سنة ثمان من الهجرة.

فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم، فنزلت هذه الآية[1]، وأعلمه الله تعالى بخبرهم وما هموا به، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم[2]، ومعن بن عدي[3]، وعامر بن قيس[4]، ووحشي قاتل حمزة وقال لهم: انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وحرقوه. فخرجوا سريعاً، وأخذوا سعفاً من النخل، وأشعلوا فيه النار وهدموه، وأمر النبي ﷺ أن يتخذ ذلك كناسة تلقى فيه القمامة والجيف. ومات أبو عامر بالشام وحيداً غريباً. وقال عكرمة: سأل عمر رضي الله عنه رجلاً منهم: بماذا أعنت في هذا المسجد؟ فقال: أعنت فيه بسارية. فقال عمر: أبشر بها في عنقك في نار جهنم[5]. وروى أن بني عمرو بن عوف بنوا مسجداً، وسألوا عمر رضي الله عنه أن يصلي بهم الجماعة مجمع بن جارية، فقال: لا ولا نعمة عين أليس بإمام مسجد الضرار؟ فقال له مجمع: يا أمير المؤمنين لا تعجل علي، فوالله لقد صليت فيه وإني لا أعلم ما أضمروا عليه ولو علمت ما صليت معهم، وكنت غلاماً وهم شيوخ لا يقرؤون من القرآن شيئاً فصليت بهم ولا أعلم بما في نفوسهم. فعذره عمر رضي الله عنه، وصدقه، وأمره بالصلاة في مسجد قباء[6]. قرأ أهل المدينة وأهل الشام: الذين اتخذوا ـ بغير واو، وكذلك هو في مصاحفهم[7].

قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ﴾ أي لا تصلي في مسجد هؤلاء المنافقين أبدا ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ﴾ يعني مسجد قباء أسس لوجه الله تعالى مذ أول يوم بني، ويقال: هو مسجد النبي ﷺ

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 212 ـ المحرر الوجيز: 8/ 272.
(2) مالك بن الدخشم بن مالك بن الدخشم: شهد بدرا وأحدا والمشاهد كلها. الطبقات الكبرى: 3/ 413.
(3) معن بن عدي بن الجد بن عجلان: شهد العقبة وبدرا وأحدا وغيرها من المشاهد. الطبقات الكبرى: 3/ 354.
(4) في النسخة (س): ابن السكن.
(5) تفسير القرطبي: 8/ 254.
(6) تفسير القرطبي: 8/ 255 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 77.
(7) ذكر الثعلبي هذه القراءة في تفسيره، ورقة: 77 ـ ابن مجاهد، السبعة: 318.

أحق أن تصلي فيه. ولا يمتنع أن يكون المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى كلا المسجدين: مسجد النبي ﷺ ومسجد قباء[1].

قوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟﴾ أي في مسجد قباء رجال يحبون أن يتطهروا. قال الحسن معناه: يتطهرون من الذنوب بالتوبة. والمشهور أن المراد بالتطهير في هذه الآية: الاستنجاء بالماء، كما روي أنه لما نزلت هذه الآية وقف رسول الله ﷺ بباب مسجد قباء، وقال: «**يا معشر الأنصار إن الله عز وجل قد أحسن الثناء عليكم في طهوركم، فبم تتطهرون؟**» قالوا: نتبع الأحجار الماء، أي نستجمر بالحجر، ثم نستنجي بالماء. فقرأ عليهم النبي ﷺ هذه الآية[2]، وسن النبي ﷺ الاستنجاء بالماء[3].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ أي يثني على المتطهرين من الذنوب والمتطهرين بالماء من الأدناس.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ﴾ الألف في أول الآية: ألف استفهام دخلت في الكلام للإنكار. وقوله: ﴿جُرُفٍ هَارٍ﴾ أي على طرف هوة. وقوله: ﴿هَارٍ﴾ أي ساقط، وأصله: هائر، إلا أنه حذف الياء. والجرف: ما تمر فيه السيول من الأودية، فيصير جانبه بحيث لو وقف الإنسان عليه سقط وانهار. وشفا الشيء: حرفه، وهو مقصور يكتب بالألف، وتثنيته: شفوان، قرأ نافع، وأهل الشام بضم الهمزة والنون على غير تسمية الفاعل، وقرأ الباقون بفتحها[4]. قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ﴾ قرأ ابن عمر: على تقوى ـ منون. وقوله تعالى: ﴿جُرُفٍ﴾ قرأ ابن عامر وحمزة وأبو بكر وخلف بالتخفيف[5] وقرأ الباقون بالتثقيل[6]، وهما

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 259.

(2) رواه الهيثمي في مجمع الزوائد: 1/ 212.

(3) تفسير القرطبي: 8/ 262.

(4) قرأ نافع وأهل الشام: (أفمن أسس بنيانه) بضم الهمزة.. الخ (ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 1/ 256).

(5) ساكنة الراء.

(6) محركة الراء (ابن مجاهد، كتاب السبعة: 318).

لغتان، وهي البئر التي لم تطو. قال أبو عبيدة: هي الهوة وما يخربه السيل في الأودية. والهائر: الساقط الذي يجري بعضه بعضه على أثر بعض كما ينهار الرمل والشيء الرخو. وفي مصحف أبي: فانهارت به قواعده في نار جهنم[1]. قال قتادة: ذكر لنا أنه حفرت بقعة منها فرؤى الدخان يخرج منها[2]. وقال جابر بن عبد الله: رأيت الدخان يخرج من مسجد الضرار[3].

قوله تعالى: ﴿فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ أي انهار الجرف بالبناء، أي هار به، أي كما أن من بنى على جانب نهر ضفته ما ذكرنا انهار بناؤه في الماء، فكذلك بناء أهل النفاق مسجد الشقاق كبناء على حرف جهنم يتهور بأهله فيها.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ أي لا يوفقهم ولا يهديهم إلى جنته وثوابه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ أي لا يزال بنيانهم مسجد الضرار حيرة مترددة في قلوبهم. ويقال: شكا واضطراباً، يعني أن شكهم لا يزول وإن أزيل ذلك البناء، بل يبقى ذلك في قلوبهم حتى خاب أمرهم واشتد أسفهم بأن بعث رسول الله ﷺ عامر بن قيس ووحشي مولى مطعم بن عدي فخرباه وهدماه، ثم أمر الأنصار بإلقاء الجيف والعذرات والكناسات فيه، إذ لم يبن لله تعالى فبقي ذلك حسرة وندامة في قلوب المنافقين حتى يقطع قلوبهم، أي يموتوا على ذلك، ويقال معناه: لا يزالوا شاكين حتى يموتوا، فإذا ماتوا صاروا إلى اليقين حيث لا ينفعهم اليقين. وقال السدي معناه: لا يزال هدم بنيانهم الذي بنوا ريبة، أي حزازة وغيظاً في قلوبهم إلى أن تصدع قلوبهم فيموتوا[4]. وقرأ الحسن ويعقوب: إلى أن تقطع مخففاً على الغاية[5]، يدل عليه تفسير الضحاك وقتادة: لا يزالون في شك منه إلى أن

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 78.
(2) تفسير الطبري: 14/ 492.
(3) ذكره السيوطي في الدر المنثور: 3/ 279.
(4) ذكر القرطبي قول السدي في تفسيره: 8/ 266.
(5) أبو بكر الأصبهاني، المبسوط في القراءات العشر: 230.

يموتوا فيستيقنوا ويتبينوا[1]. قرأ شيبة وابن عامر وحمزة وحفص: تقطع ـ بفتح التاء وتشديد الطاء، يعني تتقطع، ثم حذفت إحدى التاءين[2]. وقرأ ابن كثير ومجاهد ونافع وعاصم وأبو عمرو والكسائي: تقطع ـ بضم التاء وتشديد الطاء على غير تسمية الفاعل، وقرأ يعقوب: تقطع ـ بضم التاء خفيفة الطاء من القطع، وروي عن ابن كثير بفتح التاء خفيفة. قلوبهم ـ نصباً، أي تفعل ذلك أنت بهم[3].

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ أي عليم بأعمالكم حكيم فيما حكم من هدم مسجدهم وإظهار نفاقهم.

قوله تعالى:

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ معناه: إن الله طلب المؤمنين أن يعدوا أنفسهم وأموالهم ويخرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ليثيبهم الجنة على ذلك. فإن قيل: كيف يصح هذا الشراء والجنة على ذلك مملوكة لله تعالى، وكيف يشتري أحد ملكه بملكه؟ قيل: إنما ذكر هذا على جهة التلطف للمؤمنين في تأكيد الجزاء كما قال تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[4]، فذكر الصدقة بلفظ القرض للتحريض على ذلك والترغيب فيه، إذ القرض يوجب رد المثل لا محالة، وكأن الله عامل عباده

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 78.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 255.
(3) المصدر نفسه.
(4) سورة البقرة (2)، الآية: 245 ـ وسورة الحديد (57)، الآية: 11.

معاملة من هو مالك. وعن جعفر الصادق أنه كان يقول: يا ابن آدم اعرف قدر نفسك فإن الله عز وجل عرفك قدره، لم يرض أن يكون لك ثمن غير الجنة.

قوله تعالى: ﴿يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾ فيه بيان الغرض الذي لأجله اشتراهم، وهو أن يقاتل العدو في طاعة الله، ومعناه: فيقتلون المشركين ويقتلهم المشركون. وعلى هذا أكثر القراء، [أي] فيقتلون - [بفتح الياء]، ويقتلون - [بالضم][(1)]، فاختار الحسن هذه القراءة، لأنه إذا قرىء هكذا كان تسليم النفس إلى السراء أقرب ، وإنما يستحق البائع تسليم الثمن إليه بتسليم المبيع.

قوله تعالى: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ نصب على المصدر، أي أوجب الله لهم الجهة ووعدهم وعد الحق منه لهم. وإنما قال: حقاً للفصل بين الوعد الذي ينجزه الله على وجه الجزاء لهم على العمل، وبين الوعد الذي ينجزه لتصديق قوله على وجه التفضل لا للجزاء لهم على العمل.

قوله تعالى: ﴿فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ﴾ أي أوجب الله الجنة للمؤمنين في جميع كتبه التي أنزلها الله على أنبيائه عيلهم السلام.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ﴾ أي من الذي هو أوفى بعهده من الله سبحانه، أي ليس أحد أوفى من الله في وعده وشرطه، وعدكم وعداً ولا خلف لوعده.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾ أي ببيعكم أنفسكم من الله، فإنه لا مشتري أرفع من الله سبحانه، ولا ثمن أغلى من الجنة. وقيل: إن هذا نزل في الذين بايعوا رسول الله ﷺ بيعة الرضوان تحت الشجرة، ثم صار عاماً في كل من يعمل مثل عملهم. قال محمد بن كعب: لما بايعت الأنصار رسول الله ﷺ ليلة العقبة بمكة وهم سبعون نفساً، قال عبد الله بن رواحة: يا

---

(1) ما بين المعقوفين غير موجود في النسخة (ك)..
تفسير الثعلبي، ورقة: 78 فقد ذكر هذه القراءات.

رسول الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت. فقال: «**أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم**». قالوا: فإذا فعلنا ذلك فما لنا؟ قال: «**الجنة**». قالوا: ربح البيع لا نقيل ولا نستقيل. فنزل[1] قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾، ثم هنأهم الله تعالى بقوله: ﴿فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾. قال الحسن: اسمعوا إلى بيعة رابحة بايع الله بها كل مؤمن، والله ما على الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة. قال: ومر أعرابي على رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية فقال: كلام من هذا؟ قال: «**كلام الله تعالى**». قال: بيع والله مربح لا نقيله ولا نستقيله. فخرج إلى الغزو فاستشهد[2] وأنشد الأصمعي لجعفر رضي الله عنه:

أثامن بالنفس النفيسة ربها ∴ وليس لها في الخلق كلهم ثمن[3]

بها تشترى الجنات إن أنا بعتها ∴ بشيء سواها إن ذلكم غبن

لئن ذهبت نفسي بدنيا أصبتها ∴ لقد ذهبت نفسي وقد ذهب الثمن

وكان جعفر الصادق يقول: ألا من لهم همة إنه ليس لأبدانكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها. وأنشد أبو علي الكوفي:

من يشتري قبة في عدن عالية ∴ في ظل طوبى رفيعات مبانيها[4]

دلالها المصطفى والله بايعها ∴ ممن أراد وجبريل مناديها

قوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي النجاة العظيمة والثواب الوافر، لأنه مثل الجنة الباقية بالنفس الفانية.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 213 ـ تفسير الطبري: 14/ 499.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 268.
(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 78 ـ تفسير القرطبي: 8/ 268.
(4) نفسه.

قوله تعالى:

﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿112﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ في الآية قولان: أحدهما أن قوله تعالى: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ﴾ رفع بالابتداء، كأنه قال: التائبون العابدون.. إلى آخر الآية، لهم الجنة أيضاً، أي من قعد عن الجهاد غير معاند ولا قاصد تركه وهو على هذه الصفة في هذه الآية فله الجنة، والقول الثاني: أن قوله ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ﴾ يدل على المقاتلين، كأنه قال: المقاتلون التائبون العابدون، ويجوز أن يكون التائبون رفعاً على المدح، أي هم التائبون من الشرك والذنوب، المطيعون لله. ﴿ٱلْحَٰمِدُونَ﴾ الذين يحمدون الله على كل حال. ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ الصائمون، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**سياحة أمتي الصوم**»[1]. وإنما سمى الصائم سائحاً تشبيهاً له بالسائح في الأرض، لأن السائح ممنوع من الشهوات وكذا الصائم. وقال الحسن: أراد بالسائحين صائمي شهر رمضان. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**السائحون: الصائمون**»[2]. وسئل سعيد بن جبير عن السائحين فقال: هم الصائمون[3]. وقال الشاعر:

برا يصلي ليله ونهاره ∴ يظل كثير الذكر لله سائحاً[4]

أي صائماً. وقال الحسن: السائحون: الذين صاموا عن الحلال وأمسكوا عن الحرام. وههنا والله أقوام رأيناهم يصومون عن الحلال ولا يمسكون عن الحرام والله ساخط عليهم. وقال عطاء: السائحون هم الغزاة والمجاهدون. وسئل

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 14/ 505، رقم: 17313 بسنده عن عائشة.

(2) ذكره الطبري في المصدر نفسه: 14/ 503، رقم: 17287.

(3) الطبري في المصدر نفسه، رقم: 17294.

(4) قاله الشاعر في الصوم.

ذكره القرطبي في تفسيره: 8/ 270 من غير نسبة، وكذا الثعلبي في تفسيره، ورقة: 79.

عكرمة عن قوله تعالى: ﴿ٱلسَّٰٓئِحُونَ﴾ فقال: هم طلبة العلم[1]. قوله تعالى: ﴿ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ﴾ أي الذين يؤدون ما افترض الله عليهم من الركوع والسجود في الصلوات المفروضة. وقوله تعالى: ﴿ٱلْءَامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ أي الآمرون بالإيمان ﴿وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي عن الشرك، وقيل معناه: الآمرون بكل المعروف والناهون عن كل المنكر. وإنما ذكر الناهون بالواو بخلاف ما سبق لأن النهي عن المنكر لا يكاد يذكر إلا وهو مقرون بالأمر بالمعروف، فأدخل الواو ليدل على المقارنة. والمعروف: هو السنة، وأما المنكر: فهو البدعة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ عطف على ما تقدم، وقيل: المراد بهم جميع المذكورين أول الآية إلى هذا الموضع. وهذه الصفة من أتم ما يكون من المبالغة في وصف العباد بطاعة الله والقيام بأوامره والانتهاء عن زواجره، لأن الله تعالى بين حدوده في الأمر والنهي وفيما ندب إليه ورغب فيه أو خير فيه، وبين ما هو الأولى في تحري موافقة طاعة الله، فإذا قام العبد بفرائض الله وانتهى إلى ما أراد الله منه كان من الحافظين لحدود الله، كما روي عن خلف بن أيوب[2] أنه أمر امرأته أن تمسك عن إرضاع ولده بعض الليل وقال: قد تمت له سنتان. فقيل له: لو تركتها ترضعه هذه الليلة؟ قال: فأين قوله تعالى: ﴿وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾. قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي بشرهم بالجنة.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿113﴾ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿114﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن النبي ﷺ سأل عن أبويه أيهما أحدث عهد

---

(1) ذكر الثعلبي هذه الأقوال بنصها تقريباً في تفسيره، ورقة: 79.

(2) أبو سعيد، خلف بن أيوب البلخي: ثقة روي عنه.
الطبقات الكبرى: 7/ 264.

به؟ فقيل: أمك. فقال: «**هل تعلمون موضع قبرها لعلي آتيه فأستغفر لها، فإن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبويه وهما مشركان**». فقال المسلمون: ونحن أيضاً نستغفر لآبائنا وأهلينا. فانطلق صلى الله عليه وسلم حتى أتى القبر، فإذا بجبريل عليه السلام عند القبر فوضع يده على صدر النبي ﷺ فقرأ عليه هذه الآية[1]. قال أبو هريرة: قال ﷺ: «**استأذنت ربي أن استغفر لوالديَّ فلم يأذن لي، فاستأذنته أن أزور قبريهما فأذن لي**»[2]. والمعنى: ما ينبغي وما يجوز للنبي والذين آمنوا أن يطلبوا المغفرة للمشركين ولو دعتهم رقة القرابة إلى الاستغفار لهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم أنهم أصحاب النار، بأنهم ماتوا على الكفر.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ﴾ أي ما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها أبوه له أن يسلم، فلما تبين لإبراهيم أن أباه عدو الله بأن لم يؤمن حتى مات على الكفر تبرأ من أبيه ومن دينه. ويقال: إن هذه الموعدة إنما كانت من إبراهيم لأبيه، فإنه كان قال: لأستغفرن لك ما دمت حياً. ولم يكن الله تعالى أعلم إبراهيم أنه لا يغفر للمشركين، يدل عليه قراءة الحسن: إلا عن موعدة وعدها أباه[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ﴾ الأواه: التواب. وقال ابن مسعود: هو الدعاء. وقال الحسن وقتادة: هو الرحيم الرفيق. ويقال: هو الموقن بلغة الحبشة. إلا أن من قال إنه لا يجوز أن يكون في القرآن شيء غير عربي. قال: هذا موافق من العربية بلغة الحبشة. وقيل الأواه: الفقيه. وقال كعب: هو الذي إذا ذكرت عنده النار قال: أوه. وقيل: هو المتأوه شفقاً وفرقاً المتضرع نفساً ولزوماً للطاعة[4]. وأما الحليم: فهو الذي لا يعجل بعقوبة الجاهل.

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 215، تفسير الثعلبي، ورقة: 79.

(2) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 7/ 45. استئذان النبي ربه في زيارة قبر أمه.

(3) تفسير الثعلبي، ورقة: 80 ذكر قراءة الحسن.

(4) ذكر الطبري هذه الأقوال في تفسيره: 14/ 529 وما بعدها.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿115﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿116﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَۚ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن الله تعالى لما أنزل الفرائض وعمل بها الناس، ثم أنزل الله بعد ذلك نسخها وقد مات ناس وهم يعلمون بالأمر الأول مثل الصلاة إلى بيت المقدس وشرب الخمر ونحو ذلك، ومات بعض المؤمنين وهم على القبلة الأولى. فذكر المؤمنون ذلك للنبي ﷺ، فأنزل الله تعالى هذه الآية[1] ومعناها: وما كان الله ليضل عمل قوم، ولينزل قوماً منزلة الضلال بعد إذ هداهم للإيمان حتى يبين لهم ما يتقون من المعاصي. ويقال: حتى يبين الناسخ من المنسوخ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ من الناسخ والمنسوخ، وكل ما فيه مصلحة الخلق ﴿عَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُۚ﴾ وذلك أن الله تعالى لما أمر المسلمين بقتال المشركين كافة، وكان في المشركين ملوك لا يطمع المسلمون بهم لشوكتهم وعزهم، أخبر الله تعالى أنه مالك السماوات والأرض يحيي من يشاء ويميت من يشاء ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ ينصركم.

قوله تعالى:

﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِىِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿117﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿118﴾﴾

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 80 ـ تفسير القرطبي: 8/ 277.

قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ معناه: لقد تجاوز الله عن تولي النبي ﷺ إذنه للمنافقين بالتخلف، كما قال تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾[1]، وتجاوز عن ذنوب المهاجرين والأنصار. وقيل: أراد بذلك قوماً منهم تخلفوا عن رسول الله ﷺ، ثم خرجوا فأدركوه في الطريق. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ﴾ صفة مدح لأصحاب النبي ﷺ باتباعهم إياه في وقت الشدة في غزوة تبوك وكانت بهم العسرة في النفقة والركوب والحر والخوف، وكانت الدابة الواحدة بين جماعة يعتقبون عليها، وكانت التمرة تشق بالنصف فيأكلها الرجلان كل واحد نصفها، وربما كانت جماعة يمتصون تمرة واحدة يشربون عليها، وربما كانوا ينحرون الإبل فيشربون من ماء كرشها في الحر.

قوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ أي من بعدما كاد تميل قلوب طائفة منهم عن الخروج إلى الجهاد، ويقال: من بعدما كادوا يرجعون عن غزوتهم من الشدة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أي ثم خفف عنهم ما أغفلهم عن الحرب حتى كادوا يغفلون عن أنفسهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعۡلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدۡنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيۡلِ﴾ إلى أن قال: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحۡصُوهُ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۖ﴾[2] أي خفف عنكم، وكقوله تعالى: ﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ﴾[3] أي خفف عنكم.

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، الذين تخلفوا عن قبول توبتهم حتى إذا ضاقت عليهم الأرض مع سعتها بامتناع الناس من مكالمتهم ﴿وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ أي قلوبهم حين كتب قيصر إلى كعب بن مالك: بلغني أن صاحبك قد جفاك فالحق

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 43.
(2) سورة المزمل (73)، الآية: 20.
(3) سورة البقرة (2)، الآية: 187.

بي فإن لك عندي منزلة وكرامة. فقال كعب: من خطيئتي أن يطمع فيَّ رجل من أهل الكفر[1].

قوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ﴾ أي علموا وأيقنوا أن لا مفر من عذاب الله إلا إليه بالتوبة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ أي قبل توبتهم ليتوبوا، أي ليرجعوا عن مثل صنيعهم، ويقال: ليتوب الناس من بعدهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ﴾ أي المتجاوز عن ذنوب المؤمنين ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده التائبين.

قوله تعالى:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ (119) مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ (120) وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ (121)﴾.

قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ يا أيها الذين آمنوا اخشوا الله ولا تعصوه، وكونوا مع النبي ﷺ ومع الذين صدقت نياتهم واستقامت قلوبهم وأعمالهم في الشدة والرخاء.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ﴾ أي ما جاز لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله في الجهاد. وهذا نهي ورد بلفظ النفي.

قوله: ﴿وَلَا يَرْغَبُواْ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ أي لا ينبغي أن يكونوا بأنفسهم أبر وأشفق من نفس محمد ﷺ، بل عليهم أن يجعلوا أنفسهم وقاية للنبي ﷺ لما وجب له من الحق عليهم بدعائه لهم إلى الإيمان حتى اهتدوا به ونجوا من النار.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 122.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي ذلك الزجر لهم عن التخلف عن الجهاد لا يصيبهم عطش ولا تعب في أبدانهم ولا شدة مجاعة في طاعة الله ولا يجاوزون مكاناً فيظهرون من سهل أو جبل يغيظ الكفار مجاوزتهم ذلك المكان فإن الإنسان يغيظه أن يطأ أرضه غيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ﴾ أي لا يصيبون منهم من قتل أو غزوة أو غارة أو هزيمة إلا كتب لهم بكل واحدة من هذه الأشياء ثواب عمل صالح يستحقونه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يبطل ثواب من أحسن عملاً من جهاد وغيره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾ أي لا ينفقون في الجهاد نفقة صغرت أو كبرت، ولا يقطعون وادياً من الأودية في طلب الكفار إلا كتب لهم ذلك ليجزيهم الله بأحسن من أعمالهم التي كانوا يعملون في الدنيا.

قوله تعالى:

﴿۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (122)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾ قال ابن عباس: لما نزلت هذه الآيات[1] المتقدمة وما فيها من عيوب المنافقين وبيان نفاقهم، قال المؤمنون: والله لا نتخلف عن غزوة يغزوها رسول الله ﷺ ولا سرية أبداً. فلما أمر النبي ﷺ بعد ذلك بالسرايا إلى الغزو، ونفر المؤمنون جميعاً وتركوا رسول الله ﷺ بالمدينة، فأنزل الله تعالى في ذلك هذه الآية[2]، ومعناها: أنه ليس للمؤمنين أن ينفروا كافة ويخلفوا رسول الله ﷺ وحده ليس عنده أحد من

---

(1) في النسخة (ف): الآية.

(2) الواحدي، أسباب النزول: 215 ـ تفسير الثعلبي، ورقة: 83.

المسلمين يتعلم منه الحلال، والحرام، والشرائع، والأحكام.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾ أي فهلا خرج من كل جماعة طائفة إلى الجهاد، وتبقى طائفة مع النبي ﷺ ليسمع الذين تخلفوا عند النبي ﷺ الوحي إذا رجعت السرايا علموهم ما علموا فاستووا جميعاً في العلم في معرفة الناسخ والمنسوخ.

قوله تعالى: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ أي لينذر الذين تخلفوا مع رسول الله ﷺ قومهم الذين نفروا إذا رجعوا إليهم من غزواتهم ويخبرونهم بما نزل بعدهم من القرآن لكي يحذروا كلهم فلا يعلمون شيئاً، بخلاف ما أنزل الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿123﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿124﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿125﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿126﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي قاتلوا الأدنى فالأدنى إليكم من عدوكم مثل بني قريظة، والنضير وخيبر، أي ابدأوا بمن حولكم، ثم قاتلوا سائر الكفار، لأن الاشتغال بقتال من بعد من المشركين مع ترك قتال من قرب لا يؤمن معه هجوم من قرب على ذراري المسلمين، ونسائهم، وبلادهم إذا خلت من المجاهدين[1]. قوله تعالى: ﴿وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ أي ليكن منكم قول غليظ، وشدة عليهم في الوعيد كيلا يطمع فيكم أحد من أهل الكفر ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ في النصرة لهم على عدوهم.

---

(1) تفسير الثعلبي، ورقة: 83.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ﴾ معناه: إذا ما أنزلت سورة من القرآن فمن المنافقين من يقول أيكم زادته هذه السورة إيماناً، أي كان بعضهم يقول لبعض على جهة الهزؤ، ويقال: كانوا يقولون للمستضعفين من المسلمين: أيكم زادته هذه السورة يقيناً وبصيرة؟ يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وهم المخلصون من أصحاب رسول الله ﷺ زادتهم تصديقاً مع تصديقهم ﴿وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ أي يفرحون بكل ما ينزل من القرآن.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ معناه: وأما الذين في قلوبهم شك ونفاق فزادتهم السورة شكا إلى شكهم وكفرا إلى كفرهم، لأنهم كلما كفروا بسورة ازدادوا كفراً، والمؤمنون كلما صدقوا بسورة ازدادوا تصديقاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أي أداهم شكهم فيما أنزل الله من السور إلى أن ماتوا على الكفر. وإنما سمى الله النفاق مرضا لأن الحيرة في القلب مرض القلب، كما أن الوجع في البدن مرض البدن.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿126﴾﴾ معناه: أو لا يرى المنافقون أنهم يختبرون بالدعاء إلى الجهاد في كل عام مرة أو مرتين، ويقال: يهلكون بهتك أستارهم وبما يظهر الله من سوء نياتهم وخبث سوء أمرهم، ويقال: كانوا ينقضون عهدهم في السنة مرة أو مرتين، فيعاقبون ولا يتوبون عن نفاقهم، ولا هم يتذكرون بما صنع الله بهم بنقضهم العهد. قرأ حمزة ويعقوب: أو لا ترون ـ بالتاء خطاباً للنبي ﷺ والمؤمنين[1].

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ

(1) ابن مجاهد، السبعة: 320 ـ تفسير القرطبي: 8/ 299.

ٱنصَرَفُواْۚ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿127﴾ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ
أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿128﴾ فَإِن
تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿129﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ أي إذا نزلت سورة فيها عيب المنافقين. فخاطبهم النبي ﷺ وعرض لهم في خطبته، نظر بعض المنافقين إلى بعض: هل يراكم من أحد من المخلصين، إذا هو قام فخرج من المسجد، فإن كان لا يراه أحد خرج من المسجد وانصرف، وإن علموا أن أحداً يراهم قاموا وثبتوا مكانهم حتى يفرغ النبي ﷺ من خطبته.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱنصَرَفُواْۚ﴾ أي انصرفوا عن الإيمان والعمل بشيء مما يستطيعون. ويقال: انصرفوا عن المكان الذي سمعوا فيه. ﴿صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ عن اللطف الذي يحدثه للمؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ أي ذلك الصرف بأنهم قوم لا يفقهون ما يريد الله بخطابهم.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ هذا خطاب لأهل مكة. والمعنى: لقد جاءكم رسول من أهل نسبكم ولسانكم، شريف النسب تعرفونه وتفهمون كلامه. وإنما قال ذلك لأنه أقرب إلى الألفة. وقيل: إن هذا خطاب لجميع الناس معناه: جاءكم آدمي مثلكم، وهذا أوكد للحجة عليكم لأنكم تفهمون عمن هو من جنسكم[1]. قرأ ابن عباس والزهري: من أنفسكم ـ بفتح الفاء، أي من أشرفكم وأفضلكم، من قولك: شيء نفيس[2]. وقال يمان: من أعلاكم نسباً. قوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي شديد عليه عنتكم وإثمكم. والعنت: الضيق والمشقة.

قوله تعالى: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي حريص على ايمانكم وهداكم أن

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 301.
(2) تفسير الثعلبي، ورقة: 84.

تؤمنوا فتنجوا من العقاب وتفوزوا بالجنة والثواب. والحرص: شدة الطلب للشيء مع الاجتهاد فيه.

قوله تعالى: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ كلام مستأنف، أي هو شديد الرحمة بجميع المؤمنين رفيق بمن اتبعه على دينه.

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ أي فإن أعرضوا عنك وعن الإيمان بك فقل الله تعالى حسبي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا ناصر ولا معين غيره ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي به وفقت وإليه فوضت أمري. قوله تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي خالق السرير العظيم الذي هو أعظم من السموات والأرض. وإنما خص العرش بذلك لأنه إذا كان رب العرش العظيم مع عظمه كان رب ما دونه في العظم. وقيل: إنما خص العرش تشريفاً للعرض وتعظيماً لشأنه. وقرىء في الشواذ: العظيم - بالرفع على نعت الرب[1].

(1) تفسير القرطبي: 8/ 303.

سُورَةُ يُونُسَ

وهي مائة وتسع آيات، وخمسة آلاف وخمسمائة وسبعة وستون حرفاً، وألف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمة. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: **«من قرأ سورة يونس أعطي من الأجر عشر حسنات، وبعدد من صدق بيونس وكذب به. وبعدد من غرق مع فرعون»**[1].

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ ②﴾

قوله تعالى: ﴿الٓرۚ﴾ قال ابن عباس معناه: أنا الله أرى. وعنه: أنه من حروف الرحمن[2]، وقيل معناه: أنا الرب لا رب غيري.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي هذه آيات الكتاب. وإنما أضاف الآيات إلى القرآن لأنها بعض الكتاب كما أضاف السورة لأنها بعضه. وأما وصف القرآن بأنه حكيم فلأن القرآن كالناطق بالحكمة لما فيه من التمييز بين الحق والباطل. ويقال: معنى الحكيم المحكم بالحلال، والحرام، والأمر، والنهي. يقال: أحكمت الشيء فهو محكم وحكيم، كما يقال: أكرمت الرجل فهو مكرم وكريم.

---

(1) ذكره الزمخشري في الكشاف: 2: 257، والثعلبي في تفسيره - خ -.

(2) تفسير القرطبي: 8/ 304.

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ معناه: عجبت قريش أن أوحينا إلى رجل مثلهم من أهل نسبهم أن خوِّف الناس بالعذاب ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وذلك أن الكفار كانوا يقولون: ألم يجد الله رسولاً يبعثه إلينا إلا يتيم أبي طالب؟ وكانوا يتعجبون من البعث بعد الموت. قوله تعالى: ﴿قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أعمالهم الصالحة التي قدموها لأنفسهم سلف خير عند ربهم يستوجبون بها المنزلة الرفيعة في آخرتهم عند ربهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم الصدق: شفاعة نبيهم لهم هو أمامهم إلى الجنة وهم بالأثر[1].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ أي قال كفار مكة: إن هذا القرآن لسحر مبين. وقرأ أهل الكوفة وابن كثير: لساحر ـ بالألف، يعنون محمداً ﷺ[2].

قوله تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (3) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ (4)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ولو شاء الله لخلقها في أقل من لحظة، ولكن خلقها للترتيب ليكون حدوث شيء بعد شيء على الترتيب أبلغ للملائكة في التفكر فيها من حدوثها كلها في حالة واحدة. وقد تقدم تفسير الاستواء، ودخلت «ثم» على الاستواء وهي في المعنى داخلة على التدبير، كأنه قال: ثم يدبر الأمر وهو مستو على العرش، فإن تدبير الأمور كلها ينزل من عند العرش، ولهذا ترفع الأيدي في

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 15/15 عن قتادة وآخرون.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/260.

دعاء الحوائج نحو العرش. والاستواء: الاستيلاء، ولم يزل الله تعالى مستولياً على الأشياء كلها، إلا أن تخصيص العرش لتعظيم شأنه.

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ أي يقضي القضاء إلى الملائكة من رسله ولا يشركه في تدبيره أحد من خلقه. وعن عمرو بن مرة[1] قال: يدبر أمر الدنيا بأمر الله أربعة: جبريل، وميكائيل، وملك الموت، وإسرافيل: أما جبريل للوحي، وأما ميكائيل فعلى القطر والنبات، وأما ملك الموت فعلى الأنفس، وأما إسرافيل للصور[2].

قوله تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ جواب قول الكفار: أن الأصنام شفعاؤنا عند الله. فبين الله تعالى: ما من ملك مقرب ولا نبي مرسل يشفع لأحد إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى. فكيف تشفع الأصنام التي ليس لها عقل وتمييز.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي يفعل ما هو المذكور في هذه الآية من خلق السوات والأرض وتدبير الخلق هو الله خالقكم ورازقكم فاعبدوه، ولا تعبدوا الأصنام فإنها لا تستحق العبادة.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿155﴾﴾ أي هلا تتعظون بالقرآن.

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا﴾ أي إلى الله سبحانه رجوعكم جميعاً. وانتصب قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ على الحال. وقوله: ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ نصب على المصدر، أي وعد وعداً. والمعنى: وعد الله البعث بعد الموت وعدا حقاً كائناً لا شك فيه.

---

(1) عمرو بن مرة الجملي المذحجي: روى عن شبعة قال: ما رأيت عمرو بن مرة في صلاة إلا ظننت أنه لا ينصرف حتى يستجاب له. توفي سنة ثماني عشرة ومائة.
الطبقات الكبرى: 6/ 312.

(2) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 1/ 177، رقم: 158، باب في الإيمان بالملائكة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي يخلقكم في بطون أمهاتكم نطفاً، ثم علقاً ثم مضغاً ثم عظاماً، ثم يخرجكم نسماً للحياة، ثم يميتكم عند انقضاء آجالكم، ثم يبعثكم بعد الموت. وفي هذا بين أن خلق الشيء على الترتيب حالاً بعد حال يدل على الاعتبار من خلقه جملة واحدة في ساعة واحدة.

قوله تعالى: ﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ فيه بيان أن البعث للجزاء ليجزيهم بالعدل فلا ينقص من ثواب محسن، ولا يزيد على عقاب مسيء، بل يجازي كلا على قدر عمله كما قال تعالى: ﴿جَزَآءٗ وِفَاقًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي من ماء حار قد انتهى حره، وعذاب وجيع يخلص وجعه إلى قلوبهم ﴿بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ﴾ بالكتب والرسل.

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ⁽5⁾ إِنَّ فِي ٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَّقُونَ ⁽6⁾﴾

وقوله عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ أي هو الذي جعل الشمس ضياء للعالمين بالنهار والقمر نوراً بالليل. روي في الخبر أن وجوههما إلى العرش وظهورهما إلى الأرض، تضيء وجوههما لأهل السموات السبع، وظهورهما لأهل الأرضين السبع[2] كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ⁽16⁾﴾[3]. قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ وهي ثمانية وعشرون منزلة في كل شهر. وقيل معناه: وقدره منازل لا يجاوزها ولا يقصر دونها، وقيل: جعل «قدر» مما يتعدى

(1) سورة النبأ (78)، الآية: 26.
(2) ذكره الطبري في تفسيره: 8/310.
(3) سورة نوح (71)، الآية: 16.

إلى مفعولين، ويجوز أن يكون المعنى: وقدرهما، إلا أنه حذف التثنية للاختصار والإيجاز كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾[1].

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي ما خلق الله الشمس والقمر إلا لتعلموا الحساب وتعتبروا بهما وتستدلوا بطلوعهما وغروبهما على صانعهما. وقوله تعالى: ﴿لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ أي لتعلموا بالشمس والقمر حساب السنين، وحساب الشهور، والليالي، والأيام على ما تقدم أن القمر تقطع في الشهر ما تقطعه الشمس في السنة. ويعني بقوله: ﴿وَٱلْحِسَابَ﴾ حساب الشهور والأيام والساعات.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ رده إلى الفعل والخلق والتدبير، ولو أراد الأعيان المذكورة لقال: تلك إلا بالحق، أي لم يخلقه باطلاً بل إظهاراً لصنعته، ودلالة على قدرته وحكمته.

قوله تعالى: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص: يفصل ـ بالياء، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لقوله قبله: ﴿مَا خَلَقَ ٱللَّهُ﴾ فيكون متبعاً له، وقرأ الباقون بالنون على التعظيم[2].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾﴾ معناه: إن في اختلاف ألوان الليل والنهار وتقليبهما بذهاب الليل وجيئه بالنهار وذهاب النهار وجيئه بالليل، وفيما خلق الله في السموات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح، وفي الأرض من الجبال والبحار والأشجار والأنهار والدواب والنبات لعلامات لقوم يتقون الله ويخشون عقوبته، فلم يؤمنوا بهذه الآيات ولم يصدقوا، فأنزل الله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا

---

(1) سورة التوبة (9)، الآية: 62.

(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 261 ـ تفسير القرطبي: 8/ 311.

﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿7﴾ أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿8﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿7﴾﴾ معناه: إن الذين لا يخشون عقاب الله وقنعوا بالحياة الدنيا فلا يعملون إلا لها ولا يرجون وراءها، أي سكنوا إليها وآثروها على عمل الآخرة، والذين هم عن دلائل توحيدنا غافلون تاركون لها مكذبون بها.

قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ أي أهل هذه الصفة مصيرهم إلى النار بما كانوا يعملون في دار الدنيا. وقد يذكر الرجاء بمعنى الخوف كما قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿13﴾﴾[1] أي لا تخافون لله عظمة. ويجوز أن يكون المعنى: لا يرجون لقاءنا، أي لا يرجون جزاءنا. فجعل لقاء جزائه بمنزلة لقائه.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿9﴾ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿10﴾﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ﴾ أي إن الذين صدقوا بمحمد والقرآن وعملوا الطاعات يرشدهم ربهم على الصراط إلى الجنة بنور إيمانهم. وقيل: يرشدهم إلى منازلهم في الجنة، وقيل: يثبتهم على الإيمان.

قوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي تجري الأنهار بين أيديهم وهم في الغرف يتطلعون عليها كما قال عز وجل حاكياً عن فرعون: ﴿أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾[2] ويجوز أن يكون معناه: تجري من تحت شجرهم وبساتينهم في جنات يتنعمون فيها.

---

(1) سورة نوح (71)، الآية: 13.

(2) سورة الزخرف (43)، الآية: 51.

قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ﴾ أي قولهم ودعاؤهم في الجنة سبحانك اللَّهم، فإذا سمع الخدام ذلك من قولهم أتوهم بما يشتهون. قال ابن جريج: تمر الطير على الرجل من أهل الجنة فيشتهيه فيسبح الله تعالى، فتقع بين يديه فيأكل منه ما شاء، فإذا فرغ قال الحمد لله.(1) ويقال: معنى قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا﴾ أي مفتتح كلامهم التسبيح، ومختتم كلامهم التحميد، لا أن يكون آخر كلامهم حتى لا يتكلمون بعده بشيء. قال طلحة بن عبيد الله: سئل رسول الله ﷺ عن قول الله: سبحان الله. فقال: «**هو تنزيه الله من كل سوء**».(2) وسئل علي رضي الله عنه عن ذلك فقال: كلمة رضيها لنفسه.(3) وقال الحسن: بلغني أن رسول الله ﷺ قال حين قرأ هذه الآية: «**إن أهل الجنة يلهمون الحمد والتسبيح كما تلهمون أنفاسكم**».

قوله تعالى: ﴿وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ أي يحيي بعضهم بعضاً بالسلام وتحييهم الملائكة بالسلام، وتأتيهم الملائكة من عند ربهم بالسلام كما في قوله تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾(4). قرأ بلال بن أبي بردة وابن محيصن: إن الحمد لله ـ بكسر «إن» وتشديد النون ونصب الحمد(5).

قوله تعالى:

﴿۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾﴾.

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 20.

(2) ذكره الطبري في تفسيره بسنده: 15/ 31، رقم: 17570.

(3) المصدر نفسه.

(4) سورة الأحزاب (33)، الآية: 44.

(5) تفسير القرطبي: 8/ 313 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 246.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ قيل: إن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث حين قال: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾[1] الآية.. ثم صارت عامة في كل من يستعجل العقاب الذي يستحقه بالمعاصي[2]. ومعناه: لو يعجل الله للناس الشر كما يعجل الخير إذا دعوا بالرحمة والرزق والعافية لماتوا وهلكوا. وقيل المراد بهذه الآية: دعاء الإنسان على نفسه وولده وقومه، مثل قول الرجل إذا غضب على ولده: اللَّهم لا تبارك فيه والعنه[3]. وقوله لنفسه: رفعني الله من بينكم. والمعنى على هذا: ولو يعجل الله للناس إجابة دعائهم في الشر كاستعجالهم الإجابة في الخير لقضى إليهم أجلهم، أي لفرغ من عقابهم وماتوا جميعاً. وقال شهر بن حوشب: قرأت في بعض الكتب أن الله تعالى يقول للملكين الموكلين: لا تكتبا على عبدي في حال ضجره شيئاً[4]. وقرأ ابن عامر ويعقوب: لقضى - بفتح القاف والضاد، أجلهم - بفتح اللام، وقرأ الأعمش: لقضينا، وقرأ العامة: لقضى - بضم القاف ورفع قوله أجلهم[5].

قوله تعالى: ﴿فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي نترك الذين لا يخافون البعث في ضلالتهم وكفرهم يتحيرون ويترددون.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ نزلت هذه الآية[6] في هشام بن المغيرة المخزومي، ومعناه: إذا أصاب الإنسان الشدة والمرض دعانا لكشفه وهو مضطجع لما به من المرض أو قاعداً إذا كانت العلة، أو قائماً إذا بقي فيه أثر العلة أو كان في شدة معيشة أو غيرها. فلما رفعنا ما

(1) سورة الأنفال (8)، الآية: 32.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 315.
(3) ذكره الطبري في تفسيره عن مجاهد: 15/ 34.
(4) ذكره القرطبي في المصدر نفسه.
(5) الأصبهاني، المبسوط: 232 - ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 261.
(6) القرطبي في المصدر نفسه.

كان به من الشدة استمر على الإعراض عن شكر ما أنعمنا عليه في كشف الضر عنه كأن لم يدعنا من ضر مسه قط، أي كأن لم يمسه ضر، وكأن لم نكشف ذلك الضر عنه.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي هكذا زين للمسرفين ما كانوا يعملون في الشرك من الدعاء في الشدة وترك الدعاء في الرخاء فاغتروا بما زين لهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿13﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿14﴾﴾

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ أي ولقد أهلكنا الأمم الماضية من قبلكم حين كفروا وجاءتهم رسلهم بالدلالات الواضحات. ﴿وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟﴾ ولو كان في بقائهم صلاح لهم ولغيرهم لأبقيناهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ أي هكذا نجزي القوم المشركين نهلكهم كما أهلكنا الأولين.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ أي ثم أسكناهم في الأرض من بعد الأولين لنجازيكم على ما تعملون من الخير والشر، ونشاهد هل تعتبرون بما صنع الأولون أم لا؟ وهذا على التهديد، أي إن عاملتكم مثل معاملتهم أهلكتكم كما أهلكتهم، وإنما قال تعالى: ﴿لِنَنظُرَ﴾ لأنه سبحانه يعامل العبد معاملة المختبر الذي لا يعلم الشيء حتى يكون مظاهره في العدل، وإنه إنما يجازي العباد على عملهم لا على علمه فيهم. قال رسول الله ﷺ: «**إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون**»[1].

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 55 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1325، رقم: 4000، باب فتنة النساء ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 7/ 278، رقم: 10301، باب في الزهد.

قال قتادة: ذكر لنا أن عمر رضي الله عنه قال: صدق ربنا، ما جعلنا خلائف إلا لينظر إلى أعمالنا، فأروه من أعمالكم خيراً بالليل والنهار والسر والعلانية[1].

قوله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿15﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿16﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ﴾ معناه: وإذا قرأ على أهل مكة آياتنا المنزلة في القرآن قال الذين لا يخشون عقابنا ولا يطمعون في ثوابنا ولا يقرون بالبعث: ائت يا محمد بقرآن ليس فيه عيب آلهتنا ولا ذكر البعث والنشور. قوله تعالى: ﴿أَوْ بَدِّلْهُ﴾ أي قالوا أو بدل هذا بغيره. قل يا محمد: ما يكون لي أن أبدله، أي ما يجوز وما ينبغي لي أن أغيره من قبل نفسي، ما أقول أو ما أعمل إلا ما يوحى إلي من القرآن، إني أعلم إن عصيت ربي فبدلت القرآن أنه يكون على ذنب عظيم.

قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ﴾ أي قل يا محمد لو شاء الله ما قرأت القرآن عليكم بأن كان لا ينزله علي ﴿وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ﴾ أي ولا أعلمكم الله به، أي لو شاء الله أن لا يشعركم. لم يشعركم وفي قراءة الحسن: ولا أدرأتكم به، أي ولا أعلمكم به[2].

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾ أي مكثت فيكم دهراً قبل إنزال القرآن ولم أقل من هذا شيئاً، فليس لكم ذهن الإنسانية، إنه ليس من تلقاء نفسي.

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره: 15/ 39.

(2) ذكر القرطبي في تفسيره: 8/ 320 هذه القراءة عن ابن عباس والحسن. وذكرها ابن خالويه في إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 246 للحسن البصري.

قوله تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿17﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ
شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ
وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿18﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ أي لا أحد أظلم ممن اختلق على الله كذباً بأن جعل شريكاً له أو ولداً أو ادعى النبوة بغير حق، أو قال أمرنا الله بعبادة الأصنام فيتقرب بعبادتها إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ﴾ أي بأنبيائه ورسله[1] وكتبه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أي لا يوصلهم إلى مرادهم.

قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ أي إن أهل مكة يعبدون من دون الله الأصنام التي لا تضرهم إن تركوا عبادتها ولا تنفعهم إن عبدوها ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإنه الذي أذن لنا في عبادتها وإنه سيشفعها فينا. وأرادوا بذلك شفاعة الأصنام في مصالح دنياهم، لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استفهام بمعنى الإنكار، أي إن الله خالق السموات والأرض وهو عالم بما فيها، يعلم أن ليس فيهما إله ينفع ويضر غيره. أفتخبرونه أنتم بشيء لا يعلم فيعلم بإخباركم. وهذا نفي للعلم، والمراد به نفي ما قالوه في أن شفاعة الأصنام لا تكون أبداً.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً لله عن كل صفة لا تليق بذاته وارتفع وتبرأ عما يشركون به من الأصنام والأوثان.

---

(1) في النسخة (ف): ورسوله.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿19﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿20﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَاۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًاۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿21﴾﴾

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ﴾ اختلف الناس في المراد بهذه الآية: قال بعضهم: أراد بذلك أن الناس كانوا أمة واحدة في وقت آدم عليه السلام، ثم اختلفوا بأن كفر بعضهم بضعاً، وأول من اختلف قابيل وهابيل، ويقال: أراد به أن الناس كلهم ولدوا على الفطرة، ثم اختلفوا بأن غير بعضهم الفطرة ولم يغير بعضهم بل ثبت عليها، وقال بعضهم: أراد بذلك أنهم كانوا أمة واحدة على عهد إبراهيم ونوح عليهما السلام، كانوا كلهم كافرين فتفرقوا من بين مؤمن، وكافر، ويقال: أراد بالناس ههنا العرب كانوا على الشرك قبل مبعث النبي ﷺ، ثم اختلفوا بعد مبعثه فآمن بعضهم، وكفر بعضهم. والقول الأول أقرب إلى ظاهر الآية.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي لولا حكم من الله سبق ببقاء التكليف على الناس إلى وقت معلوم سواء أطاعوه أو عصوه لما علم من المصلحة لهم ولغيرهم في ذلك، لعجل لهم العذاب عند العصيان فاضطرهم إلى معرفة الحق فيما اختلفوا فيه. وقرأ عيسى بن عمر: لقضى بينهم - بالفتح[1].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾

---

(1) ذكر القرطبي في تفسيره: 8/ 323 هذه القراءة.

أي يقول أهل[1] مكة: هلا أنزل على محمد آية من ربه، يعنون الآية التي كانوا يقترحونها عليه سوى الآيات التي أنزلها الله ﴿فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ أي قل يا محمد إن غيب نزول الآيات لله تعالى، لو علم الصلاح في زيادة الآيات لأنزل.

وقوله تعالى: ﴿فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ أي فانتظروا عقاب الله بالقتل في الدنيا والنار في الآخرة ﴿إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ﴾ لهلاككم بما وعدني الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ معناه: إذا أعطينا الناس، أي الكفار، ما يسرون به من العافية والنعمة والرحمة والمطر من بعد فقر وبلاء ومرض وقحط وشدة أصابتهم ﴿إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا﴾ بالإحتيال في دفعها والتكذيب بها، كانوا لا يقولون هو رزق الله ورحمته. و«إذا» تنوب عن جواب الشرط كما ينوب الفعل. والمعنى: أنهم إذا مستهم راحة ورخاء بعد شدة وبلاء، وقيل: مطر بعد قحط، إذا لهم كفر وتكذيب. قال مقاتل: لا يقولون هذا رزق الله وإنما يقولون سقينا بنوء كذا، وهو قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿82﴾﴾[2].

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا﴾ أي أسرع جزاء على المكر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ﴾ أي الكرام الكاتبون، أي يكتبون ما تمكرون أنتم. قرأ الحسن ومجاهد وقتادة ويعقوب: ما يمكرون ـ بالياء[3].

قوله تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿22﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا

(1) في النسخة (ف): كفار.
(2) سورة الواقعة (56)، الآية: 82.
(3) المبسوط في القراءات العشر: 232 ـ 233.

هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿23﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ أي هو الذي يسهل لكم المسير ويحفظكم إذا سافرتم في البر على الدواب، وفي البحر على السفن. فالسير في البحر مضاف إلى الله على الحقيقة، لأن سير السفينة لا يكون إلا بجري الماء والريح الطيبة، وأما السير في البر فإضافته إلى الله تعالى على معنى تسخير المركوب وتسييره بإمساكه بقدرة الله تعالى أيضاً. قرأ ابن عامر وأبو جعفر: ينشركم ـ بالنون والشين[1]، من النشر، أي يبثكم في البر والبحر.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ أي إذا كنتم في السفن. وقد يكون الفلك واحداً وقد تكون جمعاً، فمن جعله واحداً فجمعه أفلاك، ومن جعله جمعاً فواحده فلك، كما يقال: أُسد وأَسد. وقوله تعالى: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ أي السفن جرين بأهلها بريح لينة ساكنة وفرحوا بسكون ريحها وأعجبوا. قال الزجاج: ابتداء الكلام خطاب وبعد ذلك إخبار عن معاينة، لأن مخاطبة الله تعالى لعباده لا تكون إلا على لسان الرسول ﷺ وذلك بمنزلة الإخبار عن الغائب[2].

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي ركبهم الموج من كل جانب.

وقوله تعالى: ﴿وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾ أي أيقنوا أنه قد دنا هلاكهم. تقول العرب لكل من وقع في الهلاك أو في بلية عظيمة: أحيط بفلان، أي أحاط به الهلاك.

قوله تعالى: ﴿دَعَوُا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي دعوا الله ليكشف ذلك عنهم مخلصين له الاعتقاد لا يدعون عند الشدة غيره. قال الحسن: ليس هو إخلاص

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 256 ـ الفراء، معاني القرآن: 1/ 460.
(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 13 بتصرف.

الإيمان ولكنه لعلمهم بأنه لا ينجيهم من تلك الشدة إلا الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ﴾ أي من هذه الريح الشديدة والغرق ﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لك على نعمائك.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ أي فلما أنجاهم من البحر إذا هم يتطاولون على أنبياء الله وأوليائه ويعملون بالمعاصي والفساد والدعاء إلى غير عبادة الله تعالى. والبغي في اللغة: هو الترامي إلى الفساد. يقال: بغى الجرح يبغي بغياً: إذا ترامى إلى الفساد، وبغت المرأة: إذا فسدت.

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي إنما ظلمكم وتطاولكم يعود ضرره عليكم، ويرجع وباله عليكم.

وقوله تعالى: ﴿مَّتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي هو تمتع قليل في الدنيا، ومتاع الدنيا يذهب ويفنى. ويجوز أن يكون قوله: ﴿مَّتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ خبراً لقوله: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم﴾ أي لا يتهيأ إلا أن يبغي بعضكم على بعض في مدة يسيرة من الدنيا مع سرعة انقضائها. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ﴾ بعد الموت ﴿فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ قرأ حفص: متاع - بالنصب على المصدر[1].

قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (24) وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ (25)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ معناه: إنما صفة حياة الناس في الدنيا، وهي الحياة الأولى، صفة ماء أنزله الله فنبت به أنواع النبات واختلط بعضه ببعض، لأن المطر يختلط بالنبات ويدخل في خلاله.

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 266.

قوله تعالى: ﴿مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ أي مما يصير بعضه إلى الناس من الحبوب والثمار، وبعضه علفاً للدواب من العشب والكلأ.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي زينتها من النبات. والزخرف: حسن الشيء. وقوله تعالى: ﴿وَٱزَّيَّنَتْ﴾ أي تزينت بنبتها وثمارها من الأحمر والأصفر والأخضر وسائر الألوان التي لا غاية لها في الحسن بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ أي حسب أهلها إدراك الانتفاع بها.

قوله تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا﴾ أي أتاها عقابنا في ليل أو نهار إما ببرد أو بصواعق محرقة أو غيرها. وسمى العقاب أمراً لأن أفعال الله سبحانه تضاف إليه بلفظ الأمر، لأن ذلك أدل على سرعة الكون من غير استبطاء ولا تعب.

قوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ أي كأن لم يكن بذلك المكان شيء من الخضرة والحسن والنبات. والمغنى: هو الموضع الذي يقام فيه ويعمر. والمغاني: المنازل التي يعمرها الناس بالنزول بها. يقال: غنينا بمكان كذا: إذا نزلوا به. ووجه تشبيه الحياة الدنيا بالمطر الذي ينزل فينبت به النبات ثم ينقضي وينقطع، إنه كما لا يبقى شيء من ذلك النبات كذلك التمسك بالدنيا أقوى ما ينتهي إليه دنياه يأتيه الموت. قرأ ابن مسعود: وتزينت، وقرأ أبو عثمان النهدي والضحاك: وازينت ـ على وزن افعلت، وازيانت على وزن احمارت، وقرأ أبو رجاء والشعبي والحسن: وأزينت، على مثال: أفعلت مقطوعة الألف ساكنة الزاي[1]. قال قطرب معناه: أتت بالزينة، كما يقال: أذكرت المرأة وأنثت إذا أتت بالذكور والإناث.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾ أي كما فصلنا لكم الآيات فكذلك نبين

---

(1) ابن جني، المحتسب: 1/ 311 ـ تفسير القرطبي: 8/ 327 وقد ذكر هذه القراءات ـ الرازي: البحر المحيط: 5/ 144.

الآيات في القرآن ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في أمر الدنيا والآخرة. وإنما خص بذلك من يتفكر، لأن الغافل عن ذلك والمتغافل لا يكاد ينتفع بهذه الأمور، بل هو كالأنعام. وأصل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ قال ابن عباس: والله يدعو إلى عمل الجنة وقال: الله السلام وداره الجنة[1]. ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي يكرم من يشاء بالهداية إلى دين قائم يرضاه الله وهو الإسلام. ويقال: معنى دار السلام: الدار التي يسلم أهلها من الآفات والأمراض والهرم والموت. والسلام والسلامة بمعنى واحد كالرضاع والرضاعة.

قوله تعالى:

﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿26﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا العمل في الدنيا لهم الحسنى وهي الجنة ولذاتها. وقوله: ﴿وَزِيَادَةٌ﴾ روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال حين تلا هذه الآية: أتدرون ما الزيادة؟ قالوا: ما هي يا خليفة رسول الله؟ قال: الحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله تعالى[2]. وعلى هذا القول حذيفة وأبو موسى وصهيب وعبادة بن الصامت وكعب بن عجرة وعامر بن سعد والحسن وعكرمة وأبو الجوزاء والضحاك والسدي وعطاء ومقاتل، وهو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، يدل عليه قوله ﷺ: «**إذا دخل أهل الجنة [وأهل النار]**[3] **نودوا أن يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً لم تؤتوه. فيقولون: وما هو؟ ألم يبيض وجوهنا ويجرنا من النار ويدخلنا الجنة؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون الله عز وجل. فوالله ما أعطاهم شيئاً هو أحب إليهم منه**»[4]. وقال ابن عباس: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي للذين شهدوا أن لا إله إلا

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 59.

(2) المصدر نفسه: 15/ 63.

(3) ما بين المعقوفين غير موجود في النسخة (ف)

(4) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 3/ 16ـ 17 ـ والترمذي في سننه تحفة الأحوذي: 8/ 522، رقم: 5103، تفسير سورة يونس ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 67، رقم: 167.

الله الجنة. وروى عطية عنه أن الحسنى هي واحدة من الحسنات بواحدة، والزيادة التضعيف عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف. وقيل: الحسنى البشرى والزيادة النظر. قال الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[(1)]. وعن علي رضي الله عنه قال: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة لها أربعة أبواب[(2)]. ويقال الزيادة: رضى الرب، كما يقال: إن أهل الجنة يؤتون بالتحف والكرامات، ويقول لهم رسول رب العزة إن الله تعالى يقول لكم: إني قد رضيت عنكم فهل رضيتم عني؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ﴾ أي لا يعلو وجوههم ولا يلحقها سواد ـ وهو كسوف الوجه ـ ولا ذلة، أي ولا هوان ولا حزن. ولا يكون نعيم الجنة كنعيم الدنيا، لا يشوبه التنغيص والتنكيد. والرهق في اللغة: هو اللحوق، ومنه قولهم للصبي إذا قارب البلوغ: مراهق، أي قارب أن يلحق الاحتلام. والقتر: غبرة فيها سواد. وقرأ الحسن: قتر ـ بإسكان التاء[(3)]، وهما لغتان. وباقي الآية ظاهر المعنى.

قوله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (27)﴾

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا﴾ معناه: والذين أتوا معصية الله فيما أمرهم به ونهاهم عنه يجازيهم الله بما يستحقونه على العقوبة، ولا يجازيهم بأكبر من الاستحقاق بخلاف الطاعة فإنه تعالى قد يتفضل على المطيع بزيادة الأجر فإنه كان يجوز أن يتفضل ابتداء بتلك الزيادة. والجزاء مرفوع بإضمار، كقوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ﴾[(4)] أي فعليه ذلك، ويجوز أن يكون مرفوعاً

(1) سورة القيامة (75)، الآية: 22 ـ 23.
(2) تفسير الطبري: 15/ 69 ـ 70.
(3) ذكر القرطبي في تفسيره: 8/ 231 قراءة الحسن.
(4) سورة البقرة (2)، الآية: 194.

بالابتداء وخبره بمثلها، أي مثلها، والباء فيه زائدة.

قوله تعالى: ﴿وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ أي تعلوهم كآبة وكسوف وهوان لأن العقاب لا يكون عقاباً بمجرد الإثم، وإنما يكون عقاباً بما يقارنه من إرادة الإذلال والإهانة.

قوله تعالى: ﴿مَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ أي ما لهم من حافظ يدفع عنهم عقاب الله.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَاصِمٍ﴾ «من» ههنا صلة.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًاۚ﴾ أي كأنما ألبست وجوههم قطعاً من الليل. أكثر القراء على فتح الطاء، وهو جمع قطعة. ويكون ﴿مُظْلِمًاۚ﴾ على هذه القراءة نصب على الحال أو القطع دون النعت، لأنه أراد قطعاً من الليل المظلم. فلما حذف الألف واللام نصب على القطع، ويجوز أن يكون حالاً، أي قطعاً من الليل في حال الظلمة. وقرأ ابن كثير والكسائي ويعقوب: قطعاً ـ ساكنة الطاء[1]، بعضاً، كقوله تعالى: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾[2] ويكون ﴿مُظْلِمًاۚ﴾ نعتاً للقطع.

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ ظاهر المعنى. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في أهل الشرك.

وقوله تعالى: ﴿جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا﴾ أي قصاص الشرك بالله النار. ليس في النار زيادة على جزاء المثل، إذ لا ذنب أعظم من الشرك، ولا عذاب أشد من النار، كما قال تعالى: ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾[3]، وقال ﷺ: «**أوقد على النار ألف سنة حتى احمرت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت، ثم أوقد عليها ألف سنة حتى اسودت، فهي سوداء كالليل المظلم إلى يوم القيامة، وإن لونها لأشد سواداً**

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 267.
(2) سورة هود (11)، الآية: 81 ـ سورة الحجر (15)، الآية: 65.
(3) سورة النبأ (78)، الآية: 26.

من القر في عينين خضراوين، وأهلها سود، وكذلك طعامها وشرابها. والذي نفس محمد بيده لو اطلع رجل من أهلها على الأرض لاسودت له الأرض من شدة سواده»[1].

قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿28﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿29﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿30﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ أي يوم نجمعهم جميعاً من قبورهم إلى الحشر للفصل بينهم. والحشر في اللغة: جمع الحيوان من كل مكان.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ أي نقول للذين أشركوا في عبادتهم مع الله غيره، وأشركوا في أموالهم كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ أي يقال لهم قفوا أنتم وآلهتكم، وهذه كلمة تهديد كما يقال للغير: مكانك، أي الزم مكانك حتى ننظر ماذا يحل بك بسوء صنعك وحتى يفصل بينك وبين خصمك.

قوله تعالى: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ أي ففرقنا بين الكفار وبين آلهتهم في القول بالاختلاف الذي يكون بينهم. وليس هذا من الإزالة، ولكنه من قولك: أزلت الشيء عن مكانه أزلته تزييلاً. والتزييل: الكثرة من هذا الباب. والمزايلة: هي المفارقة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ معناه: إن الله تعالى يسأل

---

(1) رواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1445، رقم: 4320 ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 1/ 489، رقم: 799.

(2) سورة الأنعام (6)، الآية: 136.

الأصنام التي عبدوها: هل أمرتم هؤلاء بعبادتكم؟ فيقولون للذين كانوا يعبدونها رداً عليهم: ما كنتم إيانا تعبدون بأمرنا، ولم نعلم بعبادتكم، ولم تكن فينا روح فنعقل بعبادتكم. فيقول الكفار: بلى قد عبدناكم وأمرتمونا فأطعناكم. فتقول الأصنام كما قال الله تعالى: ﴿فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي كفى بالله فاصلاً للحكم بيننا وبينكم ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَـٰفِلِينَ﴾ لا نعلم شيئاً من ذلك. والفائدة في إظهار الأصنام أن يظهر الله للمشركين ضعف عبادتهم معبودهم فيزيدهم بذلك حسرة على شدتهم.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ﴾ من قرأ: تبلو ـ بالباء، فالمعنى: تخبر كل نفس بجزاء ما قدمت من خير أو شر، ومن قرأ: تتلو ـ بتاءين، فالمعنى: تقرأ كل نفس كتاب عملها[1].

ويجوز أن يكون معناه: تتبع كل نفس جزاء عملها. وهنالك: من الظروف، أصله: هناك، واللام زائدة، والكاف للمخاطبة، وكسرت اللام لسكونها وسكون الألف.

قوله تعالى: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ أي ردوا إلى جزاء الله تعالى. وإلى الموضع الذي لا يملك الحكم فيه أحد إلا الله. والحق: هو الذي يكون معنى اللفظ حاصلاً فيه على الحقيقة. والله تعالى حق، لأن معنى الإلهية حاصل له على الحقيقة لاقتداره على جميع الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ أي وبطل عنهم ما كانوا يختلفون من الكذب بالأصنام أنها آلهة، وأنها تشفع عند الله تعالى.

قوله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (31) فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَـٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ (32)﴾

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 267.

قوله عز وجل: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي قل لكفار مكة من يرزقكم من السماء المطر، ومن الأرض النبات والثمار أم من يقدر على أن يخلق لكم السمع والبصر. ﴿وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ أي من يخرج الحي من النطفة، ومن يخرج الميت من الحي، أي من يخرج النطفة من الحي، والفرخ من البيضة، والبيضة من الفرخ، والسنبلة من الحبة، والحبة من السنبلة، ومن يدبر أمر العباد على وجه الحكمة، فيعترفون بأن الله تعالى هو الذي يفعل هذه الأشياء، وأن الأصنام لا تقدر على فعل شيء من هذه، فقل لهم يا محمد: أفلا تخافون من عذاب الله ولم تعبدون الأصنام؟

قوله تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ﴾ أي أن الذي يرزقكم من السماء والأرض، ويخرج الحي من الميت، والميت من الحي، ويدبر الأمر، وهو ربكم الحق دون الأصنام الباطلة.

قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ أي فما يردكم عن عبادة الله وهو الحق إلى عبادتكم الأصنام الباطلة إلا الضلال، فمن أين تصرفون عن الإيمان بالله، وإخلاص الطاعة له بعد المعرفة؟

قوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (33) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ (34) قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (35) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ (36)﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓا۟ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي كما وجبت كلمة العذاب فيهم وجبت على كل من تمرد بالكفر. وقوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ تجري مجرى التعليل، كأنه قال بإصرارهم على الكفر، لأنه كلما كان تمردهم أكثر كانوا في الكفر أشد ضلالة، وإلا فقد أمن كثير من

الكفار. قال ابن عباس: وجبت كلمة العذاب عليهم وهم في صلب آدم عليه السلام[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ أي قل لهم يا محمد: هل من شركائكم الذين أشركتم مع الله تعالى في العبادة من ينشىء الخلق من النطفة بعد أن لم يكن. ويجعل فيه الروح. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ فيه اختصار، لأن الإعادة: رد الشيء إلى الحالة الأولى، ولا يكون ذلك إلا بعد الإفناء. فيكون تقدير الآية: من يبدأ الخلق من النطفة ثم يفنيه ثم يعيده في الآخرة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ أي من أين تصرفون عن الإيمان بالله وإخلاص الطاعة له؟

قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ أي قل هل من آلهتكم من يهدي الناس إلى الرشد وما فيه صلاح لهم؟ قل الله يهدي إلى الرشاد وما فيه صلاح الإنسان. يقال: هديت إلى الحق، وهديت للحق بمعنى واحد.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ أفمن يدعو إلى عمل الحق أحق أن يطاع ويعمل بأمره، أمن لا يهتدي طريقاً إلا أن يحمل فيذهب به حيث يراد يعني الأصنام. كأنه قال: إن التي تعبدونها من دون الله لا تهتدي بأنفسها إلا أن يهديها غيرها. واختلفت القراءة في قوله: ﴿أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ﴾ وأجودها قراءتان: يهدي ـ بفتح الهاء، ويهدي ـ بكسر الهاء، والأصل في ذلك: يهتدي: أدغمت التاء في الدال وطرح فتحها على الهاء، وكسرت الهاء لالتقاء الساكنين[2].

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ معناه: أي شيء لكم في عبادة الأوثان، فكيف تقضون لأنفسكم فتعبدون من لا يستحق العبادة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا﴾ أي ما يعبد أكثرهم الأصنام إلا

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 85.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 268 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 253.

تقليداً لآبائهم وقبائلهم بظن يظنونه في غير يقين، يعني أن رؤساءهم قالت لهم: إن الأصنام تشفع لهم عند الله، وأما السفلة فلا يعلمون إلا ما قالت رؤساؤهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي إن الظن في موضع يكون الوقوف فيه على العلم لا يغني عن الحق شيئاً، وعبادة الأصنام بالظن لا تغني من عذاب الله شيئاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ وعيد لهم على كفرهم.

قوله تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ (37) أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (38)﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ هذا جواب عن دعواهم على النبي ﷺ: الافتراء على الله، وعن قولهم: ائت بقرآن غير هذا أو بدله، معناه: إن القرآن كلام الله في أعلى طبقات البلاغة بحسن النظام، فليس هو مما يقدر أحد أن يفتريه على الله، ولكن تصديق الكتب المنزلة من التوراة والإنجيل، والزبور بمجيئه شاهداً لها بالصدق، وبكونه مصداقاً لما تضمنته تلك الكتب من البشارة. ويجوز أن يكون بمعنى المصدق لما بين يديه، أي التصديق لما بين يدي القرآن من البعث، والنشور، والحساب.

قوله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ معناه: ويبين المعاني المجملة من الحلال والحرام والأمر والنهي، لا شك فيه أنه حق من رب العالمين.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ معناه: بل يقولون إن محمداً اختلق هذا القرآن من تلقاء نفسه قل يا محمد: إذا كان هو اختلقه فأتوا بسورة مثل القرآن. وإنما قال ذلك لأن النبي ﷺ نشأ بين أظهرهم وتعلم اللغة منهم، فإذا لم يأتوا بمثله مع حرصهم على تكذيبه وإبطال أمره دل أن مثله غير مقدور للبشر. ومعنى الآية: فلو قدر هو على افتراء القرآن لقدرتم أنتم على الإتيان بسورة مثله.

قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي استعينوا على الإتيان بسورة مثل القرآن بكل من قدرتم عليه ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أن محمداً ﷺ مختلقه من تلقاء نفسه. فإن العادة لم تجر بأن يستبد الإنسان بالافتراء على كلام لا يقدر أحد أن يأتي بمثله. فلما قرأ عليهم النبي ﷺ هذه الآية سكتوا فلم يجيبوا، فأنزل الله تعالى[1].

قوله تعالى:

﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿39﴾ وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿40﴾﴾

قوله تعالى: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾ أي بل كذبوا بما لم يدركوا من كيفية ترتيبه ونظمه وما فيه من الجنة، والنار، والبعث، والقيامة، والثواب، والعقاب ﴿وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ﴾ أي ولم يأتهم بعد حقيقة ما وعدوا في الكتاب مما يؤول إليه أمرهم من العقوبة والعذاب على التكذيب.

قال أبو بكر الحداد:

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أنبياءهم في البعث ﴿فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني كان عاقبتهم العذاب والهلاك بتكذيبهم، كذلك تكون عاقبة هؤلاء.

قوله تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يُؤۡمِنُ بِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن لَّا يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ قال ابن عباس يعني: ومن اليهود من يؤمن بالقرآن في المستقبل، ومنهم من يصر على كفره فلا يؤمن به، وربك أعلم باليهود من يؤمن ومن لا يؤمن. وقال مقاتل: نزلت في أهل مكة. وقيل: في الآية إشارة إلى أنه لولا أن الله تعالى علم أن منهم من سيؤمن في المستقبل لأهلكهم جميعاً في الحال[2].

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 93 ـ المحرر الوجيز: 9/ 46.

(2) تراجع هذه الأقوال في تفسير القرطبي: 8/ 345.

قوله تعالى:

﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿41﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَعْقِلُونَ ﴿42﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا يُبْصِرُونَ ﴿43﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿44﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ﴾ أي إن كذبك قومك أتيتهم به فقل لي جزاء عملي ولكم جزاء عملكم أنتم بريئون من جزاء عملي وأنا بريء من جزاء عملكم. وكان هذا القول من النبي ﷺ على جهة حسن العشرة معهم لا لأنه كان شاكاً في جزاء عمله. وقال مقاتل والكلبي: هذه الآية منسوخة بآية الجهاد[1].

قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ قال ابن عباس: نزلت في يهود المدينة كانوا يبلغون مكة فيأتون رسول الله ﷺ فيسألونه ويستمعون قراءته، فيعجبهم ذلك ويشتهونه، ثم يغلب عليهم الشقاء فلا يؤمنون به. والمعنى: ومنهم من يستمع إليك. وهو في الظاهر كأنه متفكر فيما تقول وهو غير متفكر فيه، ومنهم من ينظر إليك نظر من هو في الظاهر مستمع إلى كلامك وطالب الانتفاع به، وليس هو في الحقيقة كذلك. قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ﴾ أي كما لا تقدر أن تسمع كلامك الصم فكذلك لا تقدر على أن ينتفع من يستمع إلى كلامك وهو غير طالب الانتفاع به، وكما أنك لا تقدر على أن يبصر الأعمى فكذلك لا يقدر على أن ينتفع بما يأتي من الأدلة من ينظر إليها ولا يطلب الانتفاع بها. وفي الآية ما يدل على تفضيل السمع على البصر لأنه تعالى ذكر مع الصمم فقدان العقل ولم يذكر مع العمى إلا فقدان البصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقص من حسناتهم ولا يزيد في سيئاتهم ولا يمنعهم عن الانتفاع بكلامه وأدلته ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 346 ـ تفسير الطبري: 15/ 95.

﴿يَظْلِمُونَ﴾ بأن لا يطلبوا الانتفاع به ويعرضوا عن التفكير فيه.

قال أبو بكر الحداد:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أن تقدير الشقاوة عليهم لم يكن ظلماً منه لهم، لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء، وهم إذا كسبوا المعاصي فقد ظلموا أنفسهم، لأن الفعل منسوب إليهم وإن كان القضاء من الله عز وجل.

قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ (45) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (46) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (47)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ أي ويوم نجمعهم في الموقف كأن لم يلبثوا في الدنيا إلا قدر ساعة من النهار. وفي هذا بيان أن المكث في الدنيا وإن طال كان في جنب الآخرة بمنزلة مكث ساعة من النهار. وقوله تعالى: ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ أي يعرف بعضهم بعضاً، ويكون في معرفة بعضهم لبعض حسرة على من ضل بقيام الحجة عليهم. قال ابن عباس: وذلك حين يخرجون من قبورهم ثم تنقطع المعرفة. وقيل معناه: كأن لم يلبثوا في قبورهم إلا قدر ساعة من نهار[1]. وقال الضحاك: قصر عندهم مقدار الوقت الذي بين موتهم وبعثهم فصار كالساعة من النهار لهول ما استقبلوا من أمر البعث والقيامة[2]. ﴿يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْۚ﴾ بتوبيخ بعضهم بعضاً، يقول كل فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا، وأنت أورثتني دخول النار بما علمتني وزينته لي.

قوله تعالى: ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ﴾ أي غبن الذين كذبوا بالبعث بعد الموت بذهاب الدنيا والآخرة عنهم ﴿وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ للحق.

(1) تفسير القرطبي: 8/ 347.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 159.

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآية وعد من الله تعالى لنبيه ﷺ أن ينتقم له منهم إما في حياته أو بعد مماته. قال المفسرون: كانت وقعة بدر مما أراه في حالة حياته مما أوعد المشركين من العذاب، أو نتوفينك قبل أن نريك، فإلينا مرجعهم بعد الموت فنجزيهم بأعمالهم[1]. قال الزجاج: أعلم الله أنه إن لم ينتقم منهم في العاجل انتقم منهم في الآجل. وقوله تعالى: ﴿فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ أي لا يفوتوننا ولا يعجزوننا. وعن ابن عباس قال: نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يوم بدر فقال: إن ربي أمرني أن لا أفارقك اليوم حتى ترضى، فهل رضيت؟ قال: «**نعم أراني بعض ما أوعدهم فله الحمد على ذلك**».

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ﴾ من محاربتك وتكذيبك.

قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ﴾ أي لكل أمة من الأمم رسول يدعوهم إلى ما أمرهم الله به ونهاهم عنه، ويبشرهم بالجنة ويخوفهم بالنار، ﴿فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ﴾ يوم القيامة شاهداً عليهم بأعمالهم ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل، فيوفى كل إنسان جزاء عمله لا ينقص من ثواب محسن ولا يزيد على عقاب مسيء، كما روي في الخبر أن الله تعالى يقول لأمم المكذبة يوم القيامة: ألم يأتكم رسلي بكتابي فيه حلالي وحرامي؟ فيقولون: يا رب ما أتانا لك رسول ولا كتاب. ثم يؤتى بالرسول الذي أرسل إليهم فيقول: بلى يا رب أنا رسولك قد أبلغتهم رسالتك. فيقول: من يشهد لك؟ فتقول الملائكة: نحن نشهد أنه قد أبلغهم رسالتك وكتابك. فيقولون: يا ربنا هؤلاء خلقك يشهدون لك بما شئت. فيختم الله على ألسنتهم ويأذن لجوارحهم في الكلام، فيشهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿48﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى

---

(1) تفسير القرطبي: 8/ 347.

﴿ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (49) قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (50) أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ (51) ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ (52)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ (48)﴾ أي يقول الكفار: وقت لنا وقتاً لمجيء هذا الوعد الذي وعدتنا به من العذاب إن كنت من الصادقين أن العذاب ينزل بنا. ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ أي قل يا محمد لا أقدر لنفسي على دفع ضر وجر نفع إلا ما شاء الله أن يقدرني عليه، فكيف أقدر لكم؟ ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ أي وقت مضروب ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ قدر ساعة بعد الأجل ولا يتقدمون.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ (50)﴾ أي قل لهم: أخبروني إن أتاكم عذاب الله ليلاً أو نهاراً ما الذي يستعجل من العذاب المشركون؟ أي كيف يصنعون إذا نزل بهم العذاب.

قوله تعالى: ﴿أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ﴾ الألف في أول هذه الآية ألف استفهام ذكرت على جهة الإنكار. والمعنى: إذا نزل عليكم العذاب آمنتم به قالوا نعم. قل لهم يا محمد: الآن تؤمنون وقد كنتم به تستعجلون، وكيف يقبل منكم إيمانكم وهو إيمان الإلجاء. ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ﴾ وهو العذاب الدائم الذي لا ينقطع ﴿هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ في الدنيا.

قوله تعالى:

﴿۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ (53) وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (54) أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (55) هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (56)﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ﴾ معناه: ويتسخبرونك يا محمد أحق ما تعدنا من العذاب والبعث بعد الموت؟ قل نعم، وأحلف عليه إنه صدق وكائن

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ الله من إحلال العذاب بكم. ويحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿أَحَقٌّ هُوَ﴾ دين الإسلام. قال الزجاج: معنى قوله: ﴿إِي وَرَبِّيٓ﴾ نعم وربي إنه لحق، أي إن العذاب يلزمكم نازل بكم[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِكُلِّ نَفۡسٖ ظَلَمَتۡ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لَٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ أي لو أن كل إنسان ظالم كان له ما في الأرض جميعاً لافتدى به من عذاب الله ثم لا ينفعه ذلك ولا يقبل منه. قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ﴾ أي أسر القادة الندامة عن الإتباع حين رأوا العذاب. والمعنى: أخفى الرؤساء في الكفر الندامة عن الذين أضلوهم وستروها عنهم. هذا قول عامة المفسرين[2]. وقال أبو عبيدة: الإسرار من الأضداد، يقال: أسررت الشيء إذا أخفيته، وأسررته إذا أعلنته. قال: ومن الإعلان قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۖ﴾ أي أظهروها[3]. وقيل معناه: وأخلصوا الندامة. والإسرار: الأخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ أي قضي بين الخلائق كلهم بالعدل ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ أي بأن يزاد على عذاب مسيء على قدر المستحق.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ لا يقدر أحد على منعه من إحلال العقاب بمملوكه. ﴿أَلَآ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ﴾ بإحلال العقاب بالمجرمين ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾.

قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ (57) قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ (58) قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡۖ أَمۡ عَلَى ٱللَّهِ تَفۡتَرُونَ (59) وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَشۡكُرُونَ (60)﴾

---

(1) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه: 3/ 25.

(2) تفسير الطبري: 15/ 103 ـ البغوي: معالم التنزيل: 2/ 163.

(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 1/ 277.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ يعني قريشاً. والموعظة: القرآن. والموعظة: التي تدعو إلى الصلاح ﴿وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ أي دواء لذوي الجهل. والقرآن مزيل للجهل وكاشف لعماء القلوب وهدى وبيان من الضلالة ﴿وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي ونعمة من الله لأصحاب النبي ﷺ. ومعنى الموعظة: الإنابة بما تدعو إلى الصلاح بطريق الرغبة والرهبة. ومعنى الشفاء: ما يجده من يستدل بإعجاز القرآن من الروح بزوال الشك والتشبيه، وهو شرح الصدر الذي ذكره الله بقوله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾[1]. ومعنى الهدى: بيان الشرائع من الحلال والحرام والفرض والندب والإباحة. وأما الرحمة فهي: الإنعام على المحتاج بدليل أن ملكاً لو أهدى إلى ملك لم يكن ذلك منه رحمة عليه. وأما تخصيص المؤمنين بالرحمة فلأنهم هم الذين ينتفعون بنعم الله.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾ قال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة: فضل الله الإسلام، ورحمته القرآن[2]. وهذا قول عامة المفسرين. وعن أبي سعيد الخدري قال في معنى هذه الآية: فضل الله ورحمته أن جعلكم من أهله[3]. والمعنى: قل يا محمد لأصحابك: بالقرآن الذي أكرمكم الله به وبالإسلام الذي وفقكم له فافرحوا. هو خير مما يجمع اليهود والمشركون من الأموال. وقرأ بعضهم: فلتفرحوا وتجمعون ـ كلاهما بالتاء على المخاطبة[4]. وعن محمد بن كعب القرظي قال: إذا عملت عملاً رجاء ثواب الله تعالى فبذلك فافرح فإنه خير لك مما تجمع من الدنيا.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزۡقٖ فَجَعَلۡتُم مِّنۡهُ حَرَامٗا وَحَلَٰلٗا﴾ أي قل يا محمد لأهل مكة: أرأيتم ما أنزل الله في الكتاب من رزق جعله لكم حلالاً طيباً من الأنعام والحرث فجعلتم منه حراماً وحلالاً، أي جعلتم

---

(1) سورة الزمر (39)، الآية: 22.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 353.
(3) تفسير الطبري: 15/ 106.
(4) الأصبهاني، المبسوط في القراءات العشر: 234.

البحائر والسوائب حلالاً للرجال ومنفعتها، وحراماً على النساء، وجعلتم لآلهتكم من الحرث نصيباً فحرمتموه على النساء، وأحللتموه للرجال، والله سبحانه لم يحرم شيئاً من ذلك. قل لهم يا محمد: الله أمركم بتحريمه أم على الله تختلقون الكذب؟ يعني بينوا الحجة في ذلك وإلا فأنتم تفترون على ربكم. ثم أوعدهم على الكذب فقال تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ أي ما ظن الذين يكذبون على الله في التحليل والتحريم ماذا يفعل بهم يوم القيامة؟ أيظنون أن الله لا يعاقبهم على افترائهم عليه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ أي لذو منّ عظيم بتأخير العذاب عنهم ولكن أكثرهم لا يشكرون نعم الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿61﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ﴾ أي وما تكون في أمر من الأمور؟ وقال الحسن: في شأن من شؤون الدنيا وحوائجك فيها ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾ أي من الله، أي نازل منه من قرآن يوحى إليك من سورة أو آية تقرأه على أمتك. والخطاب للنبي ﷺ وأمته داخلون فيه، لأن خطاب الرئيس خطاب له ولأتباعه[1]، يدل على ذلك قوله: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾ أي ما تعملون جميعاً يا بني آدم عامة ويا أمة محمد من خير أو شر إلا كنا على أمركم وتلاوتكم وعملكم شهوداً إذ تدخلون فيه. قال الفراء معناه: يقول الله تعالى شاهد على كل شيء والمعنى: ألا يعلمه فيجازيكم به. والإفاضة: الدخول في العمل[2]. وقال ابن الأنباري: إذ يندفعون فيه. وقال ابن عباس: إذ يأخذون فيه[3].

(1) تفسير القرطبي: 8/ 356.
(2) الفراء، معاني القرآن: 1/ 469.
(3) تفسير الطبري: 15/ 114 ـ والبغوي، معالم التنزيل: 2/ 166.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ﴾ أي ما يغيب وما يبعد عن ربك من وزن نميلة حميراء صغيرة من أعمال العباد، ولا أخف في الوزن من الذرة ولا أثقل منه إلا وهو مع علم الله تعالى مكتوب في اللوح المحفوظ. والعزوب: البعد والذهاب، ويعزب ـ بضم الزاي وكسرها لغتان[1]. وقوله تعالى: ﴿مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي وزن ذرة، ومثقال الشيء ما وازنه. قال الفراء: من نصب قوله: أصغر وأكبر إنما أراد الخفض بتبعيتهما المثقال والذرة، إلا أنهما لا ينصرفان لأنهما على وزن أفعل، ومن رفعهما فعلى إتباع معنى المثقال، لأنك لو ألقيت من المثقال «من» كان رفعاً[2]، وهو كقولك: ما أتاني من أحد عاقل وعاقل وكذلك: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[3] وغيره، وقيل: رفع على الابتداء، وخبره: إلا في كتاب. فمن قرأ: ولا أصغر ولا أكبر ـ بالنصب[4]، فالمعنى: وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر، ومن رفع فالمعنى: وما يعزب عن ربك مثقال ذرة ولا أصغر ولا أكبر.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿63﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿64﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿65﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿66﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿67﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿62﴾﴾ معناه: ألا إن الذين تولاهم الله بحفظهم وحياطته لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون على ما خلفوا في الدنيا.

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 270.
(2) الفراء في المصدر السابق: 1/ 471.
(3) سورة الأعراف (7)، الآية: 59.
(4) ابن خالويه في المصدر السابق.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿63﴾﴾ تفسير أولياء الله، أي هم الذين يؤمنون بمحمد ﷺ والقرآن، ويتقون الشرك والفواحش، وعن رسول الله ﷺ أنه سئل عن أولياء الله فقال: «**هم المتحابون في الله**»(1). وعنه ﷺ أنه قال: «**هم الذين إذا رأوا ذكر الله تعالى**»(2)، يعني إذا رأتهم العامة ذكروا الله من أجل سيماهم في وجوههم. وسئل عيسى عليه السلام عنهم فقال: هم الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نظر الناس إلى ظاهرها، ونظروا إلى آجالها حين نظر الناس إلى عاجلها، فأحبوا ذكر الموت وأماتوا ذكر الحياة، يحبون الله ويحبون ذكره.

قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ معناه: لهم البشرى في الحياة الدنيا بالقرآن، وفي الآخرة بالجنة. ويقال: أراد بالبشرى في الدنيا بشارة الملائكة للمؤمنين وقت نزولهم لقبض أرواحهم. كما قال تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ﴾(3) الآية.. وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لم يبق من النبوة بعدي إلا المبشرات**». قيل: وما المبشرات؟ قال عليه السلام: «**الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح بنفسه أو ترى له**(4). **وهي جزء من ستة واربعين جزءا من النبوة**(5). **فمن رأى ذلك فيخبر بها**».

قوله تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي لا خلف في وعد الله.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ أي ذلكم الذي وعدكم الله هو الثواب الوافر والنجاة الوافرة.

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره بسنده: 15/ 120 ـ 121، رقم: 17713 ـ رواه البيهقي في شعب الإيمان: 6/ 485، رقم: 8997.

(2) ذكره الطبري في المصدر السابق رقم: 17710.

(3) سورة فصلت (41)، الآية: 30.

(4) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح فتح الباري: 14/ 401، رقم: 6990، كتاب التعبير ـ ورواه ابن ماجه في سننه: 2/ 1283، رقم 3899.

(5) رواه البيهقي في شعب الإيمان: 4/ 186، رقم: 4754 ـ وابن ماجه في سننه: 2/ 1282، رقم: 3898.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ﴾ أي لا يحزنك يا محمد تكذيبهم إياك وتهديدهم لك بالقتل، ومنه تسليته للنبي ﷺ على كفرهم وتكذيبهم ونسبتهم إلى الافتراء على ربه.

قال أبو بكر الحداد:

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ استئناف كلام، ولذلك كسرت «إن». والمعنى: فإن القوة لله جميعاً يمنعهم عنك بعزته ولا يتعزز أحد إلا بإذنه، وهو ناصرك وناصر دينك، وهو السميع لما قاله الكفار العليم بضمائرهم. ولا يجوز أن يقرأ: أن العزة ـ بفتح أن لاستحالة أن النبي ﷺ كان يحزنه قول الكفار له بأن العزة لله جميعا.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي له من فيها من الخلق كلهم عبيده وفي ملكه وتحت قهره وقدرته. وإنما ذكره بلفظ «من» لتغليب من يعقل على من لا يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ﴾ أي ما يتبعون شركا على الحقيقة والمعرفة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ما يعبدونهم إلا بالظن بتقليد آبائهم وقول بعضهم ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[1] ويظنون أنها تشفع لهم يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ أي ما هم إلا يكذبون في قولهم أنها تشفع لهم عند الله.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ أي هو الذي جعل لكم الليل لتناموا فيه وتستريحوا عما لحقكم من النصب بالنهار، وخلق النهار مبصراً للذهاب والمجيء وطلب المعيشة. وسماه مبصراً لأنه يبصر فيه كما قال رؤبة:

قد نام ليلي وتجلى همي

(1) سورة الزمر (39)، الآية: 3.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي فيما ذكرت لدلالات لقوم يسمعون دلائل الله ويتفكرون فيها.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (68) قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69) مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (70)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ أي قال الكفار اتخذ الله ولداً، فإن المشركين قالوا: الملائكة بنات الله، واليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى﴾ أي تنزيهاً له عن الولد والشريك وهو غني عن اتخاذ الولد.

قوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: أن من كان له ملك السموات والأرض وما بينهما فما حاجته إلى اتخاذ الولد، وإنما يتخذ الولد ذو الضعف ليتقوى به ويستعين به على بعض أموره، وذو الوحشة ليستأنس به، ومن يخاف الموت على نفسه فيتخذ الولد ليخلفه في أملاكه بعد موته، والله تعالى لا يجوز عليه السرور ولا المنافع ولا المضار، ولا يلحقه الموت، فهو الغني عن اتخاذ الولد. ثم طالب الكفار بالحجة والبرهان، فقال الله عز وجل: ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ما عندكم من حجة وبرهان على هذا القول. ثم أنكر عليهم ذلك تبكيتاً لهم فقال تعالى: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا على جهة الإنكار والرد عليهم، أي لم تقولون على الله ما لا علم لكم له به ولا حجة لكم عليه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (69)﴾ أي قل يا محمد: إن الذين تقطعون كذباً تكذبون به على الله لا يفلحون في الدنيا بالحجة ولا في الآخرة بالثواب ولا تستعدون وان اغتروا بطول السلامة.

قوله تعالى: ﴿مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا﴾ رفع على معنى ذلك متاع في الدنيا يتمتعون

به قليلاً ثم ينقضي. وقيل معناه: لهم متاع في الدنيا يتمتعون به أياماً يسيرة ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الآخرة ﴿ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ﴾ الغليظ الذي لا ينقطع بكفرهم بالله ورسله.

قوله تعالى:

﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿71﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿72﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿73﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ أي واقرأ عليهم خبر نوح إذ قال لقومه يا قوم إن كان كبر عليكم، أي ثقل عليكم وعظم طول مقامي ومكثي فيكم وعظتي لكم بدلائل الله ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أي به وثقت وإليه فوضت أمري، وذلك حين قالوا له: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ أي اعزموا على أمركم مع شركائكم. وقيل معناه: فاعزموا على أمركم وادعوا آلهتكم واستعينوا بهم، واجمعوا على أمر واحد. ومن قرأ: فاجمعوا ـ بفتح الميم فهو من الجمع[2].

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾ أي ليكن أمركم عليكم ظاهراً منكشفاً لا يستره شيء. والغمة مأخوذة من الغمامة. ويقال: الغمة الغم، أي لا يكن أمركم غماً عليكم وفرجوا عن أنفسكم ثم امضوا إلى ما تقصدون من القتل ولا تهملون. قال الزجاج: الواو في قوله: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾ بمعنى مع[3] والمعنى: فاجمعوا أمركم مع شركائكم ثم لا يكن أمركم عليكم مبهماً، يعني ليكن أمركم ظاهراً منكشفاً لا تشترون معاداتي ثم امضوا مكروهكم وما توعدونني به. ومعنى

---

(1) سورة الشعراء (26)، الآية: 116.

(2) تفسير القرطبي: 8/ 362 ـ النحاس، إعراب القرآن: 2/ 261.

(3) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 28.

قضاء الشيء إمضاؤه والفراغ منه. وهذا كان أحد معجزات نوح عليه السلام لأنه كان وحيداً وقد قرعهم بالعجز عن الوصول إليه وإلى مثله فلم يقدروا عليه بسوء.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ﴾ معناه: فإن أعرضتم عن الإيمان بما جئتكم به لم يضرني إعراضكم، فإني لا أطلب منكم أجراً ولا أدعوكم إلى الإيمان لطمع مني في مالكم، ما ثوابي فيما أدعوكم إليه إلا على الله، وقد أمرني الله أن أكون مع المسلمين على دينهم.

قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ﴾ أي فنجيناه ومن معه من المؤمنين من الغرق في السفينة ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ﴾ أي جعل الله الذين نجوا مع نوح عليه السلام من الغرق خلفاً وسكاناً في الأرض من قوم أهلكوا بالتكذيب كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾[1]، وذلك أن الناس كانوا من ذريته بعد الغرق، وهلك أهل الأرض جميعاً بتكذيبهم نوح.

قوله تعالى: ﴿وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ أي بدلائلنا وحجتنا، فانظر يا محمد كيف صار جزاء الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنوا. وهذا تحذير لقوم النبي ﷺ عن تكذيبه حتى لا ينزل بهم مثل ما نزل بقوم نوح، وتسلية للنبي ﷺ ليصبر على أذاهم كما صبر نوح عليه السلام على أذى الكفار مع قلة من معه من المؤمنين.

قوله تعالى:

﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ أي ثم بعثنا من بعد نوح

(1) سورة الصافات (37)، الآية: 77.

رسلاً مثل هود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وغيرهم عليهم السلام إلى قومهم فجاءوهم بالحجج والبراهين فما كانوا ليصدقوا بما كذبوا به في الابتداء: والمعنى فما كان الذي بعث إليهم الرسل ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل، يعني قوم نوح، أي لم يصدقوا بما كذب به قوم نوح وكانوا مثلهم في الكفر والعتو.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ قال ابن عباس: يريد أن الله طبع على قلوبهم فأعماها فلا يبصرون سبيل الهدى. وما بعد هذا من الآيات ظاهر التفسير.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (76) قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ (77) قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ
ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ (78) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى
بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ (79) فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (80) فَلَمَّآ
أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ
(81) وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ (82)﴾.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ أي قالوا يا موسى أجئتنا لتصرفنا عما وجدنا عليه آباءنا. واللفت: هو الصرف.

قوله تعالى: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي ويكون لك ولهارون السلطان والملك والشرف في أرض مصر، وما نحن لك بمصدقين. وإنما سمى الملك كبرياء لأنه أكبر ما يطلب من أمر الدنيا. والكبرياء: استحقاق صفة الكبر في أعلى المراتب. ولهذا لا يجوز أن يوصف به أحد غير الله.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ﴾ أي بكل حاذق بالسحر ﴿فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ (80)﴾ قال هذا لهم على جهة التعجيز لهم، أي إنكم لا تقدرون على إبطال أمري. فيكون هذا أمر تعجيز،

كقوله تعالى: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾[1] ولا يجوز أن يكون هذا أمر بالسحر، إذ العمل بالسحر كفر، والأنبياء عليهم السلام لا يأمرون به.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْا۟ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ﴾ معناه: فلما ألقت السحرة ما جاءوا به قال لهم موسى: الذي جئتم به هو السحر. ووقف بعض القراء على ﴿مَا جِئْتُم بِهِ﴾ ثم قال ﴿ٱلسِّحْرَ﴾ على معنى: أي شيء جئتم به؟ أهو السحر؟ على جهة التوبيخ لهم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ﴾ أي يبطل عمل السحرة حتى يظهر الحق من الباطل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ أي لا يرضى عمل الساحرين.

قوله تعالى: ﴿وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ﴾ أي ينصر دينه الحق بالوعد الذي وعده لموسى، كما قال تعالى: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[2] إلى آخر الآية. ويجوز أن يكون معنى الكلمات ما كتبه الله في اللوح المحفوظ.

قوله تعالى:

﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿83﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿84﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿85﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿86﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ﴾ أي ما صدق لموسى وبما جاء به إلا ذرية من قوم فرعون، وهم قوم كان آباؤهم من القبط وأمهاتهم من بني إسرائيل، فآمنوا بموسى واتبعوا أمهاتهم وأخواتهم، ولم يسلم آباؤهم الذين كان موسى مبعوثاً إليهم[3]. وقال الحسن: أراد بقوله تعالى: إلا ذرية من قوم موسى كان فرعون أجبرهم على

(1) سورة البقرة (2)، الآية: 23.

(2) سورة القصص (28)، الآية: 35.

(3) تفسير القرطبي: 8/ 369.

تعلم السحر وجعلهم من أصحاب نفسه، فلما أسلمت السحرة وآمنوا بموسى اتبعهم هؤلاء الذرية في الإيمان، وكان يقول: لم يؤمن من القبط أحد إلا المؤمن الذي يكتم إيمانه من فرعون وقومه.

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ معناه: على القول الأول: آمنت به الذرية على خوف من فرعون وآبائهم، وعلى القول الثاني. على خوف من فرعون وأشرافهم ورؤسائهم أن يعلم الأشراف أمرهم فيخبروا فرعون فيقتلهم ويعذبهم أو يصرفهم عن دينهم. وقال الزجاج: وإنما قال ﴿مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ﴾ لأن فرعون كان ذا أصحاب يأتمرون له[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي لمستكبر في أرض مصر ﴿وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الكفر والمعاصي. والإسراف: هو التجاوز عن الحد في كل شيء. وعن محمد بن المنكدر[2] قال: عاش فرعون ثلاثمائة واثنتين وعشرين سنة لم ير مكروهاً، ودعاه موسى عليه السلام ثلاثين سنة.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟﴾ أي قال موسى لبني إسرائيل إن كنتم صدقتم بالله كما تقولون فأسندوا أموركم إليه إن كنتم مخلصين مستسلمين لأوامره، وذلك حين قالوا لموسى: ﴿أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾ وقيل إن موسى خاطب بالخطاب المذكور في هذه الآية الذرية التي آمنت به على خوف من فرعون ومَلَئهم.

قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿85﴾﴾ أي قالوا لموسى: أسندنا أمورنا إلى الله ووثقنا به ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لا تظهرهم علينا فيظنون أنهم على الحق فيكون ذلك فتنة لهم ولغيرهم. ويقال معناه: لا تمكنهم أن ينزلوا بنا أمراً لا نطيق الصبر عليه فنصرف به عن الدين.

---

(1) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 30.

(2) أبو عبد الله، محمد بن المنكدر: كان ورعاً عابداً قليل الحديث يكثر الإسناد عن جابر بن عبد الله. توفي بالمدينة سنة ثلاثين ومائة هجرية.
الطبقات الكبرى: 5/ 357 ـ التاريخ الكبير: 1/ 219 ـ الجرح والتعديل: 8/ 98.

قوله تعالى: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿86﴾﴾ أي خلصنا بنعمتك من استعبادهم إيانا. فاستجاب الله دعاءهم كما ذكر من بعد.

قوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿87﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿88﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا﴾ وذلك أن فرعون لما أتاه موسى بالرسالة أمر بمساجد بني إسرائيل فكسرت كلها وخربت، ومنعهم من الصلاة علانية، فأنزل الله هذه الآية، وأمروا أن يتخذوا مساجد في بيوتهم ويصلوا فيها خوفاً من فرعون. والمعنى: وأوحينا إليهما أن اتخذا لقومكما بمصر بيوتاً[1]. يقال بوأه: إذا أعد لغيره بيتاً، وتبوأ: إذا اتخذ لنفسه بيتاً.

قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ أي اجعلوها مصلى فصلوا فيها مستترين من فرعون وقومه. وقيل معناه: واجعلوا بيوتكم مساجد وقال الحسن معناه: واجعلوا بيوتكم نحو القبلة وحيال الكعبة. قال: وكانت الكعبة قبلة موسى ومن معه من المؤمنين[2]. وقيل: إنما لم يذكر الله تعالى الزكاة في هذه الآية لأن فرعون كان قد استعبدهم وأخذ أموالهم، فلم يكن لهم ما تجب الزكاة فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وبشرهم بالثواب في الآخرة وبالنصر في الدنيا آجلاً أو عاجلاً.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي قال موسى ربنا إنك أعطيت فرعون وملأه زينة، أي زهرة من المراكب والحلي والثياب وأموالاً من الدراهم والدنانير والعروض.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 176.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 371.

غير حفص

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَ﴾ أي يا ربنا أعطيتهم الزينة والأموال لتكون عاقبة أمرهم أن يضلوا عن سبيلك فلا يؤمنوا. وهذه اللام لام العاقبة كما في قوله تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[1].

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ معنى الطمس على الأموال: تغيرها عن جهتها إلى جهة لا ينتفع بها. وحقيقة الطمس: ذهاب الشيء عن صورته نحو الاثواء. قال مجاهد وقتادة: فغير الله أموال آل فرعون حتى صارت دراهمهم ودنانيرهم حجارة وأرضاً هامدة منقوشة كهيئتها صحاحاً وأنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً، وكذلك سائر أموالهم حتى السكر والفانية. قال قتادة: بلغنا أن حروثاً لهم صارت حجارة. وقال عطاء: لم يبق لهم معدن إلا طمس الله عليه فلم ينتفع به أحد[2].

قوله تعالى: ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ معناه: واربط على قلوبهم بالصبر حتى لا يتحولوا عن بلادهم إلى بلاد الخصب، فيبقون في هذه العقوبة أبداً. وقيل معناه: امنعهم عن الإيمان بك. والمعنى: اطبع عليها حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ قال الزجاج والفراء: هذا دعاء عليهم[3] لا يؤمنوا أيضاً. والتأويل: فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، يعني الغرق.

قال تعالى:

﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿89﴾ ۞
وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ
قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿90﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ

(1) سورة القصص (28)، الآية: 8.
(2) تفسير القرطبي: 8/ 374 ـ تفسير الطبري: 15/ 180 ـ 181.
(3) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 31 ـ معاني الفراء: 1/ 478.

عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا﴾ أي قال الله لموسى وهارون: قد أجيبت دعوتكما، وذلك أن موسى كان يدعو بالدعاء المذكور في الآية، وكان هارون يؤمن على دعائه، فسماهما الله داعيين.

قال الفقيه أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا﴾ في دعاء الناس إلى الإيمان بالله ﴿وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأن سبيلهم كان الغي والضلال. وخفف ابن عامر: تتبعان[1]: من تبع يتبع، والنون المشددة إنما دخلت مؤكدة للنهي.

قوله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ﴾ يعني بحر القلزم وهو بقرب نيل مصر، جعله الله لهم يبساً حتى جاوزوه، فأتبعهم فرعون وجنوده ليبغوا عليهم ويظلموهم.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ أي حتى إذا ألجم فرعون الغرق آمن إيمان الإلجاء فلم ينفعه ذلك الإيمان، فلما قال: ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ قال جبريل: الآن تؤمن عند الغرق ﴿وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ بالكفر والمعاصي في وقت المهلة. وروي عن ابن عباس أن جبريل قال للنبي ﷺ: لو رأيتني وفرعون يدعو بكلمة الإخلاص وأنا أشده في الماء والطين لشدة غضبي عليه مخافة أن يتوب فيتوب الله عليه[2]. فقال له النبي ﷺ: «**يا جبريل وما شدة غضبك؟**» قال: يا محمد لقوله: أنا ربكم الأعلى، وهي كلمته الآخرة، وإنما قالها حين انتهى إلى البحر، وكلمته الأولى: ما علمت لكم من إله غيري. وكان بين الأولى والأخرى أربعون سنة. وهذه الرواية صحيحة. إلا مخافة أن يتوب فيتوب الله عليه، لأنه لا يخلو

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 272.

(2) رواه الحاكم في المستدرك: 2/ 340، وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه - والبيهقي في شعب الإيمان: 7/ 45، رقم: 9393، باب في مباعدة الكفار والمفسدين.

إما أن يكون التكليف ثابتاً في ذلك الوقت، أو غير ثابت، فإن كان ثابتاً لم يجز على جبريل عليه السلام أن يمنعه من التوبة، ولو منعه عن التكلم باللسان لكانت ندامة فرعون بالقلب كافية في توبته، لأن الأخرس إذا تاب بالندم بقلبه وعزم على ترك المعاودة إلى القبيح كانت توبته صحيحة، وإن لم يكن التكليف ثابتاً في ذلك الوقت لم يكن للمنع عن التوبة معنى بوجه من الوجوه. وإنما لا يقبل الإيمان في وقت الإلجاء لأن الذي يؤمن في تلك الحالة نعلم أنه لو حاول خلاف ما يؤمر به حيل بينه وبينه فلا يكون مثاباً على ذلك الإيمان لمعرفته من طريق الضرورة دون الاجتهاد.

قوله تعالى: ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ أي فاليوم نلقيك على نجوة من الأرض، وهي المكان المرتفع ﴿بِبَدَنِكَ﴾ أي بدرعك. قال ابن عباس: كان فرعون قصيراً طوله ستة أشبار، وكانت لحيته قريباً من قامته، وكانت له درع سلاسلها من ذهب يعرفها جميع بني إسرائيل. فسألت موسى بنو إسرائيل فدعا الله فأخرجه ببدنه حتى رأوه وعرفوه بالدرع فطابت أنفسهم بذلك. ويقال: كان في بني إسرائيل من لا يصدق بهلاك فرعون، وكذلك سأل موسى أن يلقيه الله على نجوة من الأرض ببدنه[1]، أي وحده دون قومه. وقيل: معناه ننجيك من الماء ببدنك دون روحك، فأما روحك فمعذب على كل حال.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي لمن بعدك من الكفار آية في النكال، لئلا يقول أحد مثل مقالتك، ويعرفوا أنك لو كنت إلهاً ما غرقت.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ﴾ يعني لغافلون عن التفكر في دلائلنا.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿93﴾ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 9/ 89.

أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿94﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿95﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ أي ولقد أنزلنا بني إسرائيل في موضع خصب وأمن وهي أرض مصر وما بين الأردن وفلسطين، ويقال هي الأرض المقدسة التي ورثوها من أبيهم إبراهيم عليه السلام. وسماها منزل صدق لأن فضلها على سائر المنازل كفضل الصدق على الكذب. وقيل هم بنو قريظة والنضير أنزلناهم مبوأ صدق بين المدينة والشام[1] من أرض يثرب ﴿وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ أي من النخل وما فيها من الرطب والتمر.

قوله تعالى: ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ﴾ معناه: أنهم لم يزالوا مؤمنين بمحمد ﷺ، يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل، لم يختلفوا في ذلك حتى بعث الله محمداً ﷺ، فآمن به بعضهم وكفر به بعضهم. ومعنى الآية: ما اختلفوا في تصديق النبي ﷺ وأنه نبي حق حتى جاءهم العلم. قال ابن عباس: يريد القرآن الذي جاء به محمد ﷺ[2]. وقال الفراء: العلم: محمد ﷺ، لأنه كان معلوماً عندهم بنعته، وذلك أنه لما جاءهم اختلفوا فيه وفي تصديقه فكفروا به أكثرهم[3].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ يا محمد يقضي بينهم يوم القيامة بتمييز المحق من المبطل، ويجازي كلا منهم بما يستحقه، فيدخل المصدقين بك الجنة، ويدخل المكذبين بك النار.

قوله تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ﴾ قال أكثر أهل العلم: هذا الخطاب لرسول الله ﷺ، والمراد به غيره من الشكاك، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾[4]

(1) تفسير القرطبي: 8/ 381.
(2) تفسير الطبري: 15/ 199.
(3) الفراء، معاني القرآن: 1/ 489.
(4) سورة الأحزاب (33)، الآية الأولى.

الخطاب للنبي ﷺ والمراد به غيره بدليل قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[1] ولم يقل: بما تعمل. وقال الزجاج: إن الله يخاطب النبي ﷺ، وذلك الخطاب شامل للخلق[2]. والمعنى: فإن كنتم في شك فاسألوا. وقال ابن عباس: لم يرد به النبي ﷺ، لأنه لم يشك في الله ولا فيما أوحى إليه، ولكن أراد من آمن به وصدقه أمرهم أن يسألوا لئلا ينافقوا كما شك المنافقون.

قال أبو بكر الحداد:

وعن ابن عباس أنه قال: وذلك أن كفار قريش قالوا: إن هذا القرآن الذي يوحى إلى محمد مما يلقيه الشياطين إليه. فأنزل الله هذه الآية. وأراد بالذين يقرءون الكتاب مؤمني أهل الكتاب[3]: عبد الله بن سلام، وأصحابه فإنهم سيخبرونك به مكتوب عندهم في التوراة، فقال النبي ﷺ: «**لا أسأل أحداً ولا أشك فيه، بل أشهد أنه الحق**». وكان ﷺ أعلم بالله تعالى، وأشد يقيناً من أن يسألهم. وإنما التقدير: فإن كنت في شك أيها السامع مما أنزلنا على نبيك. ومن عادة العرب أنهم يخاطبون الرجل بشيء ولا يريدونه، وإنما يريدون به غيره كما قالوا: إياك أعني فاسمعي يا جارة. وكانت العرب على عهد النبي ﷺ ثلاث مراتب: مؤمن، وكافر، وشاك، فخاطب الله بهذه الآية الشاك، وأمره بسؤال الذين يقرءون الكتاب من قبله عن النبي المبشر به، حتى إن وافقت صفته في الكتب المنزلة قبل القرآن صفة النبي ﷺ، علم الشاك أنه هو المبشر به.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾ أي من الشاكين في الحق. وباقي الآية ظاهر المعنى.

قوله تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿96﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿97﴾ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ

(1) سورة الأحزاب (33)، الآية: 1، 2.
(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 32.
(3) تفسير الطبري: 15/ 201.

ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (98) وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ
مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ (99) وَمَا كَانَ
لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (100)﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: إن الذين أخبر الله عنهم بأنهم لا يؤمنون ﴿وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ (97)﴾ أي الوجيع، فيصيرون ملجئين إلى الإيمان، فلم يقبل منهم الإيمان حينئذ.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ﴾ أي هلا كانت قرية آمنت عند نزول العذاب فنفعها إيمانها وقبل منها ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ﴾ أي لما آمنوا وعلم الله منهم الصدق صرف عنهم عذاب الهول في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين آجالهم المضروبة لهم. وعن ابن عباس أن معنى قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ﴾ أي فما كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس[1]. والمعنى: لم أفعل هذا بأمة قط إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم. فتكون «لولا» معناها النفي. وقال قتادة معناه: لم يكن هذا معروفاً لأمة من الأمم كفرت ثم آمنت عند نزول العذاب فكشف عنهم إلا قوم يونس كشف عنهم العذاب بعدما تدلى عليهم[2].

قال أبو بكر:

قوله تعالى: ﴿وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي إلى حين آجالهم، وذلك أن يونس عليه السلام بعثه الله إلى قومه فدعاهم إلى طاعة الله وترك الكفر فأبوا، فقال: يا رب قد دعوتهم فأبوا. فأوحى الله إليه أن أدعهم فإن أجابوك وإلا فأعلمهم بأن العذاب يأتيهم إلى ثلاثة أيام. فدعاهم فلم يجيبوا، فأخبرهم بالعذاب وخرج من بينهم فقالوا: ما جربنا عليه كذبا مذ كان، فاحتالوا لأنفسكم. فلما كان يوم الثالث رأوا حمرة وسواداً من السماء كهيئة النار والدخان فجعلوا يطلبون يونس

(1) تفسير الطبري: 15/ 207.
(2) المصدر نفسه.

فلم يجدوه. فلما أيسوا من يونس وجعل يهبط السواد والحمرة فقال قائل منهم: فإن لم تجدوا يونس فإنكم تجدون رب يونس فادعوه وتضرعوا إليه. فخرجوا من القرية إلى الصحراء وأخرجوا النساء والصبيان والبهائم وعجوا إلى الله موقنين به وارتفعت الأصوات، وقربت منهم الحمرة والدخان حتى غشي السواد سطوحهم وبلغهم حر النار، فلما علم الله منهم صدق التوبة رفع عنهم العذاب بعدما كان غشيهم[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ أي لو شاء ربك يا محمد لآمن أهل الأرض كلهم. وقيل معناه: لو شاء ربك أن يجبر الناس على الإيمان لآمن من في الأرض كلهم جميعاً كما آمن قوم يونس.

قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ معناه: أفأنت تريد إكراه الناس على الإيمان، إن الله لم يرد إكراههم عليه مع أنه قادر على إكراههم عليه، فلا ينبغي لك أن تريد هذا وأنت غير قادر على إكراههم عليه. وقيل في سبب نزول هذه الآية أن النبي ﷺ كان حريصاً على أن يسلم عمه أبو طالب وقومه، فأعلمه الله تعالى بهذه الآية أن إسلامهم ليس بيده[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ معناه: وما كانت نفس لتؤمن إلا بإذن الله، أي بتوفيقه، ويقال: إلا بأمره وقد أمر الله الكل بالإيمان، وقيل معناه: إلا بتمكين الله.

قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال ابن عباس: السخط[3]، وقال الحسن: العذاب[4] على الذين لا يعقلون، أي الذين لا ينتفعون بعقولهم. وقال الحسن: يحكم عليهم بالكفر ويذمهم عليه.

قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ

(1) تفسير القرطبي: 8/ 384.
(2) تفسير الطبري: 15/ 212.
(3) المصدر نفسه: 15/ 214.
(4) تفسير القرطبي: 8/ 386.

﴿فَهَلۡ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثۡلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِهِمۡۚ قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ
ٱلۡمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا نُنجِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أي قل لهم يا محمد تفكروا فيما في السموات والأرض من الآيات والدلالات نحو مسير الشمس والقمر والنجوم في مجاريها في أوقات معلومة على الدوام، ووقوف السماء والأرض بغير عمد ولا علاق، وخروج النتاج من الأمهات، وانظروا إلى الجبال والشجر وغير ذلك، وكل هذه تقتضي مدبراً لا يشبه الأشياء ولا تشبهه. ثم قال حين لم يتفكروا: ﴿وَمَا تُغۡنِي ٱلۡأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ معناه: ما تنفع الآيات ولا تدفع عمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن، فهل ينتظرون إلا أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم قبلهم من العذاب. يقال: أيام فلان، ويراد به أيام دولته ومحنته.

قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلۡمُنتَظِرِينَ﴾ أي انتظروا حلول العذاب الذي وعدكم به. إني معكم من المنتظرين لذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ﴾ معناه: ثم ننجي رسلنا والمؤمنين من العذاب الذي يحل بالكفار.

وقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيۡنَا﴾ أي كما ننجي الرسل من العذاب الذي يحل بالكفار كان حقاً علينا أن ننجي المؤمنين كلهم من العذاب الذي ينزل بالكفار.

قوله تعالى:

﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ
وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنۡ أَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ
حَنِيفٗا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن
فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي شَكّٖ مِّن دِينِي فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي قل لهم يا أهل مكة إن كنتم في شك من الدين الذي آمنت به

وأنا مستيقن فلا أشك في بطلان دينكم، فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله لشككم في ديني، ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم أي يميتكم ويعيدكم، ولا أعبد الذي لا يقدر على الضر والنفع والإحياء والإماتة ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ أي وأمرت بأن أخلص ديني وعملي لله تعالى. والمراد بإقامة الوجه: الإقبال على ما أمر الله به من أمور الدين، وقيل: أراد بذلك إقامة الوجه في الصلاة. والحنيف: هو المستقيم في الدين، وقيل: هو العادل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾ أي ما لا ينفعك إن دعوته، ولا يضرك إن تركت عبادته، فإن دعوت غير الله إلهاً فإنك من الضارين لنفسك.

قوله تعالى:

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ (107) قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ (108) وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ (109)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ معناه: إن يرد الله بك ضراً فلا يقدر أحد على دفع الضرر إلا هو، وإن يردك بنعمة وأمر تسر به فلا مانع لعطيته.

قوله تعالى: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أي يختص بالفضل من يشاء من عباده على ما توجبه الحكمة على ما يستحقون بأعمالهم، وهو الغفور لذنوب العباد الرحيم لمن مات على التوبة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ أي قل يا محمد

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 218.

للناس كلهم: قد جاءكم الحق من ربكم، أي الكتاب والرسول، فمن اهتدى بالكتاب والرسول فإنما يهتدي لنفسه، أي يرجع نفع هدايته إليه، ومن ضل فإنما يكون وبال ضلالته على نفسه ﴿وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾ أي لست بحفيظ عليكم أدفع عنكم الضر، وأطلب إليكم النفع شئتم أو أبيتم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ﴾ أي اتبع يا محمد ما تؤمر به في القرآن، واصبر على أذاهم حتى يقضي الله بينك وبينهم وهو أعدل القاضين، لأن حكمه لا يكون إلا بالصلاح والسداد. وكان حكمه بأن أمر النبي ﷺ بقتالهم[1].

(1) تفسير الطبري: 15/219.

سُورَةُ هُودٍ

سورة هود عليه السلام كلها مكية إلا في رواية عن ابن عباس أن قوله: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ إلى آخر الآيتين فإنهما نزلتا بالمدينة[1]. ومن قرأ سورة هود أعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بهود وكذب به، ونوح وشعيب، وصالح، وإبراهيم، وكان يوم القيامة عند الله من السعداء[2].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ
إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢ وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ
أَجَلٖ مُّسَمّٗى وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ وَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٖ كَبِيرٍ ۝٣
إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٤﴾

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ ﴿الٓر﴾ قال ابن عباس معناه: أنا الله الرحمن. وقوله: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي هذا كتاب أحكمت آياته، وقيل: كتاب بدل من قوله: ﴿الٓر﴾ لا أنه خبره، كأنه قال: هذه الحروف كتاب. قوله تعالى: ﴿أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي أحكمت بالأمر والنهي، ثم فصلت بالثواب والعقاب[3]. وقال قتادة: أحكمت عن الباطل بالحجج والدلائل، ثم فصلت بأن

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 189.
(2) ذكره الزمخشري في الكشاف: 2: 299.
(3) تفسير الطبري: 15/ 226.

أنزلت شيئاً فشيئاً[1]، وقال الكلبي: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ﴾ أي لم تنسخ بكتاب كما نسخت الكتب والشرائع بها، ثم فصلت أي بينت بالأحكام من الحلال والحرام والوعد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند حكيم في خلقه وتدبيره، خبير بمن يصدق ويكذب به.

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ ۝٢﴾ أي أحكم الله القرآن بالحجج لئلا تطيعوا إلا الله. وقيل معناه: أمركم أن لا تعبدوا غيره إنني لكم من الله معلم بموضع المخافة لتحذروا، وموضع الخير لتطلبوا وتدبروا، بمعنى منذر، كما في قوله: ﴿أَلِيمٌ﴾، بمعنى مؤلم.

قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ أي وأمركم أن تطلبوا المغفرة من ربكم، واجعلوها غرضكم وتوصلوا إليها بالتوبة وهي الندم على القبيح والعزم على ترك المعاودة إليه. وقيل معناه: وأن استغفروا ربكم بالتوبة عما سلف من ذنوبكم، ثم توبوا إليه عما يقع منكم من الذنوب في المستقبل.

قوله تعالى: ﴿يُمَتِّعۡكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ يمتعكم جزم على جواب الأمر، أي إن فعلتم ذلك أنعم الله عليكم نعماً سابغة حساناً تستبقونها إلى آجالكم التي قدرها الله لكم، فلم يستأصلكم كما استأصل الأمم المكذبة قبلكم. قال القتيبي: أصل الإمتاع: الإطالة، يقال: حبل ماتع، وقد متع النهار: إذا طال. فمعنى يمتعكم: يعمركم.

قوله تعالى: ﴿وَيُؤۡتِ كُلَّ ذِي فَضۡلٖ فَضۡلَهُۥۖ﴾ أي من كان ذا فضل في دينه فضله الله في الآخرة بالثواب على عمله، وقيل: يعطي كل ذي عمل صالح أجره وثوابه. وقال ابن عباس: يعطى كل من فضلت حسناته على سيئاته فضله، يعني: الجنة فهي فضل الله، يعني أن من زادت حسناته على سيئاته دخل الجنة. وعن ابن مسعود قال في هذه الآية: من عمل حسنة كتبت له عشر حسنات، ومن

---

(1) المصدر نفسه.

عمل سيئة كتبت له سيئة واحدة، وإن لم يعاقب بتلك السيئة في الدنيا أخذ من عشر حسناته واحدة وبقيت له تسع. ثم قال: هلك من غلبت آحاده أعشاره[1].

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ أي وإن أعرضوا عن الإيمان والتوبة ﴿فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ أي عظيم الشأن وهو يوم القيامة. وإنما ذكر الخوف في هذا الموضع لأن الخطاب من الرسول ﷺ والخوف عليه جائز.

قوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ④﴾ أي قدير على إعادتكم.

قوله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ⑤﴾

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ﴾ قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق كان يجالس النبي ﷺ ويظهر له أمراً حسناً، وكان حسن المنظر حسن الحديث، إلا أنه كان يضمر في قلبه خلاف ما يظهر، فأنزل الله في أمره هذه الآية[2]. ويقال: إن طائفة من المشركين بلغ بهم الجهل إلى أن قالوا: إنا إذا أغلقنا أبوابنا، وأرخينا ستورنا، واستغشينا ثيابنا، وثنينا صدورنا على عداوة محمد، كيف يعلم بنا؟ فأنبأ الله نبيه عليه السلام عما كتموه[3]. ومعنى الآية: ألا إنهم يثنون صدورهم على الكفر وعداوة النبي ﷺ ليكتموا منه ما في صدورهم من عداوته بإظهار المحبة له. ويقال: معنى يثنون: يعرضون صدورهم عن النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ﴾ معناه: ألا حين يتغطون بثيابهم يعلم الله ما يسرون بقلوبهم وفيما بينهم وما يظهرون من

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 231 بنصه تقريباً.
(2) الواحدي، أسباب النزول: 217.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 191 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 9/ 105 ـ 106.

محبة أو غيرها ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ أي عالم بالقلوب التي في الصدور، لأن الصدور مواضع القلوب.

قوله تعالى:

﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿6﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿7﴾﴾

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا﴾ أي ما من حيوان يدب. قال الزجاج: الدابة اسم لكل حيوان مميز وغيره ذكراً كان أو أنثى[1]. وفي الآية بيان أن الله عالم بالقلوب كلها، وذلك أنه إذا كان ضامناً رزق الدابة في الأرض فليس يرزقها إلا وهو يعلم صغيرها وكبيرها من الذر فما فوقها وما دونها وإذا علمها علم مستقرها، ومستودعها. المستقر: موضع قرارها وهو الموضع الذي تأوي إليه، والمستودع: هو الموضع الذي يودع فيه قيل: إنه الرحم، وقيل: هو الموضع الذي يدفن فيه. وقال قتادة ومجاهد: أما مستقرها ففي الرحم، وأما مستودعها ففي الصلب، كل ذلك عند الله في كتاب مبين[2]، يعني اللوح المحفوظ، والمعنى أن ذلك ثابت في علم الله.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ قال المفسرون: فضلاً لا وجوباً فالله يرزق الدواب بفضله قال أهل المعاني «على» ههنا بمعنى «من». المعنى: إلا من الله رزقها[3].

(1) الزجاج: معاني القرآن وإعرابه: 3/ 39.
(2) تفسير الطبري: 15/ 242/ 243.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 192.

قوله تعالى: ﴿كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ أي رزق كل دابة وأجلها مكتوب في اللوح. قال ابن عباس: إن مما خلق الله تعالى لوحاً محفوظاً، من درة بيضاء، دفتاه من ياقوتة حمراء، عرضه ما بين السماء والأرض، كتابه نور، وقلمه نور، ينظر الله تعالى فيه كل يوم ثلاثمائة وستين نظرة، يخلق في كل نظرة ويحيي ويميت ويعز ويذل ويفعل ما يشاء. قال أبو روق: أعلاه معقود بالعرش وأسفله في حجر ملك كريم يسمى ماطريون.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق السماوات والأرض. قال ابن عباس: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام أولها يوم الأحد، وآخرها يوم الجمعة[1]. ولو أراد سبحانه خلقها في أقل من لحظة لفعل. قوله تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فيه بيان أن السماوات والأرض ليست بأول خلق، وأنه تقدمها خلق شيء آخر، وفيه بيان زيادة القدرة، لأن العرش مع كونه أعظم من السماوات والأرض كان على الماء، ولم يكن ذلك الماء على قرار، ولكن الله عز وجل أمسكه بقدرته.

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي ليبلوكم فيظهر أيكم أحسن عملاً، فيثيب المطيع المعتبر بما يرى من آيات السموات والأرض، ويعاقب أهل العناد.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِن بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ معناه: ولئن قلت يا محمد للكفار إنكم مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا: ما هذا إلا تمويه ليس له حقيقة، وقد أقروا أن الله خالق السموات والأرض ويمسكها بغير عمد، لا يعجزه شيء، فكيف يشكون في البعث بعد الموت؟

قوله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ

(1) تفسير الطبري: 15/ 243.

لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿8﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا
رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿9﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ
مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّىٓ إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿10﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿11﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ
وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿12﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ معناه: ولئن أخرنا عن الكفار العذاب إلى مدة معدودة. قال ابن عباس ومجاهد: يعني إلى أجل معدود[1] والأمة ههنا المدة، ليقولن ما يحبس هذا العذاب عنا إن كان ما يقوله محمد حقاً؟ يقول الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ معناه: ألا يوم يأتيهم العذاب لا يقدر أحد على صرفه عنهم. والمعنى: إنهم لما قالوا: ما يحبس العذاب عنا على وجه الاستهزاء، قال الله تعالى: ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ﴾ يعني: إذا أخذتهم سيوف النبي ﷺ وأصحابه لم يعلموا صرفه عنهم حتى تعلو كلمة الإخلاص.

قوله تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي أنزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَـٰهَا مِنْهُ﴾ أراد بهذا الإنسان الكافر فإنه تقدم ذكر الكافر فكأنه قال: وإذا أنعمنا على الكافر نعمة ثم سلبناها منه إنه ليؤوس، أي لا يصبر على سلب تلك النعمة ويصير أيأس شيء وأقنطه من رحمة الله. قال ابن عباس: نزلت هذه الآية في الوليد بن المغيرة، وقيل في عبد الله بن أبي أمية المخزومي. والرحمة ههنا: الرزق.

قوله تعالى: ﴿كَفُورٌ﴾ أي لا يشكر نعمة الله قبل أن تسلب عنه، ولا يصبر بعد أن سلبت.

(1) تفسير الطبري: 15/ 253.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أي ولئن أذقنا الكافر النعم الظاهرة بعد المضرة الظاهرة التي أصابته ليقولن الكافر ذهب الشدائد، والضر، والفاقة، والآلام عني ويفرح بذلك ويبطر ويفخر به على الناس من دون أن يشكر الله على كشف الشدائد عنه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أي بطر يفاخر أوليائي بما وسعت عليه. وإنما فتح اللام في قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ﴾ لأنه في موضع الوحدان، وفي قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ - بضم اللام في موضع لفظ الجماعة، وقوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بنصب اللام أيضاً، لأن الفعل مقدم على الاسم فيذكر بلفظ الوحدان.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ استثناء ليس من الأول، معناه: لكن الذين صبروا على الشدائد وعملوا الطاعات فيما بينهم وبين ربهم أولئك لهم مغفرة لذنوبهم وثواب عظيم على طاعتهم وصبرهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ﴾ سبب نزول هذه الآية: أن المشركين كانوا يقولون للنبي ﷺ: لو تركت عيبنا وسب آلهتنا لجالسناك. وكانوا يأتونه ويقولون: لولا أنزل على محمد كنز من السماء فيعيش به، وينفعه، أو جاء معه ملك يشهد له ويعينه على أداء الرسالة. وقيل: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: ائتنا بكتاب ليس فيه سب آلهتنا حتى نتبعك، ونؤمن بك. وقال بعض المشركين: هلا ينزل عليك يا محمد ملك يشهد لك بالصدق، أو تعطى كنزاً تستغني به أنت وأتباعك. فهم رسول الله ﷺ أن يدع سب آلهتهم، فأنزل الله هذه الآية[1]، ولا يجوز أن تكون كلمة «لعل» في أول هذه الآية على جهة الشك، وإنما الغرض

(1) تفسير الطبري: 15/ 258 - البغوي، معالم التنزيل: 3/ 195 - ابن عطية، المحرر الوجيز: 9/ 114.

تثبيت النبي ﷺ على ما أمر به كيلا يلتفت إلى قولهم وكي ييأسوا عن ترك أداء الرسالة. فلما قالوا للنبي ﷺ: لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك؟ قال الله تعالى للنبي ﷺ: إنما أنت نذير، أي عليك أن تنذرهم وتخوفهم وتأتيهم بما يوحي إليك من الآيات، وليس عليك أن تأتيهم بشهواتهم وما يقترحون من الآيات، والله على كل شيء من مقالتهم وغير ذلك حفيظ. والفرق بين ضائق وضيق أن الضائق يكون نظير عارض، والضيق تصور الشيء عن مقدار غيره أن يكون فيه، وموضع أن تقولوا خفض، فإن تقديره ضائق فيه صدرك بأن يقولوا.

قوله تعالى:

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿13﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿14﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ﴾ معناه: بل يقول الكفار: اختلق محمد القرآن من تلقاء نفسه. قل لهم يا محمد: إن كان هذا مفترى على الله فأتوا بعشر سور مثله مفتريات مختلقات، فإن القرآن نزل بلغتكم، وأنا نشأت بين أظهركم، فإن لم يمكنكم أن تأتوا بمثل القرآن فاعلموا أنه من عند الله.

قوله تعالى: ﴿وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي واستعينوا بكل أحد يقدر على الإتيان بعشر سور مثله مفتريات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في مقالتكم إن محمداً اختلقه. وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد بالسور العشر من سورة البقرة إلى هذه السورة، والأولى أن يقال: إن المراد فأتوا بعشر سور مثل سور القرآن أي سورة كانت، لأن سورة هود مكية، وسورة البقرة وما بعدها مدنيات.

قوله تعالى: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ والمسلمين، أي فإن لم يجبكم هؤلاء الكفار إلى الإتيان بمثل القرآن فاعلموا أن هذا القرآن أنزله جبريل بعلم الله وأمره. ويجوز أن يكون بعلم الله، أي بما أنبأ الله فيه من غيب، ويجوز أن

يكون معناه: ﴿فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ﴾ أي فإن لم يجبكم الذين دعوتموهم إلى الإتيان بمثل هذا القرآن فقد قامت عليهم الحجة، فاعلموا أنما أنزل بعلم الله، واعلموا أن ما أنزله إلا هو ولا ينزل الوحي أحد غيره، فهل أنتم مخلصون لله في التوحيد والعبادة[1]؟.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٧﴾

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا﴾ في الآية وجهان: أحدهما أن المراد بالآية: إذا أتى بالأعمال التي تكون حسنة في العقل مثل صلة الرحم والتصديق وإعانة المظلوم، فإن الله يجازيه على هذه الأعمال في الدنيا بأن يمكنه مما حوله ويعطيه ما يسعى لطلبه وافراً عليه ويقر عينيه بذلك، والثاني: المراد بها المنافق إذا خرج إلى الغزو مع المسلمين وهو يريد الغنيمة دون الثواب ويقر الدين جازاه الله على غزوه بأن أمر بإعطائه سهمه من الغنيمة لا يبخس عنه شيء من سهمه.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ معناه: إن الذين عملوا لغير الله من الكفار والمنافقين ليس لهم في الآخرة إلا النار، وحبط ما صنعوا من الأعمال الحسنة لأنهم لم يروا لها ثواباً، وباطل ما كانوا يعملون من خير.

قال أبو بكر الحداد: قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ في الآية اختصار معناه: أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه كالذي يريد الحياة الدنيا وزينتها. وأراد بالبينة[2]: البرهان الذي

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 261.

(2) في النسخة (س): بالشاهد.

هو من الله. وكان النبي ﷺ على برهان وحجة من ربه، ويقرأ عليه القرآن شاهد من الله هو جبريل عليه السلام.

هكذا قال أكثر المفسرين[1]: أن المراد بقوله أفمن كان على بينة من ربه هو النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ أي ومن قبل القرآن كان جبريل يقرأ على موسى التوراة إماماً يقتدى به، ونعمة من الله لمن آمن به. وإماماً: نصب على الحال. ورحمة: أي وذا رحمة، وقيل: أراد بقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ جميع المؤمنين، وأراد بالشاهد النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ يعني أصحاب محمد ﷺ ومن صدقه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ﴾ أي من يكفر بالنبي ﷺ من أصناف الكفار واليهود والنصارى وغيرهم فالنار مصيره التي وعده الله في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي لا تك في شك من القرآن. وظاهر هذا أن الخطاب للنبي ﷺ، إلا أن المراد به جميع الناس.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ أي لا يصدقون في أن القرآن من عند الله.

قوله تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿18﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿19﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿20﴾﴾

(1) تفسير الطبري: 15/ 273 ـ ابن عطية، المحرر الوجيز: 9/ 120.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أي ليس أحد أظلم لنفسه من الكاذب على ربه بأن زعم أن له ولداً أو شريكاً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ أولئك الكاذبون وسيأتون يوم القيامة إلى ربهم ويوقفون في المقامات التي يطالبون فيها بأعمالهم ويسألون فيها ويجازون عليها.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: الأشهاد: هم الملائكة والأنبياء، وقال قتادة: يعني الخلائق(1). قال مقاتل: هم الناس. والأشهاد جمع شاهد، مثل ناصر وأنصار، وصاحب وأصحاب. ويجوز أن يكون جمع شهيد مثل شريف وأشراف، والمعنى: يقول الأشهاد يوم القيامة من الملائكة والنبيين والعلماء وعامة المؤمنين، ويشيرون إلى الكفار فيقولون: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. فيفتضح الكفار على رؤوس الأشهاد.

قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجوز أن يكون من قول الأشهاد، ويجوز أن يكون من قول الله تعالى. وأراد بالظالمين المشركين. واللعنة: الإبعاد من الخير. وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يدنو المؤمن من ربه يوم القيامة ثم يقرره بذنوبه هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف. فيقول: هل تعرف؟ فيقول: رب أعرف. فيسأله عما يشاء أن يسأله. قال: فإني قد سترتها عليك في الدنيا، وإني أغفرها لك اليوم. ثم يعطى صحيفة حسناته بيمينه، وأما الكفار فينادى عليهم على رؤوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين**»(2) رواه البخاري(3)

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 283.

(2) رواه البخاري في صحيحه: فتح الباري: 15/ 444، رقم: 7514، كتاب التوحيد ـ ومسلم في صحيحه بشرح النووي: 2/ 120 ـ وابن ماجه في سننه: 1/ 65، رقم: 183، باب فيما أنكرت الجهمية ـ والبيهقي في شعب الإيمان: 1/ 253، رقم: 271، باب في الحشر.

(3) أبو عبد الله، محمد بن إسماعيل البخاري: حبر الإسلام والحافظ لحديث الرسول ﷺ. ولد =

ومسلم[1].

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أول الآية نعت للظالمين. والمعنى: الذين يتسببون للصد عن دين الله وطاعته، ويبغون لملة الإسلام غيرا وعوجاً، ويتأولون القرآن على خلاف تأويله ﴿وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ أعاد كلمة «هم» تأكيد لشأنهم في الكفر.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُواْ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ معناه: أولئك ليسوا بفائتين عن الله في الأرض، ولا مهرب لهم من عذابه حتى يجزيهم بأعمالهم الخبيثة.

قوله تعالى: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ أي لا يقتصر بهم على عقاب الكفر، بل يعاقبون على الكفر، وعن الصد في سبيل الله. وقيل معناه: كلما يضاعف من العذاب جاءهم ضعف من العذاب.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانُواْ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ أي كان يثقل عليهم سماع الحق من شدة عداوتهم للنبي ﷺ، وما كانوا يبصرون لأنهم صم عن الحق عمي لا يبصرون ولا يهتدون.

= في بخارى ونشأ يتيماً، قام برحلة إلى خراسان، والعراق، ومصر، والشام. من مؤلفاته: «الجامع الصحيح» و«التاريخ». توفي رحمه الله سنة ست وخمسين ومائتين من الهجرة. وكتابه «الجامع الصحيح» في الحديث يعتبر رأس كتب الحديث وأجلّها، أجمع المسلمون على صحته وتلقوه بالرضى والقبول. وقد قسمه إلى كتب وأبواب، وحقق بتأليفه جمع الصحيح من حديث الرسول عليه الصلاة والسلام، واستنباط المسائل الفقهية من الأحاديث التي جمعها. حظي هذا الجامع بالإهتمام فدونت عليه الشروح منها: «فتح الباري» للعسقلاني، و«عمدة القارىء» للعيني، و«إرشاد الساري» للقسطلاني.
تذكرة الحفاظ: 2/ 555. البداية والنهاية: 11/ 24 ـ الاعلام: 6/ 34.

(1) أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: حافظ، من أئمة الحديث، ولد في نيسابور ورحل إلى الحجاز، ومصر، والشام، والعراق، توفي رحمه الله في نيسابور في رجب سنة إحدى وستين ومائتين هجرية.
من مؤلفاته: «الجامع الصحيح» في الحديث، وهو أحد الصحيحين المعول عليهما، وقد جمع فيه الإمام مسلم ما صح عنده من أحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام في منهج علمي دقيق، وقد بذل فيه عناية فائقة في نقد الرجال وتمحيص الروايات، وله شروح ومختصرات عديدة من أهمها: شرح النووي. تذكرة الحفاظ: 2/ 588 ـ البداية والنهاية: 11/ 33 ـ الاعلام: 7/ 222.

قوله تعالى:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿21﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿22﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿23﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي أهلكوا أنفسهم في الآخرة، وذكر الهلاك بلفظ الخسران لأن الخسران: هو ذهاب رأس المال، ورأس مال الإنسان نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ أي وذهب عنهم الانتفاع بأعمالهم التي كانوا يكذبون بها على الله كما قالوا في الدنيا، وقيل: معناه ذهبت عنهم الأصنام التي كانوا يعبدونها في الدنيا يقرون بقولهم أنها آلهة.

قوله تعالى: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿22﴾﴾ قيل معناه: لا جرم: لا بد، ويقال: لا محالة، ويقال: حقاً. قال سيبويه: لا جرم بمعنى حق[(1)]. وقال الزجاج: لا نفي لما ظنوا أنه ينفعهم كأنه قال لا ينفعهم ذلك[(2)]. ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿22﴾﴾ أي كسب ذلك الفعل لهم الخسران، وجرم معناه: كسب، وذلك قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾[(3)].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الإخبات: الخشوع والتواضع والطمأنينة، أي تواضعوا وخشعوا لربهم. وقال مجاهد: اطمأنوا، وقال قتادة: أنابوا[(4)]. وهذه الآية نازلة في أصحاب رسول الله ﷺ وما قبلها نازلة في المشركين، ثم ضرب الله مثلاً في الفريقين.

قوله تعالى:

﴿۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًاۚ أَفَلَا

---

(1) سيبويه، الكتاب: 1: 469.

(2) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 46.

(3) سورة المائدة (5)، الآية: 2، 8.

(4) ذكر الطبري في تفسيره: 15/ 289 ـ 290 قولي قتادة ومجاهد.

تَذَكَّرُونَ ﴿24﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿25﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿26﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿27﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ﴾ يعني الكفار، ﴿وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ﴾ يعني المؤمنين، لأنهم سمعوا الحق وأبصروه فاتبعوه.

قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ أي هل يستوي الأعمى والبصير والسميع والأصم عند عاقل؟ فكما لا يستويان عند أحد من العقلاء، فكذلك لا يستوي حال المؤمن والكافر عند الله في الدنيا والآخرة ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿155﴾﴾ أي أفلا تتعظون بأمثال القرآن؟

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿25﴾﴾ ابتدأ أول رسول جاء بالشريعة بعد آدم عليه السلام وهو نوح عليه السلام، أول من جاء بتحريم الأمهات والأخوات.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُمْ﴾ من فتح الألف كان التقدير: أرسلنا نوحاً بأني لكم، ومن كسر فتقديره: إني لكم[1].

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي وليقول ألا تعبدوا إلا الله، فإني لا إله إلا هو ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ أي إني أعلم أن يكون عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم أليم. وإنما وصف اليوم بالألم لأن أسباب الألم يقع فيه، فنسب الألم إليه.

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي قال الرؤساء والأشراف الذين كفروا من قوم نوح ما نراك يا نوح إلا بشراً مثلنا في الصورة والخلقة، فلم صرت أولى أن تكون نبياً ورسولاً لله منا؟

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا﴾ أي ما نراك اتبعك

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 278.

إلا الذين هم أسافلنا وأخسنا. قال ابن عباس: يريدون المساكين الذين لا عقول لهم ولا شرف، ولا مال. والرذل: الدون من كل شيء.

قوله تعالى: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ من قرأ: بادىء - بالهمزة فمعناه: إنهم اتبعوك بأول الرأي من دون تفكر ونظر، من قولهم: بدأت الأمر أي ابتدأته، ويجوز أن يكون المعنى: بادي الرؤية، أي بأول ما تقع الرؤية عليهم يعلم أنهم أراذلنا، وقد يكون الرأي بمعنى الرؤية. قال الله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾(1) أي رؤية العين. ومن قرأ: بادي - بغير همز فمعناه: ظاهر الرأي(2)، وهم يعرفون الظاهر ولا تمييز لهم، ويجوز أن يكون معناه: اتبعوك في الظاهر وباطنهم على خلاف ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾ أي وما نرى لك ولقومك علينا من فضل، فإن الفضل يكون بكثرة المال وشرف النسب والمنزلة في الدنيا، بل نظنكم كاذبين فيما تقولونه على الله وفيما تدعوننا إليه.

قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ (28) وَيَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (29) وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (30) وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ (31)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى﴾ أي قال نوح: أخبروني إن كنت على برهان، وحجة من ربي، وآتاني نعمة من عنده وهي النبوة، فخفيت عليكم هذه النعمة التي ظهرت لمن اتبعني، لم تبصروها

(1) سورة آل عمران (3)، الآية: 13.

(2) ذكر ابن خالويه في إعراب القراءات: 1/ 278 قراءة: بادي الرأي بهمز وبدونها - وكذا النحاس في إعراب القرآن: 2/ 280.

لشقاوتكم أيمكننا أن نجعلكم قابلين لها وأنتم لها كارهون؟ هذا أمر لا يكون. قال قتادة: والله لو استطاع نبي الله لألزمها قومه. ولكنه لا يملك ذلك[1]. فإن قيل: فهلا قال: فعميتم عنها وهم الذين كانوا عموا؟ قلنا: قد بينا أنه وضع ذلك موضع فخفيت عليكم، ثم لا فرق بين اللفظين، كما لا فرق بين قولهم: أدخلت الخاتم في الأصبع، وأدخلت الأصبع في الخاتم، ومن قرأ: فعميت ـ بضم العين وتشديد الميم[2]، فالمعنى: ألبست عليكم نبوتي.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مَالًاۖ﴾ أي لا أسألكم على دعائي إلى الله مالاً فتخشون العدم في مالكم بإجابتي ﴿إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ أي ما ثوابي إلا على الله يعطيني في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۚ﴾ قال ابن جريج: إنهم سألوا طرد الذين آمنوا ليؤمنوا به أنفة من أن يكونوا معهم على سواء، فقال: لا يجوز إلي طردهم بقولكم وازدرائكم، إنهم ملاقوا ما وعدهم ربهم فيجزيهم بأعمالهم، ويقال: فتخاصموني عنده إن طردتهم ولكني أراكم قوماً تجهلون أمر الله وما فيه صلاحكم[3].

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمۡۚ﴾ معناه: يا قوم من يمنعني من العقاب النازل بي يوم القيامة إن طردت من آمن بي وآويت من كفر، أفلا تتعظون بما أقول وتؤمنون.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي لا أرفع نفسي فوق منزلتي فأقول إن عندي مقدورات الله فأخص بذلك من أشاء وأمنعه ممن أشاء. وقوله تعالى: ﴿وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ﴾ أي ولا أدعى علم الغيب، فإني لا أعلم إلا ما علمني الله. ويقال إنهم لما قالوا لنوح عليه السلام إن هؤلاء إنما آمنوا بك واتبعوك في ظاهر ما يرى منهم أجابهم نوح بهذا فقال: ﴿لَآ أَقُولُ لَكُمۡ

(1) ذكر الطبري في تفسيره: 15/ 299 قول قتادة.
(2) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 279.
(3) تفسير الطبري: 15/ 301.

عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ﴾ يعني غيوب الله التي يعلم منها ما يضمره الناس. ﴿وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ﴾ أي ولا أعلم ما يسرونه في أنفسهم، فسبيلي قبول إيمانهم الذي ظهر لي ومضمراتهم لا يعلمها إلا الله.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ هذا جواب لقولهم: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ أي ولا أدعي أني ملك نزلت إليكم من السماء.

قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا﴾ أي لا أقول للذي تحتقر أعينكم ويستصغر أن يؤتيهم الله إصلاحاً في الدين وفلاحاً في الآخرة، يعني المؤمنين الذين قالوا هم أراذلنا.

قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أي إن طردتهم تكذيباً لظاهر إيمانهم.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿32﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿33﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿34﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿35﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي قالوا يا نوح قد خاصمتنا فيما دعوتنا إليه من دين غير دين آبائنا فأكثرت خصومتنا ودعاءنا فلا نقبل منك ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ أي بما تعدنا أن الله يعذبنا على الكفر ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ أراد بهذا القول أن يلبسوا على ضعفائهم أن نوحاً عاجز عن إنزال العذاب بهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ﴾ أي إن العذاب ليس بيدي ولكن الله هو الذي يقدر عليه ينزله عليكم إن شاء ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ الله من إنزال العذاب بكم. وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن نوحاً عليه السلام كان إذا جادل قومه عذبوه، فإذا أفاق قال: اللّهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون»**[1].

---

(1) ذكره الطبري في تفسيره بسنده: 15/ 313، رقم: 18137 ـ البغوي، معالم التنزيل: 3/ 206.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ هُوَ رَبُّكُمْ﴾ معناه: قال لهم: لا ينفعكم دعائي وتحذيري إياكم إن أردت أن أحذركم من عذاب الله إن كان الله يريد أن يضلكم عن الهدى مجازاة لعملكم، فإن إرادة الله فوق إرادتي ويكون ما يريد لا ما أريد. فإن قيل: كيف يجوز أن تكون إرادة إبليس موافقة لإرادة الله، وإرادة نوح مخالفة لإرادة الله؟ فالجواب: أن الله تعالى شاء لأولئك القوم الكفر، وشاء لنوح أن يسألهم عن الإيمان، وشاء لإبليس أن يشاء لهم الكفر، فالكل بمشيئة الله تعالى. ويقال معنى قوله: ﴿إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْۚ﴾ أي إن كان الله يريد أن يهلككم ويجنبكم عن رحمته بكفركم كما قال: ﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾[1] أي هلاكاً وعذاباً. والغي قد يكون بمعنى الخيبة كما قال الشاعر:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره ∴ ومن يغو لا يعدم على الغي لائماً[2]

أي ومن يخيب. يقال غوى الرجل يغوى غياً إذا فسد عليه أمر أو فسد هو في نفسه، ومنه ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[3] أي فسد عليه عيشه في الجنة، وهذا أيضاً يؤول إلى معنى الخيبة لأن الخيبة فيها فساد العيش. وذكر الحسن في معنى الآية: لا ينفعكم نصحي اليوم إذا نزل بكم العذاب فاستدركوا أمركم قبل نزول العذاب لتنتفعوا بنصحي.

قوله تعالى: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ أي مالكم يقدر على إنزال العذاب بكم ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه مصيركم بعد الموت فيجزيكم بأعمالكم وهذه الآية مما يحتج بها أن الشرط إذا اعترض على الشرط من غير أن يتخللها، الجواب، كان الشرط الثاني مقدماً على الأول في المعنى، حتى ولو قال قائل: إن دخلت الدار إن كلمت زيداً فعبدي حر، لا يحنث حتى يكلم ثم يدخل. فيكون تقدير الآية: ولا ينفعكم نصحي إن كان الله يريد أن يغويكم إن أردت أن أنصح لكم.

---

(1) سورة مريم (19)، الآية: 59.
(2) نسبه ابن منظور في اللسان ـ غوى ـ للمرقش.
(3) سورة طه (20)، الآية: 121.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي﴾ معناه: أن قومه يقولون: إن نوحاً قد تقوَّل على الله الكذب. فأمر الله نوحاً أن يجيبهم بالقول اللين بعد المبالغة في إقامة الحجة عليهم فيقول لهم: ﴿إِنِ افْتَرَيْتُهُ﴾ أي إن تقولت الكذب على الله تعالى فعلي عقوبة جرمي، وأنا بريء من عقوبة جرمكم. ويقال معنى الآية: أم يقول أهل مكة إن محمداً ﷺ قد افترى قصة نوح، قل إن افتريته فعلي إجرامي[1]، والإجرام يستعمل في كسب الإثم خاصة.

قوله تعالى:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (36) وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ (37) وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ (38) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (39)﴾

قوله تعالى: ﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ﴾ أي أوحى الله إلى نوح أنه لن يصدق من قومك سوى من صدق فلا تغتم بالحزن عليهم. والابتياس: هو الغم على وجه الاستكانة للحزن على الشأن. فقيل: إنما دعا نوح عليه السلام بقوله: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾[2] بعد هذا الوحي[3].

قوله تعالى: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ أي اصنع السفينة بحفظنا لك حفظ الرائي لغيره لدفع الضرر عنه. وذكر الأعين لتأكيد الحفظ. ويقال معناه: بأعين الملائكة الذين يعرفونك كيف تصنع بالسفينة. قوله تعالى: ﴿وَوَحْيِنَا﴾ أي وبأمرنا إياك.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أي لا تراجعني الكلام في نجاة

(1) تفسير الطبري: 15/ 305 عبارته قريبة من هذه.
(2) سورة نوح (71)، الآية: 26.
(3) ذكره الطبري في تفسيره: 15/ 307 ـ 308 عن قتادة والضحاك.

الذين ظلموا أنفسهم بالكفر ﴿إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ بالطوفان.

قوله تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ أي لما أخذ نوح عليه السلام في علاج السفينة. وروي أنه استأجر أجراء ينحتون معه، وكلما مر عليه ملأ من قومه هزأوا به لمعالجته السفينة، لأنهم كانوا يرونه يعمل السفينة مع أنه لم يكن بقربه ماء، وكان من لدن آدم عليه السلام إلى نوح يسقون من ماء المطر بلا بحر ولا نهر جار، وكانوا يقولون: انظروا إلى هذا الشيخ الضال يصنع هذه السفينة يخوفنا بالغرق ويجعل للماء إكافا فأين الماء. وكانوا يقولون له في كلامهم: فرغت من أمر النبوة وأخذت في أمر النجارة. وكانوا يرونه ينجر الخشب ويهيء شبه البيت العظيم، فإذا سألوه عن ذلك قال: أعمل سفينة تجري في الماء. ولم يكن هنا ماء، ولم يكن قبل ذلك سفينة وكانوا يتضاحكون ويتعجبون من عمله، فقال لهم نوح: إن تسخروا منا الآن فإنا نسخر منكم عند نزول العذاب كما تسخروا أنتم الساعة، أي إن كنتم تسخرون لما ترون من صنعة الفلك، فإنا نعجب من غفلتكم عما أظلكم، فسوف تعلمون من أحق بالسخرية منا ومنكم، وتعلمون من الذي يأتيه عذاب يخزيه في الدنيا وينزل عليه عذاب دائم في الآخرة.

قوله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿40﴾ ۞ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿41﴾ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿42﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿43﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ۖ وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿44﴾﴾

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن الله تعالى أوحى إليه أن موعدك أن يخرج الماء من آخر مكان في دارك وهو تنور

الخابزة تنور آدم عليه السلام، مكان يوم حج نوح عليه السلام إلى البيت رأى تنور آدم عليه السلام فحمله معه ووهبه الله تعالى له، ثم قال له: إذا رأيت الماء قد فار منه فاحمل في السفينة ما أمرت به من أجناس الحيوان من كل زوجين اثنين، واحمل أهلك إلا من سبق عليه القول بالعذاب وهي امرأته الكافرة وابنه كنعان استثناهما الله تعالى من حمله أهله[1].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي واحمل من آمن معك أيضاً في السفينة. وقال ابن عباس وعكرمة والزهري: معنى قوله: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ أي انبجس الماء على وجه الأرض.

وقال علي رضي الله عنه: وفار التنور: أي طلع الفجر[2].

وقوله تعالى: ﴿جَآءَ أَمْرُنَا﴾ أي عذابنا.

قوله تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي احمل في السفينة من كل زوجين اثنين: الذكر زوج والأنثى زوج. وهو قول الحسن ومجاهد وقتادة قالوا: ذكراً وأنثى[3]. فلما فار التنور أرسل الله السماء بمطر شديد، فأقبلت الوحوش حين أصابها ماء السماء إلى نوح وسخرت فحملت في السفينة من كل طير زوجين، ومن كل وحش زوجين، ومن كل دابة وبهيمة زوجين، ومن كل سبع زوجين، وحمل من البقر والغنم خمسة أزواج، وبعث الله جبريل فقطع فقار العقرب، وضرب فم الحية فحملها في السفينة، وكانت السماء تمطر، وكان هو عند قومه يحذرهم حتى ابتلت أقدامهم وصار الماء إلى الكعبين، ثم حذرهم حتى صار الماء إلى نصف الساق، ثم حذرهم حتى صار الماء إلى الركب وإلى الحقو من كل ذلك يحذرهم وينذرهم وكان ينوح ويبكي عليهم. قال ابن عباس: سمي نوحاً لأنه كان ينوح على الإسلام حيث لم يقربه قومه. فلما بلغ الماء إلى السرة قال غرق قومي. ثم قال لابنه كنعان: يا بني اركب معنا. فكثر

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 314.

(2) تفسير الطبري: 15/ 319 ـ 320.

(3) نفسه: 15/ 322.

الماء حتى صار فوق الجبال خمسة عشر ذراعاً بالذراع الأول، وكان للسفينة ثلاثة أبواب بعضها أسفل من بعض، حمل في الباب الأسفل السباع والهوام، وفي الباب الأوسط السباع والبهائم، وفي الباب الأعلى بني آدم وكانوا ثمانين إنساناً: أربعين رجلاً وأربعين امرأة، وكان معه امرأته سوى التي غرقت وثلاثة بنين: سام، وحام، ويافث، ونساؤهم، واثنان وسبعون إنساناً فيهم الخضر وهو ابن بنت نوح. واختلفوا في مقدار السفينة: قال الحسن: كان طولها ألفاً ومائتي ذراع وعرضها ستمائة ذراع. قال ابن عباس: كان طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها ثلاثون، وهو قول قتادة، قال: وكان بابها في عرضها[1].

قوله تعالى: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ أي واحمل أهلك، يعني ولده وعياله ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ﴾ يعني امرأته واغلة، وابنه كنعان ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ أي واحمل من آمن.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ أي نفر قليل، قيل: ثمانون إنساناً، وقيل: إنما آمن ثلاثة بنين وثلاث كنائن، والكنائن زوجات البنين. وقال ابن جريج: كانوا ثمانية أنفس[2].

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي قال لهم نوح: اركبوا في السفينة. وقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ﴾ يجوز أن يكون متصلاً بقوله: ﴿ٱرْكَبُوا۟﴾ أي اركبوا بسم الله، ويجوز أن يكون متصلاً بقوله: ﴿مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ أي بسم الله إجراؤها وإرساؤها. وقال الضحاك: كانوا إذا أرادوا أن تجري السفينة قالوا: بسم الله. فجرت، وإذا أرادوا أن يرسوها قالوا: بسم الله فسرت[3]. ومن قرأ مجراها ـ بنصب الميم، فهو عبارة عن الموضع الذي تجري فيه. ولم يقرأ أحد: مرساها ـ إلا بضم الميم. ومن قرأ: مجريها ومرسيها ـ بالكسر فهو نعت الله[4]. والمعنى: بسم الله المجري لها حيث يشاء، والمرسي لها حيث يشاء.

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 311 ـ البغوي، معالم التنزيل: 3/ 208.
(2) تفسير الطبري: 15/ 325.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 211.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1: 280 وما بعدها، إعراب القرآن: 2/ 283.

قوله تعالى: ﴿وَهِىَ تَجۡرِى بِهِمۡ فِى مَوۡجٍ كَٱلۡجِبَالِ﴾ يعني السفينة تجري بهم في أمواج كالجبال العظيمة. ونادى نوح ابنه كنعان، وكان كافراً، وكان في معزل عنه ولم يركب معه، وقيل معناه: وكان في معزل من دين أبيه: يا بني اركب معنا في السفينة بشرط الإيمان. وكذلك قال: ولا تكن مع الكافرين على دينهم فتغرق معهم. وقال الحسن: إنما دعاه إلى ركوب السفينة لأن ابنه كان يظهر له الإيمان نفاقاً وكان يحسبه مؤمناً. واختلف القراء في قوله: ﴿يَٰبُنَىِّ﴾ قرأ بعضهم بكسر الياء على الإضافة[1]، وهو الأجود، لأن الأصل: يا بنييي بثلاث ياءات: ياء التصغير وياء أصلية وياء الإضافة، فحذفت ياء الإضافة وتركت الكسرة دليلاً على الإضافة، وأدغمت إحدى الياءين في الأخرى. وقرأ بعضهم: يا بني ـ بفتح الياء[2] على أن أصله: يا بنياه ـ بالألف، كما تقول العرب: يا غلاماً أقبل، يريد: يا غلامي فتبدل الألف من ياء الإضافة على وجه الندبة والتفجع، وكان الأصل: يا بنيا، ثم حذفت الألف لسكونها، وسكون الراء من قوله: ﴿ٱرۡكَب﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِى مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾ أي قال ابن نوح: سأذهب وأرجع إلى مأوى من الجبل حريز يمنعني من آفات الماء. قال له نوح عليه السلام: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ بالنجاة. وتقدير الكلام: لا عاصم اليوم من عذاب الله إلا الله تعالى. وقال بعضهم: لا عاصم اليوم من عذاب الله إلا من رحمه الله وهو نوح عليه السلام، فإنه قد جعل الله إليه إركاب المؤمنين في السفينة. وقيل معناه: لا معصوم اليوم إلا من رحمه الله، وهذا كما قال الحطيئة[3]:

---

(1) ابن خالويه في المصدر السابق.

(2) نفس المصدر.

(3) أبو مليكة، جرول بن أوس بن مالك العبسي: كان من فحول الشعراء ومتقدميهم وفصحائهم، متصرف في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب، وهو مخضرم أدرك الإسلام فأسلم، وتوفي سنة خمس وأربعين.
طبقات فحول الشعراء: 98 ـ الأغاني: 2/ 149 ـ الأعلام: 2/ 118.

دع المكارم لا ترحل لبغيتها ∴ واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي[1]

أراد المطعوم المكسو، ومنه يقال: يسر كاتم، أي مكتوم. وقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ استثناء منقطع، أي لكن من رحم الله.

قوله تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ﴾ أي حال الموج بين كنعان، ونوح، وقيل: بين كنعان، والجبل وصار من المغرقين.

قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي﴾ أي قيل بعدما تناهى من الطوفان، وذلك لما روى ابن عباس رضي الله عنهما أن السماء أمطرت أربعين يوماً الليل والنهار، وخرج ماء الأرض أربعين يوماً الليل والنهار وسارت بهم السفينة فطافت بهم الأرض كلها في خمسة أشهر لا تستقر على شيء حتى أتت الحرم فلم تدخل، ودارت بالحرم أسبوعاً، ورفع البيت الذي بناه آدم إلى السماء وهو البيت المعمور، وجعل الحجر الأسود على أبي قبيس أودع فيه. ثم ذهبت بهم السفينة في الأرض حتى انتهت بهم إلى الجودي، وهو جبل بأرض الموصل، فاستقرت عليه بعدة خمسة أشهر. ويقال: ركب نوح السفينة لعشر مضين من رجب، وخرج منها يوم عاشوراء فذلك ستة أشهر[2]. فلما استقرت السفينة على الجودي كشف نوح الطابق الذي فيه الطير، فبعث الغراب ليأتيه بالخبر، فأبصر جيفة فوقع عليها وأبطأ على نوح ولم يأته، فأرسل الحدأة على أثره فأبطأت عليه فلم تأته، فدعا على الغراب أن يكون طويل العمر في مخافة وشقاء. ثم أرسل الحمامة بعد الحدأة فلم تجد موقعاً فرجعت، فبسط لها نوح عليه السلام كفه فوقعت عليه، ثم مكث ما شاء الله، ثم أرسلها مرة أخرى فجاءت بورق الزيتون، فعرف نوح أن الماء قد نقص وظهرت الأشجار، ثم أرسلها بعد ذلك فوقعت على الأرض وغابت رجلاها في الطين، فعرف نوح أن

---

(1) هذا البيت من جملة أبيات قالها الحطيئة في الزبرقان، فشكاه إلى عمر بن الخطاب، فسأل عمر حسان: أهجاه؟ قال: لا. وفسره حسان على أن الطاعم والكاسي على النسب، أي ذو طعام يشتهيه وكسوة يتخيرها. (ديوانه: 54 ـ اللسان: طعم وكسا).

(2) تفسير الطبري: 15/ 335.

الأرض قد ظهرت فدعا لها فقال: كوني آنس الطير وأنعمه وأكيسه.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾ أي انشفي الماء الذي خرج منك.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي﴾ أي كفي عن الصب. يقال: أقلعت السماء إذا استمسك المطر حتى لم يبق له أثر، وأقلعت الحمى عن فلان إذا تركته.

قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ أي ونشفت الأرض ماءها، يقال غاض الماء يغيض إذا سار في الأرض.

قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي وقع هلاك الكفار على التمام هلك من هلك ونجا من نجا. قال ابن عباس رضي الله عنهما: نشفت الأرض ماءها الذي خرج منها، وذهب ماء السماء إلى البحور، لأن الله تعالى قال: يا أرض ابلعي ماءك ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ أي استوت السفينة على الجودي شهراً، وهو جبل بالجزيرة. ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يجوز أن يكون معناه قال الله تعالى: بعدا، أي سحقاً من رحمة الله للقوم الكافرين، ويجوز أن يكون هذا من قول أهل السفينة حين نجوا من الغرق وخرجوا من السفينة قالوا بعدا للقوم الظالمين، أي أبعدهم الله من رحمته في الآخرة أيضاً.

قوله تعالى:

﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي وَإِنَّ وَعۡدَكَ ٱلۡحَقُّ وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ (45) قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ (46) قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنۡ أَسۡـَٔلَكَ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞۖ وَإِلَّا تَغۡفِرۡ لِي وَتَرۡحَمۡنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ (47)﴾

قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٞ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ أي من قومي، وإن وعدك بنجاة قومي صدق لا شك فيه ﴿وَأَنتَ أَحۡكَمُ ٱلۡحَٰكِمِينَ﴾ في قولك وفعلك. وكان دعاء نوح عليه السلام بهذا الدعاء حين حال الموج بينه وبين ابنه كنعان.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾ معناه: قال الله يا نوح إنه ليس من أهلك الذي وعدتك أن أنجيهم إنما أهلك أهل دينك فإن

ابنك كافر ليس على دينك، فانقطعت العصمة بينك وبينه بكفره وإيمانك. قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖ﴾ أي سؤالك إياي أن أنجي كافراً عمل غير صالح. قرأ الكسائي ويعقوب: عمل - بكسر الميم وفتح اللام، غير - بالنصب أي إنه عمل بالشرك والتكذيب، وقرأ الباقون: عمل - بالرفع والتنوين، غير صالح - بالرفع، أي إنه ذو عمل غير صالح[1]. وقيل: إن سؤالك إياي نجاة ولدك الذي ليس من أهلك سؤال غير مرضي.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَسۡـَٔلۡنِ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۖ﴾ قرأ ابن كثير بتشديد النون وفتحها، وقرأ أهل المدينة والشام بتشديد النون وكسرها[2]، والمعنى واحد، أي لا تسألني ما ليس لك به علم أنه صواب وأني أفعله.

قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ أي إني أعظك أن تسألني سؤال الجاهل، ولكن سلني سؤال العالم بي. والوعظ في اللغة: هو الزجر عن القبيح. وكان نداء نوح ﴿رَبِّ إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ نداء تعظيم لله على ظن أن ابنه من أهل دينه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ رد لنبيه على أنه ليس من أهل دينه ولا من أهل أن أتلطف له. واختلفوا في هذا الابن فقال بعضهم: إنه لم يكن ابن نوح لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ أي من ولدك، وهو قول مجاهد والحسن، والمعنى على قولهما أنه ولد لغير «رشدة». قال قتادة: وسألت الحسن عنه فقال: والله ما كان ابنه، وقرأ: ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾[3] فقلت: إن الله تعالى حكى عنه أنه قال: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي﴾ وقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ﴾ وأنت تقول لم يكن ابنه، وأن أهل الكتابين لا يختلفون في أنه كان ابنه. فقال الحسن: ومن يأخذ دينه عن أهل الكتاب إنهم يكذبون[4]. وقال ابن جريج: وهو يحسب أنه ابنه،

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 283 - الأصبهاني، المبسوط في القراءات العشر: 239.

(2) ابن خالويه في المصدر السابق.

(3) سورة التحريم (66)، الآية: 10.

(4) تفسير الطبري: 15/ 341.

وكان ولد على فراشه[1]. وقال بعضهم: إنما كان ابن امرأته. واستدلوا بقوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ ولم يقل إن ابني مني[2]. وهو قول أبي جعفر الباقر[3]. وقال أكثر المفسرين إنه كان ابنه من صلبه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي الذين وعدتك أن أنجيهم. قالوا: وما بغت امرأة نبي قط، وإنما كانت خيانتها في الدين لا في الفراش، ولأن الله تعالى يعصم أنبياءه صلوات الله عليهم أن يقع من نسائهم ما يلحق بهم عيباً في الدنيا، وإن كان قد يقع منهن ما يكون عيباً في أمر الآخرة. وفي الحديث: «**ما بغت امرأة نبي قط**»، وكانت خيانتها له أنها كانت تقول للناس: إنه مجنون. أو كانت تدل على الأضياف. وهذا قول ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك[4]. قال أبو معاوية البجلي[5]: قال رجل لسعيد بن جبير: قوله: ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ هل كان ابن نوح؟ فسبح الله طويلاً وقال: لا إله إلا الله يحدث الله محمداً أنه ابنه وتقول أنت ليس ابنه، كان ابنه ولكن كان مخالفاً في النية والعمل[6] والدين، فمن ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ وهذا القول أولى بالصواب وأليق بظاهر الكتاب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ أي قال نوح إني أمتنع بك أن أسألك ما ليس لي به علم أنه صواب، وإلا تغفر لي خطيئتي هذه، وهي هذا السؤال ﴿وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ بالوزر والعقوبة.

---

(1) المصدر نفسه: 15/ 342.

(2) المصدر نفسه: 15/ 342.

(3) أبو جعفر الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، باقر العلم: كان عالماً ثقة كثير الحديث، عد من فقهاء المدينة التابعين، روى عن جابر وابن عمر وابن عباس، وعنه ابنه جعفر الصادق والزهري وجماعة، توفي سنة ثماني عشر ومائة.
الطبقات الكبرى: 5/ 246 ـ الجرح والتعديل: 8/ 26.

(4) الطبري في المصدر السابق: 15/ 343.

(5) أبو معاوية البجلي، عمار بن معاوية الدهني: ثقة، روى عن سعيد بن جبير وغيره، توفي سنة ثلاث وثلاثين ومائة.
الطبقات الكبرى: 3/ 141.

(6) تفسير الطبري: 15/ 344.

قوله تعالى:

﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿48﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿49﴾﴾

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَۚ﴾ أي قال الله لنوح اهبط من السفينة إلى الأرض بأمن وسلامة من الآفات وبركات، أي وخيرات تامة عليك وعلى الذين معك من المؤمنين.

قوله تعالى: ﴿وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي وأمم سنمتعهم عليهم بعدك في الدنيا، ثم يمسهم في الآخرة منا عذاب أليم وهم الكافرون وأهل الشقاوة. فهبط نوح ومن معه من الجودي ولم يكن لواحد منهم نسل إلا لنوح وأولاده كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾[1]. وعن محمد بن كعب قال: دخل في السلام والبركة كل مؤمن ومؤمنة إلى يوم القيامة، ودخل في العذاب والإمتاع كل كافر وكافرة إلى يوم القيامة[2]. وفي الآية دلالة على ذلك، لأن لفظ الأمم يدل على الجماعات الكثيرة. ولم يكن مع نوح في السفينة إلا قليل.

قوله تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ﴾ أي تلك القصة التي ذكرتها لك يا محمد قصة نوح من أخبار الأمور الغائبة عنك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا القرآن، وهذا منة من الله تعالى فاصبر على أذى الكفار كما صبر نوح على أذاهم، واصبر على القيام بأمر الله وتبليغ الرسالة وما تلقى من أذى قومك كما صبر نوح على أذى قومه ﴿إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي إن آخر الأمور بالسعادة والظفر والنصر للمتقين كما كانت لنوح ومن آمن به.

(1) سورة الصافات (37)، الآية: 77.

(2) تفسير الطبري: 15/ 353.

قوله تعالى:

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ (50) يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (51) وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ (52)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد أخاهم هودا في النسب ﴿قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أي وحدوه دون الأصنام فإنها ليست بآلهة وما أنتم إلا كاذبون في قولكم إنها آلهة.

قوله تعالى: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ﴾ أي لا أسألكم على ما أؤدي إليكم من الرسالة مالاً فتتهموني أني أبتغي بذلك اكتساب مال، وتخشون أن ألزمكم غرماً في مالكم ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي ۚ﴾ أي ما ثوابي إلا على الذي خلقني ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن الأمر على ما أقوله. وأصل الفطر: الشق، وسمي الخلق فطراً لأنه يظهر به المخلوق كما يظهر الشيء بالشق.

قوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ أي استغفروا ربكم من الكفر والذنوب ثم ارجعوا إليه بالندم والعزم على ترك العود في الذنوب، يرسل السماء عليكم بالمطر دائماً متواتراً، ويزدكم قوة في أبدانكم وأموالكم إلى قوتكم التي لكم ولا تتولوا عما أدعوكم إليه مذنبين.

قوله تعالى:

﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (53) إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (54) مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (55) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (56)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ﴾ أي بحجة، وقد جاءهم بمعجزة إلا أنهم لم يعتقدوها حجة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ أي قالوا وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا بقولك ﴿وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي بمصدقين فيما تقوله.

قوله تعالى: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ أي قالوا ما نقول فيك إلا أنه أصابك بعض آلهتنا بجنون فخيل عقلك لسبك إياها. وكان القوم يعلمون وكل أحد أن الذي يعقل ويميز لو أراد أن يصيب غيره بجنون لم يقدر على ذلك، فكيف تقدر الأصنام التي لا عقل لها ولا تمييز. والاعتراء افتعال، من عراه يعروه إذا مسه وأصابه[1].

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي قال هود إني أشهد على نفسي واشهدوا أنتم أيضا أني بريء مما تشركون مع الله في العبادة. ولم يكن شهادته إياهم للاحتجاج بقولهم، وإنما هو للاحتجاج عليهم.

قوله تعالى: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ أي إن قدرتم على قتلي أنتم وآلهتكم أو على إنزال السوء بي فافعلوا ولا تمهلوني طرفة عين. ولم يقل هذا على جهة الأمر لهم، وإنما قاله لبيان عجزهم.

قوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم﴾ أي فوضت أمري إلى الله خالقي وخالقكم متمسكاً بطاعته وتاركاً لمعصيته، وهذا هو حقيقة التوكل على الله.

وقوله تعالى: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ أي ما من أحد إلا وهو في قهر الله وتحت قدرته. وإنما جعل الأخذ بالناصية كناية عن ذلك، لأنك إذا أخذت بناصية غيرك فقد قهرته وأذللته. والناصية: مقدم شعر الرأس.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أي إن ربي مع كونه قاهراً على صراط مستقيم، أي هو في تدبير عباده لا يفعل إلا الحق، فإنه عادل لا

(1) تفسير الطبري: 15/ 362.

يجور. ويقال معناه: إن طريق العباد على الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾[1].

قوله تعالى:

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ ۚ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿57﴾ وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿58﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿59﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿60﴾﴾

قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ أي فإن تولوا عن الإيمان فما هو لتقصير مني في إبلاغ الرسالة، ولكن لسوء اختياركم ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ أي يهلككم بعذاب الاستئصال ويستخلف بعد هلاككم قوماً غيركم أطوع منكم له ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ أي لا تقدرون على أن تنقصوا شيئاً من ملكه، وهو سبحانه لا يجوز عليه المضار.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ أي هو شاهد على أعمال العباد للمجازاة لا يخفى عليه شيء منها.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي لما جاء أمرنا بعقاب قوم هود بالريح العقيم نجينا هودا والمؤمنين به من ذلك العقاب برحمة منا، أي بما أريناهم من الهدى والبيان الذي هو رحمة ﴿وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد به أن نجاهم من الريح العقيم، إلا أنه أعاد ذكر النجاة للتأكيد وتفخيم الحال، ويحتمل أن يكون معناه: كما نجينا المؤمنين مما عذب به عاد في الدنيا، فكذلك نجيناهم من عذاب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ﴾ أي كذبوا بدلائل الله الدالة على وحدانيته وصدق أنبيائه، وعصوا هودا ومن قبله ومن بعده، لأنه

(1) سورة الفجر (89)، الآية: 14.

عليه السلام أرسل بتصديق من قبله، وبالبشارة بمن بعده، فلما كذبوه فقد كذبوا الرسل كلهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ أي أمر كل عات طاغ معرض عن الله.

قوله تعالى: ﴿وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةً﴾ أي اتبعوا بعد الإهلاك في هذه الدنيا بالإبعاد عليهم باللعن فتلعنهم الملائكة والناس ما دامت الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ أي يوم القيامة يبعدون من رحمة الله تعالى كما أبعدوا في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ﴾ أي جحدوا ربهم فأبعدهم من رحمته إبعادا، وفي هذا تهديد للكفار، كأنه تعالى قال انظروا يا أهل مكة كيف فعلت عاد؟ وكيف فعل بهم؟ فاحذروا أن يصيبكم مثل ما أصابهم.

قوله تعالى:

﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ (61) قَالُواْ
يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا
تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ (62) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ
رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ (63)﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ﴾ أي وأرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً في النسب فقال ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي أنشأ آباءكم كما قال في أخرى: وخلقكم من تراب. ﴿وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ أي أراد أن تكونوا عمار الأرض وسكانها، فمكنكم من عمارتها وأحوجكم إلى المسكن فيها. وقال مجاهد معناه: وإعمارها لكم، أي جعلها لكم مدة إعماركم، من العمرى وهي الهبة التي يهبها الرجل لغيره على أن تكون للموهوب له مدة حياته ثم ترجع إلى الواهب[1].

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 369 ـ البغوي، معالم التنزيل: 3/ 221.

قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ﴾ أي استغفروه من الشرك والذنوب ثم دوموا على التوبة، إن ربي قريب ممن تقرب إليه مجيب لمن دعاه وأطاعه. أراد بالقرب الإسراع بالرحمة والإجابة لأقرب المسافة.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ﴾ أي قد كنا نرجو فيك الخير قبل هذا اليوم لما كان فيك من الخلائق الحسنة والشمائل المرضية، والآن إن دعوتنا إلى غير دين آبائنا يئسنا منك ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ الألف ألف استفهام بمعنى الإنكار.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ أي لو أجبناك إلى ما تدعونا إليه على شك ظاهر، فإنا لا نعلم صدقك فيما تقول.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً﴾ أي قال يا قوم أخبروني إن كنت على برهان وحجة من ربي وآتاني منه نعمة ـ وهي النبوة ـ فمن يمنع عذاب الله عني إن عصيته مع نعمته علي، فما تزيدونني إن عصيت الله في اتباع دينكم إلا خسران الدنيا والآخرة.

قوله تعالى:

﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿64﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿65﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿66﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿67﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿68﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ أي دلالة ومعجزة على صدق قولي حيث أخرجتها لكم بإذن الله تعالى ناقة عشراء من صخرة ملساء كما سألتم. وقد تقدم تفسير ذلك في سورة الأعراف.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍ﴾ أي لما جاء أمرنا بالعذاب نجينا صالحاً من ذلك العذاب ونجينا

الذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ. الخزي: هو الذل الذي يستحيى منه، وهو ما نزل بهم في كل يوم من علامة الأشقياء من اصفرار وجوههم في اليوم الأول، واحمرارها في اليوم الثاني، واسودادها في اليوم الثالث[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي هو القادر على أخذ أعدائه، العزيز المنتقم ممن عصاه.

قوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ معناه: الذين ظلموا أنفسهم بالكفر، وقيل: الذين ظلموا الناقة. والصيحة: هي صيحة جبريل عليه السلام، صاح بهم صيحة هائلة عند صباح اليوم الرابع لم تحتملها قلوبهم فهلكوا. وإنما قال في هذه الآية: ﴿وَأَخَذَ﴾ وفي آية أخرى: ﴿وَأَخَذَتِ﴾[2] لأن الصيحة والصياح واحد، فرد الكناية مرة إلى الصياح ومرة إلى الصيحة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ أي ميتين قد همدوا رماداً جثوماً على الركب، ويقال: أصبحوا في بلادهم واقفين على وجوههم على الطرق.

وقوله تعالى: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي كأن لم يكونوا في الأرض قط.

قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ أي بربهم ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ أي أبعدهم الله من رحمته. وقرىء[3]: لثمود ـ بالكسر لقربها من قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟﴾ فمن صرفه جعله اسماً للحي، ومن لم يصرفه جعله اسماً للقبيلة.

١٠٩ ب

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿69﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿70﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ

(1) تفسير الطبري: 15/ 272.
(2) سورة هود (11)، الآية: 94.
(3) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع وعللها: 1/ 288.

إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿71﴾ قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿72﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿73﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ قال ابن عباس: وذلك أن جبريل ومن معه، اثنا عشر ملكاً جاءوا إلى إبراهيم ليبشروه بإسحاق من زوجته سارة، فلما دخلوا عليه ﴿قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي سلموا عليه سلاماً، وقيل: قالوا نسلم سلاماً وهو نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي أجابهم إبراهيم بأن قال: عليكم سلام. وإنما لم يقل عليكم سلاماً بالنصب لأنه لو كان كذلك لكان يتوهم أن إبراهيم عليه السلام حكى قول الملائكة: إنكم سلمتم سلاماً فخالف بينهما ليكون قوله جواباً لهم. ومن قرأ: سلم ـ بكسر السين، فالسلم والسلام بمعنى واحد[1]، كحل وحرم، مثل حلال وحرام.

قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ أي ما لبث إبراهيم أن جاء بعجل حنيذ محنوذ، أي مشوي. قال ابن عباس: الحنيذ النضج، وهو قول مجاهد وقتادة[2]. والحنيذ: شوي اللحم بالحجارة المحماة في شق الأرض، وهو من فعل أهل البادية. وقال مقاتل: إنما جاءهم بعجل لأنه كان أكثر ماله البقر. وقال الحسن: إنما جاءهم بالطعام لأنهم جاءوا على صورة الآدميين على هيئة الأضياف، ولم يكن شيء أحب إليه من الضيفان، ولو جاءوا على صورة الملائكة لم يكن يقدم إليه ذلك لعلمه باستغناء الملائكة عن الطعام.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ﴾ أي لما وضع الطعام بين أيديهم أنكرهم وأضمر في نفسه خوفاً منهم، قالوا لا تخف منا يا إبراهيم فإن الله أرسلنا إلى قوم لوط لنهلكهم.

---

(1) نفس المصدر: 1/ 288.
(2) تفسير الطبري: 15/ 384 ـ 385.

قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ﴾ معناه: وامرأته سارة كانت قائمة على رؤوسهم بالخدمة. ويقال: كانت قائمة من وراء الستر في حال محاورة إبراهيم مع الملائكة، قيل: إن سارة بنت عم إبراهيم عليه السلام[1]. وقوله تعالى: ﴿فَضَحِكَتۡ﴾ أي ضحكت من سرورها بالسلام، فزادوها بشارة بإسحاق عليه السلام. وقال السدي: إن إبراهيم قال لهم: ألا تأكلون؟ قالوا: إنا قوم لا نأكل إلا بثمن. قال: كلوا وأدوا ثمنه. قالوا: وما ثمنه؟ قال: أن تذكروا الله في أوله وتحمدوه في آخره. فنظر جبريل إلى من معه من الملائكة وقال: حق لهذا أن اتخذه الله خليلاً. فضحكت امرأته وقالت: عجباً لأضيافنا نخدمهم بأنفسنا مكرمة لهم وهم لا يأكلون طعامنا[2]. وقال قتادة: ضحكت لغفلة قوم لوط وقرب العذاب منهم، وقيل: ضحكت سروراً بالأمن منهم لما قالوا: لا تخف[3]، وقال عكرمة: ضحكت أي حاضت.

قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾. قرأ ابن عامر وحمزة: يعقوب - بالنصب[4]، على معنى: ووهبنا لها من وراء إسحاق يعقوب، وقيل: بنزع الخافض، أي وبشرناها من وراء إسحاق بيعقوب، فلما حذفت الباء نصب. وقال الزجاج: لا يجوز أن يكون ذلك في موضع خفض على ذلك، لأن الجار لا يفصل بينه وبين المجرور ولا بينه وبين العاطف إلا بإعادة حرف الجر، فلا تقول: مررت بزيد في الدار والبيت عمرو حتى تقول: وعمرو في البيت[5]. قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ﴾ قال المفسرون كان إبراهيم قد ولد له من هاجر إسماعيل وكبر وشب، فتمنت سارة أن يكون لها ابن وأيست من ذلك لكبر سنها، فبشرت على كبر السن بولد يكون نبياً ويلد نبياً. قوله تعالى: ﴿وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ قال الزجاج: بشروها بأنها تلد إسحاق، وأنها تعيش إلى أن ترى

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 389.
(2) ذكر الطبري في تفسيره: 15/ 389 - 390 قول السدي - وكذا البغوي في معالم التنزيل: 3/ 225.
(3) تفسير الطبري: 15/ 390 وما بعدها - وكذا البغوي في معالم التنزيل: 3/ 226.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 1/ 288.
(5) الزجاج، معاني القرآن: 3/ 62.

ولده[1]. ووراء ههنا بمعنى: بعد.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ لا يجوز أن يكون هذا على جهة الإنكار، فإن يا ويلتي كلمة تستعملها النساء عند وقوع أمر فضيع، فاستعملتها في هذا الموضع على جهة التعجب، ولهذا قالت: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ وأصله: يا ويلتي، فأبدلت من الياء الألف لأنها أخف من الياء والكسر. قال ابن عباس: كانت سارة بنت ثمان وتسعين سنة، وكان زوجها ابن مائة وعشرين، فتعجبت من أن يكون بين شيخين كبيرين ولد[2]. قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا﴾ أي هذا الذي تعرفونه بعلي. ثم قالت: شيخاً، أي انتبهوا له في حال شيخوخته، فهو نصب على الحال، وذهب الكوفيون إلى أنه نصب على القطع عن المعرفة إلى النكرة، كما يقال: خرج زيد راكباً.

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ أي قالت الملائكة أتعجبين من قدرة الله وأنت عارفة بأن الله قادر على كل شيء. قال السدي: أخذ جبريل عودا يابساً فدلكه بين أصبعيه فإذا هو أخضر يهتز، فعرفت أنه من الله[3].

قوله تعالى: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ معناه: نعمة الله عليكم في الدين والدنيا وخيراته النامية عليكم يا أهل البيت إبراهيم عليه السلام، إنه حميد لأعمالهم مجيد، أي كريم يكرمكم بالنعم. والكريم هو الذي يبتدىء بالنعمة قبل الإستحقاق، والمجيد الماجد وهو ذو الشرف والمجد والكرم.

قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿74﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿75﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ ۖ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿76﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿77﴾ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ

---

(1) المصدر نفسه.
(2) تفسير الطبري: 15/ 398.
(3) تفسير الطبري: 15/ 405.

بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنۡ إِبۡرَٰهِيمَ ٱلرَّوۡعُ﴾ أي الخوف والفزع ﴿وَجَآءَتۡهُ ٱلۡبُشۡرَىٰ﴾ أي بإسحاق، جعل يجادل رسلنا في قوم لوط. واختلفوا في هذه المجادلة فقال بعضهم: سألهم عن سبب تعذيب الله لهم سؤال مستقضي حتى قالوا: إن الله أمرنا باستئصالهم أو بتخويفهم بالعقاب، وحتى قال: إن فيها لوطا. وقال بعضهم: أراد بالمجادلة الدعاء والتضرع وشدة الحرص على نجاة القوم رجاء لإيمانهم كما روي أن إبراهيم عليه السلام قام من الليل يصلي وهو يقول: يا رب أتهلك قوم لوط؟ قيل: يا إبراهيم ليس فيهم مؤمنون. قال: يا رب فإن كان فيهم خمسون أهل بيت مؤمنون أتهلكهم؟ قيل: لا. قال: أو أربعون؟ قيل: لا فلم يزل يردد حتى قيل: إن كان فيهم خمسة أبيات مؤمنين رفعنا البلاء عنهم. يقول الله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾[1]. قيل: لما جادلهم إبراهيم عليه السلام قال له الرسل: يا إبراهيم أعرض عن هذا الجدال فإنه قد جاء أمر ربك بعذابهم، وإنهم آتيهم عذاب غير مردود.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ أي وقور بطيء الغضب. والحليم: المحتمل للأذى مع قدرته على العقوبة والمكافأة. والأواه: الدعَّاء، ويقال: الرحيم، ويقال: المتأوه خوفاً وأسفاً على الذنوب. والمنيب: هو الراجع إلى الله.

قوله تعالى: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ﴾ أي عن جدالك إنه قد جاء أمر ربك بهلاكهم، وإنهم آتيهم عذاب غير منصرف عنهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا﴾ يعني لما جاءت الملائكة لوطا ساءه مجيئهم وضاق لمجيئهم قلبه، فإنهم جاءوه في صورة الغلمان المرد الحسان، وكان قد علم عادة قومه، فخاف عليهم من صنع قومه وقال في نفسه: ﴿هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾ أي شديد لازم شره كالمعصوب بالعصابة،

---

(1) سورة الذاريات (51)، الآية: 36.
الطبري في تفسيره: 15: 405.

كأنه قال: هذا يوم أليف الشر فيه بالشر. وأما ضيق الذرع فيوضع موضع ضيق الصدر. يقال: ضاق فلان بأمره ذرعاً إذا لم يجد من المكروه في ذلك مخلصاً، وقيل معناه: ضاق بهم وسعاً، وكان لوط ضاق وسعه بهم أن يحفظهم.

وفي الخبر أنه جعلهم فيما بين مواشيه، فلما كان في وقت غفلة الناس حملهم إلى داره، فذهبت امرأته الخبيثة وأخبرت بهم وقالت لهم: إنه قد نزل عند لوط أضياف لم ير قط أحسن وجوهاً منهم ولا أطيب ريحاً ولا أنظف ثياباً.

قوله تعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وذلك أن امرأة لوط لما أخبرتهم بأضيافه جاءوا إلى داره يسرعون إليه ويهرولون هرولة. والإهراع: مشية بين مشيتين، ومن قبل ذلك كانوا يعملون المعاصي[1]، وهي ما كانوا يعملون من الفاحشة مع الذكور، فإنهم كانوا يعملون ذلك دون أن يخفي بعضهم عن بعض. قال لهم لوط عليه السلام: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ عرض عليهم بناته نكاحاً، وأظهر في نفسه من صونهم لا شيء أبلغ منه إظهار كرامة في باب الأضياف، فذكر بناته ليدل بذلك على الشديد في دفعهم عما أرادوا، فكان يجوز في ذلك الوقت تزويج المسلمة من الكافر كما كان يجوز في شريعتنا في ابتداء الإسلام، فإن النبي ﷺ زوج ابنته[2] من أبي العاص ابن الربيع. ويقال: أراد بقوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى﴾ بنات قومه، لأن النبي يكون للقوم بمنزلة الوالد.

قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ أي اتقوا عقاب الله ولا تلزموني عيباً في ضيفي ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ في نفسه فينزجر عن هذا الأمر ويزجر الآخرين عنه.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿80﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 415.

(2) زينب بنت الرسول ﷺ، بنت خديجة، وكانت متزوجة ابن خالتها هالة (أبو العاص بن الربيع) ثم أسلمت قبله وهاجرت إلى المدينة، وبعد ذلك أسلم ولحق بها، فأقره الرسول ﷺ على الزواج السابق.
الطبقات الكبرى: 8/ 25.

إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (81) فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ (82) مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ (83)﴾.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي من حاجة وإنك لتعلم ميلنا إلى الغلمان دون النساء.

قوله تعالى: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ أدفعكم بها عن أضيافي أو يمكنني أن آوي إلى قبيلة أستعين بها على دفعكم لمنعتكم أشد المنع عما تحاولون. وعن رسول الله ﷺ قال: «**يرحم الله أخي لوطا لقد آوى إلى ركن شديد**»[1]، أي التجأ إلى الله وملائكته. وقال ابن عباس: فلما علم جبريل والملائكة خوف لوط من تهديد قومه، وقد كان لوط أغلق الباب على نفسه وعلى الملائكة وهو يناشد قومه، قال له جبريل: يا لوط إن ركنك لشديد ﴿وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَۖ﴾ فافتح الباب ودعنا وإياهم. ففتح الباب فدخلوا، فقام جبريل في الصورة التي يكون فيها في السماء فنشر جناحه وضرب به وجوههم فطمس أعينهم وأعماهم، فصاروا لا يعرفون الطريق ولا يهتدون إلى بيوتهم[2]، فقال لوط عليه السلام: متى موعد هلاكهم؟ قالوا: الصبح. قال: أريد أسرع من ذلك. قالوا: أليس الصبح بقريب؟ وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾[3] ثم قالوا له: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ وفيه قراءتان: فاسر - بالهمز والوصل، يقال: سرى وأسرى بمعنى واحد[4].

قوله تعالى: ﴿بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي في آخر الليل عند السحر والهدوء. وقال الضحاك: بقطع أي ببقية. وقال قتادة: بعدما مضى صدره. ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ

(1) أخرجه البخاري في صحيحه بشرح العسقلاني: 7/ 74، رقم: 3387، كتاب أحاديث الأنبياء.
(2) تفسير الطبري: 15/ 427.
(3) سورة القمر (54)، الآية: 37.
(4) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 1/ 291.

﴿مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو: امرأتك ـ رفعاً على الاستثناء من الالتفات، أي ولا يلتفت أحد إلا امرأتك فإنها تلتفت فتهلك، وقرأ الباقون بالنصب على الاستثناء من الإسراء[1] أي فاسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها وخلفها مع قومها.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ ظاهر المعنى.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ أي قالت الملائكة إن وقت إهلاكهم الصبح. فقال لوط: الآن يا جبريل. وإنما قال ذلك لضيق صدره منهم، وشدة غيظه عليهم، فقال جبريل: أليس الصبح بقريب؟ وفي هذا بيان أن الله لا يهلك أحداً قبل انقضاء مدته وإن ضاقت صدور أوليائه عنه. وعن ابن عباس أن جبريل لما قال للوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ فقال لوط: يا جبريل كيف أصنع وأبواب المدينة قد أغلقت. فجمع له جبريل أهله وبقره وغنمه وماله واحتملهم على جناحه حتى أخرجهم من المدينة، فانطلق بهم متوجهاً إلى صغوه، وهي على أربعة فراسخ من مداين لوط، وهي إحدى القرى الخمس: سدوم، ودادوماء، وعاموراء، وقثم. ولم يكن أهل صغوه يعملون عملهم، وكان في كل مدينة ألف مقاتل. فما سار لوط فرسخين حتى سمع الصيحة. كما روي أن جبريل عليه السلام جعل جناحه في أسفلها فرفعها من الأرض السابعة إلى السماء حتى سمع أهل السماء نباح الكلاب وصياح الديكة، ثم قلبها وجعل أسفلها أعلاها، وأعلاها أسفلها وأقبلت تهوي من السماء إلى الأرض، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾. قال وهب: لما رفعت إلى السماء أمطر الله عليهم حجارة الكبريت بالنار ثم قلبت عليهم.

قوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ قيل أمطر الله الحجارة على شذاذهم ومسافريهم[2]. واختلفوا في السجيل: فقيل هو فارسية معربة، وفيه بيان أن تلك الحجارة كانت شديدة صلبة نحو ما يطبخ من الطين فيصير كالآجر

---

(1) المصدر نفسه.

(2) تفسير الطبري: 15/ 428.

وأصلب منه، يدل عليه قوله تعالى: ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾[1]، وقال بعضهم: هو من السجيل وهو الإرسال، فيكون معناه: حجارة مرسلة، ويقال السجيل: سماء الدنيا، وقيل السجيل والسجين: الشديد من الحجر.

قوله تعالى: ﴿مَّنضُودٍ﴾ أي بعضها فوق بعض.

وقوله تعالى: ﴿مُّسَوَّمَةً﴾ أي معلمة بعلامة المعاقبين[2]. وكانت مخططة بالسواد والحمرة والبياض، وقيل: كان مكتوب على كل حجر اسم من هلك به.

وقوله تعالى: ﴿عِندَ رَبِّكَ﴾ أي علمتها الملائكة في السماء بأمر الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ أي وما تلك الحجارة من ظالمي أمتك ببعيد. وعن ابن عباس أنه قال: لا والله لا تذهب الليالي والأيام حتى تستحل هذه الأمة أدبار الرجال كما استحلوا النساء، ولا تذهب الليالي والأيام حتى تصيب طوائف من هذه الأمة حجارة من عند ربك.

قوله تعالى:

﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿84﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿85﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿86﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿87﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ أي وأرسلنا إلى ولد مدين بن إبراهيم أخاهم في النسب.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ أي لا تنقصوا حقوق الناس عند الكيل والوزن عليهم ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ أي أراكم في الخصب والرخص

(1) سورة الذاريات (51)، الآية: 33.
(2) تفسير الطبري: 15/ 438.

ما أوفيتم الناس حقوقهم. وقيل معناه: أراكم في كثرة من الأموال وأنتم مستغنون عن نقصان الكيل والوزن ﴿وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ﴾ أي عذاباً يحيط بكم فلا يفلت منكم أحد.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُواْ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ أي بالعدل. ﴿وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ﴾ أي لا تنقصوهم حقوقهم ﴿وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ أي لا تضطربوا في الأرض بالقبيح مفسدين بالمعاصي.

قوله تعالى: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ معناه: ما أبقاه الله لكم من الحلال بعد إتمام الكيل والوزن خير لكم مما حرم عليكم من البخس والتطفيف إن كنتم مصدقين ما أقوله لكم. ويقال: أراد بالبقية: طاعة الله فإنها هي التي يبقى ثوابها.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾ أي لم أوكل بحفظهم فأقاتلكم وأمنعكم.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ أي قالوا يا شعيب أكثرة صلواتك التي تفعلها تأمرك أن نترك عبادة ما يعبد آباؤنا، وتأمرك أن تأمرنا بأن لا نفعل في أموالنا ما نشاء. وقال عطاء: معنى قوله: ﴿أَصَلَوٰتُكَ﴾ أي دينك يأمرك. يكنى عن الدين بالصلاة لأنها من أمر الدين وكان شعيب كثير الصلاة، فلذلك قالوا هذا.

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ أي السفيه الجاهل، فذكروا الحليم الرشيد على جهة الاستهزاء[1]. كذا روي عن ابن عباس. ويقال: قالوا ذلك على جهة التحقيق: إنك لأنت الحليم الرشيد في قومك، فكيف تنهانا عن عبادة ما عبده آباؤنا، وعن أن نفعل في أموالنا ما نشاء من البخس والتطفيف. كأنهم استبعدوا أن يكون آباؤهم قد اخطأوا في دينهم ورأيهم.

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 453.

قوله تعالى:

﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنۡهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَمَآ أُرِيدُ
أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ
عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (88) وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ
نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ (89) وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ
ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ وَدُودٞ (90)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ أي قال لهم شعيب أخبروني إن كنت على دلالة واضحة من ربي ورزقني منه رزقاً حسناً. قيل: أراد به النبوة فإنها أعظم نعم الله تعالى.

وقيل: أراد به المال الحلال. قال ابن عباس: كان شعيب عليه السلام كثير المال كثير الصلاة[1]. وقيل معنى قوله: ﴿رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ أي علما ومعرفة. وأما جواب قوله: ﴿إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي﴾ فمحذوف تقديره: إن كنت على بينة من ربي ورزقني المال الحلال أتبع الضلال فأبخس، وأطفف، وأشوب الحلال بالحرام كما تفعلون.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾ أي ما أريد أن تتركوا ما نهيتكم عنه لأعمل أنا به فأنتفع. والمعنى: ألست أنهاكم عن شيء ثم أدخل فيه ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾ أي ما أريد إلا الإصلاح في أمر الدين والمعاش بقدر استطاعتي.

قوله تعالى: ﴿وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ﴾ أي ما توفيقي للإصلاح إلا من الله. والتوفيق من الله: هو كل فعل يتفق من العبد عنده اختيار الطاعة والصلاح، ولولاه لكان يختار خلاف ذلك.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ أي فوضت أمري إلى الله.

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾ أي أرجع.

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 235.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثۡلُ مَآ أَصَابَ قَوۡمَ نُوحٍ أَوۡ قَوۡمَ هُودٍ أَوۡ قَوۡمَ صَٰلِحٖۚ﴾ أي يا قوم لا تكسبنكم عداوتي أن لا تؤمنوا فيصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح من الغرق، أو قوم هود من الريح العقيم، أو قوم صالح من الصيحة. ﴿وَمَا قَوۡمُ لُوطٖ مِّنكُم بِبَعِيدٖ﴾ أي قد بلغكم ما أصابهم وهم أقرب إليكم ممن تقدمهم. يجوز أن يكون المراد بذلك قرب زمانهم منهم، ويجوز أن يكون المراد به قرب ديارهم منهم، وكان ذلك أقرب إلى الاعتبار[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ﴾ أي استغفروه من الشرك والذنوب، ثم توبوا إليه بإخلاص ﴿إِنَّ رَبِّي رَحِيمٞ﴾ بعباده متودد إليهم بالنعم وقبول التوبة.

قوله تعالى:

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ (91) قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ (92) وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ (93)﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أي ما نفهم كثيراً مما تقول قال ابن الأنباري معناه: ما نفقه صحة كثير مما تقول، يعنون من التوحيد والبعث وما يأمرهم به من الزكاة وترك البخس. والفقه: هو استدراك معنى الكلام.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ﴾ قال ابن عباس: أراد بالضعف أنه ضرير البصر. وقال ابن جبير معناه: إنا لنراك أعمى. وقد روي أنه كان قد ذهب بصره من كثرة بكائه من خشية الله تعالى. وفي بعض الروايات أنه قد عمي ثلاث مرات، وكان الله تعالى يرد عليه بصره حتى أوحى إليه: يا شعيب ما هذا البكاء؟

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 456.

قال: شوقاً إليك يا رب. وسئل النبي ﷺ عن شعيب قال: **«ذلك خطيب الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين»**[1].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أي لولا عشيرتك لقتلناك بالحجارة ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ أي إنا لا ندع قتلك لعزتك علينا ولكن لأجل قومك. والمعنى: لست تمتنع علينا أن نقتلك لولا ما نراعي من حق عشيرتك.

قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِىٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي إنكم تزعمون أنكم تتركون قتلي إكراماً لرهطي، والله تعالى أولى بأن يتبع أمره، أي إنكم تركتم قتلي لأجل عشيرتي ولا تتركونه لأجل الله.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ أي نبذتم أمر الله وراء ظهوركم. ﴿إِنَّ رَبِّى بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ أي عليم لا يعزب عنه علم شيء. والظهري: ما ينبذه الإنسان وراء ظهره.

قوله تعالى: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ﴾ على ديني. وهذا على سبيل التهديد والوعيد. والمكانة والمكان بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي يذله ويهينه، ويعلمون من هو كاذب على الله. ﴿وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ أي انتظروا إني منتظر معكم.

قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (94) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (95)﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ أي نجينا شعيبا من ذلك العذاب، ونجينا الذين آمنوا معه برحمة منا ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ

(1) المرجع السابق.

ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ يعني من قوم شعيب. يقال: إن جبريل صاح بهم صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ أي ميتين ساقطين صرعى، وقيل: بل واقعين على ركبهم[1]. ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ﴾ أي كأن لم يكونوا في الأرض قط.

قوله تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ معناه: ألا سحقاً وهلاكاً لقوم شعيب كما هلكت ثمود. وإنما شبههم لأن الصيحة كانت سبباً في هلاك الفريقين جميعاً. قال ابن عباس: وذلك أن مدين أصابهم حر شديد ولم يتحرك الريح ليلاً ولا نهاراً، وكان يحرقهم بالليل حر القمر وبالنهار حر الشمس، فنشأت لهم سحابة كهيئة الظلة فيها عذابهم فأتوها يستظلون تحتها ويطلبون الروح، فسال عليهم من فوقهم، ورجفت الأرض من العذاب، وأحرقتهم السحابة، وذلك قوله تعالى: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[2] قال: ولم يعذب أمتان بعذاب واحد إلا قوم شعيب وصالح: فأما قوم صالح فأخذتهم الصيحة من تحتهم، وأما قوم شعيب فأخذتهم الصيحة من فوقهم.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿96﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿97﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿98﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿99﴾﴾

قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي أرسلنا موسى بدلائلنا. والآية: العلامة التي فيها العبرة. قوله تعالى: ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي وحجة بينة مسلطة على إبطال الفاسد.

وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦ﴾ أي إلى فرعون وأشراف قومه

(1) المصدر السابق.
(2) سورة الشعراء (26)، الآية: 189.

﴿فَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي اتبعوا قوله وتركوا أمر الله. ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي ما هو بصائب إلا أنهم اتبعوه وخالفوا أمر موسى.

قوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي يمشي أمام قومه يوم القيامة حتى يهجم بهم على النار وإنما يمشي أمام قومه يوم القيامة لأنهم اتبعوه في الدنيا حتى هداهم إلى طريق النار، فكذلك يمشي بهم في الآخرة حتى يدخل بهم النار. وأما عطف الماضي الذي هو ﴿فَأَوْرَدَهُمُ﴾ على المستقبل فهو على معنى: فهو إذا أقدمهم أوردهم النار. وإنما قال: يقدم، ولم يقل: يسبق، لأن قوله: يسبق قومه، لا يدل على أنه يمشي بين أيديهم. قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ أي بئس القوم المورود بهم إلى النار. وقيل معناه: بئس الوقت المورود فيه إلى النار. والورد في الحقيقة: إنما يستعمل في الماء كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾[1] ولكن لما كان فرعون وقومه في الآخرة يكونون عطاشاً ويردون على ما بهم من العطش، فاستعمل فيهم هذه اللفظة.

قوله تعالى: ﴿وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَـٰذِهِۦ لَعْنَةً﴾ أي وأتبعهم الله في الدنيا لعنة بإبعادهم عن الرحمة بالغرق ويوم القيامة لهم لعنة أخرى وهي النار، بئست اللعنة على أثر اللعنة ترادفت عليهم اللعنتان: الغرق في الدنيا، والنار في الآخرة. والرفد في اللغة: هو العون على[2] الأمر. إلا أن العطية تسمى رفداً لما فيها من العون كأنه قال: بئس العطاء ما أعطوا. وقال بعضهم: هذا من المقلوب، أي بئس الردف المردوف. فالردف: لعنة الله إياهم، والمردوف: لعن الأنبياء والمؤمنين[3].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿100﴾ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن

(1) سورة القصص (28)، الآية: 23.
(2) في النسخة (ف)، في الأمر.
(3) تفسير الطبري: 15/469 ـ 470.

شَيْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿101﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿102﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿103﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿104﴾﴾

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿100﴾﴾ أي ذلك الذي ذكرت لك يا محمد من أخبار الأمم الماضية ينزل به عليك جبريل عليه السلام نقصصهم عليك مرة بعد مرة. والقصص مأخوذ من إتباع الشيء بالشيء. قوله تعالى: ﴿مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ﴾ أي منها قائم الأبنية وقد باد أهله كما قال تعالى: ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[1] والحصيد: ما هلك بأهله فلا يبقى له مكان ولا أثر، نحو مدائن قوم لوط حصدت من الأرض السفلى. والمعنى: منها قائم بقيت حيطانه، ومنها حصيد مخسوف به قد امحى أثره. وقال ابن عباس: قائم ينظرون إليه وإلى ما بقي من أثره، وحصيد قد خرب ولم يبق له أثر، شبه بالزرع إذا حصد[2].

قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ أي ما ظلمناهم بإهلاكهم ولكن ظلموا أنفسهم بسوء اختيارهم فما أغنت عنهم آلهتهم، أي فما نفعتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله لما جاء أمر ربك بالعذاب ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي تخسير. ومنه ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿1﴾﴾[3] أي خسرت يداه وخسر هو.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾ معناه: كما أخذ ربك فرعون ومن تقدمه من الكفار فكذلك يكون أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي كافرة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ ظاهر المعنى.

---

(1) سورة الحج (22)، الآية: 45.
(2) تفسير الطبري: 15/ 471.
(3) سورة المسد (111)، الآية الأولى.

وقوله تعالى: ﴿وَهِىَ ظَالِمَةٌ﴾ من صفة القرى، وهي في الحقيقة لأهلها وسكانها، ونحو هذا قوله: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[1].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي إن في ذلك لعبرة لمن خاف عذاب الآخرة فلا يقتدى بهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ﴾ معناه: إن يوم القيامة يوم يجمع فيه الأولون والآخرون.

وقوله تعالى: ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض.

قوله تعالى: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿104﴾﴾ أي ما نؤخر ذلك اليوم إلا لأجل معدود قد عده الله وعلم أن صلاح الخلق في إدامة التكليف عليهم إلى ذلك الأجل.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿105﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿106﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿107﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿108﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿109﴾﴾

قال أبو بكر الحداد: قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ من قرأ: يأتي - بإثبات الياء، فعلى الأصل، ومعناه: يوم يأتي ذلك اليوم لا تتكلم نفس في الشفاعة إلا بأمر الله، ويقال: لا يجتزىء أحد أن يتكلم بالاحتجاج وإقامة العذر من هيبة الله إلا بإذنه، ومن قرأ: يأت - بغير ياء، وهي لغة هذيل، وهكذا في مصحف عثمان رضي الله عنه. تقول العرب: لا أدر، ولا أمض فتحذف الياء ويجتزىء بالكسر[2].

قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي من الناس يومئذ شقي وسعيد.

---

(1) سورة الأنبياء (21)، الآية: 11.

(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات: 338 ـ 339.

قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ﴾ أي فأما الذين كتبت عليهم الشقاوة ففي النار، وقال بعضهم: شقوا بفعلهم، وقال بعضهم: شقوا في بطون أمهاتهم، فأشقى أحد بفعله إلا بعد ما شقي في بطن أمه، وما شقي في بطن أمه إلا بسابق علم الله فيه، وإنما يلحقه اللوم بالشقاوة المحترجة لا بالشقاوة المعلومة، وكذلك السعادة على هذه الجملة.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ الزفير: شدة الأنين في الصدر. والشهيق: الأنين الشديد المرتفع نحو الزعقة التي تكون في شدة الكرب والحزن وربما تتبعها الغشية ومن هذا قالوا: إن الزفير أول صوت شهيق الحمار، والشهيق: آخر صوت نهيقه. وسمي رأس الجبل شاهق لارتفاعه.

قوله تعالى: ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أي دائمين ما دامت السماوات والأرض. قال بعضهم: أراد بذلك مقدار السماء الدنيا وأرضها، وذلك أن العرب إذا أرادت تأكيد التأكيد قالت: ما دامت السماوات والأرض، وما لاح كوكب، وما أضاء القمر، وما اختلف الجديدان. لا يريد بذلك الشرط وإنما يريد به التأكيد والتبعيد.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ أي سوى ما شاء ربك من الخلود بعد مضي مقدار سماء الدنيا وأرضها. وقال بعضهم: معنى الآية: ما دام سماء النار وأرضها وسماء الجنة وأرضها. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ﴾ مذكور على وجه التأكيد أيضاً.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يشاء.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِى ٱلْجَنَّةِ﴾ من قرأ: سعدوا ـ بضم السين، فمعناه: رزقوا السعادة، وممن قرأ ذلك أهل الكوفة[1].

قوله تعالى: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ أي أعطاهم النعيم عطاء غير مجذوذ، أي غير مقطوع.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ﴾ أي فلا تك أيها الشاك في مرية مما يعبد

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات: 1/ 293.

هؤلاء من دون الله أنه باطل. والمرية: هي الشك مع ظهور دلائل التهمة.

قوله تعالى: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم﴾ معناه: ما يعبدون إلا على جهة التقليد لآبائهم.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ﴾ أي حظهم من العذاب غير منقوص عن مقدار ما استحقوه، أيأسهم الله بهذا القول عن العفو. وقيل: أراد بالنصيب الأرزاق والآجال وما قدر لهم في دنياهم.

قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿110﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿111﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿112﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿113﴾﴾.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ أي ولقد أعطينا موسى الكتاب فصدق به بعضهم وكذب به بعضهم ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ أي لولا وعد الله سبق بإبقاء التكليف على الخلق إلى وقت فناء الدنيا لما علم من المصلحة وفي إبقاء التكليف عليهم إلى ذلك الوقت لقضى بتعجيل العقاب لمن استحق العقاب في الدنيا وبتعجيل الثواب لمن استحق الثواب في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإنهم لفي شك من القرآن يريبهم أمره.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ وإن كلا الفريقين المصدق والمكذب جميعاً يجمعان يوم القيامة فيوفيهم ربك جزاء أعمالهم على التمام، إنه بما يعملون وبما استحقوه من الجزاء خبير. قرأ ابن كثير ونافع: وإن كلا لما - كلاهما بالتخفيف وقرأ أبو عمرو والكسائي: وإن كلا - بالتشديد، لما - بالتخفيف، وقرأ أبو بكر عن عاصم: وإن - مخففة، لما - مشددة، والباقون:

كلاهما بالتشديد[1]. فحجة أبي عمرو والكسائي أن اللام من قوله: لما لام التأكيد دخلت في خبر إن، واللام التي في ﴿لَيُوَفِّيَنَّهُمْ﴾ لام القسم، تقديره: والله ليوفينهم، ودخلت «ما» للفصل بين اللامين. وأما حجة نافع، وابن كثير في نصب قوله: كلا، ما قال سيبويه أنه سمع من العرب من يقول: إن عمرا لمنطلق، فيخففون، ويعملونها، وأنشد الشاعر:

وصدر مشرق النحر ∴ كأن ثدييه حقان[2]

والمعنى على قراءة أبي عمرو: وإن كلا من السعيد والشقي ليوفينهم ربك أعمالهم. و«ما» زائدة في قوله تعالى: ﴿لَمَا﴾، ومن خفف «إن» كان معناه معنى المشددة، تقول إن زيداً لقائم، وإن زيداً لقائم، تريد إثبات قيامه. فإذا قلت: إن زيد قائم فمعناه: ما زيد قائم، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ﴾[3] بتخفيف «لما» تقديره: لعلها حافظ، ومن خفف «إن» وشدد «لما» فتأويله الجحد والتحقيق، أي ما كل إلا ليوفينهم، ونصب «كلا» على هذا التأويل ليوفنهم لا بـ «إن».

قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾ أي استقم يا محمد في التمسك بطاعة الله تعالى كما أمرت، وليستقم من تاب معك من الشرك، ولا تطغوا بمجاوزة أوامر الله تعالى إنه بما تعملون من الخير والشر بصير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي لا تميلوا إلى الذين ظلموا بالإنس بهم والمحبة لهم والرضا بفعلهم. وقال السدي معناه: ولا تداهنوا الظلمة. وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم. وقال عكرمة: هو أن يحبهم. وقال قتادة: ولا تلحقوا بالمشركين[4].

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات السبع: 1/ 294.

(2) هذا البيت من شواهد سيبويه التي لا يعرف قائلها.
(سيبويه، الكتاب: 1/ 281 ـ أمالي ابن الشجري: 1/ 137 ـ شرح المفصل، لابن يعيش: 8/ 72، الخزانة: 4/ 358).

(3) سورة الطارق (86)، الآية: 4.

(4) تفسير الطبري: 15/ 500 ـ 501.

وقوله تعالى: ﴿فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي فتصيبكم كما تصيبهم ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من أعوان يدفعون عنكم عذاب الله ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ على أعدائكم، لأن الله تعالى إنما ينصر المطيعين.

قوله تعالى:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿114﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿115﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿116﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ﴾ أي وقت الغداة والعصر ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾ أي ساعة بعد ساعة من الليل، يعني صلاة المغرب والعشاء. والزلف جمع الزلفة وهي الساعة القريبة من أول الليل، ويقال: إن صلاة الظهر داخلة في قوله: طرفي النهار لأنها لا تقام إلا بعد الزوال، فإذا زالت فقد دخل الطرف الآخر خصوصاً إذا اعتبر النهار من طلوع الفجر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي إن الصلوات الخمس يذهبن الصغائر، كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما اجتنبت الكبائر**»(1). وقيل معناه: إن التوبة تكفر عقاب السيئات، وقيل: أراد بالحسنات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ﴾ أي ذلك الخطاب تذكير للذاكرين الذين يذكرون أوامر الله ويأخذون بها، ويذكرون نواهيه فيجتنبون معاصيه. وعن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في رجل تمار يقال له عمرو بن غزية الأنصاري، أتته امرأة تبتاع تمرا فأعجبته فقال: إن في البيت تمرا أجود منه،

---

(1) رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 3/ 117، باب فضل الوضوء، والصلاة عقبه - وابن ماجه في سننه: 1/ 196 - والبغوي في سننه: 2/ 177، فضل الصلوات الخمس.

فانطلقي معي حتى أعطيك منه. فانطلقت معه، فلما دخلت البيت وثب عليها فلم يترك شيئاً مما يفعله الرجل بالمرأة إلا وقد فعله، إلا أنه لم يجامعها، يعني أنه ضمها وقبلها وحذف شهوته، فقالت له: اتق الله. فتركها وندم، ثم اغتسل وأتى إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله ما تقول في رجل راود امرأة عن نفسها ولم يبق شيئاً مما يفعله الرجال بالنساء غير أنه لم يجامعها؟ فقال له عمر: لقد سترك الله لو سترت على نفسك. ولم يرد عليه رسول الله ﷺ شيئاً وقال: «**ما أدري ما أرد عليك حتى يأتي فيك شيء**». فحضرت صلاة العصر، فلما فرغ رسول الله ﷺ من الصلاة نزل جبريل بتوبته بهذه الآية، فقرأها رسول الله ﷺ، فقال عمر: يا رسول الله أخاص له أم عام؟ فقال: «**بل عام للناس كلهم**»[1].

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ﴾ أي فهلا كان من القرون الماضية، وقيل: فلولا كان من القرون من قبلكم ذو تمييز ينهون عن المعاصي في الأرض، أي لماذا أطبقوا كلهم على المعصية حتى استحقوا بذلك عذاب الاستئصال. والبقية في اللغة: ما يمدح به الإنسان، يقال: فلان في بقية، وفي بني فلان بقية.

قوله تعالى: ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وهم الأنبياء عليهم السلام والصالحون، فأنجيناهم من العذاب.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ﴾ أي اقبلوا على ما خلفوا في دنياهم، واستغنوا بذلك عن طاعة الله تعالى، فلم ينتهوا عن الفساد، وعتوا عن أمر الله، وآثروا الدنيا وبطروا وكانوا مجرمين، أي وكانوا مذنبين بترك الأمر بالمعروف.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿117﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿118﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿119﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا

---

(1) الواحدي، أسباب النزول: 217 ـ البغوي، معالم التنزيل: 3/ 247 ـ رواه مسلم في صحيحه بشرح النووي: 17/ 80 ـ وأبو داود في سننه: عون المعبود: 12/ 164، رقم: 4444.

نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿120﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟
عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿121﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿122﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ
ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿123﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿117﴾﴾ أي لم يكن ليهلك أهل القرى بظلم منه عليهم إذا كان أهلها مصلحون، ولكن إنما كان إهلاكهم بظلمهم لأنفسهم. وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن معناه: ما كان ليهلك أهل القرى بشركهم وهم مصلحون يتعاطون الحق بينهم، أي ليس من سبيل الكفار إذا قصدوا الحق في المعاملة وترك الظلم أن ينزل الله بهم عذابا يهلكهم. والمعنى: ما كان الله ليهلكهم بشركهم وهم مصلحون ما بينهم، لا يتظالمون ويتعاطون الحق بينهم، وإنما يهلكهم إذا تظالموا[1]، لأن مكافأة الشرك النار، أي إنما يهلكهم بزيادة المعصية على الشرك كما في قوم لوط، وقوم صالح، وقوم موسى وغيرهم.

قال أبو بكر الحداد:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةًۖ﴾ أي لجعلهم كلهم على دين الإسلام، ولكن علم أنهم كلهم ليسوا بأهل لذلك، وقيل: لو شاء لألجأهم إلى الإيمان فآمنوا كلهم ضرورة، ولكن لو فعل ذلك لزال التكليف.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ أي في الدين، على أديان شتى من يهودي، ونصراني، ومجوسي وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَۚ﴾ أي إلا من عصم ربك من الباطل والأديان المختلفة بأن لطف به ووفقه للإيمان المؤدي إلى الثواب، فهو ناج من الاختلاف بالباطل.

قوله تعالى: ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْۗ﴾ أي وللرحمة خلقهم، أي لكن يؤمنوا فيرحمهم، وقيل معناه: وللاختلاف خلقهم، فيكون اللام في هذا اللام العاقبة.

---

(1) تفسير الطبري: 15/ 530.

قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ أي من كفار الجن والإنس.

قوله تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ أي كل القصص وكل ما تحتاج إليه نبينه لك من أخبار الرسل ما يطيب ويسكن به قلبك ليزيدك يقيناً ويقوى به فؤادك. وذلك أن النبي ﷺ كان إن ضاق صدره بما يكون من أذى قومه كان الله يقص عليه شيئاً من أخبار الرسل المتقدمين مع أممهم ليثبت به فؤاده.

قوله تعالى: ﴿وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ﴾ أي في هذه السورة الصدق من أقاصيص الأنبياء والمواعظ وذكر الجنة والنار. وخصت هذه السورة بمجيء الحق فيها تشريفاً لها ورفعاً لمنزلتها. وقيل أراد بقوله: في هذه الدنيا، والموعظة: تعريف القبيح للزجر عنه وتعريف الحسن للترغيب فيه. والذكرى: هي الذكر.

قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ أي اثبتوا على ما أنتم عليه كثبات الرجل على مكانه، وهذا ذكر على وجه التهديد، وانتظروا ما يعدكم الشيطان فإنا منتظرون ما وعد الله بنا، ونزول ما وعد الله بكم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له ما غاب عن العباد في السموات والأرض، وإليه يرجع أمر العباد كله، فأطعه وفوض أمورك إليه ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أي يجزىء المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته. وقرىء: تعملون ـ بالتاء، على معنى: قل لهم ذلك(1). وعن رسول الله ﷺ قال: «**من قرأ سورة هود أعطي من الأجر بعدد من صدق نوحاً، وهودا، وشعيبا ولوطا، وصالحا، وإبراهيم، وموسى ومن كذبهم عشر حسنات، وكان عند الله يوم القيامة من السعداء**».

---

(1) ابن خالويه، إعراب القراءات وعللها: 1/ 296